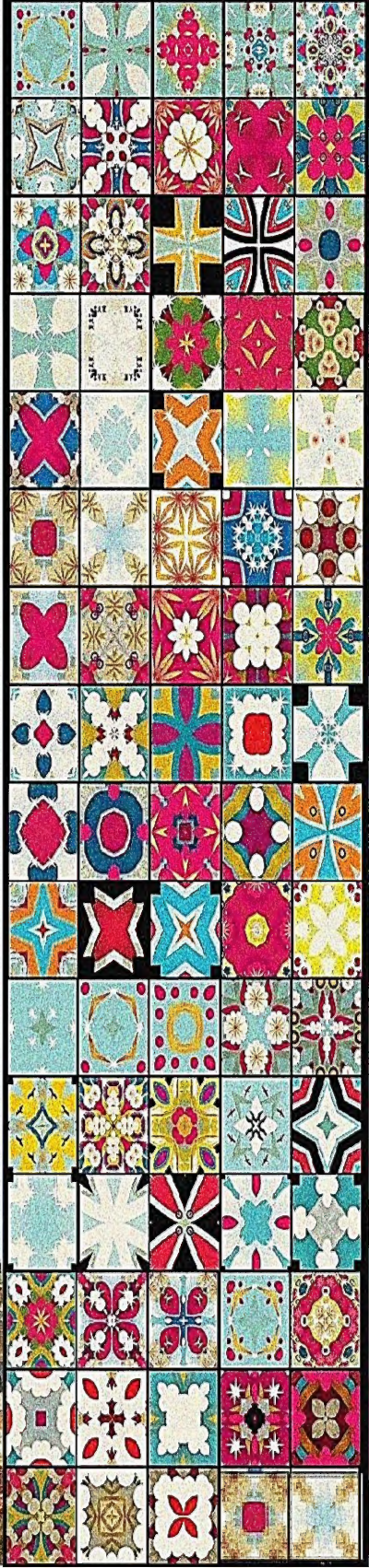
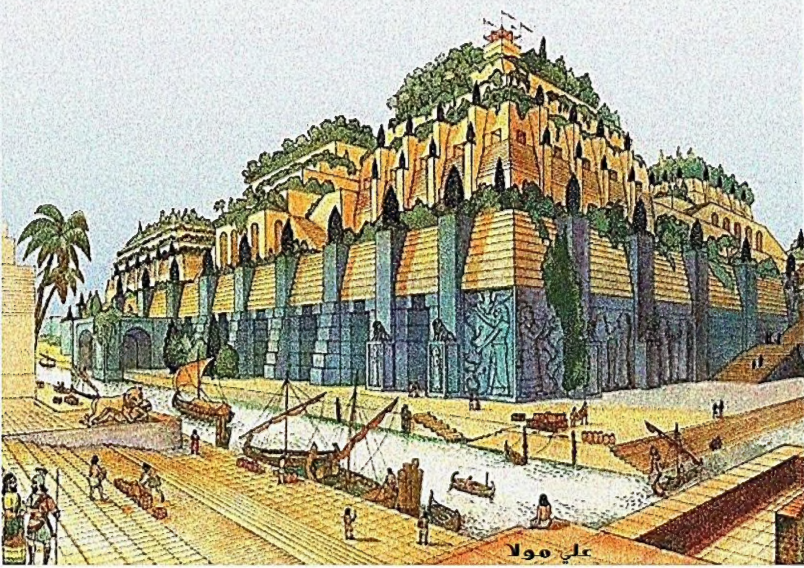


إشراف : ف . دياكوف / س . كوفاليف

الحضارات القديمة

الجزء الأول

ترجمة : نسيم واكيم اليازجي



الحضارات القديمة

الجزء الأول

إشراف: ف. د. دياكوف س. كوفاليف

الحضارات القديمة

الجزء الأول

ترجمة نسيم واكيم البيازجي

منشورات دار علاء الطبع
دمشق



حقوق النشر محفوظة
لدار علاء الدين

دمشق - الطبعة الأولى ٢٠٠٠ - ١٠٠٠ نسخة

التنضيد الضوئي والإخراج الفني: سلام أبوكرم.
التدقيق اللغوي الأستاذ: صالح جاد الله شقير.

يطلب الكتاب على العنوان التالي : دمشق ص.ب : ٣٠٥٩٨
هاتف:- ٥٦١٧٠٧١ فاكس: ٥٦١٣٢٤١ -

- جميع الأفكار والآراء الواردة في الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف.
- في حال أخذ أية مادة من الكتاب يرجى التنويه إلى المصدر.

الفصل الأول

المجتمع البدائي

المقدمة

النظام المشاعي البدائي: يدرس الفصل الأول من التاريخ ولادة، تطور وتفكك النظام المشاعي البدائي. نقصد بهذا التعبير التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية التي عاشت حقبة طويلة من الزمان، أي منذ ظهور المجتمع البشري حتى تشكيل الدول الأولى. وبينما قسم تاريخ المجتمع الطبقي (عبودية، إقطاعية، رأسمالية) ولم يتجاوز خمسة آلاف سنة، فقد استمر النظام المشاعي البدائي مئات آلاف السنين.

ما هي سماته المتميزة؟ في المجتمع البدائي، بنيت علاقات الإنتاج على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، وعلى رأسها، الأرض. بسبب ضعف مستوى القوى المنتجة، الذي يحول دون الامتلاك الفردي لوسائل العيش الضرورية: كان الناس ملزمين بالعيش والعمل سوية والعمل الجماعي يولد الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج وثمار العمل. ما يجنيه الناس معا يخصصهم معا. لم تكن قد ولدت بعد فكرة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ولا استغلال الإنسان للإنسان، ولا الطبقات.

فالنظام المشاعي البدائي مرحلة واسعة من تاريخ البشرية وعامة، هذا يعني أن كل الشعوب مرت من هنا، وأن المجتمع المنقسم إلى طبقات غير خاص بشعب دون آخر، وأن المجتمع بني على يقايا النظام المشاعي البدائي.

يخص تاريخ المجتمع البدائي العصور الغابرة، التي تخولنا دراستها إلقاء الضوء على مسائل هامة مثل أصل الإنسان، ولادة الدين، والفنون والعلوم، تشكل الطبقات والدولة، كما يتقصى الدرب الصعب الذي شقته البشرية، والنضال البطولي الذي خاضه جدودنا لمواجهة الطبيعة.

إن تاريخ المجتمع البدائي، كغيره، عام: غرضه دراسة قوانين ارتقاء النظام

المشاعي البدائي. ولا أحد يستطيع دراسة هذه القوانين إلا على ضوء المادية الجدلية والتاريخية.

لقد توقف بناء الماركسية على قضايا التاريخ البدائي في العديد من أعمالهم. في "الإيديولوجيا الألمانية" التي كتبت في ١٨٤٥ - ١٨٤٦، أشار ماركس وإنجلز، عند بداية نشاطهما الاجتماعي، أن الناس، منذ فجر المجتمع البشري، يوم كانوا يعيشون على الصيد والقتل والزراعة، وتربية الدواجن، عرفوا ملكية العشيرة، أي هيمنة الملكية التعاونية. "ورأس المال"، "انتي دوهرينغ" وأعمال أخرى مثل رسائل ماركس وإنجلز تتضمن ملاحظات قيمة في مختلف مشاكل نظام المشاعية البدائية. وفي العام ١٨٧٦، كتب إنجلز "دور العمل في انتقال القرد إلى إنسان" الذي يعطي شرحاً معمقاً علمياً ومادياً، للتطور المعقد لظهور الإنسان.

كان العلم البورجوازي قد كدس حوالي العام ١٨٨٠ كفاً من الوثائق؛ ولدى دراستها بطريقة نقدية، شرع ماركس وإنجلز بعمل توليفي حول تاريخ المجتمع البدائي. بدأ العمل ماركس الذي اطلع وعلق على أهم ما جاء في كتاب للعالم الشهير الأمريكي ل. هـ. مورغن. وبعد موت ماركس، تابع إنجلز العمل وأنجزه؛ ونشر في العام ١٨٨٤ كتاباً هاماً بعنوان: "أصل الأسرة، والملكية الخاصة والدولة"، يكشف، استناداً إلى وقائع عديدة، عن القوانين الأساسية لارتقاء المجتمع البدائي ويعطي تاريخه الأول الجاد العلمي.

لم يكتف ماركس وإنجلز بنقد النظريات اللا-علمية وتعليل قوانين ارتقاء المجتمع البدائي، بل دلا على الخاصة المؤقتة لمؤسسات مثل الطبقات، الملكية الخاصة والدولة. وهكذا أفادنا من تاريخ المجتمع البدائي لبيينا نظرية الاشتراكية العلمية.

كان لينين قد عمق علم المجتمع البدائي. وظهرت ملاحظات هامة، تتعلق بالسمات الأساسية للنظام المشاعي البدائي، في أعماله من هم أصدقاء الشعب وكيف يناضلون ضد الاشتراكية الديمقراطية، والقضية الزراعية و"ملاحظات ماركس ومؤتمره في الدولة".

مصادر أخبار النظام المشاعي البدائي

لدراسة المجتمع البدائي خواصها. فبينما تركت لنا حقب التاريخ البشري التالية نصوصاً عديدة ومتنوعة (مخطوطات، مدونات، وغيرها)، كان النظام المشاعي البدائي، بعمامة، يجهل الكتابة، الأمر الذي يلزمنا البحث عن آثار من نوع آخر.

لقد استقينا المعلومات الأساسية حول المجتمع البدائي من مصدرين تاريخيين: علم العاديات وعلم العراقة. الأول يعيد تركيب ماضي البشرية استناداً إلى آثار الثقافة المادية؛ بهدف البحث عنها، وضعها وتصنيفها. تتضمن هذه الآثار معلومات عن العمل، والأسلحة والأواني، مخلفات السكان والسكن، الأعمال الفنية ومواد الطقوس والشعائر. وتميز بقايا العاديات أيضاً، إلى مدى ضيق، أيديولوجيا الماضي. يسبر علماء الآثار التجمعات القديمة (محطات، قرى) ونقوشات وأنصاب شخصية أو اجتماعية؛ يحفرون الطبقات الأثرية، أي الأرض التي تضم المخلفات اللاعضوية والعضوية للحياة والنشاط البشري، والتي يتجاوز عمقها أو سماكتها أحياناً عشرات الأمتار. في هذا المجال، تمكننا الجيولوجيا، البقايا الحيوانية القديمة، وكذلك النباتية من تحديد دقيق لتتابع الحضارات. ولقد أعدت حديثاً سبل فيزيائية - كيميائية لمعرفة عمر التقي. سبل مؤسسة على دراسة التحولات التي تعرضت لها البقايا العضوية خلال آلاف السنين. كما يكشف الباحثون في العظام، في فضلات المحارق، وغيرها، كمية النظير الكربوني المشع، المسمى "كربون 14". ولدى معرفتهم أنه يعود لحوالي ٥٥٠٠ سنة، يحددون تاريخ النقش أو الحفر أو التجمع.

يدرس علم العراقة ثقافة وأخلاق القبائل والشعوب، بخاصة، الشعوب القديمة. ففي القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين، كانت مناطق أفريقية، أمريكية، أسيوية، محيطية، وبعض أقاليم روسيا، تسكنها شعوب ما تزال تحافظ على بقايا من النظام المشاعي البدائي. كانت هذه التجمعات الشعبية كثيرة جداً منذ ألفي عام، في زمن هيرودوت، سترابون، تاسيت وكتاب آخرين من العصور الغابرة، الذين تحدثوا عن أشياء هامة.

يعالج علم العراقة: الإنتاج، الثقافة المادية، النظام الاجتماعي والحياة الروحية لهذه الشعوب، ويعيد تركيب سمات المجتمع البدائي استناداً إلى بقاياه؛ وكذلك المعطيات الانتية هي الوحيدة التي تنير تاريخ الأسرة، التنظيمات الإرشادية، التقاليد الشفهية والحق في المجتمع البدائي. ولجمع وثائق غنية، يجب على علماء الشعوب أن يبقوا مدة طويلة في كنف هذه القبيلة أو تلك، يتعلمون لغتها، يتعرفون عاداتها. مثلاً، كان ل. هـ. مورغن ضيف قبيلة السينكواز، وعاش الرحالة الروسي الشهير ميكلوكوف - ماكلاي مدة طويلة عند البابو في غينيا الجديدة، يدرسان عاداتها وحتى يجهدان في الدفاع عنها ضد الاضطهاد الاستعماري.

تشكل المواد الأثنية، على قيمتها الكبرى، نواقص عميقة. بداية، كانت القبائل الأكثر تخلفاً التي لم يدرسها أي إثنوغرافي قد تطورت فعلاً لدى اتصالها بالشعوب المتحضرة وخضعت للتأثير المدمر الذي تنتشره الرأسمالية. فأخلاقها وعاداتها توفّر غالباً مزيجاً غريباً من التشبه بالتقديم ومن العناصر الجديدة.

بالتالي يعطي العلماء الذين درسوا تجمعات شعبية من مستويات ارتقاء متباينة، سمات عامة. أما كيف نعرف أشكال اقتصادها وتنظيماتها الاجتماعية والايديولوجية، وأيهما أقدم، وكيف ننقل من الوصف البسيط للأدوات، للمساكن، للنقوش إلى تاريخ المجتمع. دون تحديد الوثائق المتوفرة في سرير *DE PROTUSTE*¹ للمخطط التحكيمي؟ لا يمكن تخطي هذه العقبة إلا بتعاقد مواد العاديات مع المواد الأثنية.

حقب تاريخ المجتمع البدائي

خلال آلاف السنين، تعرض المجتمع البدائي إلى تبدلات هامة اقتصادية واجتماعية. فلا بد إذن من تمييز عدة مراحل في تاريخه. لنعرف حسب أي مبدأ يتم هذا. منذ النصف الثاني من القرن الماضي، أدخل عالم الآثار الدانمركي ش. تومسون في تصنيف اللقى فكرة ثلاثة "أعمار" أو "عصور": عصر الحجر، "البرونز والحديد، حسب المادة الأساسية المستخدمة في صناعة الأدوات، واختار هذا المبدأ لتقسيم ما قبل التاريخ. وبالتالي قسم كلا من هذه العصور إلى محطات: مثلاً، في عصر الحجر، ميز الحجر القديم *PALEOLITHIQUE*، الحجر الأوسط *MESOLITHIQUE*، والحجر الجديد *NEOLITHIQUE*، التي تختلف من حيث عمل الحجر ومهمة أو وظيفة الأدوات. وقسمت هذه المحطات إلى حجر قديم أبعد وأقرب وإلى مراحل أو حضارات تمتاز بهذه الآثار المادية أو تلك؛ تسمى المرحلة بشكل عام باسم المكان الذي اكتشفت فيه المواد الخاصة به (شاليان، أشليان، موستريان، الخ).

يقدم هذا التصنيف مكاسب أكيدة قبلها علماء آثار ومؤرخو العالم قاطبة. لكنها تعاب كونها وحيدة الجانب، وترجع الفرق بين مراحل التاريخ البدائي إلى طبيعة المادة الأولى بأداة وأسلوب عملها: قد يفضي هذا إلى تفسيرات آلية للتاريخ، وإلى فصل التطور التقني

¹ - *de procuste* أسطورة يونانية تقول إن بروكست هذا كان ينهب ويعذب المسافرين.

عن تطور المجتمع. وهكذا، تخص نفس الحقبة الآثارية غالباً شعوباً من مستويات تطور، بينما انحل وتفكك النظام البدائي في أمكنة أخرى وفي بعض الأمصار تكون الزراعة وتربية الدواجن في بدايتها ويستمر النظام القبلي في الحياة. وهكذا لا يمكن ربط هذه النماذج الثلاثة بنفس المحطة التاريخية.

وحوالي العام ١٨٨٠، اقترح ل. هـ. مورغن تصنيفاً آخر، في كتابه "المجتمع القديم" بخلاف التصنيف الأول، لا يكتفي التصنيف الجديد بالمعيار التكنولوجي بل يبنى على الخصيصة العامة للثقافة المادية لكل حقبة. يميز مورغن محطتين في التاريخ البدائي: الوحشية والبربرية. تنتهي الأولى مع اختراع القوس والنشاب؛ وتبدأ الثانية باختراع الفخار وتشمل ولادة وتطور الزراعة والتدجين. تقسم كل محطة إلى ثلاث درجات: سفلى، وسطى، وعليا.

يعتمد انجلز تصنيف مورغن في الفصل الأول من كتابه "أصل الأسرة، والملكية الخاصة والدولة. لكنه يراه غير كاف ويشير إلى أن جمع المواد الأولى تكرهه على إفراح المجال لنهج آخر.

وفي الوقت الراهن، يرى بعض العلماء أن التقسيم المورغاني لتاريخ المجتمع البدائي عفى عليه الزمن، ولم يعد ينسجم مع المكتشفات الأخيرة لعلمي الآثار والعراقة؛ لكن ليس ثمة حل شامل عام حتى الآن.

يرى كل المؤرخين ضرورة إيجاد مكان خاص للمحطة الأولى للتاريخ البدائي، فسي أثنائها يتم التشكل البيولوجي للإنسان ذاته؛ يسمى اتفاقاً محطة القطيع البدائي^١.

ولقد تلت محطة القطيع البدائي محطة النظام القبلي، الذي ترافق أوجهه بعامة مع نظام الأمومة، أي المساواة بين الرجل والمرأة.

أخيراً، وشم تطور القوى المنتجة، ولادة التدجين، حراثة الأرض بالسكة الحديدية ومعالجة المعادن (البرونز والحديد)، بداية مرحلة الاستغلال الأولى والملكية الخاصة: استبدلت الأمومة بالأبوة، والديموقراطية القبلية بالديموقراطية العسكرية التي هيأت إرساء أسس الدولة.

^١ — اقرأ ف. انجلز "أصل الأسرة، والملكية الخاصة والدولة، المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٥٤ ص ٢٨، ولينين، الأعمال الكاملة، مجلد ٣٥، ص ٩٣، (منشورات — روسية).

طبعاً، لا يجوز أن ننظر الآن إلى هذا التصنيف المبني على سمة العلاقات الاجتماعية إلا كفرضية.

فالتقسيم إلى مراحل أو محطات يمكن من تقديم تنسيق التطور التاريخي. والصعوبة الأخرى الكأداء هي التسلسل التاريخي لهذه المحطة أو تلك. وغالباً ما نكون أمام استحالة تحديد دقيق لبداية أو نهاية هذه المرحلة أو تلك مما قبل التاريخ: فكلما توغلنا في الزمن، كان التسلسل التاريخي المطلق غير أكيد.

نظرة في التاريخ

لمدة طويلة، بقيت حياة الإنسان الأول غامضة. كان كتاب التاريخ القديم يرددون خرافة "العصر الذهبي" الذي كان في فجر البشرية، أو يرسمون كائنات حيوانية سلاحها يداها، أسنانها وهراتها. ففي العصر الوسيط، حالت هيمنة الكنيسة دون تطور الأفكار العلمية حول الأزمنة البدائية: يعلم اللاهوتيون أن الناس الأولين، آدم وحواء، خلقهم الله، وتؤكد الكنيسة سلطتها بطردهما من الجنة، والطوفان وحكايا التوراة الساذجة. وكانت الأنباء حول أخلاق الشعوب المتخلفة مجرد خيالات: كانوا يتصورون هؤلاء الناس برؤوس كلاب أو حتى بدون رأس، والعينان في الصدر.

فقط، المكتشفات الجغرافية الضخمة التي تمت من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر، بدءاً برحلات كولومبوس وماجلان (وبخاصة رحلات المستكشفين الروس كراتشينكوف، بالاس، ميللر)، التي أطلعت علماء أوروبا على حياة الشعوب المتخلفة، دشنت علم العراقة وسهلت طرح مسألة التاريخ البدائي.

ففي بداية القرن الثامن عشر، كان المبشر لافتو، الذي عاش طويلاً في كنف هنود أمريكا الشمالية، أول من نشر فكرة تقول: إن عادات الأوربيين تقدر أن تعلل وتجلو تاريخهم البعيد. مع ذلك، وحتى منتصف القرن التاسع عشر، اكتفى العلم بالفرضيات التحكيمية حول ما قبل التاريخ، وتحدث كثير من المتشككين بالعزوف عن دراسته، بدعوى أننا لن نعرف المرحلة الغامضة، بل الطلاس، التي سبقت اكتشاف الكتابة.

لقد اصطدمت أولى الحفريات الأثرية التي كشفت أدوات الناس بين الحيوانات المتحجرة في بداية العصر الرابع (مسنري في انكلترا حوالي ١٨٣٠ ويوشردي بيرش في فرنسا حوالي ١٨٤٠)، اصطدمت بالجحود، بل الموقف المعادي بصراحة، رغم أنها

طرحت أسس علم الآثار وإناسة العالم البدائي وانتقال الفرضيات النظرية إلى وثائق جادة حول مجتمع ما قبل التاريخ. ولم يعرف العالم المتكف القيمة الصحيحة لأعمال مسنري وبوشردى بيرش إلا بعد كشوفات داروين.

كان تاريخ المجتمع البدائي موضع اهتمام عميق لدى الديموقراطيين الثوريين الروس، وفي مقدمتهم تشرنتسكي، الذي قال: إن المجتمع الأبوي الذي افترض العدالة بين الناس، كان محطة شاملة. واهتم بخاصة بانتقال مشاعية الأرض إلى الملكية الخاصة، فسهل عليه فهم تاريخ الزراعة الروسي.

في القرن التاسع عشر، أسهم العلم البورجوازي بسعة بتتيج المعارف حول المجتمع البدائي. ولقد اعتمد القانوني السويسري ج.ج. باشوفن على دارسي العصور القديمة للتدليل على وجود عهد الأمومة، الذي تلاه عهد الأبوة. وتقصى ل.ه. مورغن كنصير للمادية العفوية أو الطبيعية طبيعة النظام القبلي، فأيد فكرة وحدة ارتقاء البشرية وجهد في إجلاء التطور التاريخي لليونان والرومان مستنداً إلى دراسة التنظيم الاجتماعي لدى هنود أمريكا الشمالية. وطرح العالم والسياسي التقدمي الفرنسي ج. موتليت وعالم الآثار السويدي او. موتليوس أسس تصنيف آثار العصر الحجري والبرونزي. ودرس العالم الروسي م. كوفالفسكي المجتمع الأبوي وبرهن أنه كان شكلاً انتقالياً بين الأمومة والأسرة وحيدة الزواج المعاصرة. أخيراً، كتب ن. سير، الذي كان أول من عمم في روسيا نظرية ماركس في الاقتصاد، مقالات حول الثقافة الاقتصادية البدائية التي لم تفقد أهميتها حتى يومنا هذا.

لقد جمع علماء العراقة والآثار البورجوازيون في القرن العشرين وثائق واسعة وفيرة حول تاريخ المجتمع البدائي، الأمر الذي حولهم تقويم الكثير من بيانان أسلافهم النظرية، التي كانت بالضرورة تقريبية، بسبب نقص الوقائع المعروفة. وبينما أشار مورغن وموتليت إلى خط واحد لارتقاء المجتمع البشري، استطاع علماء القرن العشرين ترسم طرق معقدة وعديدة لتقدم الإنسان، حتى في العصر الحجري الأقدم *PALEOLITHIQUE* إذ أنجز المؤرخ الإنكليزي ج. كلارك ميزان الأعمال المنجزة قبله ودلّ إلى التطور الاقتصادي لحياة مختلف التجمعات البدائية في أوروبا انطلاقاً من العصر الحجري الوسيط *MESOLITHIQUE*.

لكن بعض مؤرخي الحقبة الامبريالية، بنقدهم الأفكار البيانية لعلماء القرن التاسع عشر حول الارتقاء البشري، أنكروا إنكاراً قاطعاً مبدأ الارتقاء. وحسب نظرية الروابط الثقافية، لعالم العراقة الألماني ف. غريبنر لم تكن الثقافة البشرية، عوضاً من التطور عبر الزمن، سوى ثقافة متنوعة، وكانت البشرية كلها جملة من الحلقات الثقافية الجامدة. كما لجأ العالم الألماني او. مانجن إلى علم الآثار لنشر أفكاره ناكراً عملية الارتقاء. ترك فلسفة المعطيات، ويقدم تاريخ المجتمع البدائي كمحصلة لهجرات القبائل المنتسبة إلى مختلف الحلقات أو الروابط الثقافية. أفضت هذه النظريات إلى المفاهيم الرجعية المكشوفة لصاحبها ج. كوسينا، الذي جعل من تاريخ المجتمع البدائي تمجيذاً لحملات وغزوات أسلاف "العرق الآري".

يبرهن العديد من علماء العراقة البورجوازيين على الطبيعة الأبدية والثابتة للملكية الخاصة، لاستغلال الإنسان للإنسان، والدور التابع للمرأة في الأسرة وفي المجتمع والكثير من قاذورات النظام الرأسمالي الأخرى، ونسيوا وجود الطبقات في المحطات الأقدم من المجتمع البشري. كما ساهم علم العراقة البورجوازي في تبرير الاضطهاد الامبريالي في المستعمرات.

لكن علماء الآثار والعراقة التقدميين في القرن العشرين، مثل أ. اردلسكا، ج. ليبس، ف. بواس، رفضوا هذه النظريات الرجعية وهاجموها ودافعوا عن خيرة تقاليد تطوريي القرن الماضي. علماء الطليعة أمثال ج. شيلد، أنصار أفكار ماركس.

والمؤرخون السوفييات، الأوفياء للماركسية-اللينينية، حققوا نجاحات ضخمة في دراسة ما قبل التاريخ. فأعمال علماء الآثار ف. غورودتسوف، ب. إيمانكو، أ. برسوف، ت. باسيك، ب. بوفتين، س. كسليف، ف. رافدونكا، وآخرون مكنوا من متابعة التاريخ في مناطق عدة خلال آلاف السنين، منذ مراحل المجتمع البدائي الأول حتى ولادة المجتمع الطبقي. إذ أعطوا كمية من المواد والوثائق من أجل الدراسة النظرية لأهم تطورات ما قبل التاريخ. ونشرت نتائج أعمال علم الآثار بانتظام في دوريات "علم الآثار السوفياتي" و"أنباء" معهد تاريخ الثقافة المادية.

وساهم علماء الإناسة السوفييات إ. روغنسكي، ف. بوناك، م. نستورك، وسواهم بعمق بإيضاح أصل الإنسان، العنصر الأساسي للدراسة الجادة للمرحلة الأولى للمجتمع

البشري، وتقصوا أيضا مسألة تشكل الأعراق ودلّوا على ضحالة النظرية العرقية. وعززت معرفة ما قبل التاريخ بأسلوب م. غيراسمون الذي أعاد تركيب الوجه البشري استنادا إلى عظم الجمجمة. خلق غيراسمون عشرات البورتريهات_ *PORTROITS* ، لأناس عاشوا منذ آلاف السنين.

وأعمال علماء العراقة السوفيات س. تولستوف، م. كوسفنن د. أولدروج، س. توكريف، وسواهم، ساهمت بوضوح بدراسة نظام المشاعية البدائية أصل الزراعة والتدجين، ولادة الأديان أدركت بروح مادية، وبرهن أن الأمومة كانت مرحلة عامة من تاريخ البشرية، وعرفت بالتالي السمات المحددة لتفكك نظام القبلية وتشكل المجتمع التالي، وغير ذلك. ودوريات علم العراقة عندنا هي مجلات "العراقة السوفياتي"، "أعمال معهد علم العراقة وحولية متحف الاناسة والعراقة".

الفصل الثاني

القطيع البدائي

ظهور النظام القبلي

ظهور الإنسان: يبدأ تاريخ البشرية بظهور الإنسان والمجتمع الإنساني. لقد دعم العلماء المثاليون طويلا نظرية الحد المغلق بين الإنسان و الحيوان. تشتق هذه النظرية من الأسطورة التوراتية. عارضها داروين بفرضية تقول: إن الإنسان انحدر من عرق قردي راق يشبه البشر. والمكتشفات اللاحقة أكدت رأيه وأثبتت أنه في نهاية العصر الثالث أو بداية العصر الرابع عاشت فعلا قرود مشابهة، يمكن اعتبارها أسلافا للإنسان.

هكذا، في جنوب أفريقيا ، اكتشف كثير من عظام القرود العالية سميت *AUSTRALOPITHEQUES*. كانت تعيش في مغارات حراجية أو شبه صحراوية، تمشي على قوائمها الخلفية، وتقتص الحيوانات الأصغر، ولل هجوم والدفاع، كانت تستخدم عصاة أو عظاما ضخمة طويلة، وقد أفضى الغذاء اللحمي، الوقوف واستخدام الأطراف الأمامية لتناول الأشياء إلى كبر حجم دماغها.

إن مسألة معرفة إن كان القرد الاسترالي سلفنا المباشر، أو بشكل "فرعا جانبيا" في تكوين الإنسان، تبقى معلقة. لكن الأمر الأكيد هو أن الإنسان المتحجر ينحدر من قردة مشابهة، اكتشفت عظامها في أمكنة عديدة من العالم القديم، بخاصة في القفقاس. ومن زرافات القردة الشبيهة بالإنسان انحدر، في بداية العصر الرابع (أي منذ مليون سنة)، قطيع الإنسان البدائي.

لقد كان موضوع مكان إتمام تحول القرد إلى إنسان مجالا لمناظرات حادة وحيوية: تبني بعض العلماء نظرية التعددية ، وأكدوا أن التطور حدث بالتوازي في أماكن عدة وأن الإنسان انحدر من أنواع مختلفة من القردة. ليس العلماء السوفييات من هذا الرأي، بل هم يرون أن القرد تحول إلى إنسان في إقليم من الأرض الواسعة التي تشمل

جنوب آسيا ، الشرق الأدنى، شرق القفقاس و بقاع واسعة من أفريقيا؛ والوضع الراهن للعلوم يسمح بتحديد التطور بدقة كبرى.

يعلل بعض الباحثين ظهور الإنسان بأسباب طارئة ، خارجية. هكذا يقدم الأكاديمي ب. سوشكين اختفاء الغابات كعنصر أساسي: فاضطرار القرد للعيش على الأرض خلق تباينا في أطرافه وجعله يمشي منتصباً. تتكرر هذه النظرية تحول القرد إلى إنسان تحولا منتظما.

إن تعليلا علميا فعلا للظاهرة زودنا به انجلز في كتابه "دور العمل في تحويل القرد إلى إنسان". حيث يشير المؤلف إلى أن العنصر الأساسي هو العمل. "العمل خلق الإنسان نفسه".^١ لكن بم بدا هذا العمل البشري؟ كانت القردة تتناول حجرا أو عصاة كما كان يفعل القرد الأسترالي، لكن أحدا لم يستطع صنع الأداة الأكثر بدائية. فبصنع الأدوات يبدأ العمل.

إن النشاط الجاد المتأثر، صنع الأدوات البدائية، أفضى إلى تقسيم الوظائف بين الأعضاء الأمامية والخلفية. وتصير صناعة الأدوات المهمة النوعية للطرفين الأماميين، الأمر الذي زاد مهارتهما وحولهما إلى يدين. وبكلمة، لم تكن اليد عضو العمل فقط، بل أيضا ثمرة العمل.^٢

كلما أطلقت اليدين وتخصصتا بمهمة العمل، تدعمت عادة المشية المنتصبة أكثر فأكثر، وهذا أدى بدوره إلى تطور اليدين وحررهما من أجل النشاط الجاد، وعزز بالتالي تطور الحنجرة والحبال الصوتية. ولقد أثبتت دراسة عظام الإنسان المتحجرة أن تباين الأطراف يسبق ارتقاء الجمجمة، وهذا يؤكد تماما فكرة انجلز حول دور العمل في دور ظهور الإنسان.

البشر المتحجرون

لقد اكتشفت في جاوا في الأعوام ١٨٩١-١٨٩٤، أقدم بقايا الإنسان المتحجر المسمى إنسان جاوا. ومؤخرا وجدت في جاوا عظام أنواع أخرى. وحوالي ١٩٢٥، اكتشف عالم

^١ - ف. انجلز، ديالكتيك الطبيعة، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٥٥، ص ١٧١.

^٢ - المصدر ذاته، ص ١٧٢.

الأثار الصيني بي اوان-تشونغ في كهف شوكو-تيان، قرب بكين، رفاة عظيمة لحوالي ٢٥ نموذجاً لرجل متحجر سمي إنسان بكين. كما كشفت عظام مبعثرة عديدة، أكثرها افكاك وأسنان لكائنات قريبة من إنسان بكين، في وسط فيات-نام، في جنوب أفريقيا وقرب هيلدبورغ، في ألمانيا. وفي العام ١٩٥٤، عثر علماء فرنسيون في الجزائر على بقايا من نموذج إنسان آخر مما قبل التاريخ، سمي اتلانتروب.

إن الأحفاد المباشرين للناس المتحجرين هم النياندرتاليون ونموذجهم إنسان نياندرتال، وقد سمي هكذا لأن رفاته وجدت في وادي بهذا الاسم، قرب دوسلدروف. كان النياندرتاليون يسكنون العالم القديم، وصودفت بقاياهم في جاوا، في أفريقيا، في الشرق الأدنى ومناطق أخرى أوروبية. وعلى الأرض الروسية عثر عليهم علماء الآثار السوفييات: ففي ١٩٢٤، اكتشف ج. بونتش _ اوسمولوفسكي أجزاء من هيكل عظمي في مغارة تشيك _ تشاك، في جنوب أوزبكستان.

يتميز الناس المتحجرون عن البشر الحاليين بجمجمة منخفضة؛ وأقواس حواجب متينة فوق العينين، العظام الوجهية بارزة، وفقدان الذقن.

كانوا يمشون بسيقان ملتوية ويركضون وقد انحنوا كثيراً إلى الأمام؛ تشبه أيديهم القوائم، أي أن الإبهام كان أقل تعاضداً مما لدى إنسان هذه الأيام. غير أنهم يتميزون بوضوح عن القردة العليا بالمشية وسعة العلبة الجمجمة. من حيث الحجم، يتجاوز دماغ ابن جاوا (٩٠٠ سم^٣) كثيراً دماغ الغوريلا أو الإنسان الأسترالي، ودماغ ابن بكين أكبر (حتى ١٢٠٠ سم^٣) ودماغ إنسان نياندرتال (قاربة ١٤٠٠ سم^٣) يقترب من السعة الوسطى لجمجمة الإنسان الحالي (١٤٠٠ - ١٥٠٠ سم^٣).

بخلاف الإنسان الأسترالي، ما كان البشر المتحجرون يكتفون باستعمال بعض المواد (عصا أو عظم)، بل كانوا يعرفون صناعة الأدوات. إذ وجدت بين رفاة ابن بكين والنياندرتاليين، أدوات حجرية بدائية. وفي كثير من المناطق، اكتشف علماء الآثار أدوات ليست من عظام الناس المتحجرين.

عاش ابن جاوا، ابن بكين وابن نياندرتال في العصر الأبعد أي الأدنى - الأقل تطوراً.

العصر الحجري الأدنى

في بداية العصر الرابع، عند تشكل المجتمع البشري، كان المناخ ألطف وأكثر رطوبة. كانت أوروبا مغطاة بغابات شبه استوائية تسكنها الماضغات، الخرطوميات ووحيديات القرن غير الموجودة في هذه الأيام. لكن شيئا فشيئا صار المناخ أقسى: الجليديات تزحف آتية من الشمال. طبقة كثيفة من الجليد غطت مساحات شاسعة من أوروبا وأمريكا الشمالية. وجليديات أخرى كانت تهيبط من سلاسل جبال الألب وهملايا.

وفي الجوار المباشرة للجليد استبدلت الغابات شبه الاستوائية بالتوندرا حيث ترعى الماموث الوبري، الأحقب والحصان الوحش. يشمل العصر الحجري الأدنى بالتحديد مرحلة تمتد من بدء العصر الرابع حتى نهاية العصر الجليدي (قرابة أربعين ألف سنة).

كانت صناعات العصر الحجري الأدنى بدائية. عدا الهراوات، استخدمت شظايا الحجارة ذات الحواف الحادة. وشيئا فشيئا، تعلموا أن يصنعوا من الصوان قبضات سمكية، بشكل اللوزة، تزن أحيانا أكثر من كيلو. كانت تقطع بواسطة صوانات أخرى. أفادت هذه الأداة البدائية بتفصيل أوتاد خشبية، لقلع الجذور، لتحطيم تلعات الأرض، لذبح حيوان جريح؛ لا شك أنها لم تستخدم في الصيد بخاصة، فأى عصي تقوم بهذا الغرض. فضلا عن هذا، كان الناس يعدون صفائح من الصوان الحاد.

بهذوء، تتكسد الخبرة وتحسن التقنية: في بقاع عديدة وسبل متباينة، ينتقل الناس إلى صنع أدوات أصغر وأنعم. وتصير أهم الوسائل الصوانية النياندرتالية صفائح مثثة الشكل: مروسة للقص أو النقب، مكاشط لسلخ الحيوانات الذبيحة. أداة القنص هي المذراة والرمح الخشبي المصنوعان من الخشب.

طبعاً، لم يكن لإنسان بكين مساكن ثابتة ولا ألبسة. كثيراً ما كانت الأشجار ملاجئ للإنسان تقيّه من الحيوانات المتوحشة. وانتهى إلى تعلم إعداد ستائر أو حواجز تحميّه من تقلبات الجو، ثم احتل كهوف الحيوانات المفترسة التي يستخدم جلودها لصنع سرير وثوب، نوع من غطاء الرأس مجهز بأربطة أو علاقات.

لقد تعلم أناس العصر الحجري الأدنى إيقاد النار. ربما كان أولاً يستخدم ويحفظ النار الطبيعية ويعتذز أوقدها بضدم قطعتي صوان ببعضهما أو بحك قطعة خشبية بقضيب خاص. والنتار الناتج يحمى ويشتعل؛ وأنذ تمد فتيلة صوفية أو ليفة نباتية تلتهب، ثم ينفخ

على النار لتتقد. كانت صعوبة العملية تكره الناس البدائيين على معاملة النار بعناية. كان استخدام النار ذا أهمية بالغة: فهي تقي البشر من البرد والكواسر، وتمكنهم من شوي أغذيتهم، الأمر الذي يسهل التمثل الغذائي ويغني الوجبة. إن اختراع النار... أعطى الإنسان لأول مرة السيادة على قوة طبيعية، وبهذا، أبعدته عن مملكة الحيوان^١. في الاتحاد السوفياتي، كانت قد اكتشفت أقدم أدوات الإنسان المتحجر فوق تلة ساتاني _ دار، في أرمينيا، واكتشفت آثار أخرى من العصر الحجري الأدنى في القفقاس، في أبخازيا وفي جنوب أوسيتي، في القرم، في حوض الدنيبير والدنستر وفي المجرى الأوسط للقولغا.

أخلاق أول تعاونية بشرية وتنظيمها الاجتماعي

كانت التجمعات الأكثر تخلفاً، التي لم يدرسها أبداً علماء العراق، أرقى بكثير من البشر المتحجرين من العصر الحجري الأدنى. ولا يمكن معرفة حياة أول تعاونية بشرية إلا استناداً إلى المواد الأثرية، الأمر الذي يجعل آراءنا حول تنظيمها الاجتماعي ناقصة جداً وقرضية.

كان إنسان العصر الحجري الأدنى يعيش من القطاف والصيد. يقتات بالثمار، بال جذور والعنب البري، يأسر بعض الضرعيات الصغيرة، الضب والحشرات. وبدأ مبكراً بصيد الحيوانات الضخمة: في محطات قبل التاريخ، يكشف علماء الآثار غالباً، بين الأدوات البدائية، عظام الماموث والبيزون، الأحصنة والغزلان، التي بقر أغلبها ليأخذ نخاعها. كان الإنسان البدائي يأكل كل شيء، الأمر الذي مكّنه من العيش في كل مكان.

كانت حياته قاسية: ما كان يستطيع منافسة الكواسر الرهبة في بداية العصر الرابع لا بسرعة الركض، ولا بالقوة الجسدية. كان الجوع يترصده أبداً، وكذلك الموت بين مخالب الحيوانات. وعقد زحف الجليد نضاله ضد الطبيعة. بقي الإنسان القديم على قيد الحياة بفعل سببين اثنين: بداية، صار كائنات واعية يصنع أدوات، ثم، عمل منذ البدء متعاوناً.

إن صنع الأداة نفسها غير ممكن إلا تعاونياً، لأن هذا الأخير هو الذي يصون ويعضد

^١ - أنجلز، أنتي دوهرينغ، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٥٦، ص ١٤٧.

الانجازات، الخبرة البدائية بمادة الانتاج، ويؤمن توريثها. والصيد، بخاصة صيد الحيوانات الضخمة التي تخاف النار وتدافع برشق الحجارة نحو مهددة أو سبحة، كان يتم جماعة.

هذا هو تجمع إنسان العصر الحجري الأدنى الذي سمي اتفاقا القطيع البدائي. كان قليل العدد وغير مستقر ولا شك: كان يستطيع بأعضائه الانتقال إلى قطيع آخر. كان يرأسه مشرف، رجل أو امرأة. وتسود حياته الجنسية البلبلة والاختلاط، مع إمكانية قيام علاقة بين اثنين فقط، رجل وامرأة، مستقرة إلى هذا الحد أو ذاك.

إن شكل الأداة البدائي، مستوى الاقتصاد المتخلف، والنضال الضاري مع الطبيعة، كلها عاشت في قلب القطيع البدائي "الفردية الحيوانية" الموروثة من الأسلاف الحيوانية، التي تتبدى أحيانا بصراعات دامية، بفصول من الكفاح من أجل الوجود. كما عرفت حالات من أكل لحوم البشر.

تدرجيا، ومع رسوخ التنظيم الاجتماعي في التجمع البشري ومضاعفة منجزات الانتاج، تراجعت الغرائز الحيوانية؛ كما قال لينين، أخذ القطيع البدائي والمشاعية البدائية "الفردية الحيوانية" لدى البشر الأقدمين^١.

ولادة الفكر واللغة

تتجم ولادة الفكر من نشاط الناس المنتج. والعبور من الاستخدام الغريزي للهرادة والحجر إلى صناعة الأدوات، على جلاقتها، أفرز النشاط العقلي لدى الإنسان، والوعي. وشكلت منجزات الانتاج الخبرة الأولى عنده واستقرت في ذهنه. والعمل التعاوني صان منجزات الانتاج وبصم الفكر البدائي بسمته النموذجية: في الأزمنة الأولى، ما كان الإنسان ينفصل عن التجمع التعاوني.

واللغة قديمة أيضا كالفكر "... اللغة هي الوعي العملي، حية لدى الجميع، حية إذن عندي، واقعية، واللغة لا تولد، كما الوعي، إلا من الحاجة، من ضرورة المتاجرة مع الناس الآخرين"، كتب ماركس وإنجلز. والمفاهيم الأولى العامة لا تعرف في التجمع التعاوني إلا إذا حددتها الأصوات. والتلاقي بين الناس والعمل التعاوني يستحيلان بدون اللغة.

^١ - لينين، الأعمال الكاملة، المجلد ٣، ص ٩٣ (منشورات روسية).

ليس لدينا أي فكرة عن بنية اللغات البدائية. بل يفترض العالم السوفيياتي ف. بوناك أنها ولدت من الإشارات الصائتة لدى القردة شبيهة الإنسان، وتنامت مع تكديس خبرة الإنتاج، وتطورت الحجرة بفعل الوضع العمودي وتراجع حجم الفك الأسفل. كانت هذه اللغات تتألف من عدد متواضع من الكلمات أو، بكلمة أدق، من عبارات وحيدة المقطع، منعزلة وعديدة الدلالة. وكان كلام الإنسان البدائي يترافق مع حركات لا تلعب مع ذلك سوى دور ثانوي.

الانتقال إلى العصر الحجري الأعلى

لقد أتى بعد العصر الحجري الأدنى، حسب التصنيف المقبول في علم الآثار، العصور الحجري الأعلى (دام من الألف الأربعين حتى الألف الثاني عشر قبل الميلاد). تبدلت الشروط المناخية مرارا في أثناء هذه الحقبة. تراجع الجليد وصار المناخ في أوروبا وسيبيريا الجنوبية معتدلا. ثم عاد الجليد، هذه الهجمة الرابعة والأخيرة، الأقل عتوا مما سبق، جعلت المناخ مع ذلك قاسيا جدا. بادت الماموث، انتشر الأحقب على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، والقرم والقفقاس.

تم الانتقال إلى العصر الحجري الأعلى بتطورات هامة في بنية الإنسان الجسدية، وكذلك بطبيعة الإنتاج والتنظيم الاجتماعي. والنموذج البيولوجي المعاصر: الإنسان العاقل *HOMO SOPIEMS*، تشكل نهائيا؛ وتطورت تقنيات واقتصاد التجمع التعاوني وظهرت بخاصة أدوات نوعية، مخصصة لصنع أدوات أخرى، ووسائل من الخشب والعظم أو من الخشب والعظم معا؛ غادر الناس الكهف ليعيشوا في ملاجئ مصنوعة ومدفأة؛ وتشكل نمط جديد من التنظيم الاجتماعي: القبيلة البدائية؛ أخيرا، ظهرت الفنون. كل هذا خول العالمين السوفيياتيين إي. روغنسكي وف. إياكوف اعتبار الانتقال إلى العصر الحجري الأعلى، وانتقال إنسان نياندرتال إلى الإنسان العاقل، كوثبة نوعية تبقى أهميتها التاريخية مع ذلك أقل من انتقال القردة من النموذج الاسترالي إلى الإنسان المتحجر من النموذج الجاوي. وكان الانتقال إلى نوع جديد قد أعده ارتقاء المجتمع البشري في نهاية العصر الحجري الأدنى.

تثبت بقايا العصر الحجري الأعلى في أوروبا الغربية والشرقية تنامي القوى المنتجة. وتتجاوز تقنيات هذه الحقبة كثيرا تقنيات العصر السابق؛ اتقنت صناعة الأدوات الصوانية،

وضغظت مساحتها: بمساعدة قضيب عظمي، يؤخذ ببساطة، من شظية صوانية، صفيحات ناعمة، للحصول على أداة مشدبة ذات حواف حادة ومتينة. وعدا الحجر، صنعوا العظم والقرن.

كانت الوسائل المستخدمة لجني الغذاء متنوعة جدا: صنعت الرماح القصيرة ذات الرأس العاجي أو الصواني، والخناجر من القرون، والخطافات للصيد والقنص، والمكاشط والصفائح لسلخ الحيوانات الذبيحة ومعالجة الجلود؛ وخيطة الثياب من جلود المواشي بإبر عظمية. وأعدت الأزاميل لحفر أو نحت القرن أو العظم.

اتسع صيد الحيوانات اتساعا لم يسبق له مثيل: في المحطات، يكتشف علماء الآثار بقايا وفيرة من الأسلاب. ففي بردقوست (تشكوسلوفاكيا) مدفون عظام لألف ماموث. وحوالي نهاية هذه الحقبة، مورس الصيد أيضا بسعة. حدد هذا التطور في الإنتاج أسلوب حياة أكثر حضارية، تشهد شاهدا رائعا عليه في غنى آثار العصر الحجري الأعلى.

يبدأ الإنسان باحتلال ملاجئ مصنوعة، ذات طنف، أخصاص وملاجئ محفورة في الأرض. كشف علماء آثار (ب. أفمانكو، س. زامياتنين وسواهما) عن أكواخ من العصر الحجري الأعلى على ضفتي الدون وغيرها. كانت مساكن من التراب المقولب، بشكل بيضوي. أخذ الماموث تدعم السقف المغطى بالتراب. في وسط الكوخ توضع موقدة أو أكثر تغذيها عظام الحيوانات. إلى جانب المساكن حفروا لحفظ الطرائد والأغذية الأخرى.

على أرض روسيا. عثروا على آثار من العصر الحجري الأعلى في شرق القفقاس، في حوض الدنيبر والدون، وعلى مجرى تشوسوفايا وفي سيبيريا.

تشكل ثقافة القبائل التي كانت تعيش بعيدا عن مناطق الجليد سمات فريدة. في أفريقيا الشمالية ازدهرت حضارة سميت كابسا (الآن غانسا، في تونس)؛ وبخلاف صيادي وقناصي الشمال، كان تجمع كابسا يعيش على القطاف؛ ما كانوا يخشون مهاجمة الوحوش كالأسد والفهد، لكن المكان الرئيسي لاقتصادهم يرجع إلى جمع الرخويات الأكلية، السلاحف، بيض النعام، وغيرها. وشروط اقتصادية مشابهة كانت، يومئذ، في شرق الأبيض المتوسط، في القرم وفي القفقاس.

تشكل القبيلة

لقد وطد التطور التدريجي لقوى الإنتاج والانتقال إلى الحياة المقيمة التجمع التعاوني البشري، ونجم عن هذا كبح "الفردية الحيوانية". وبارح القطيع البدائي المكان لتنظيم إجتماعي أرقى.

ارتقت البنية القطيعية أساسا في ثلاثة مناحي. بداية، مكن نمو إنتاجية العمل الناس من الحياة في تجمعات أقل عددا، أتت من القطيع لكنها استمرت في إقامة علاقات اقتصادية معه. تعتبر هذه التجمعات متقاربة ويمكن أن تساعد بعضها، بل تتبادل الدعوة إلى حقول الصيد.

ثم، منع التجمع البدائي العلاقات الزوجية الداخلية. يرتبط هذا التدبير المسمى الزواج الخارجي، بشكل متين مع التطور الاقتصادي. ولم يعد الزواج ظاهرة بيولوجية بحتة، بل مؤسسة نظمها المجتمع.

لم يدم الزواج الخارجي سوى حقبة معينة، لأن القطيع البدائي كان تعاونية مغلقة، لا تتصل بغيرها. وصار الزواج الخارجي ممكنا بعدما اعتبرت تجمعات الأمومة والتبني ذات علاقات قربي واستمر أفرادها يتزاوجون فيما بينهم. إذن، عدا المبدأ السلبي: منع الزيجات ضمن التعاونية، أدخل الزواج الخارجي مبدأ إيجابيا: الالتزام بالزواج من أعضاء تعاونية أخرى، لكنها تعاونية معينة. فمن الآن فصاعدا، ارتبط تجمعان متقاربان بعادة الزواج المتبادل: لا يمكن الزواج إلا من تجمع بنوي. سميت هذه العادة التي تنص على الزواج في حدود التعاونية الكبرى الزواج اللحي.

هكذا تكون في الوقت ذاته قبيلة خارجية الزواج، وعشيرة لحمية الزواج مؤلفة من مشاعيتين متقاربتين. اعتبر انجلز هذا الزواج المزدوج الشكل الأول لمجتمع الزواج الخارجي المبني على القبيلة. ثمة شواهد من مستويات أرقى بكثير: رآها علماء العراقة لدى شعوب معاصرة، مثل التركمان، الأيفانك، القرغيز وكراكلبك. كانت تجمعات القبيلة خارجية الزواج تتكاثر ببطء.

كان الزواج في هذه المرحلة جماعيا، أي نساء مشاعية ما هن نساء فعليات أو مفترضات لكل رجال مشاعية أخرى من القبيلة. رغم أن هذا النظام لا يلغي الصيغة المؤقتة للزواج المستقر إلى هذا الحد أو ذاك، ليس لأحد حق منع شريكه.

شواهد الزواج الجماعي مستمرة لدى الشعوب التي درسها علماء العراقة، لدى الاستراليين، مثلاً، الذين تنقسم قبيلتهم إلى جماعتين أو أربع جماعات مرتبطة زواجياً؛ وفي روسيا، لوحظت القضية لدى النيجكس(غولياك)؛ وفي نهاية القرن التاسع عشر لاحظ ل. سترنبرغ أن الحكومة القيصريّة نفتهم إلى الشرق الأقصى لنشاطهم في صفوف "منظمة إرادة الشعب".

أخيراً، تتعدّد بنية القطيع البدائي نتيجة ارتفاع التقسيم الطبيعي للعمل. ربما كان تقسيم العمل حسب العمر موجوداً منذ ولادة المجتمع البشري، لكن رجال ونساء آنئذ كانوا يلعبون ذات الدور في الاقتصاد. فقط في نهاية العصر الحجري الأدنى انقسم العمل حسب الجنس: تخصص الرجال بالصيد وتركوا القطاف للنساء والفتيان. يفترض عالم الآثار ب. فمانكو أن الأدوات النياندرتالية تخصّ الجنسين: فكانت الشظايا الحادة سكاكين للرجال، وللنساء المكاشط.

يلحظ علماء العراقة تقسيم العمل حسب الجنس والعمر لدى مختلف الشعوب. هكذا، في استراليا، النساء و الفتيان يصيدون ويقطفون عطاءات الطبيعة. بينما الرجال يقنصون. ينتج من هذا فرق معين أكيد بين رجال ونساء القبيلة: يخيمون منعزلين، لا يعدون ذات الطعام، يتكلمون لهجات مختلفة. على هذا، يضع مبدأ تقسيم العمل على رأس القبيلة جماعة من الشيوخ، كنوز الخبرة والتجربة الاجتماعية.

في بداية العصر الحجري الأعلى، فقدت التعاونية البشرية إذن بنيتها الجماعية البكوي: بحسب تطور القوى المنتجة وتقسيم العمل، يترك القطيع مكانه لتنظيم أرقى: الشكل البدائي للمشاعية المبنية على القبيلة.

تشكل النموذج البيولوجي للإنسان المعاصر

يتميز إنسان العصر الحجري الأعلى جسدياً عن مثيله النياندرتالي. تثبت بنية عموده الفقري المشية بالوضع المنتصب مطلقاً. لا يتجاوز حجم دماغه (١٤٠٠ سم^٣) أبداً سعة قحف سلالته، لكن شكله بدل الأجزاء الصدغية، الجبهية والجدارية، أي الأجزاء المتعلقة بتطور الكلمة. التي تميز الإنسان كأننا اجتماعياً، كبرت بشكل محسوس. وبالتالي، صارت الجمجمة مستطيلة، تحررت الجبهة، لم تعد أقواس الحاجبين كثيفة. وأخيراً، الفك الأسفل أقل ثقلاً وتشكل الذقن، على أثر تطور اللغة المستخدمة.

لقد حاول العلم التاريخي البورجوازي مرارا أن يثبت أن "الإنسان العاقل" كان قد ظهر منذ الزمن السحيق وأنه "كان يعمر الأرض" مع اليناندرتالي في حقبة واحدة. وهكذا كان المؤرخون البورجوازيون يحاولون بتر الإنسان المعاصر عن أسلافه ويقدمون ظهوره كأعجوبة. إذن، ينحدر "الإنسان الحكيم" **L'HOMME SAGE** "مباشرة من إنسان يناندرتال في نهاية العصر الحجري الأدنى. معروف اليوم أن أعمدة فقرية عديدة لليناندرتاليين تقدم سمات انتقالية كثيرة. اكتشف أحدها في العام ١٩٥٣ العالم الأثري أ. فورموزوف في ستاروسليا، في القرم.

إن عوامل عديدة تعلق تشكل النوع البيولوجي للإنسان الحالي. فكتافة الصيد والنمو المكافيء لنسبة الغذاء اللحمي عززت التطور الجسدي لأسلافنا، وتعقيد النشاط المنتج طور وحسن الفكر والكلام؛ والكبح المتدرج للغرائز الحيوانية وتحديد الروابط الجنسية داخل القطيع ساهم أيضا بارتقاء الكائن البشري. وانتهى التطور بظهور "**L'HOMO S. APIEMS**".

إن عددا من النماذج العرقية تمثل إنسان العصر الحجري الأعلى. ففي أوروبا، ثمة النموذج الأوروبي "**EUROPAIOLE**" المسمى أيضا كرو - مانيون (نسبة إلى كهف في الميدي الفرنسي)؛ وجد منه بقايا على الأرض الروسية. كان إنسان كرو - مانيون كبير القامة، عريض الوجه، ناتئ الذقن. وفي إفريقيا (في جنوب الصحراء وفي أوروبا الجنوبية (إيطاليا)، اكتشفت هياكل عظمية بشرية تشابه كثيرا نموذج العرق الزنجي الحالي. سكن زنوج العصر الحجري الأعلى في وقت ما أوروبا الشرقية، منها الحجري الأعلى لنهر الدون. وفي الصين، في المغارة العليا لشو كو تيان، وفي سيبيريا، ليس بعيدا عن كراسنويارسك، اكتشفت رفاة إنسان من النموذج المنغولي.

إن مسألة العروق قضية إيديولوجية وسياسية حادة جدا، فقد سعى علماء رجعيون من العالم الرأسمالي إلى النظرية العرقية محاولين تبرير العدوان على الشعوب الأخرى واستعبادها. ونشروا نظرية مغلقة بغلاف العلم حول وجود عروق عليا وأخرى دنيا. وحاول مؤرخون بورجوازيون "تلقيحها" بمفاهيم خاطئة. يدعي البعض أن الأعراق وجدت في كل الأزمنة، وأن أوروبا مسكونة أبدا بإنسان النموذج الراهن. بينما الزنوج وأعراق أخرى "أدنى" انحدرت من أنواع أقل رقيًا: ابن جاوا، ابن بكين واليناندرتالي. وهكذا نرى ضرورة وضع النقاط على الحروف.

لقد قرر العلماء التقدميون أن العروق البشرية الثلاثة الكبرى (زنجي، أروبي، منغولي) لا تتميز عن بعضها إلا بالمظهر الخارجي، الثانوي (لون الجلد، شكل العينين، والشعر، وسواها). لكن حجم القحف، هيكل اليدين، الكفاءات الذهنية والجسدية متشابهة. فلا فوقية أو غلبة لعرق على آخر.

لقد كشف علماء الطبيعة أن الأعراق لا تشكل استمرارا للارتقاء التاريخي. الفيلسوفون المنتشرون في أمصار عديدة من العالم القديم يتشابهون فيما بينهم أكثر من تشابه الأعراق المتشكلة أخيرا في هذه المناطق. وبالتالي، لم تعرف النماذج العرقية إلا منذ العصر الحجري الأعلى.

كيف يعطى شكل الأعراق؟ منذ نهاية العصر الحجري الأول، لمست فوارق في الثقافة المادية في بعض الأقاليم، نابعة من تغرد الشروط الطبيعية وبخاصة المادة المتوفرة لصنع الأدوات. وتنامت هذه الفوارق في العصر الحجري الأعلى، والنظام الاقتصادي التعاوني. ينكر عالم الآثار الروسي، س. زمياتين تميز ثلاث مناطق كبرى. خلال هذا الزمن، بسمات نوعية في ثقافتها المادية: المناطق الأفرو-أوسطية، الأروبية غير الجليدية والصينية-السيبيرية. لسبب أو آخر، كانت معزولة في بداية العصر الحجري الأعلى؛ الأمر الذي حدد الفوارق الثقافية. فقد أثار انعزالها بالضرورة تكديسا تدريجيا لتمييزات خارجية، ثانوية، مرتبطة إلى حد ما بالشروط الطبيعية لهذه المنطقة أو تلك.

هكذا، يتلاءم تشكل النوع البيولوجي للإنسان المعاصر مع ولادة التجمع المبني على القبيلة، الذي بلغ أوجه في الحقب الأثرية التالية.

الفصل الثالث

أوج النظام المشاعي البدائي

الخصائص الأساسية لتجمع الأمومة

كانت قمة المجتمع البدائي، الشكل الاجتماعي الأساسي، هي التجمع المبني على العشيرة أي التعاونية المتحدة بمصالح اقتصادية وروحية، ذات الأصل الواحد وروابط القرني. ولما كان الزواج من الخارج هو القانون الأساسي، فلن يتيسر للعشيرة الوجود إلا بالاتصال بالعشائر الأخرى من ذات القبيلة.

التجمع البدائي العشائري، الذي ولد في نل النظام الأمومي الجماعي، لن يكسبون إلا أموميا، أي مبنيا على وشائج القرني لجهة الأم. هذا يعني، في الزواج الجماعي، أي قيام رابطة أمومة بين عدة نساء لعدد من الرجال، عدم إمكانية قيام رابطة أبوية: الابن يعرف أمه، لكنه لا يعرف أباه، فالأبوان ينتسبان بالضرورة إلى عدة عشائر، والابن جزء من عشيرة الأم دوما.

إن عشيرة الأم هي نقطة الانطلاق في التجمع العشائري وبالتالي، هي حقبة أساسية في ارتقاء المجتمع البشري. في ظل الأمومة، المرأة تساوي الرجل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

يجهد مؤرخون بورجوازيون لنفي هذه الفكرة التي يتبناها انجلز. هكذا، ابتغى عالم العراقة الألماني هـ. شورتر التدليل أن الرجل كان دوما رأس الأسرة، "حامل المبدأ النشط، الخالق"، وليست الأمومة إلا شذوذا. إن هذه المزاعم التي تهدف البرهنة على أبدية دور المرأة تابعا أو مرووسا، تناقض الواقع. نحضها الأدب السوفيياتي في "الأمومة" بقلم م. كوسفن. وذكر علماء العراقة السوفييات أ. أنسموف، أ. زولاتريف وآخرون شواهد أمومة لدى مختلف شعوب شمال آسيا (إفانكس، أولتش، وسواها). إن العلم البورجوازي يعتبر ممثلا كلاسيكيا للعلاقات الأبوية.

يبدأ أوج نظام العشائر مع العصر الحجري الوسيط ويستمر إلى العصر الحجري الجديد.

تطور القوى المنتجة في العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الجديد الأدنى

منذ بداية العصر الحجري الأعلى، يتراجع الجليد، وتغطي مساحات واسعة من أوروبا وآسيا، الصحراوية والسهبية حتى آنئذ، بغابات كثيفة. وتباد القطعان العشبية الضخمة، التي كانت ضحايا صيادي العصر الحجري الأعلى، أو تهاجر نحو الشمال. وفي نهاية العصر الجليدي (حوالي اثني عشر ألف سنة قبل الميلاد) وتوسع الغابات، ألغيت الشروط المألوفة لإثارة الطرائد: اقتصر الإنسان على صيد الطرائد الصغيرة والأنعام غير الجماعية، كالأيل. جعلت هذه الشروط (القاسية) الحياة المستقرة التي اختيرت في أيام صيد الماموت الوفير، مستحيلة. فاضطر الإنسان من جديد العودة إلى الترحال بحثاً عن الغذاء.

تطلب هذا الوضع في المقام الأول تحسين وسائل الصيد: لذا انتشر القوس والنشاب منذ العصر الحجري الأعلى عند إنسان كايسا والقبائل القريبة منها، وبخاصة في العصر الحجري الوسيط (من الألف الثاني عشر حتى الألف السادس قبل الميلاد، طاردا الخطاف. فالسهم سلاح أكثر إتقاناً من الرمح القصير أو المزراق. وهو عند الرمي أقدر على إصابة الهدف وعند الفشل، يمكن في الحال إطلاق قوس آخر. ويؤمن القوس والنشاب صيد الطيور.

تضم محطات العصر الحجري الأوسط عددا ضخما من الأدوات المصنوعة الصخور البركانية الثلاثية، بشكل شبه منحرف أو بشكل الهلال، بيد خشبية أو قرن، وتساهم بخاصة بترويس السهم. كشف الكثير من محطات العصر الحجري الأوسط في القرم. وعلى نهر الدونetz وغيرها.

في هذه الحقبة أتى الصياد بموازر هام هو الكلب. تعود أقدم عظام الكلب الأليف التي عثر عليها، إلى العصر الحجري الأعلى (أفونتوفا غورا، قرب كراسنويارسك)؛ وتصادف كثيرا عظام الكلب في محطات العصر الحجري الأوسط، في القرم؛ كان هذا أول حيوان دجنه الإنسان وألفه.

ولقد أكره تراجع توفر الصيد الإنسان على البحث عن مصادر غذاء جديدة. وسيكون القطف أغناها: جمعت الرخويات القابلة للأكل، الثمار، الجوز، عسل النمل البري، وسواها. لدى قبائل الساحل، كان جني الرخويات النشاط الاقتصادي الرئيسي، كما تشهد الأكوام الضخمة من الأصداف المكتشفة في أمكنة عديدة وسميت "قنات المطبخ".

مع بدء العصر الحجري الأدنى (حوالي الألف الخامس قبل الميلاد) يأخذ القنص أهمية كبرى. يقيم الصيادون والقناصون على شواطئ البحار وضيفاف الأنهر، في جزر البحيرات، ويبنون غالبا مساكنهم على الأعمدة، قرب الشطآن. في هذه الحقبة. أتقن الناس عمل الخشب. بالبلطات والمطارق الضخمة يصنعون الطوافات، القوارب، والمساكن الخشبية. ومن العصر الحجري الأدنى جمعت بقايا بيوت ومراكب في روسيا البيضاء، استونيا، على مجاري الفولغا العليا وسواها.

حسب تراجع الجليديات، يعمر الصيادون والقناصون أقاليم جديدة: في العصر الحجري الوسيط سكنت استراليا وأمريكا، ومضيق بهرينغ؛ وفي تقدمهم نحو الشمال، وصل الناس إلى شواطئ المحيط المتجمد الشمالي قرب مورمانسك.

إن معطيات علم العراقة تخولنا الحديث بصورة أصبح عن المجتمع البدائي خلال العصر الحجري الأوسط والعصر الحجري الجديد الأدنى، لأن بعض التجمعات البشرية التي درست حفظت لنا بعض آثاره. لا شك أنهم ساروا دربا طويلة تاريخية صعبة؛ فعلاقاتهم الاجتماعية وأيديولوجيتهم تختلف بوضوح عن الأشكال البدائية للمجتمع والأيديولوجيا التي تكونت في أوج عصر الأمومة. لكنهم في الشروط الطبيعية القاسية، مارسوا تقنية واقتصادا قديما. لا بل عادوا أحيانا إلى أدوات العصر الحجري القديم.

إلى الجماعات الأكتية الأكثر تخلفا ينتسب التسمانيون، الذين أبادهم المستعمرون الانكليز في ١٨٨٠، وسكان أستراليا الأصليون، والفوجيون، وشيوجنوب أفريقيا وقبائل أخرى. كانوا يتغذون من الصيد والقطف، وبعضهم يهتم بالقنص، وكانوا يعيشون جماعات صغيرة وعشائر ألفتها الشروط القاسية. الأستراليون خير من يمثل هذه الأفاخذ.

كانوا يستخدمون في الصيد الهراوة المقذوفة والنصال الحادة التي طرقها الحداد، ولرمي السهام كانوا يستخدمون أداة خاصة تقوي الضربة وتزيد مداها، كما استعملوا البلطة الحجرية.

عدا الصيد، كانوا يجمعون بيض اللقلق، الحلزون، الضفادع، والجذور، واستنادا إلى أحد علماء الأعراق، كانوا يعرفون قرابة ثلاثمائة نوع من النباتات القابلة للأكل. كان تقسيم العمل يخضع لمبدأ العمر والجنس: الرجال يصطادون، والنساء والأبناء، مسلحين بالعصي، يبحثون عن الغذاء في التربة. و كان الصيد والقنص يتمان جماعة. كانت شروط القارة الأسترالية الطبيعية القاسية تكره السكان على الترحال المستمر بحثا عن الماء و الغذاء، ولاتقاء البرد كانوا ينصبون أكواخا أو أخصاصا بسيطة، فضلا عن قدرتهم على بناء نوع من البيوت المتينة بأغصان و قشور الأوكالبتوس^١. وثيابهم البسيطة جدا، تنحصر أحيانا بأنواع من النبات الكثيف المربوط عند البطن. كان الأستراليون يعيشون أسرا من أربعين فردا يتقلون على "أرض غذائية" محددة، محرمة على "الغير". وعلى رأس الأسرة الشيوخ.

العصر الحجري الأعلى

يتميز هذا العصر بتقنية جديدة لعمل الحجر: الصقل، الثقب، والنشر. يتم الصقل على شرائح من البلاط المصنوع من الصلصال المبلل. ويتم الثقب بواسطة حجر صوان أو أنابيب من سيقان الخيزران المقاوم، أو العظام المجوفة، تبرم باليد أولا، ثم بواسطة حبال مقوسة؛ على الخشب المروس يصب الرمل الرطب. أن صقل وثقب الصخر الصلب تطور طويل جدا: فصنع بلطة جيدة، بهذه الطريقة، يدوم عدة سنين.

استمرت غالبية قبائل العصر الحجري الأعلى بالحياة على الصيد، القنص والجمع. ففي شمال القسم الأوربي من الاتحاد السوفياتي، كانوا ينكبون بخاصة على صيد وقنص الطيور المائية. كانت المحطات الحجرية في هذه المنطقة تجاور الماء بشكل عام: كان الناس يسكنون كهوبا محفورة في الأرض أو بيوتا مرفوعة على أوتاد، على ضفاف البحيرات. وكان صيد الطرائد الضخمة (كالأيائل، وسواها) يلعب دورا اقتصاديا هاما.

وكان الاقتصاد المؤسس على الصيد والقنص، في العصر الحجري الأعلى، معروفا في مناطق أخرى من الاتحاد السوفياتي: على شطآن بحر آزوف، حول بحيرة بايكال، في آسيا الصغرى. وعلى شواطئ آمو-داريا، اكتشف العالم السوفياتي ستولستوف آثار

^١ - شجر حراجي يزرع في المناطق الحارة - المترجم.

ثقافة مبنية على الصيد والقنص، سميت حضارة كلتمينار (من نهاية القرن الرابع حتى بداية القرن الثالث الألفي قبل الميلاد).

إن مناطق عديدة من الكرة الأرضية سكنتها قبائل ما تزال ثقافتها تحافظ على خصيصة العصر الحجري الجديد. هكذا، في نهاية القرن السابع عشر، صادف الرحالة القوزاقي ف. أتلانوف في كاماشاتكا الاينلمن الذين وصف نظامهم وبدقة المستكشف الشهير س. كراشنينكوف. كانت قبائل الاينلمن قد صنعت الباطات الحجرية، انشغلت بالصيد، بالقنص وبالالتقاط. ولقد دجنوا وربوا أعدادا ضخمة من كلاب الجر وعاشوا حياة مستقرة وثابتة في مخيمات محصنة.

توفر لنا مواد علم العراقة فكرة تامة عن الصيد، والقنص والالتقاط لدى القبائل البدائية. كان الصيد يتطلب جهودا شاقة، ومهارة ودما باردا: يبقى الصياد فترة طويلة يترقب ويكمن للطريدة لمسافة واسعة. ابتكر الصيادون العديد من أنواع الشرك: فخ مطمور بالتراب، أي أجهزة يكفي أن تلمس لكي ينطلق النبوت إلى الحيوان ويرميهِ أرضا؛ المقلاع والشباك للطيور والأيائل. كانوا مهرة بالتقرب من الطريدة، مقنعين بجلد الدواب، فيشدونها بتقليد صوتها. ومن أهم نجاحات صيادي الشمال هو ابتكار التزلج الذي يخولهم مطاردة الحيوان عبر حقول الثلج.

ومن أجل صيد السمك، كانوا يقيمون السدود على الأنهار، والشباك والصنارات (المعروفة منذ العصر الحجري الوسيط)؛ ويأسرون السمك بالققف، والرماح القصيرة والخطاطيف.

ولقد أفضى تحسين القطاف إلى تشكل القبائل التي يسميها ج. ليبس "القاطنون". ومنذ نهاية العصر الحجري الوسيط، سكن الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط شعب ينتسب للحضارة المسماة "ناتوفيين" (الألف الرابع قبل الميلاد)، شعب حصد سنابل الحبوب البرية؛ ولقد تكاثرت هذه القبائل في العصر الحجري الحديث.

يطلعنا علم العراقة بوضوح على أخلاق "القاطنين" الذين حصدوا بانتظام الرز البري والتقطوا ثمار الصنوبر والسنديان. وفي أيام نضج البلوط، كان هنود كالفورنيا يرتحلون جميعا (كل القرية) إلى غابات السنديان، يسقط الرجال الثمار ضربا بالعصي، تحمله النسوة بالسالل، ينزعن قشرته، يجففنه ليصنعن منه مؤونة يحفظ في خصائص مبنية على الشجر

أو الأوتاد، يعد الخبز ومشققاته من البلوط المسحوق. كان القاطفون يعرفون طرقا عديدة لحفظ الحبوب؛ بخاصة التخمير. لكن القنص يبقى المصدر الأهم للغذاء.

ومن جهة أخرى، يتسم العصر الحجري الأعلى بالزراعة والتدجين البدائيين. لقد صاغ عالم الجغرافيا والعراقة الألماني ي. هاهن نظرية مثالية في ظهور الزراعة والتدجين، هادفا لتعليل هذا التقدم بالأفكار الدينية. يرى أن التدجين نجم من عبادة الحيوانات، وبدأ بتأهيل الحيوان المقدس. أما الزراعة، فقد ولدت من عبادة الأرض - الأم، واشتق الحرث من نحلة تقديس خصوبة التربة.

لكننا لسنا بحاجة للجوء إلى النحل والطوائف لفهم كيف ترك "الحصاد البري" المكان تدريجيا للزراعة البدائية، ولتنمية النباتات؛ فبالإنتقاء الاصطناعي، التهجين وخلق الشروط المناسبة (تعمير الأرض، الري، الإصلاح والتحسين)، عدل الناس الأنواع شيئا فشيئا وحسنوها. بداية، كان الحراث يحرثون بالعصا المروسة المستخدمة في اللقط؛ ثم ابتكرت المجرفة. وخلق القاطفون أيضا سكين الحصاد وجرن الحبوب.

كانوا يبذرون غالبا الأراضي السبخية، الغنية بالطمي والمغمورة بالفيضانات. وكانت الأرض الخصبة، المشربة بالماء، تمنوهم بمحاصيل وفيرة. لذا كانوا يعتدون على الغابات. كان العمل هنا قاسيا؛ يمكن قطع العليق والأغصان بالبلطة الحجرية، لكن قص الأشجار الضخمة مستحيل؛ كانوا يعرفونها من قشورها والجذوع تشخص هنا وهناك في الحقول. ثم يحرقون الخشب اليابس ويذرون الرماد كسماد. وبعد أعوام، عند استنفاد التربة، يستصلحون قطعا آخر. كان هذا يسمى زراعة الفرج¹.

أصول التدجين غير واضحة. على كل حال، يفترض أسلوب حياة مستقرة، ظهر بوضوح لدى القاطفين. بداية، كانت الحيوانات المقنوصة تشكل مصدرا هاما للغذاء: تزرب في الأحواش، حيث يتدجن هذا أو ذلك فجأة. ولقد مضى زمن طويل قبل أن ينجح الناس في جعلها تتكاثر عندهم. مع ذلك، لم يكن التدجين أبدا ذا قيمة اقتصادية. فالتدجين الفعلي بدأ مع بدء تأهيل الأنعام، وخلق عروق جديدة، أليفة. فكانت هذه النقطة، الناجمة عن نشاط الإنسان الواعي بطيئة جدا.

¹ - بعكس زراعة السهول. حيث لا أشجار.

لقد اطلعت المرأة بالزراعة البدائية المتولدة من عملية القطاف، أما التدجين، المشتق من القنص، كان أساسا مهمة الرجل. وهكذا، حرص تطور هذين المنهلين الاقتصاديين على تقسيم العمل حسب الجنس.

كان التدجين والزراعة في البداية جنينيين. ارتقاوهما وانتشارهما في الاقتصاد لا يلحظان إلا نادرا في العصر الحجري الحديث: أيا كان الأمر، إنها بداية مرحلة جديدة تاريخية.

يدعي أنصار نظرية "الحلقات الثقافية"، مثلا، الأثني الألماني أو ما نجن، أن الزراعة والتدجين تشكلا في نفس المكان، ومنه انتشرا إلى أقاليم أخرى. بينما بدأ العمل في الأرض وتأهيل الحيوان في بقاع مختلفة في العالم القديم والجديد.

تقع المواطن الأولى للزراعة والتدجين في الشمال الشرقي من أفريقيا، وفي غرب إيران وفي وادي الهندوس. تشهد آثار العصر الحجري الأعلى في وادي النيل، التي تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد، أن الشعب المقيم في شمال شرق أفريقيا كان يربي الخراف، البقر والخنازير، ويبنى القمح والشعير. لكن الصيد والقنص استمر طويلا في لعب دور هام.

كانت أقدم آثار الزراعة والتدجين قد اكتشفت في تركمانيا، في طبقات هضبة أنو (في الألف الرابع قبل الميلاد)، حيث عثر على عظام بقرة، خنزير وخروف، وبقايا قمح وشعير. وعند تخوم الألفين الرابع والثالث، ظهرت الزراعة في شرق القفقاس وفي الأورال: يشهد الكثير من المعاول المصنوعة من العظم والقرون في محطة العصر الحجري الجديد للـ"سهم" (قرب نجني - تاغي، في الأورال) أن الزراعة وجدت هناك في زمن بعيد مما قبل التاريخ.

ففي القرن الثالث قبل الميلاد، كانت بعض قبائل أوروبا تبنى القمح، الشعير، الذرة البيضاء، العدس، الحمص، الجزر، وبدون ريب التفاح. وكانت شعوب الشرق الأدنى تعرف آنئذ كثيرا من النباتات البقلية والمثمرة: البلح، الزيتون، الكرمة، التين، اليقطين، البصل، الثوم، الخس والسهم.

أول الحيوانات الأليفة المنتشرة في منطقة الغابات هي الخنزير والبقرة؛ ولقد تأخر تدجين الخروف.

وشعوب قديمة من أمريكا والمحيط مارسوا طويلا الحرت البدائي للأرض، قبل أن يقدروا على تربية الحيوان، لقلة الحيوانات القابلة للتأهيل وأسباب أخرى طبيعية غير مناسبة. هكذا، البابوس في غينيا الجديدة الذين درسهم العالم الشهير ميكلوكو - ماكلي، كانوا أرقى من الايتلمن، لأنهم زرعوا البقول. ووجدت بذور الزراعة لدى العديد من قبائل الصيادين في البرازيل: أما بعض قبائل الهنود في شمال أمريكا، فقد عرفوا الفاصوليا، الذرة، اليقطين، والتبغ.

أدوات وسلاح قمة نظام العشائر

تطلعنا معطيات علم الآثار والعراقة على بعض نقاط المجتمع البشري في أوج نظام العشائر. إنسان تلك الحقبة أرقى بوضوح من أسلافه المتحجرين، الذين اقتصرت أدواتهم على سلاح صواني بدون تسوية. لكن تجربة وخبرة الأجيال أفضت إلى خلق أدوات متنوعة ومعقدة.

إن أدوات وأسلحة كانت قد صنعت من صخور مختلفة، بخاصة من الصوان، العظم القرون، الخشب، القواقع، الأوتار والجلد وسواها. ففي الصيد، تستخدم كل الوسائل. كان للمزراق والرمح رؤوس حجرية وعظمية، مصنوعة بعناية ومهارة؛ ولزيادة قوة الضربة ومداهما، كانوا يستخدمون شظيرة قنف تشبه الشظيرة الاسترالية. كان الابتكار الأهم هو البوميران، المعروف لدى الاستراليين وبعض شعوب الهنود وأمريكا الشمالية: إنه قطعة خشب مقوسة تطير وهي تدور وتضرب الطريدة فجأة؛ ومنها ما يعود إلى قدمي الصياد إذا أخطأت الضربة.

القوس والنشاب هما السلاح الأكثر انتشارا في ذلك العصر. ثمة أقواس خشبية بسيطة ذات قبضة، وأخرى مؤلفة من نصل خشبي، من قرن وعظم. أبعادها متباينة جدا، تبلغ أحيانا قامة الإنسان. يصنع الحبل من القنب أو الألياف النباتية؛ والسهم مصنوعة عادة من الخشب أو الخيزران، مع ترويسة حجرية أو عظمية وريشة تنظم التحليق. كانت أساليب القذف متباينة جدا. للتسديد على طير، مثلا. ينام بعض الصيادين على ظهورهم، القوس مضغوط بين الساقين، ويمدون الحبل باليدين. كثير من القبائل يسمم أسهمه، ويستعمل هنود شمال أمريكا أسهما مشتعلة.

لم يكن ثمة فرق كبير بين أسلحة الصيد والمركة؛ كانت فؤوس الهنود الحمر

مستخدمة كبلطات بيتية. وكان السلاح الدفاعي يلعب مع ذلك دورا نوعيا قاتاليا: كالدرع ذي الأشكال والأبعاد المتباينة جدا، المصنوع من الخشب، والأكمام المجدولة من الجلد، وسعف النخيل، والخيزران، وسواها.

لم تكن الأدوات الزراعية أقل تنوعا. كانت التربة تتكش بمنكاش يقتصر على عصا بسيطة معقدة ومصنوع في حالات أخرى من نصل حجري أو من قرن الأيل ومن نراع خشبي. وللحصاد، تؤخذ السكاكين والمنجل الحجرية أو الغضارية، تركب عليها صفيحة قاطعة، يضرب القمح بالعصي، ولطحن الحبوب يستخدمون الأجران، حجارة واسعة عالية الحواف أحيانا، وأيدي الأجران البيضوية.

كان إنسان العصر الحجري الحديث يصنع أدوات نوعية، صقيلة دوما أو تكاد: أزامل، بلطات، سكاكين، صحنون وغيرها. تتكيف البلطة الصقيلة مع ذراع مكوع يضغط نوعا من الحجر؛ ثم يثبت بالأحزمة والقطران. وتركب البلطة المنقوبة على ذراع مستقيم. لقد عزز ظهور هذه الأدوات التي مكنت الإنسان من قطع الأشجار الضخمة، عزز ارتقاء المسكن وصقل فن العمل بالخشب.

ولصناعة النسيج، ابتكر مغزل جهاز طرفه الأدنى بمعزل حجري أو غضاري؛ ظهرت مهنة النسيج، كما تثبت لدى العصر الحجري الجديد في وادي النيل؛ كانت الألبسة تخاطم بإبر عظيمة.

إفي أثناء الهجرات، كان الناس يحملون متاعهم؛ كانت وسيلة النقل الأبسط عربية تجرها الكلاب، تحمل الخيمة وأوعية المنزل الصلبة. ومنذ الألف الرابع قبل الميلاد، استعمل الحمار كدابة، ولركوب متن. الأنهار والبحيرات، صنعت، منذ العصر الحجري الوسيط، فلوكات من جذوع الأشجار المحفورة أو من الخشب والقشور.

المسكن، الأثاث، الألبسة

بقيت المغارة المحفورة في الأرض، المستخدمة في العصر الحجري القديم، الشكل الرئيسي للسكن في الإقليم المعتدل في العصر الحجري الحديث.

فضلا عن هذا، كانت الخيمة القائمة على أعمدة مغطاة بالجلود، بلحاء الشجر، وفي المناطق الاستوائية، بسعف النخيل. ثم ظهر البيت المستطيل أو البيضاوي، بجدران وسقف. كان سكان المناطق المعتدلة في أوربا يبنون بيوتهم بعامة بالعصي الضخمة؛

أحيانا كانت الجدران من حصر المنصاف المطلية بمزيج من الغضار والروث. وكانوا يغطون البيوت بالقش، بالخيزران، بلحاء الشجر وبتلع الأعشاب؛ وكان السقف مائلا سهيلا لانسياب ماء المطر. وفي شبه جزيرة البلقان تبنى البيوت بالأجر؛ وفي جزيرة كريت، من الحجارة الكلسية؛ هنا، كان السطح منبسطا، مخصص لجمع ماء المطر وليس لتسريبه. وكانت أرض البيت مغطاة بقشر السندر أو حصير القصب.

كانوا يرفعون البيوت على أعمدة خشبية، غالبا في المناطق المستنقعية، وعلى البحيرات، وفي الأمكنة الجافة، ليتقوا الوحوش والعداء. تثبت على الأعمدة شرائح خشبية وفوقها يقوم العرزال. كشف التنقيب في سويسرا عن آثار هذه الأكواخ، التي صنعها السكان بأدوات العصر الحجري الحديث، العائشين على الزراعة وتربية المواشي والطيور.

لم تكن المساكن الأولى مجهزة بأبواب أو نوافذ: حصيرة بسيطة تسد المدخل. أما في أثناء العصر الحجري الحديث، جهزت قبائل الشرق _ الأدنى بيوتها بأبواب تدور في أجران حجرية. وإن كان الموقد في الداخل، يفتحون ثغرة لتهديب الدخان. يستضيئون بفتيلة تسبح في كوب مليء بالشحم أو المشاعل.

ينام الناس على الأرض، على طبقة من الأغصان، من الجلد والحصير، أو في أراجيح. والوسادة تكاة خشبية. لم تعرف مناطق الشمال السرير إلا في العصر الحجري الحديث. وكانوا يقعدون على الحصير أو الجلود؛ وتعود المقاعد إلى زمن أبعد. كانت أنية المائدة من الجلد، من الخشب، من الأغصان المحفورة أو من القشور؛ وجذع الخيزران المحفور والكرنيب يستخدم كوعاء أو أنية. لكن ابتكار صناعة الخزف أو الفخار مكن الناس من طهي الغذاء بشكل منهجي، الأمر الذي أغنى إلى مدى بعيد انتقاء الأغذية وجعلها أكثر قابلية للهضم. وأقدم طريقة لصناعة الفخار تكمن في الحصول على خليط من الفخار والرمل، لصنع مكاء نابضية تتضد بشكل حلقي أو حلزوني. وهذه الأواني تشوى بالنار. وكان عندهم قدور مدببة أو دائرية.

كانت النساء تمارس هذا الفن: ولدى بعض الشعوب، كان محرما على الرجال الاقتراب من أمكنة صناعة الأواني حيث تزين النسوة أوعيتهم بصمت مطلق. فأفضت صناعة الفخار إذن إلى تقسيم العمل حسب الجنس.

يثبت ظهور الأوعية الغضارية أسلوب حياة أكثر استقراراً، إذ يستحيل نقل هذه الأوعية الثقيلة وسريعة العطب مراراً متتالية.

وتستخدم الألبسة لوقاية الجسم من البرد والهواطل (المطر والثلج وسواه). أشكالها الأقدم هي الصدر، القبعة، المريلة والتتورة، لكن هذا لم يكن متوفراً لدى كل الشعوب. مثلاً، يقتصر لباس الغوجيين على مريلة ومربع جلدي مرمي على الكتفين. وبعد هذا _ وفي بعض الأمكنة فقط _ ظهرت الأكمام والسرراويل. السترة والسرراويل هي أيضاً من أصل أحدث. والمادة الأولية المتنوعة لصنع الثوب، ترتبط بشروط طبيعية: الجلد، أوراق الشجر ولحاؤه، والأسل؛ وبعد ابتكار الغزل والنسيج، صنعوا ثياباً من الصوف وأنسجة من ألياف النبات: كالقراص، الكتان، القنب والقطن.

استخدام الحذاء، الذي تخلف عن اللباس، تحدد في بعض الأمصار، وقد صنع من الجلد والفرو، وأحياناً من الخشب والتيل.

تنظيم الإنتاج

في أوج النظام العشائري، كان الشكل الأساسي للإنتاج هو التعاون البسيط، العمل المشترك من كل عناصر العشيرة. غارات الصيد، والصيد بالشبك، والقطاف المنظم _ ما كان يمكن تحقيق كل هذه الأشكال من العمل إلا تعاونياً.

لم يبلغ تطور الزراعة البدائية الصفة التعاونية للعمل، بل رسخه: لأن صعوبات حرث التربة بأدوات بدائية صلبة (بلطة من حجر لإصلاح الأرض. منكاش من خشب أو عصي بسيطة لتسوية التربة وتمهيدها) كانت تفرض وحدة الجهود.

عاش العمل التعاوني في الأرض مع كل الشعوب التي مارست الزراعة؛ بابوغينيا _ الجديدة بدأوا بتسوية التربة بالعصى المدببة؛ وخلف صفوف الرجال المكلفين بهذا العمل، تأتي النساء المسلحات بمعزقة بدائية، ثم الأبناء الذين يفتنون الكدر بأيديهم ويرفعون الحصى. وكل العمل اللاحق (البذر، العرق، التسييج، الحماية من الطفيليات، الطيور والقواضم، والجني) تقع على كاهل النسوة فالعمل إذن مشترك وتعاوني.

العمل الجماعي يفترض الملكية الجماعية. ترى العشيرة حقل صيدها ملكية مشتركة وتصد بحزم دخول الغرباء والطفيليين إليه. للعشيرة (أو جزء منها) المساكن وأحياناً حتى بعض الأدوات (المراكب الكبيرة، وشباك الصيد)؛ بداية، كانت الدواب ملكية جماعية، هي

الأخرى. أخيراً، تثبت المخلفات الأثنية أن بعض التجمعات الشعبية (مثلاً، النيفيك والاييفيك) كانوا يعتبرون النار ملكية جماعية و لا يتركونها إلا للأقرباء.

بينما كانت غالبية الأدوات ملكية شخصية. القوس والسهام، المناكيش، البلطات، السخ. تخص من استعملها وصنعها. وكذلك الحلي ووسائل الزينة. وانتقل هذا بسرعة إلى المواشي. غير أن الملكية الشخصية لوسائل العمل، كالأنعام والحلي كانت خاضعة للملكية الجماعية لوسيلة الإنتاج الأساسية: الأرض، وانتقال الأشياء الشخصية لم يتم بإرادة صاحبها: التركة تبقى بشكل عام في العشيرة؛ وعلى من يذبح خنزيره أن يوزع اللحم للأهل؛ ليس لأحد أن يكتنز، لأن الرأي العام يريد أن تقسم الفضلة بين أعضاء العشيرة.

التدبير المنزلي كان أيضاً ذا طبيعة مشتركة. كانوا يسكنون في بيوت تتسع حتى لمئات الناس. الشكل الأولي للمسكن الضخم تمثله مساكن حضارة كلتمنار في المجرى الأسفل لنهر آمو _ داريا، التي أعاد تشكيلها س. تولستوف؛ كان بيتاً واسعاً بمخطط دائري، في وسطه تنفذ النار باستمرار. تبني الأسر فيها مطبخها قرب مواقد مقامة حوله وهنا يبيتون.

في تلك الحقبة، كانت قبائل العصر الحجري الحديث في أوروبا الوسطى، الذين يعملون في الأرض بالمنكاش في المناطق الغابية للدانوب والرين، تبني بيوتاً واسعة (حتى ٣٥م طولاً) بجدران من حصر الصفصاف قامت على أعمدة. وتدرجياً، في أثناء الألف الثالث قبل الميلاد، تقلصت أبعاد المسكن، وفي نهاية العصر الحجري الحديث عم الكوخ الصغير المصنوع من الأغصان.

يطلعنا علم العراقة على تربية وأخلاق سكان "البيوت الضخمة". يقص مورغن أن الإروكو كانوا يعيشون جماعات كبيرة العدد في بيوت شاسعة مصنوعة بالأعمدة، مخصصة لخمس حتى عشرين أسرة. لكل أسرة حيز يشرف على الرواق العنام حيث أقيمت المواقد. الجماعة الكبرى تدير بيتها شراكة: كل ثمار الصيد والقمص والزراعة تحت تصرف التعاونية. لكنه لاحظ لدى الإروكو بداية فردانية الإنتاج، فالصيد بالقوس خول الإنسان أن يجني غذاءه بشخصه وحده. كانت ثقافة عهد الفخار فردية جزئياً، وما تزال توزع الأنصبة بين الأسر. إنما ما تزال القبيلة تحافظ على حقوقها في ملكية الأرض. لكل شاب هندي يتزوج، قطعة من الأرض لا يجوز له التصرف بها، مقطوعة من الأرض المشتركة.

هكذا إذن، في أوج نظام العشير، كان يهيمن الإنتاج والإدارة التعاونيان؛ لكن مع تطور القوى المنتجة يتفرد الإنتاج، الأمر الذي أفضى إلى انعزال الأسر. تشهد على هذا الأكواخ الصغيرة لأبناء الدانوب في العصر الحجري الأعلى. ومع ذلك، بقيت وسائل الإنتاج الأساسية بيد العشير.

اقتسام العمل حسب الجنس، الذي يعود إلى العصر الحجري الأدنى، تدعم أكثر فأكثر مع تطور أشكال الاقتصاد الجديدة. للصيد والتدجين المشتقان منه هما مهمة الرجل، بينما تضطلع المرأة بالقطف والجمع، بحرث التربة وتفرغ للشؤون الإدارية والتدبيرية، بما فيها صنع الفخار. ينجم من هذا روابط ذكرية وأنثوية متميزة، لها محالها وأعيادها وطقوسها الخاصة.

العشير الأمومي

كانت الوحدة الأساسية للمجتمع هي العشير الأمومي. أعطت الزراعة والفخار أهمية واسعة للدور الاقتصادي للمرأة، وفي أوج نظام العشير، شغلت المرأة أحياناً موقعاً أوسع من موقع الرجل.

وكما دل مورغان، كانت عادات الإروكوا تمثل سمات الأمومة بوضوح؛ فبعد الزواج، ينتقل الزوج إلى عشير زوجته ويقوم في "بيتها" الواسع. وإن لم يستطع تأمين غذائه يمكن طرده، حتى ولو كان والد أسرة عديدة الأبناء، إلا إذا ناصرتة خالة أو جد متنفذ. وأبناء الإروكوا ينتسبون إلى عشير الأم.

في أوج النظام العشيري، تدعمت الأسرة، دون أن تصبح مع ذلك الخلية القلادة في المجتمع. وبسبب الزواج الخارجي، كان الأزواج ينتسبون إلى عشائر عديدة، وبعد تفكك العائلة كانت أرواقها توزع بين التعاونيتين. لم يكن للأسرة بشكل عام حقل مغذي؛ تبقى الأرواق منفصلة؛ كان الزوج غالباً مرتبطاً بمصالح اقتصادية بأعضاء عشيره ويشترك بنشاطهم الإنتاجي. تؤخذ الأسرة إذن من اتحاد زواجي غير مستقر، مؤقت؛ يعقد الزواج دون صيغ وطقوس متميزة، وينفسخ بسهولة بطلب أحد الزوجين. وكانت تستمر بقايا الزواج الجماعي بشكل زنا مشروع، زواج السلف (إلزام الأرملة على الزواج من أخ المتوفى) أو زواج من الأخت الصغرى (حق ممنوع للرجل أن يتزوج شقيقة زوجته، بعد موتها).

كان أبناء العشير يقطنون سوياً أو يشكلون عدة بيوت أو أسر، تسمى "أسر كبيرة أمومية: وكان لهم حقوق محدودة. للرجل والمرأة حق الانتخاب، وحسب الحاجة، يخلعون رئيسهم والقائد العسكري المسمى أو المعين لمدة الصراع أو الخصام. كان أفراد العشير مستعدون للتأزر والدفاع المتبادل. وللعشير أعياده الدينية ومقابره.

وثمة تنظيم اجتماعي أوسع هو الأخوة المؤلف من عدة عشائر (في الأصل، عدد زوجي). كان عشيراً كبير ثم تفتت. كان تضامنه يتبدى بمجلس عام وأعياد مشتركة؛ وفي أثناء النزاعات المسلحة، تصير الأخوية وحدة مقاتلة. والوحدة التي تلت المجتمع البدائي كانت القبيلة التي تملك أرضاً خاصاً بها تجاور منطقة محايدة، عادة غابية، لها لغتها وعبادتها. ومجلس القبيلة، الذي يضم قادة العشائر والقادة العسكريين، يعلن الحرب ويعقد السلم، لكن القرارات تؤخذ بالضرورة بالإجماع. ورئيس القبيلة، وهو عادة رئيس العشير، لم يكن ذا سلطة واسعة.

نفوذ الرئيس يتعلق بمناقبه الشخصية: مهارة في الصيد، يقظة في المعركة، الحكمة، الأريحية، وسواها. وسلطته غير وراثية، بل مبنية على رضى الجمهور وليس على القوة البدنية: الرئيس معرض دوماً للإزاحة. ليس أغنى من الآخرين. يقتسم مع ذويه حصته من الصيد والمنتوج الزراعي. وهذا يساهم بتوطيد مقامه.

يعترف للمرأة باحترام واسع، إنها التي تضطلع بإدارة المنزل وقد تكون المنظم الفعلي للنشاط الإنتاجي للعائلة الأمومية الكبرى؛ والرئيس نفسه يشاركها في شؤون العشير. وتنظيم العشير ديموقراطي كلياً: لا ميزة لأحد والكل أحرار. الإنسان البدائي لا يميز بين واجباته وحقوقه: اشتراكه بالإنتاج، الاجتماعات، وبالمعارك الحربية حق وواجب. رغم أن هذا النشاط تطوعي، رفضه يعرض الرفض عملياً للإبعاد الاجتماعي. لكننا نخطئ إن نظرنا إلى هذا العهد نظرة مثالية. فالافتقار إلى القوى المنتجة، والاكراه الشخصي في الصراع الضاري مع الطبيعة، تترجم بعادات قاسية، فظة، بخاصة وأد حديثي الولادة المشوهين جسداً وذهناً.

العشير والقبيلة مؤسستان مغلقتان. وبينما تسوى الخلافات الداخلية بمشاركة كل عناصر العشير، تستوجب الأضرار التي يسببها عشير آخر التآزر أو الانتقام: الكل يدافع عن المتضرر. والقبيلة مغلقة هي الأخرى: كل شيء خارجي، هو خارج القانون. وفي

الحديث عن الحرب في المجتمع البدائي، يلذ للكتاب البرجوازيين الرجعيين أن يذكروا "وحشية" قصص سلخ الرأس، وصيادي البشر، وأكل لحم البشر، والتعذيب وسواها. رغم ندرة هذه الوقائع أصلاً، فهي تكثر فقط بتأثير المستعمرين الأوروبيين، المستغنيين من إثارة القبائل ضد بعضها. وليس صدفة أن يتحدث مكلوكو- مأكلي عن مزاج البابو المسالم.

وإن بالغ العلماء البرجوازيون بدور الحروب في المجتمع البدائي، فذلك ليثبتوا أنها قائمة أبداً وليبرروا إندلوجية الفتن غير الإنسانية. في الحق، ليست الحرب ظاهرة طبيعية. فالأستراليون، مثلاً، لا يقتتلون تقريباً أبداً وتطور معاركهم تحت نظر شيوخهم الذين يوقفونها ما أن تذهب الأمور بعيداً. ونادراً ما كانت هذه "الحروب" دموية. فقط في نهاية العصر، يوم وصل نظام العشير إلى أوجه، كثرت النزاعات المسلحة وتوحشت. فمع توطد أسلوب الحياة المستقر وتكريس المؤن، كانت القبيلة الحبيسة ضمن تخوم محددة، تبدو أكثر عدائية تجاه الجوار. وتجر الحروب غالباً الدمار والمذابح. وليس بدون سبب أن تحاط القرى من الآن فصاعداً بالأسوار أو تبنى في أمكنة حصينة صعبة المنال. أحياناً، يلتحق المنهزمون بعشير من القبيلة المنتصرة. وفي أثناء الاحتفال، يأخذ أحد الأسرى ثدي امرأة عجوز، رمزا لتكوين القرابة عن طريق الأم.

و لقد ظهر أخيراً أن ضيق نظام العشير، في الواقع، و تقاليده تخنق مصالح الفرد، تحد حريته، وروح المبادرة لديه. فكان لا بد من تفكك النظام المشاعي البدائي.

الثقافة الروحية في أوج نظام العشير

لقد أكد تنامي قوى النتاج تطور الحياة الروحية للبشرية. فتجويد وسائل الصيد والقتل، وتنجين المواشي، وثقافة المزروعات، وتنفيذ تقب، نشر وصقل الحجر، وبناء البيوت، وصنع الفخار، والنسيج - كل هذا وسع شيئاً فشيئاً تجربة وخبرة الإنسان التقنية وأعني روحه وفكره.

يتبدى تقدم الفكر الإنساني بخاصة بتكوين الآراء المجردة، التي ساهمت بتعميق مبادرة فن الحساب. ففي فجر التاريخ، لم يكن الإنسان يحسب أو يعد ٣،٢،١ على الأكثر. لكن الذاكرة الأريية طورت هذه الطاقة الحسابية إلى مدى جيد: كانوا يتذكرون كل خووف من القطيع، كل شجرة مثمرة، لكنهم لم يتوصلوا بعد لفهم تجريدي لعدد الأشجار أو

الخراف. ولم يتطور الحساب إلا في مرحلة متقدمة من ارتقاء الفكر.

الخبرة المكتسبة في مجال الإنتاج أثرت مباشرة على اللغة. تكشف أعمال مؤسسي الماركسية-اللينينية جوهر وخصيصة اللغة كظاهرة اجتماعية وتجلو إشكالية تطورها المعقد. ولما كانت اللغة مرتبطة صحيحا بنشاط وطاقة الإنسان الإنتاجية، فقد تأثرت مباشرة بالتبدلات التي عرفها الإنتاج. بداية، تمتاز اللغة بطبيعتها المحددة، بسبب التطور البطيء للفكر المجرد. يشير علماء العرافة أن لغات غالبية الشعوب المتخلفة المعاصرة فقيرة بالمفاهيم المجردة. إنها تخلو من كلمات مثل "سمكة"، "طير"، "حيوان"، بينما تكثر فيها التعبيرات المتنوعة التي تدل على أنواع (ونماذج) الأشجار، الحيوانات، الطيور وسواها. وتظهر هذه السمة الوصفية أيضا في بنيتها القواعدية، مثلا، في وجود المثنى والمثلث، في مضاعفة الأنواع (الصفوف) والأغراض، وغيرها. ونمو مكتسبات العمل يوسع المفردات ويجود البنية القواعدية. وارتقاء الفكر يولد باستمرار تعابير مجردة. والخبرة التي انخرتها الأجيال مكنت الإنسان البدائي من التلاوم في الوسط المحيط: يعرف الصياد، استنادا إلى البصمات أو الإمارات، مع أي حيوان يتعامل، ذكرا أم أنثى، شابا بغيرا أو شيخا مدريا. وقد خبر كل عادات الطريدة، ينصب الصياد بمهارة الأشرار في الأمكنة الملائمة. ومشية الحيوانات وهيئته تنبئه بمجيء الربيع. إن روابط عديدة وعلاقات منطقية، تكون خبرة البشرية البدائية.

هكذا تطورت معارف الإنسان الإيجابية، وأفكاره حول نفسه وحول العالم المحيط. والمسير الطويل في السهوب والأحراج ألزمه أن يسترشد بالنجوم، وبالتالي استنادا إلى "الخريطة الكوكبية"، وضع النجوم في السماء. وتعلم بسرعة أن يرسم على الرمل أو القشور خرائط جغرافية بدائية.

عودت الزراعة الإنسان على الفصول التي يجب معرفتها لتنفيذ في الوقت المعين الأعمال، والبذور، مثلا، وأفضت مراقبة الفصول إلى خلق تقويم بدائي، شهوره (القمريّة بعامة) غير متساوية.

لعلاج الأمراض لجأوا إلى الأمور البسيطة، كالتدليك وسواه. لكن هذا الطب البدائي، التجريبي تماما، غير مؤسس بعد على معرفة الجسم البشري.

لم يتوصل الإنسان إلى تركيب الخبرة التي جمعها جيلا بعد جيل إلا ببطء شديد: فقد عرف تحضير سم زعاف دون تعليل فاعليته.

وفي أيام نظام العشير عرف أول أشكال الكتابة: *LA PICTOGRAPHIE* (الكتابة بالرسم).

لرسم حصان مغطى بالبقع يتصور الإنسان البدائي موتان الفحم. وثمة طرق أخرى للنقش أو الحفر: صفائح، أوتار أو حبال معقدة. في هذه الحالة، لكل شارة معناها التوافقي. وظهور أول أشكال الكتابة تشهد على تطور كبير في الفكر المجرد.

تنتقل الخبرة في مجال الإنتاج وبذور المعارف العلمية في العشير أو القبيلة إلى الجيل الجديد بواسطة التربية. وفي ظل نظام العشير، التربية نفسها ذات طبيعة عامة: يوضع الذكور والإناث تحت رقابة كبارهم. يستقل الأبناء بسرعة ويساهمون وهم صغار بنشاط العشير الإنتاجي، بخاصة الصيد، حيث يدون الصبر والمواظبة والمهارة الغريبة. يستطيع صغار الكنعول البقاء لساعات طويلة في الكمين دون حركة، والحبوب في يدهم المبسوطة: وما أن يقع طير على لقيته، حتى يلتقط بحركة رشيفة.

مختلف مكاسب العمل، التدريب الجسدي والصحي، بذور المعارف العلمية وتقاليد العشير _ هي العناصر المكونة للتربية في المجتمع البدائي. وعند حلول المراهقة، يخضع الصبية وأحياناً البنات لسلسلة من الاختبارات تسمى "المبادرة". تتم في أيام الأعياد وفي جو رسمي. إنها فريضة موروثية في أثناء أدائها يلتزم الصبية أن يثبتوا ليس فقط أنهم يعرفون تقاليد العشير والقبيلة، بل أيضاً أنهم يتحملون جيداً مصاعبها: يصفعون، تكسر أسنانهم، تشرط أجسامهم بعمق، ويكرهون أيضاً على التمدد فوق محطبة مغطاة بالأغصان الخضراء، ويستمرون رغم الحرارة وأذى الدخان، حتى يأمر الشيوخ بإنهاء العذاب. فقط، ذلك الذي عبر المحنة أو المبادأة بصير عضواً كامل العضوية في العشير، بينما يحال الضعفاء إلى الامتھان العام.

في المجتمع البدائي، ظهرت بدايات الفنون التشكيلية. وفن العصر الحجري الأعلى تعبيرى بحت. ففي عمق الكهوف المظلمة، على ضوء الجمر الشاحب، وضع الفنانون رسوماً ملونة: أحصنة غضوب، يبزون تخب أو تنام نوماً هادئاً، ومناظر صيد واسعة. وفي الحقبه ذاتها، نقشت بالعاج أو بالقرن تماثيل لأبائل منطلقة بأقصى سرعتها أو كائنات بشرية (بخاصة نساء) يعتمرن قبعات غريبة ويتدلى من كفلهن حزام أشبه بالذيل. وبدءاً من العصر الحجري الأوسط، فقدت الفنون في الغالب واقعيتها: صارت الرسوم تشابكاً

من الشارات التوافقية التي لا تشبه أحيانا الجائن الذي تمتلئه.

الإنسان البدائي يهوى الزينة والمظهر: يشم وجهه أو يديه، يحمل الأساور والأطواق لا بل يصقل أسنانه، يخضب جلده ويصبغ شعره. يزين بعشق مسكنه، أواني المنزل وبعض أثاثه. وخزفه بعمامة مفتول أو مضلع أو محفور. الأعمدة والأواني الخشبية منقوشة وملونة. للوشم والنقش على الخشب معنى رمزي: الدوائر والزخارف عليه تلخص أساطير وخرافات عائلية وملاحم.

الموسيقى البدائية غير معروفة طبعاً إلا من المعطيات الأثنية. الوسيلة الموسيقية الأقدم هي القوس: أحد أطرافه يدخل الفم المستخدم كصندوق رنين، بينما يؤخذ الصوت من الوتر بضربه بقضيب صغير. ثم أعطي القوس صندوق رنين مصنوع، الأمر الذي أفضى إلى ابتكار أدوات وترية. كما حاز الإنسان البدائي أدوات وترية ينقرها الهواء والصدم. كانت الطبلبة-الصغيرة (الطنطن) أكثرها انتشاراً. وكان الرقص المديد يرافق الموسيقى البدائية في أغلب الأحيان. وكثيراً ما يستبدل هذا الرقص برقص إيمائي.

والنقليد الشفهي (الفولكلور) يتميز بتنوع واسع. لكل القبائل أساطيرها التي تستدعي أصل العالم والناس الأولين، وماضي القبيلة، نضال الإنسان ضد الطبيعة وانتصاراته على الوحوش والعمالقة. أساطير مليئة عادة بالتفاؤل والثقة بانتصار الإنسان على القوى المعادية.

الدين البدائي

عدا الآراء الصحيحة حول العالم، كان لدى الإنسان مفاهيم خاطئة، خيالية، أو معتقدات دينية. لإيضاح أصل الدين، نشر ي.ب. تايلور، العالم الإنكليزي للقرن التاسع عشر، نظرية مثالية تقول إن المعتقدات الدينية صدرت من تأملات الإنسان البدائي. وبدفع التفكير بالأحلام والموت، خلص الإنسان إلى أنه له مثيل، روح قادرة على ترك الجسم، ثم بسط هذه الفكرة على الطبيعة، وهب أرواحاً أو نفوساً للحيوانات، للنباتات وللحجارة. إنما، في الحق، لا ينبع الدين من تأملات لغو، لا نفع فيها، بل من نشاط الإنسان المنتج: نتيجة تطور بسيط، غير كاف في الخبرة والفكر البشري، تتكون في الأغلب آراء خطأ حول موقفه من الطبيعة.

في ظل نظام العشير، كان الإنسان يزعم أنه جدير بممارسة سلطة فوق _ طبيعية

على الطبيعة، والحيوانات والنباتات، بواسطة حركات سحرية، تولد مع المعتقدات الدينية. وثمة إيماءات تقلد الصيد حفظت حتى نهاية القرن التاسع عشر لدى عدد كبير من التجمعات الشعبية، بما فيها تجمعات شمال روسيا. الائلمن، مثلاً، يعدون قبل صيد الحوت مجسماً له، مصنوعاً من الأعشاب، يوضع على ظهر امرأة. وهذه ترحف حول الموقد، وينتفض الأبناء عليها ويحولون الجسم إلى نثار. الأمر الذي يؤمن نجاح المشروع. وينظم الهنود الحمر قبل صيد البيزون رقصات تدوم أياماً مستمرة، يجب أن تؤثر على الحيوانات، وتقنعها بالاستسلام للقتل. ولمشاهد الصيد المرسومة في مغائر العصر الحجري الأعلى مغزى سحري.

في الشعائر الأقدم، كثيراً ما تذكر أنواع الطرائد. وتدرجياً، ومع تطور هذه العبادة، يميز من بين جملة هذه الحيوانات (أو النباتات بالنسبة لمن ينكب على القطاف) نوع معين يدعى أنه عضو في العشير المقصود. هو الطوطم، الذي يتصور العشير أنه انحدر منه. هكذا كانت الطوطمية، وهي عبادة الحيوان المصطاد، ثم ترتبط بتطور الإنتاج بشكل مغلوطة.

نحن نتصور أفكار الاستراليين التي تتصور أن كل جمع اقتصادي قريب هذا الحيوان أو النبات أو ذلك (أمو^١، كنغر^٢، وسواها). والشعيرة الأساسية لهذه العبادة تكمن في أن أحد الأقدمين يداعب بطن الناس بحجر خاص، مردداً: "ليكن غداؤكم وفيراً" يعني هذا، بداية، تأمين نجاح النشاط المنتج عن طريق السحر.

لكن المعتقدات الطوطمية تحوي التناقض الذي اشترط تطورها لاحقاً: فالطوطم (المعبود) هو بنفس الوقت غنيمة الصياد والجد العام للعشير. إذن، الصيد للطوطم هو صيد لأحد الأهل، وقتل الحيوان الموقر يجب أن يعرض سمعة الصياد للنكس أو يعرضه للخطر، بل يدينه. تتبدى هذه التناقضات خاصة في عبادة الدب، التي يمارسها الأيغانك وكثير من شعوب سيبيريا الأخرى العائشة على الصيد، التي تتقدم وتطلب عفو وغفران الحيوان الذي اصطادته.

^١ - طائر من فصيلة النعاميات.

^٢ - جنس حيوانات أسترالية من فصيلة الجرابيات، ذو أيد قصيرة وأرجل طويلة.

ثمة عنصر رئيسي آخر في العبادة في ظل نظام العشير هو فكرة "الإلهة"، المرأة الخبيرة في العرافة والسحر والرقى. يكمن هذا في أساس عشير الأمومة، حيث تجسد المرأة اتحاد التعاونية. بينما ينتسب الرجال إلى فخذ أو عشير آخر أو حتى إلى عدد من الأخاذ الغربية. والاعتقاد بقيم المرأة السحرية يعود إلى العصر الحجري الأعلى، كما تثبت النصب النسوية لتلك الحقبة، المكتشفة في أوروبا وجنوب سيبيريا. ويتميز سحر النساء، تشهد هذه النصب على العبادة المنحدرة من الجدة، مؤسسة العشيرة.

في ذات العصر تتشكل عبادة "الروح" أو "النفس" التي تحيي الطبيعة. وهذا ما يسمى الإيحائية^١. فالنفس، حسب المفاهيم البدائية، كحيوان مستنفر، يسكن كل الأشياء.

لدى إنسان العصر الحجري الأعلى فكرة مشوشة جدا حول الموت: بداية، لا يفصلون العالم الواقع عن "الغيبي". والخوف من الموتى أتاها شينا فشيئا، حسب الشعائر التي تهدف لتلطيف الأمر، وحماية الأحياء من الأموات.

في أثناء تطور الزراعة والتججين، انزاحت الطوطمية، الديانة المهيمنة في أيام الصيد والقطاف، إلى المقام الثاني لتحل محلها أفكار شديدة التعقيد. فالأرض، طاقة الخصب، تصير مطرح العبادة التي، في شروط نظام الأمومة، تختلط مع تقديس الإلهة؛ هذا هو أصل عبادة الأرض المرضع، الهادفة المساهمة بخصب التربة والمتجسدة بممارسة سحر خصبها.

ارتقاء الاقتصاد والفكر يدفع الإنسان إلى تمييز قوى الطبيعة المعتبرة حتى آنئذ ككل. ويسند مقام هام إلى القوى الفضائية والظواهر الطبيعية: الشمس، المطر وغيره، التي تؤمن المحصول، ومن هنا كان المجتمع البشري. مع ذلك، كثيرا ما اختلطت عبادة الطبيعة مع بقايا الطوطمية، فتولدت صور هجينة مثل الشمس _ الحيوان أو الشمس _ الطير.

من جهة أخرى، غير توطيد نظام العشير، عبادة الموتى. فلا ينظر إلى المتوفين كقوة معادية يجب التخلص منها بأسرع ما يمكن؛ بل بدأوا يرون فيها أصولا تحميهم. نجم هذا من أن الإنسان، وقد عرف شيئا عن الطبيعة بالتجربة، انتقل من عبادة الجد

^١ - الاعتقاد أن النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في وقت واحد.

الحيوان - الطوطم) إلى عبادة الجد البشري. في هذه الحقبة بدأت خرافات انتصار الإنسان على أخوته - الطيور والحيوانات - والتجسيم، خلع الصفات البشرية على الله وتشبيهه بالإنسان).

وفي عبادة الأرض، وقوى الطبيعة والجنود، يعود الدور الأول إلى التضحية والصلاة. والصلاة هي التعبير المباشر عن الرغبة: تسأل أرواح الحيوانات، والأطفال، موسما وفيرا. وتكمن التضحية الأولى في تغذية الروح لكسب رعايتها. تروى الخرافة الساذجة لدى هنود الشيبويز، أن الشمس عندما تجوع ترمي فتى جميلا بحجر وتمرضه؛ فلا يشفى حتى يقدم لها تضحية.

وهكذا، بالأصل، كانت الشعائر ترتبط بتطورات المنتج وتطرح هدفا لها التأثير على الطبيعة عن طريق السحر. وفي الوقت ذاته، كانت المنعكس الخيالي للقوى المهيمنة على الناس في حياتهم اليومية.

اعتقادا بقدرتهم على التأثير على الطبيعة بالسحر لتأمين نجاح الصيد، القطاف، والقتل، ما كان للناس، بالمحصلة، إلا تعزيز علاقتهم بالطبيعة: وكان السحر يحول اهتمامهم عن الحاجات الفعلية، ويحجم طاقتهم الخلاقة. وهكذا كرس الدين البدائي عجز الإنسان أمام الطبيعة، العجز الذي كان هو نفسه منعكسا.

الفصل الرابع

تفكك النظام المشاعي البدائي.

نشكّل الطبقات والدولة

الزراعة والتدجين الراقيان. بداية التعدين

إن تفكك نظام العشير وتشكّل مجتمع منقسم إلى طبقات هدف أولاً إلى تطور القوى المنتجة وبخاصة الزراعة والتدجين، وقد صارا فرعي النشاط الاقتصادي الرئيسيين.

ففي بعض البلدان ترجع ولادة الزراعة والتدجين الراقيين إلى العصر الحجري الأعلى؛ لكن اتساعهما بدأ في عصر النحاس. يبدأ العمل بالنحاس في الشرق الأدنى حوالي الألف الرابع قبل الميلاد. وصل إلى أوروبا متأخراً، في الألف الثالث. بداية، استخدم الناس النحاس الطبيعي وعالجوه بارداً. واكتشاف إمكانية صهره وجعله بالشكل المطلوب، طور صناعة الأدوات. كان المعدن المنصهر يصب في قوالب، وبعد تجرده تخضع الأداة إلى التشذيب والتلميس بالمطرقة الحجرية.

مع ذلك لم يستطع النحاس إبعاد الحجر، الذي لم يكن آنذاك أقوى منه. فمن أجل أعمال الزراعة، وقطع الأشجار وحتى العمل بالنحاس، كانوا يستخدمون دوماً أدوات حجرية من العصر الحجري الحديث، أو العظم أو الخشب.

ذكر أنجلز طريقين أساسيين لتطور المجتمع في تلك المرحلة. عن الطريق الأول، يذكر قبائل نصف الكرة الغربي. كان لدى هنود المكسيك الجديدة وقبائل أخرى أمريكية، أثناء الغزو الإسباني، تقنيات راقية، مبنية على حرث الأرض بالمعول؛ حيث تزرع النسل للذرة المروية... وكانوا يبنون منازل واسعة بالأجر أو الحجر، تحوي حتى خمسمائة غرفة؛ مع استمرار صناعة الفخار وتطورها بوضوح؛ لكن العمل بالنحاس، كان قد عرف.

واتبعت الطريق الثاني قبال من العالم القديم، كان اقتصادها مبنيا على التدجين الراقى، بينما لعبت الزراعة دورا مساعدا واستعمل الدخن علقا رئيسيا. تثبت المعطيات الأثرية المكتشفة بعد موت أنجلز هذا التحديد للأمور؛ فقد اكتشف، بخاصة في العالم القديم، آثار حرث التربة يشبه حرثها في المكسيك الجديدة، وقد انتشر في أمصار عديدة: وادي النيل، الفرات، الهند وهوانغ _ هو، آسيا الصغرى، شبه جزيرة البلقان، آسيا الوسطى (حضارة أناو)، وأوكرانيا.

في الألف الرابع قبل الميلاد، كان وادي النيل أهلا بحراث مقيمين يعرفون صنع السكاكين، الأبازيم والصنارات من النحاس، مع استخدامهم بخاصة البلطات والسكاكين من الصخور الصلبة، ومرتدات من خشب وأغراض من العاج. وعرفوا تقنية مياه النيل نحو حقولهم، وكان هذا الري الملائم لخصب التربة وحرارة المناخ يضمن محاصيل وفيرة ونموا سريعا للقوى المنتجة. وكانت أعمال المصريين الهيدروليكية مع ذلك بدائية: وكانوا يحفرون أقبية في أجراف النيل لتسهيل وصول الماء إلى الحقول، وأقاموا سدودا لتسوية أمور البيع.

عندما لا تسمح الشروط الطبيعية للحراث في العصر الحجري الجديد أن يروي أرضه، كان يتبأطأ نمو القوى المنتجة طبعا. ففي الألف الثالث قبل الميلاد، كان في أوكرانيا، رومانيا، وبلغاريا حضارة زراعية، سميت تريبولية، اكتشفها عالم الآثار الروسي ف. كفويكو، ودرسها بعمق العلماء السوفييات، وعلى رأسهم ت. باسيك. كان عمل التريبوليين الأساسي حرث الأرض بالمنكاش؛ لكنهم كانوا يربون أيضا أنواعا عديدة من الدواب. كانت معاملهم ومناجلهم بعامة من الحجر أو القرن؛ وكان النحاس يستخدم لصنع البلطات. وبيوت الآجر، الواسعة والمستطيلة، كانت تتألف من عدة بيوت مبنية حول ميدان مركزي.

كانت مادة الأثاث الأساسية هي الآجر: صنعوا منه المناضد، المقاعد، والأفران. كانت فخاريات التريبوليين غريبة تثير الفضول، شديدة التنوع، مع قواعد منبسطة (فالقدر المديب لا يمكن وضعه على المائدة أو في الفرن) عدا أواني المطبخ الضخمة، عثر على الكثير من القدور المدهونة، المزدانة بالحلزونات وأحيانا برسومات تمثل وجوه الحيوانات. بين المواد الأكثر تمايزا لهذه الحضارة، كان ثمة نصب آجرية تمثل الجدود، وتؤكد

عهد الأمومة، طبعاً في شروط الزراعة البدائية، التي تمارسها النساء أساساً. يعود تشكل قبائل الأبوة إلى عهد أقل قدماً: عهد البرونز. والبرونز، خليط من النحاس والقصدير أو مواد أخرى، اكتشف في الألف الثالث قبل الميلاد. كانت الأدوات البرونزية امتن وأرق من الأشياء النحاسية، لكن انتشارها كان بطيئاً: بداية، استخدم هذا المعدن لصنع الأسلحة والحلي. فالنحاس، القصدير، والرصاص التي تشكل البرونز، نادرة في الطبيعة واستخراجها صعب. فقط إتقان الصناعة المنجمية المكشوفة، قليلة العمق في منتصف الألف الثاني، سمحت بحفر مناجم بعمق حتى مائة متر. وحتى هذا العصر استخدم المنكاش والمناجل البرونزية، لكن هذا الخليط، كما النحاس، لم يستطع أن يطرد الحجر.

ساهم استخدام الأدوات المعدنية بإتقان العمل بالخشب. فصار نجارو عصر البرونز يقدرون أن يبنيوا بيوتاً متينة، يربط العوارض بالأسنان أو الحدود. لكن الابتكار الأهم هو ابتكار العربة. التي ظهرت في الشرق الأدنى قبل ٣٠٠٠ عام من الميلاد. ومنذ منتصف الألف الثالث، كانت قد عرفت في سهوب أوروبا الشرقية: في *kourgane* من شط النديبر المستقيم، اكتشفت بقايا عربة خشبية، ذات عجلتين، تعود لتلك الحقبة. كانت عجلاتها الكثيفة، المستديرة، المصنوعة من قطعة، ذات تقوُب دائرية من أجل المحور. إلى هذه العربات الثقيلة كانوا يقرنون الثيران. وحوالي بداية الألف الثاني ابتكرت العجلة الدائرية، الذي مكن من صنع عربات خفيفة، تجرها أحصنة رشيقة.

لم تكن الأشكال القديمة لتربية الطيور والمواشي الموجودة أكثر أيام السنة ترعى في الغابة، الأوراق والبلوط، لم تكن توفر النمو السريع لهذه الأنعام. وكان ارتقاء هذا الفرع الاقتصادي عنصر تشكيل الشعوب المتنقلة التي تربي قطعانها في الوديان في أثناء الشتاء، والمناخ معتدل، وفي الصيف في الجبال. وكان استخدام الحصان كراحلة ركوب وابتكار العربة شروطاً طبيعية للانتقال إلى حياة الترحال، وتعبير آخر، ولادة تدجين واسع. وإلى عنصر الزنك بالضبط يعود تشكيل شعوب هيكسوس، كاسيت، الآيين، الذين ربوا الخيول والحيوانات الأخرى وتميزوا بترحالهم. وفي الألف الثاني كانت المنطقة الغابية في روسيا أهلة بالقبائل الرعوية لحضارة فاتيا نوفو، التي كانت تربي الأبقار، الخراف، الخنازير والخيول. وحتى على الجانب الشمالي للبحر الأسود، صارت تربية المواشي أساساً

اقتصاديا: كان أحفاد التريبوليين، مع الحياة المستقرة، يفضلون التدجين على الزراعة. لكن وضع التدجين كان مغائرا في سهوب جنوب سيبيريا، الأهلة في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد بالمدجنين والزراع القاطنين كهوفا واسعة مستطيلة ذات عدة مواعد. ففي نهاية الألف الثاني، صارت تربية الأغنام الشاغل الأساسي: كان سكان السهول ينتقلون بالعربات، خلف قطعانهم. وهكذا، تحولت التربية التي كانت في البداية مستقرة ومرفقة بزراعة مساعدة، إلى تربية راحلة واسعة.

في هذه الحقبة، كان التدجين في مده الأوسع في القفقاس، أحد مراكز صناعة البرونز. وعصر البرونز في آسيا الوسطى لم يدرس بعد جيدا، وثمة مجال لاكتشافات هامة فيه.

كانت بعض شعوب الاتحاد السوفييتي في مستوى من التطور الملائم المماثل عند بدء اتصالها مع الروس. فالتشوكتش، الذين حافظوا على تقنية العصر الحجري الحديث. كانوا يربون قطعانا واسعة من الرنة، معها يتجولون عبر السهول الواسعة في الشمال. عرف الإنسان الحديد بعد البرونز. والاستخدام المتفرق للحديد النيزكي قد وجد حتما منذ الألف الثالث والثاني، لكن صناعة الحديد الفعلية لم تظهر إلا في نهاية الألف الثاني. انتشر هذا المعدن انتشارا واسعا، وأبعد الحجر والبرونز إلى الخط الثاني. صفتان أمتا له الانتصار على المواد الأولية الأخرى: بداية، يعطي أدوات أصلب وأرق؛ ثم، هو واسع الوجود في باطن الأرض ولا يتطلب استخراج أجهزة معقدة.

لقد أمن تطور صناعة الحديد للناس أدوات متينة وفيرة. صنعوا البلطات والمعاول، المناجل، الرفوش، عدا الأسلحة. وسهل استخدام الأدوات الحديدية العمل بالحجر وأتقنت تسوية الحجارة تقنية البناء. والبالطة والرفش مكننا من استئصال أرومات الأشجار، واستصلاح مساحات واسعة من الغابات من أجل الحرث والرعي.

يتلاءم عصر الحديد مع حرث مناطق واسعة بواسطة سكة الحديد. فالمحراث البسيط، الذي ظهر بدون شك في الشرق الأدنى في الألف الرابع، كان من الخشب، لكن صناعة هذه الأداة، المؤلفة على الأقل من جزئين مترابطين، لم تكن ممكنة إلا بعد انطلاق

^١ - جيوآن مجتر من فصيلة الآليات.

النجارة، الناجم من استخدام أدوات معدنية. في أوروبا، لم يعرف المحراث قبل العصر البرونزي. كان يخدش التربة فقط، وكانوا يضطرون لحث الأرض طولا وعرضا. ولم تعرف سكة المحراث المعدنية إلا في بداية عصر الحديد، واستئصال الجذور الكثيفة نشر استخدام السكة في كل المناطق معتدلة المناخ. وكانت أهم حيوانات الجر الثور والحصار.

العبودية البطزركية

إن حث الحقول والمراعي بالمنكاش في الأراضي المروية، والتدجين الواسع وبخاصة العمل بالأرض بالسكة الحديدية، زاد كثيرا من إنتاجية العمل: صار يوسع الإنسان من الآن إنتاج كثير من الأشياء تؤمن له صيانة قواه وتربية الأبناء. وبدأ الحراث والمربون يجنون من المنتج أكثر من الصيادين والقناصين؛ وكان نتائجهم أكثر أمنا من الطريدة المعرضة للهرب بسهولة. وراحت القبائل الزراعية تدخر كمية من المؤن تحفظ في حفر أو صناديق خشبية؛ وتجنّي القبائل الرعوية من قطعانها الحليب واللحم، الصوف والجلد، اللباد لبناء المسكن، العظام والروث الجاف للتدفئة. وهكذا توصل الإنسان لإنتاج أكثر مما يستهلك. نجم عن هذا الاستغلال، تمكين الإنسان من تملك ملكية منهجية لأكثر مما يستهلك، وهو منتج عمل شخص آخر. وعوضا عن قتل المساجين لتقديم ضحايا للآلهة أو لأكلهم، أو بشكل أصح ضمهم إلى الفخذ أو القبيلة، مكنت من زيادة الإنتاج من استغلال جهدهم، واستثمارهم كاسرى.

تطلعنا مخلفات الأعراق على العبودية البدائية، التي تذكر بالعلاقات الاجتماعية الوليدة في أثناء تشكل أولى الطبقات. تطور هذا بشكل ملحوظ لدى الهنود صيادي شمال غرب أمريكا الشمالية (جزيرة فانكوفر، جنوب ألaska). كانت هذه التجمعات تستخدم بعض الأدوات الحجرية، ينخر النحاس لصناعة الحلي فقط؛ كانت زراعتهم متخلفة ويعيشون أساسا على الصيد، لكن وفرة السمك مكنتهم من إنتاج فضلات ضخمة. فكان المردود الكبير للصيد الأساس الاقتصادي لتطور العبودية لدى الهنود الحمر في أمريكا الشمالية.

حسب إحصائيات علماء العراقة بلغ عدد العبيد في ذاك البلد ٧/١ السكان ولا غرابة، وفي بعض الأحيان الثلث. كان المصدر الأساسي للعبودية هو الحرب؛ كان الهنود يهاجمون جيرانهم غالبا في الليل ويقتادون الأسرى، نساء ورجالا. ومن يؤسر أثناء القتال

يتحول إلى عبد. وتشكل العبيد بطريق النخاسة. كان جهدهم يستغل في مختلف فروع الاقتصاد: يقيمون الحواجز من أجل الصيد، يجدفون على المراكب، ينظفون الأسماك، ويقومون بأعمال إدارة المنزل الصعبة. ونادراً ما اشتركوا بالأعمال النبيلة: صيد الحوت، بناء المراكب، وصنع السهام. كان العبد محروماً من الحقوق وليس لحياته أي قيمة. وكانوا يذبحون في مآتم القيادات. يقص الضابط البحار الروسي ج. دافيدوف، الذي تواجد في ألاسكا في بداية القرن التاسع عشر، يقص أن الهنود في أثناء الاحتفاء بهذه المآتم، يُرقصون عبيدهم ويطلقون عليهم السهام. ويقتل العبيد لدى بناء بيت جديد وعند وصول القائد؛ وكان أكل لحوم البشر يمارس أيضاً. كانت هذه المذابح واحدة من بقايا فترة عدم الإفادة من عمل أسرى الحرب. وكانت غزوات الشباب الهنود ذات طبيعة أخرى: يهربون العبيد بحرق وسلب أكوامهم.

العبودية هي الشكل الأول لاستغلال الإنسان على يد إنسان آخر. وظهورها حادثة طبيعية ومنطقية، ناجمة من تطور القوى المنتجة. على ذلك، عرف هذا العهد تطوراً واسعاً. فاستغلال العبيد ساهم بتكديس الخيرات الناتجة حتماً من النمو اللاحق للإنتاج؛ كما غززت العبودية تقسيم العمل.

أقدم أشكال العبودية هو ما يسمى العبودية الأبوية (أو الأهلية)؛ في ذلك الزمن، لم يكن للعبودية بعد دور في الإنتاج، كان العبد يعمل إلى جانب الرجل الحر، كمساعد له. كما كان له أن يمتلك خصاً، وقطيع خنازير وقطعة أرض. وكان يرتدي ثياباً مشابهة لثياب الحر وأبناؤهما يلعبون سوياً؛ ولم يكن التزاوج بينهما نادراً؛ ليست المرأة فقط تتزوج من حر وتتجب له أطفالاً أحراراً، بل العبد أيضاً يتزوج حرة ويعيش معها في بيته. على ذلك، كان ملكاً لسيده الذي له حق الحياة والموت.

الإنتاج البضاعي

لقد نتج عن تطور الزراعة والتدجين زيادة إنتاجية العمل، وولد تبادل المنتجات بانتظام. التداول المتفرق، النادر عرف منذ عصور قديمة، أما الآن فقط تعمم هذا النهج إلى هذا الحد أو ذاك.

من حيث أن القبائل الرعوية تمتاز عن كتلة البربر، رأى أنجلز أن بذور التقسيم الاجتماعي الواسع للعمل، يختلف عن تقسيمه حسب العمر والجنس، الذي عرف في أيام

نظام العشير.^١ إن القبائل الرعوية، يقول انجلز، تنتج ليس فقط أكثر، بل تنتج أغذية أخرى غير بقايا البربر. وبدأ القاطنون والصيادون يكثرون من تبادل منتوجهم مع القبائل الرعوية المجاورة.

لكن التقسيم الثاني الواسع للعمل الاجتماعي قواهم وحشهم، فافتרכת المهنة عن الزراعة. وعقد اكتشاف البرونز ومعالجة فلزات الحديد صناعة الأدوات بشكل ملحوظ. كان فلز النحاس قد استخرج من المناجم، نقلته العربات في دلاء جلدية وحطم بمطرقة حجرية؛ ثم صب مع الفحم الخشبي في أفران محفورة في التربة، يصلها الهواء بأنابيب آجرية. وللحصول على الحديد بدءا بالفلز، استخدموا موقدا واطنا من حجر وأجر. لكن لا بد من تحديد هذه العقدة الضخمة للحصول على معدن صلب، لهذا يحمى حتى الاحمرار ويطرق بسكبه فوق الفحم الخشبي. يستخدم الحداد كل أنواع الأدوات السندان، المطرقة، القارص، النصل، وسواها. تطلب تعقيد تطور التعدين توفر صاهرين وحدادين مختصين. جعل تطور التعدين التقنية المهنية أكثر تعقيدا، وهذا ما أفضى إلى تباين المهن.

ففي الهند، في فارس، فيما بين النهرين، في مصر، ظهر منذ الألف الثالث الفخاريون الحرفيون الذين، عوضا من صنع القواعد باليد، صنعوها بوضعها على قرص يدور، سمي "قرص الفخار". وفي البلقان، لم يعرف هذا القرص إلا في الألف الثاني. وتعود أقدم الأوعية المكتشفة في تركمانيا إلى الحقبة ذاتها. واستخدم الفخاريون أيضا فرنا خاصا للطهي والخبز. وإلى الفخاريين، الصاهرين والحدادين أضيف النجارون، النساجون، الصائغون، ومعدو الحجارة وغيرهم. وهكذا، تفرعت من الاقتصاد الخدمي عدة فروع كي يصل إلى أيدي المختصين؛ وانفصلت الحرفة عن الزراعة.

سابقا، لم تتم أغلب المبادلات بين أشخاص منعزلين، معرضين للأخطار والأخطاء، بل بين عشائر يمثلهم الرؤساء أو الشيوخ. وكان التبادل البدائي يتم بين مختلف المشاعيات، لأن كلا منها تنتج ذات الشيء، الأمر الذي يجعل التبادل محالا. كانوا يتبادلون بخاصة مواد الزينة والحلي، وأوعية من النحاس والسبائك. ولدى تطور التبادل بين القبائل، لعبت بعضها، بفعل موقعها الجغرافي، دور الوسيط.

غير التقسيم الثاني الواسع للعمل الاجتماعي من طبيعة التبادل وأفضى إلى الإنتاج

^١ - ف. انجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٥٤.

البضائعي، يعني صنع منتجات معدة خصيصا للتبادل. فالحرفيون (الحدادون، الفخارون، والنساجون، الخ) لا يستطيعون الحياة إلا بتبادل ثمره عملهم مع مواد أخرى. وكلما انتظم التبادل برز أكثر مفهوم القيمة والسعر. بداية، كان التبادل تحكميا: اليوم خنزير مقابل حقين، وغدا ستة خنازير. ويستقر التبادل المعادل شيئا فشيئا، ويساهم تطور المهن فيه إلى حد بعيد. ففي العمل الحرفي (الأكثر استقلالا عن الصدفة من الصيد والقطاف من الزراعة والتدجين للبدائيين، حيث يلعب الحظ والوقت دورا واسعا) يتعلم الإنسان ويعرف العلاقة بين كمية العمل المبذول وكمية البضاعة الناتجة. فالحرفي هو أول من قاس قيمة المنتج بكمية العمل المبذول لإنتاجه.

يسعى الإنتاج البضائعي إلى تكديس الثروات، الأمر الذي يولد الحاجة لبضائع قابلة للحفظ والتخزين. فالحبوب، الثمار، السمك والمواد الغذائية الأخرى سريعة التلف، بينما الماشية، القواقع النادرة والمعادن الثمينة تقوم تماما بهذا الدور. يشير ماركس إلى أن تداول البضائع منذ حالتها الجنينية، يولد الميل إلى تقليد ليس المنتج نفسه، بل شكله المتبدل^١ "خروجه الذهبي". عوضا عن تكديس الاحتياط بشكله الطبيعي، يسعى الناس إلى استبداله بالقواقع النادرة أو المعادن الثمينة، التي، عند الحاجة، يمكن تبديلها بمواد غذائية، أوعية، الخ. وبعبارة أخرى، تهدف فضلة المنتج إلى التحول إلى كنز، إلى مال. والكنوز المكدسة شاهد فعلي على قدرة الأسرة الأبوية.

كلما تطور التبادل وحدد مفهوم القيمة، صار المال مقياس القيمة ووسيلة التداول. وتترك المقايضة المكان للتبادل النقدي. بداية، استبدل النقد بالماشية، ثم بالقواقع أو المحارات، والمعادن الثمينة، وغيرها.

تحول الأمومة إلى أبوة

لقد بدل تطور التدجين الرعوي وحرث الأرض بالسكة الحديد والتقسيم الثاني الواسع للعمل الاجتماعي نظام العلاقات الأسرية. يصف أنجلز هذا التبدل فيقول: ثورة في رحم الأسرة. فبينما كانت المرأة في ذروة نظام الأخاذ تتمتع بحقوق الرجل ذاتها و، لدى

^١ - إ. ماركس، رأس المال، المجلد الأول، الكتاب الأول، دار المنشورات الاجتماعية، باريس، ١٩٥٠، ص ١٢٦.

المزارعين البدائيين، كانت تتمتع حتى بالهيمنة كونها ترشد الاقتصاد وتديره، أمن تحول الزراعة والتدجين إلى فرعين اقتصاديين أساسيين، أمن للرجل، الراعي والحارث، الأفضلية وتصدر المجتمع. وألغيت مواقع المرأة حتى في المنزل، الذي انتقل كثير من فروعه إلى مجال عمل الصانع الحرفيين (الرجال). وهكذا، استبعدت المرأة نهائيا من الإنتاج، ولم يبق لها سوى مهام منزلية لا أهمية لها. فضلا عن استخدام المنزل العبيد أكثر فأكثر، الأمر الذي زعزع أعمال المنزل وساهم أيضا بتحجيم المرأة إلى وضع قريب من العبودية. "حتى في البيت، يقول أنجلز، أخذ الرجل بيده الإدارة؛ أبعدت المرأة، استبعدت، وصارت عبدة ملاذ الرجل وأداة عادية من أدوات الإنتاج".^١

في بعض الحالات تيسر للأبوة أن تقوم لدى شعوب ليست من الرعاة ولا من الحراث، بل حيث يحوز عمل الرجل _ صيادا كان أم قناصا _ لسبب أو آخر، قيمة اجتماعية أعلى بوضوح من قيمة العمل المنزلي الباقي في يدي المرأة. بالعكس، حيث بدأ تفكك نظام الأقخاذ في شروط الزراعة البدائية (مثلا، في قبيلة الآشانتس الأفريقية)، كانت المرأة تساوي الرجل أو تفضله. أخيرا، فقد بقيت المرأة، لدى بعض الشعوب، محترمة مكرمة. هكذا، كانت نساء مربحي الخيول السومرية تحمل السلاح، الأمر الذي سهل خلق الخرافة الأغريقية حول قبائل الأمازون.

تم انتقال الأمومة إلى أبوة ببطء، وبأشكال متنوعة. بداية، بقيت أرومة الأمومة وتعايشت مع أرومة الأبوة: اعتبر أعضاء عشير الأب أهلا للأبناء، دون أن يفقد عشير الأم حقوق الأهل. نجم من هذه الخؤولة، نظام علاقات يحتل الخال الدور الأول فيه، أي الذكر الأقرب من جهة الأم. فلا الأب ولا الأم، بل أخ الأم هو المكلف بتربية وحماية الأبناء: وهو أهم من الأب. وتمركز الزواج يتبدل رويدا رويدا. في الأمومة، كان الزواج أموميا: يقيم الزوج في كنف عشير زوجته (أو في عائلة الأمومة الكبرى)؛ وعند الانتقال إلى الأبوة، صار أبوي المركز: تقيم المرأة لدى عشير زوجها.

لا يقتصر تشكل علاقات الأبوة على تغيير تمركز الزواج ومفهوم القرابة، بل ولد نظام أسري جديد: الأسرة الأبوية. تتألف الأسرة الأبوية الكبرى من عدة أجيال من

^١ - ف. أنجلز، أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، ص ٥٧.

الرجال، من صلب أب واحد، يقطنون مع نسائهم في دار واحدة، يتغذون ويلبسون من نفس المصدر ويشتركون في كل ما يملكون. وكما دل العالم الشهير الروسي م. كوفالفسكي، الأسرة الأبوية الكبرى هي انتقال أسرة الأمومة إلى أسرة أحادية الزواج.

على رأسها أحد الشيوخ، سيد البيت، الذي يرشد ويوجه كل حياة المشاعية البدائية. وسيد البيت هذا غالبا منتخب؛ يحد سلطته مجلس الأسرة، المؤلف من نساء ورجال راشدين، يقدم الحساب لهم. الشؤون الهامة: نقل الأرزاق، التدابير الانضباطية التي يفرضها على أعضاء الأسرة، زواج الشباب، الخ، من اختصاص المجلس.

في الأسرة الأبوية، الهيمنة للرجل. ويبدو دور المرأة الثانوي في الزواج الذي تراجع في الأغلب إلى شراء الخطيبة من أبيها. والزواج الواحد مفروض على المرأة فقط: عدم وفاء الزوجة ثمنه عقوبة صارمة، بينما يحق للزوج اتخاذ خيللات له من الأسرى. بوسع الزوج إرسال زوجته، دون أي دعوى، إلى دار والدها، بينما لا يحق للزوجة الطلاق إلا نادرا. فضلا عن هذا، عند وفاة الزوج، على الحليلة أو الخليلة أن تضحي أحيانا، لتتفنن مع الحصان، والسلاح وأغراض البيت المفضلة.

لم تنجم إزاحة المرأة عن أفضلية الرجل "الطبيعية"، كما يدعي بعض المؤرخين البورجوازيين؛ بل هي محصلة ثورة اقتصادية. يكتب أنجلز في هذا أيضا: "لن يتحقق عتق المرأة وتحررها، يجب عليها أولا أن تشارك في الإنتاج على نطاق اجتماعي واسع وأن لا يشغلها العمل المنزلي إلا في حدود ضيقة^١". ولا يمكن ممارسة هذا المبدأ إلا في ظل الاشتراكية التي تؤمن المساواة الفعلية بين المرأة والرجل.

من جهة أخرى، حفظت أسرة الأبوة بقايا من الأمومة: المرأة الأكبر سنا التي توجه عمل النساء الأخريات والبنات الشباب، تتمتع بسلطة واسعة. وتضم الأسرة الأبوية أيضا العبيد.

لقد هدم تشكلها البطيء، نظام العشير. وفي البداية كان العشير الأبوي الذي حافظ على عناصر المشاعية والوحدة: ملكية العشير للأرض، ميراث متبادل في رحم العشير، عند عدم وجود ورثة مباشرين من جهة الأب. الأرزاق، على رأسها الأرض، يجب أن

^١ - ف. أنجلز، أصل الأسرة، الملكية الفردية والدولة، ص ١٤٨.

تبقى مشاعية روحية: واجب المعاضدة، الواصل حتى النار، الأعياد المشتركة والمقبرة المشتركة. لكن العشير الأبوي يمتاز بعمق عن مشاعية الأمومة، لأنه كان يرهص بذور الملكية الخاصة.

ولادة الملكية الخاصة

أفبنى نمو انتاجية العمل إلى جعل الإنتاج فرديا. فالتدجين والزراعة المتطوران، عدا الصناعة الحرفية، لا تقترضان التعاون البسيط إلا في حالات استثنائية، مثلاً، لبناء وترميم منشآت الري. فالإنتاج الفردي هو المبدأ الاقتصادي الذي أنتج الملكية الأسرية وتكديس الثروات بين يدي بعض الناس.

يمكننا أن نرى المرحلة الأولى من التطور لدى هنود شمال غرب أمريكا الشمالية، حيث ما يزال العشير يملك مجاري المياه وأرض الصيد والقطاف، بينما تمتلك الأسر الأدوات، السلاح، العبيد وحواجز الصيد على الأنهار، القوارب والفراء.

ما يزال الاقتصاد الفردي يتطور لدى القبائل الرعوية والزراعية. فيعطي مردود التدجين كل أسرة إمكانية مصارعة الطبيعة. وسمحت البلطة الحديدية لاستصلاح الأرض وسكة المحراث الحديدية المقرونة إلى ثورين، سمحت للأسرة أن تحرث الأرض التي لم يكن حرثها سابقاً إلا على أيدي ومساعدة التعاونية الزراعية المجهزة بالمعول فقط.

كما نجم عن الإنتاج الفردي تركز الوفر بين أيدي بعض الأسر، التي حققت الغنى. ومنذ انهاء الألف الرابع قبل الميلاد، ظهرت في وادي النيل أسر غنية لم تعد تضع موتاهها في حفر بسيطة تعلوها طبقة عليا هشة من الآجر، بل في قبور فخمة، مؤلفة من عشرات

الغرف. وعلى الأرض الروسية، أقدم أثر يثبت وجود أسر غنية، هو *KOURGANE* مايكوف، الذي يعود إلى الألف الثالث. فقد كشفت التنقيبات، تحت ردم سماكته أحد عشر متراً، بقايا رجل بثياب تزدان بسبائك ذهبية تمثل أسوداً وثيراناً، يحيط رأسه إكليلان؛ ستة أنابيب من الفضة، ونصب ضخمة لثيران، كانت تحمل سراقق في السابق. ويضم الرسم أوان ذهبية، فضية، وحجرية، وأغراضاً نحاسية (خنجر، بلطات، الخ)، وجنتين لامرأتين، ضحيتين ولا شك للمأتم لمرافقة المتوفى إلى العالم الآخر.

عدد كبير من الآثار المماثلة يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، لدى انطلاقه صناعة البرونز والتدجين. لقد نقب ب. كوفتين في جيورجيا عن رموس رعاة في بداية

الكلب الثاني، كان موتاهما محمولين على عربات خاصة. وعدا عظام الحيوانات والفخاريات، وجدت أوان ذهبية وفضية مزدانة برسوم حيوانات وعظام. ووجدت قبور غنية أخرى من عهد البرونز في السهوب الجنوبية لشاطيء البحر الأسود وحوض الغولغا.

في الأصل، لم تكن الثروات المكنوزة ملكا حصريا للأسرة. فقوانين الضيافة والتعاقد تلزم الأغنياء الجدد بترك جزء من أرزاقهم إلى أعضاء القبيلة الآخرين: فالرؤساء، والشيوخ. كانوا يلتزمون من حين إلى آخر بذبح الماشية للأعياد وتوزيعها: وعند وفاة أحد الأثرياء، ينفق جزء من ثروته لوجبة المأتم، وجزء آخر يدفن مع الجسد، وجزء ثالث يعود ليوزع في العشير. فالثروة الشخصية، المعارضة لتقاليد النظام العشيري، كانت بداية مقسمة.

مع ذلك، ولد تكديس الثروات بين يدي الأسر الملكية الفردية التي، بخلاف الملكية الشخصية التي تشكلت في أوج النظام العشيري، استخدمت لاستثمار عمل الآخر. فالملكية الفردية في الأسرة تتناول الماشية، المسكن، الثروة، بينما بقيت الأرض طويلا ملكية تعاونية، جماعية. والسمة المميزة للملكية الفردية هي بعامة قابلية التصرف ب: العبيد، الماشية، المراكب، الخ.، التي تخص الأسرة الأبوية، تصير بضائع يمكن بيعها أو تبديلها. وهكذا هربت الملكية الفردية من مراقبة المشاعة.

تفكك نظام العشير

أفضى تطور الإنتاج إلى نشر اللامساواة التي تمثل بداية الصفة الجمعية: تشكل في القبيلة ثلاث شرائح تتمتع بحقوق متباينة. كان هذا إحدى محصلات قسمة العمل: كما أشار ماركس وانجلز، ولدت قسمة العمل البدائية نظام الفئات المغلفة. وبالفعل، حولت قسمة العمل الاجتماعية الكبرى المهنيين، وعلى رأسهم الحدادون، إلى فئة مغلفة، متميزة في بعض الحالات، مهانة في حالات أخرى. وكان المحاربون يقدرّون أن يشكلوا فئة خاصة بهم. وهكذا تشكل، شيئا فشيئا نظام التراتب.

تراكم المدخرات الكبير والمتعاضم، منذ ظهور الكنوز، وتحوله إلى نقود، خلق الفرق بالثروة بين أفخاذ وعائلات أبوية في نفس العشير. إذ امتلكت بعض العائلات الكبرى أخصب الأراضي وأوسعها، القطعان العديدة، والكثير من العبيد. وافتقرت عائلات أخرى، فقدت مواشيتها، وأرهقتها الفاقة في السنين القاحلة. كما ولد اتساع الملكية الخاصة التناحرات التي ساهمت أيضا بتفكك العشير. فمن جهة، يسعى قائد العائلة إلى امتلاك كل ما يخص المشاعة الأبوية، والتأثير على أرزاق ومصائر أعضائها؛ وأصل هذا السعي،

في النهاية العائلة الضخمة إلى العبودية، رابطا إياها بسلطة رب البيت المطلقة. ومن طرف آخر، هدم تزايد فردية الإنتاج على أثر تطور الزراعة بسكة الحديد، العائلة الكبرى من الداخل. ففي أحشائها، ولدت الأسر الصغيرة التي حصلت على ملكيتها الخاصة، و مسكنها و غذائها. حدث تجزؤ العائلة الكبرى بالضرورة قبل هذا: فمن المشاعة الأبوية المتضخمة، انفصلت مشاعة بنوية، كبرت و تجزأت بدورها. لكن كلما تأكّد الاقتصاد الفردي و توطد، ازداد توزع و تجزؤ العائلة الكبرى و أفضى إلى انفراط منهجي للعائلات الصغرى المزودة بملكيتها.

قضى تطور الملكية الفردية بالتدرج على عادة توزيع الأرزاق و أرسى حقوق الأبناء الوراثية. ينجم من هذا أن العائلة الصغرى، أو العائلة الفردية، تأسست على هيمنة الرجل و هدفت إلى ولادة أبناء لا ريب في انتسابهم الأبوي.

إن تبدد المشاعة إلى عائلات صغيرة أغلبها سيعيش وحده، كان كثيفا بخاصة في المشاعات الفقيرة، الأضعف من وجهة نظر الاقتصاد. بالمقابل، تجهد المشاعات الغنية في الحفاظ على تقاليد العشير، وهذا لعدة أسباب أهمها الإبقاء على طاعة عبيدهما. و بالتالي، يأخذ تعاضد العشير في أثناء تشتت المشاعة معنى آخر. وبينما كان في السابق يتوجب على أعضاء التعاونية الأوفر حظا أن يفتسموا مع الآخرين نتائج عملهم، كلما كانت الثروة أكبر، يطلب هؤلاء الذين يقومون بهذا التوزيع هدايا بالمقابل. وينظم رؤساء العائلات الكبرى الغنية ما يسمى بـ"تولاتش"^١، يوم توزع الأدوات، المواشي، الجلود، الخ، على رجال العشير والقبيلة. وبعد فترة زمنية، بعيد من أخذ ما أخذ وزيادة. وفي حالات أخوى، يفترض الرجل من الرئيس أو سيد البيت. وإن لم يستطع إيفاء دينه، سقط في حظيرة الدائن. أخيرا، يتيسر للرؤساء والأعضاء الأغنياء، الأغنى أرضا، ومصائد ومراعسي، أن يعتمدوا دوما على مساعدة الآخرين الذين، لهذا الواقع، يعملون مجانا. وهكذا تصبح مبادئ التعاضد، المنحرفة في أثناء تفكك نظام العشير ونمو الثروة، وسيلة استغلال الأغنياء للفقراء. من هنا كان صالح الأثرياء في الحفاظ على علاقات كانوا هم أنفسهم أدانوها منذ برهة.

هكذا كانت الأسر الأبوية الغنية بالضبط هي التي تحافظ على التقاليد وترعاها بالظاهر. وبينما كانت المشاعات الفقيرة تنفتت إلى أسر صغيرة تنتقل إلى أفضاء أجنبية، يعزل الأغنياء كنبلاء بالولادة. وهم وحدهم يتذكرون أصلهم ويفخرون به، ويتحدثون

^١ — مهرجان ديني عند الهنود الحمر، تتبادل فيه الهدايا.

دوما عن جدودهم الأماجد وهكذا تلتحق الثروة ب"النبيل" الوراثة. في هذه الحقبة من الزمن كان الغنى يرافق النبيل أبدا. والفقراء، ما أن يخرجوا من العشير، حتى يفقدوا دعم المنظمة التي كانوا آنذ قوتها الواقية الوحيدة. لذا يشهد ارتباطهم بالأغنياء، بالنبلاء: يدفعهم عوزهم الاقتصادي والاضطهاد الذي يمارسه أغنياء العشيرة إلى وضع أنفسهم تحت "حماية" الرؤساء والشيوخ، فيتحولون أخيرا إلى شبه عبيد. ويتفاهم التناقض بين الأغنياء والفقراء من الآن ومعه بين العبيد والرجال الأحرار. وعقبت فوارق الثروة في رحم العشير والقبيلة شراكة المصالح البدائية، مخلفة الاستثمار والتناحر.

بداية، بقيت الأسر المستقلة، المنحدرة من العشير الأبوي، على تواصل. لكن فوارق الثروة والتناحر بين غني وفقير قطع كل أواصر القرى. أحيانا، كانت إقامة العائلات الصغيرة عند عشائر أخرى تتم التفكك. فذابت وحدة العشير والأرض، وهي إحدى أهم سمات المجتمع المشاعي البدائي. ولم تعد الأفخاذ الجديدة تبنى على أساس القرابة الدموية، بل على أساس الجوار؛ الأمر الذي نسميه مشاعيات "الجوار" أو "الأرض".

يمكن أن تتكون من أسر كبيرة وصغيرة متقاربة، وأيضا من أسر انحدرت من أفخاذ مختلفة، لكن في الحالين لا يعتبر أعضاؤها أقرباء. فخلق مشاعيات الجوار سهل النشاط الاقتصادي؛ وعند تفكك العشير، كانت الشكل الوحيد الممكن للاتحاد بين الناس، تحفظ في بنيتها بعض سمات العشير: المشاعة تتمتع، مثلا، بحق الأفضلية على أراضي أعضائها، الحق الذي يمكن أن يترجم أحيانا إلى تقسيم جديد دوري، له موظفوه الخاصون. إذن، تتضمن كل مشاعة ثنائية، كانت تسمى تناقضات بين ملكية الأرض المشتركة والملكية الخاصة لكل عائلة: البيت والباحة، الماشية والأدوات. ففي رحم مشاعة الجوار "الزراعة المجزأة"، والملكية الفردية للثمار، تعطي الفردية انطلاقة لا تقاس بتنظيم مشاعات أكثر بدائية^١ وتصير هذه الثنائية مع الزمن مصدر نشئت مشاعية الجوار

وحسب الشروط الطبيعية والتاريخية، تشكلت نماذج عديدة من مشاعيات الجوار المتميزة بدرجة تطور الملكية الخاصة.

الديموقراطية العسكرية

إن تفكك نظام العشير كان يثر العلاقات الاجتماعية القائمة ولا يمكن أن يتم سلميا. ويشير مؤسسو الماركسية أن الاضطهاد هو قابلة المجتمع القديم، وأم المجتمع الجديد. كلن

^١ - ١. ك. ماركس و ف. أنجلز، محفوظات، ي باند، ص ٣٣٧، معهد الماركسية اللينينية.

التبيل الولادي بحاجة لتنظيم يتكفل بالدفاع عن الثروات وكبح كفاح العبيد والفقراء؛ أي بحاجة لبناء فوقي سياسي يعزز مجيء مجتمع جديد طبقي.

بداية، اضطلعت بهذه المهام اتحادات سرية ذكرية، في تلك الحقبة والثروة تحتل أهمية بالغة، لم يكن القبول في الاتحادات السرية مشروطاً بالمبادرة، إنما بالولائم والهبات: فالشباب الذي لا يستطيع أبوه أن يذبح لمأدبة ما كفاية من الخزائر، أبواب الاتحاد مغلقة في وجهه. إذن، في ذلك العهد، لم تكن الاتحادات السرية ترفض العبيد والنساء فقط، بل أيضاً الفقراء الأحرار. ويعارض الاتحاد كلياً من ليس عضواً فيه ويجهد، بالتالي، أن يؤثر على السر. وتعمل الاتحادات السرية على إخافة الجهلاء، وتقتصص منهم، وتخلهم. هيمنت هذه الاتحادات على ظاهرات الحياة الاجتماعية الجديدة، وفي رأسها الأبوة والثروة.

كان لها الحق في أن تعلن قداسة ملكية أعضائها وتعاقب بقسوة وفظاظة من يجسروا على الاعتداء عليها. وبالمقابل، كانت ملكيات الجهلاء أو الدنيويين غير محمية وتتعرض للنهب. ويضطهد الاتحاد المرأة والعبيد، ويبرز سطوة الرجل والسيد. يلزم المدنيين المتخلفين بالوفاء وفي حال العجز يصادر أرزاقهم. وقد يتولى القضاء أحياناً للنظر في الخلافات بين القرى. تمنع إراقة الدم أثناء جلساته القضائية العليا. لكن القرية المدانة كلنت تعاقب بلا رحمة: محاربون مقنعون يهاجمونها ليلاً، على ضوء المشاعل وصخب الصاخبين المتسكعين، ويسيطرون معاملة الناس ويسطون على المواشي.

كلما توطد تفوق الأغنياء والنبلاء، تترك الديمقراطية القديمة المكان لفوقية سياسية جديدة: الديمقراطية العسكرية. يقودها، كما العشير، قائد، مجلس شيوخ وجمعية شعبية. لكن هذه التنظيمات كانت ذات طبيعة أخرى. الرئيس الأكبر يختار من الرؤساء الأغنى في الأسر الأبوية؛ ثم تصير مهمته وراثية في حدود هذه الأسرة النبيلة أو تلك. تستند سلطته إلى غناه، وعدد ذويه وعبيده وناس قبيلته، قبل مناقبه الشخصية. وكثيراً ما دعم سطوته بتصرفات بربرية. هكذا، عند موت زعيم داهومي (أفريقيا الغربية)، يقتل على القبر أولئك الذين حفروا؛ فضلاً عن دفن نسائه، ثمانون راقصاً وخمسون مقلداً أحياء؛ وطيلة ١٦ شهراً التالية ترسل له رسائل للاطلاع على أحداث البلد. يقر الزعيم ومجلس الشيوخ دوماً كل القرارات، بينما يقتصر دور الجمعية الشعبية، المكونة فقط من المحاربين، على الإصغاء لهما منفعة بالصراخ وحققة السلاح.

إن سمي البناء الفوقي السياسي لزمن تفكك العشير ديمقراطية عسكرية، فذلك لأن

الحرب وتنظيم الشعب لهذه الغايات يصير آنئذ وظائف عادية للحياة البشرية. وتبدل الحرب طبيعتها: سابقا كانت تنشب الحرب للثأر من خرق الحدود أو لبسط حقول الصيد، أما الآن تهدف الحرب النهب؛ ويصير الإغتناء مهنة. في هذه الحروب، تتشكل الاتحادات القبلية، يأمرها زعيم منتخب من بين رؤساء القبيلة. وتعزز حروب السلب سلطتها التي تنبسط لتتحول إلى سلطة أبدية. وفي الوقت ذاته، نرى ولادة المؤسسة التي تدعم جدا سلطة الزعيم: جمعية السلاح. فحرب السلب تهيم مكانا لشركات أو حلقات خاصة تتعرض للأخطار والأهوال، مستقلة عن العشير. يجمع الرئيس حوله رجالا يعيشون السلب ويتحدون بالوفاء وليس بالقرب. كان ثمة أبناء نبلاء وعبيد أيضا. وبدعم من جمعيته، يصل الرئيس العسكري أخيرا إلى السلطة المطلقة. هكذا تتفصل المنظمات التي توجهها الديمقراطية العشيرية من الشعب وتصير نقيضه: منظمات هيمنة واضطهاد موجهة ضد الشعب.

ولادة الدولة

ليس في التاريخ البورجوازي مسألة أكثر ضبابية من مسألة الدولة. فالمؤرخون الفلاسفة والحقوقيون البورجوازيون يقدمون الدولة كمنظمة تهدف الخير العام. ويجهدون في تجميلها وجعلها مثالية، المحامي عن كل الناس، أيا كانت طبقتهم. في الحق، الدولة هي "...جهاز مرهون للحفاظ على هيمنة طبقة على أخرى".^١ آلة مؤذية تولد حيث تكون الطبقات قد وجدت؛ يشهد تأسيسها تناقضات لا حل لها من أجل منظمات النظام العشيري. وبعبارة أخرى، ما أن تتشكل طبقات من عبيد وأناس أحرار، ويظهر التناحر بين العبيد والأحرار، بين الأغنياء والفقراء، حتى تظهر الحاجة للمنظمات التي عوضا من إخماد هذه التناقضات، تضغط على مصالح طبقة لمصلحة طبقة أخرى، تضطهد العبيد والفقراء لمصلحة النبل العبودي.

لقد نهضت الدولة على أنقاض نظام العشائر، الذي ربي في رحمه منظمات الدولة. تتميز الدولة بسمتين: بداية، وجود سلطة عامة منعزلة عن المجتمع وتعارضه (أركان هذه السلطة هم أخوة السلاح والمحكمة المكونة من الزعماء والشيوخ)؛ وبالتالي، يتحد الناس حسب مبدأ الأرض وليس مبدأ القرى. تقوم الدولة بمهمتين أساسيتين: كبح مقاومة الجماهير الشعبية (أولا) وتوسيع حدودها أو تدافع عنها ضد الجوار.

يجد تباين الطبقات والدولة تعبيره الإيديولوجي في الدين. ففي أيام انهيار نظام

^١ - لينين، الدولة، للنشر باللغات الأجنبية، موسكو ١٩٥٤، ص ١٥

العشائر، كانت عبادة الأجداد مقدس وتمارس بحماس في كنف الأسر النبيلة، بينما يفقد الفقراء، الزاحفون بأفخاذهم وأخلافهم، بشكل طبيعي حتى ذكرى أصولهم. تنبع من هذا فكرة الفرق بين أقدار مصائر المتوفين بالنسبة للأغنياء (النبلاء) والفقراء. يتصور بعض الشعوب أن الفقراء يتحولون بعد الوفاة إلى حيوانات، بينما يؤول الأغنياء إلى أرواح إنسانية الشكل. وتعتقد قبائل أخرى أن أرواح الأغنياء والقادة فقط خالدة بينما تنفسخ أرواح الفقراء والمرووسين. في أثناء تفكك نظام الأفخاذ، يعود دور يزداد بروزاً لعبادة الرئيس والقبيلة. ينتقل هذا منذ الآن كرمز لرفاه التعاونية. ويطلب منه أيضاً النقاء المطلق: لا وجود للعاهات والجروح؛ لا تناول إلا الغذاء الخاص، مثلاً حليب قطيع معين. والقيافة تشهد على الازدهار العام: تزدهي قبائل الزولو المحاربة ببداية زعمائها المفرطة، فبعضهم ينتقل أو يتحرك بصعوبة بدون معونة. لا ينشغل هؤلاء القادة بالإنتاج، تطول أظافرهم وتطول. وروح القائد المتوفى قوة سحرية واسعة، قادرة على مؤازرة الآخرين. فتطلب عبادة فخمة وتقديساً فريداً وفي أثناء محو ذكرى الوجود الحقيقي للزعيم، تصير روحه روح حامي القبيلة. هو ذا تعدد الآلهة الممزوج بالمعتقدات القديمة: فكرة السلف الحامي الإنساني الشكل تختلط بفكرة الطوطم وقوى الطبيعة. من هنا أدرك الله بداية إلهاً — حيواناً، إلهاً — شمساً، إلهاً — قمراً، الخ. فتشكلت تدريجياً شريحة مغلقة مهنتها إدارة العبادة. هي الكليروس الذي يدعي أنه الأقرب إلى أرواح الجنود ويطلب لهذا السبب حق التأثير عليهم. فمن الآن وصاعداً، التأثير على الأرواح، أي على الطبيعة، هو امتيازها. مرتدياً ثياباً بانخة مزدانة بالتمائم، خافي الوجه وراء قناع حيوان، يصير الكاهن، المسلح بالبطلة وقضيبها الموروث، وسيطاً بين المجتمع وقوى الطبيعة: ومحتكراً هذا الحق، يحول الأفكار السانجة في تمكنه من التأثير بالسحر على الحيوانات والنباتات بواسطة التأثير على المجتمع ذاته. ففي أيدي فئة مغلقة قليلة العدد تدافع عن مصالح النبالة بتصوير العبادة الدينية في المجتمع المنقسم إلى طبقات وسيلة ضغط. والتفسير الخيالي لظواهر الطبيعة التي تهيمن على الإنسان، يستغلها النبلاء، لاستعباد الكادحين، إخضاعهم لقوى فوق — طبيعية وللقوى الاجتماعية الجديدة. ويصير الدين أداة هيمنة في يد طبقة على أخرى.

لقد ولدت الطبقات والدولة في شروط وفترات متباعدة. وهكذا، بفضل الري، يتوصل سكان وادي النيل، قبل اكتشاف البرونز إلى إنتاجية عمل تمكن من تشكل طبقات. وفي هذه المنطقة، وكذلك فيما بين النهرين، تشكلت الدولة في العصر الحجري الجديد، أي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. في حالات أخرى، أمّن ارتفاع الزراعة واتساع التدجين

اقتسام المجتمع إلى طبقات في عصر البرونز، كما لدى الحثيين وبعض شعوب آسيا الأخرى. إنما الأمر بالنسبة لأغلب شعوب أوروبا، آسيا وأفريقيا، يتفكك النظام العشائري ولا تظهر الطبقات إلا بعد خلق صناعة الحديد. وفيما يخص العالم الجديد، انتقل عدد صغير فقط من القبائل (بخاصة في المكسيك والبيرو)، عند اكتشاف أمريكا، إلى تفكك النظام العشائري وأسس أولى الدول. مع أن الحديد لم يكن قد عرف بعد.

اللوحة الأولى: تاريخ المجتمع البدائي

الزمن الجيولوجية	تاريخ مطلق	عصور وحقب	تشكل الإنسان	طبيعة العلاقات الاجتماعية
بليستوسين		العصر الحجوي الأدنى		
محطة قبل الجليدية	منذ مليون سنة	بريسليان	ظهور الإنسان	قطيع بدائي
	من ٤٠٠٠٠ - ١٠٠٠٠	سليمان		
بداية المحطة الجليدية	من ١٠٠٠٠ - ٤٠٠٠	آشليان	إنسان نياندرتال	
التوسع الجليدي الأقصى	حوالي ٤٠٠٠	موسريان		
نهاية المحطة الجليدية	من ٤٠٠٠ - ١٢٠٠	العصر الحجوي الأعلى	الإنسان العاقل	بداية عصر الأمومة
الرابع....	من ١٢٠٠ - ٦٠٠	العصر الحجوي الأوسط		انطلاقه نظام العشائر
	من ٤٠٠ - ٣٠٠	الحجر الجديد الأعلى		تفكك نظام العشير وظهور الطبقات في الشرق
	من ٣٠٠ - ٢٠٠	عصر البرونز		تفكك نظام العشير في المنطقة السهبية من أوروبا وآسيا
	١٠٠٠	عصر الحديد		تشكل الطبقات في اليونان وروما

الفصل الخامس

الشرق

تمهيد

بلدان الشرق القديمة:

في الشرق تكونت أولى الدول. الشرق القديم مساحة شاسعة يبدأ من مصر حتى الصين ويضم الجزء الجنوبي من آسيا وشمال - شرق أفريقيا. نطلعنا تاريخ شعوبه على ولادة وتطور أقدم دول العبودية، المبنية على اقتسام المجتمع البدائي إلى طبقات.

يضم بلدان هذا الشرق شرط طبيعي فريد هو تنالي الوديان الخصبة مع أمصار واسعة صحراوية والسلاسل الجبلية. خمسة وديان واسعة نهريّة: وادي النيل في أفريقيا الشمالية، وادي دجلة والفرات (ما بين النهرين) في الجنوب - الغربي من آسيا، قرب الخليج العربي، وديان الهندوس والغانج في الهندستان ووادي هوانغ - هو في الصين. تحد وادي النيل من الغرب الصحراء الكبرى؛ تتاخم بين النهرين من الغرب الصحراء العربية وفي الشرق سلسلة زاغروس؛ في الشمال والشمال الشرقي من وادي الغانج، تنتصب جبال هماليا؛ ويضم وادي هوانغ - هو في الشمال والشمال الغربي مناطق منغوليا الصحراوية.

إنها لوديان ملائمة جدا للزراعة. تروى فيضانات مجاري المياه هنا الحقول، المناخ حار، التربة ثرية ومهيأة للعمل. وقد بدأت الزراعة هنا قبل غيرها - وتطورت بسرعة.

في أثناء تاريخها، خلقت مجتمعات الشرق حضارات غابرة مارست تأثيرا عظيما على ارتقاء بلدان القديمة أوروبا. كانت الحضارات الأكثر نفوذا هي حضارات مصر، ما بين النهرين وبلدان وسيطة بين فلسطين وسوريا. أقامت

هذه البلدان، الواقعة في منطقة البحر الأبيض المتوسط، علاقات تجارية وثقافية مع جيرانها، بما فيها مناطق الشاطئ الأوربي، التي أخذت قبائلها وشعوبها من مصر، ما بين النهرين، فلسطين، سوريا والهند الكثير من عناصر ثقافتها. انتقلت هذه المقتبسات إلى شعوب أوروبا الحديثة وصارت وقفا على الحضارة الأوروبية.

يبدأ تاريخ الشرق بتشكيل المجتمع العبودي والدولة، أي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. لا يريد التقليد أن ينتهي التاريخ القديم بتوقيات أو حتى بقرن محدد: ففي الغرب، وصل بنا حتى انهيار إمبراطورية الفرس (القرن الرابع قبل الميلاد)، بينما استمر تاريخ الهند والصين حتى قيام النظام الإقطاعي، الذي بزغ في القرون الأولى للميلاد.

هكذا، كانت الأطر الإقليمية والمتسلسلة زمنياً للتاريخ القديم للشرق اتفاقية: لا يشمل بعامة تاريخ الإغريق قبل-الهيلينيين، الذين عاشوا في الألف الثاني قبل الميلاد ولم يقيموا علاقات مع بلدان الشرق. كان المجتمع العبودي والدولة في الشرق ذا سمات نوعية يمكن معارضتها بالسمات القديمة اليونانية-الرومانية.

هذه السمات هي:

١ - تطور ضعيف للنهج العبودي، استمرار طويل للعبودية الأبوية وأشكال استثمار شبه - أبوية. ٢ - تطور ضعيف في ملكية الأرض الخاصة واستقرار مشاعة الجوار. ٣ - بناء فوق سياسي مبني أساساً على سلطة ملكية عاتية (الـ"استبداد الشرقي").

لكنّا ونحن نشير إلى هذه الخواص الاقتصادية والسياسية، يجب أن نتذكر أنها لم تكن دوماً ملازمة لكل الدول؛ وبالتالي، كانت تظهر هنا خصائص واضحة للمجتمع العبودي الكلاسيكي. ومن جهة أخرى، حفظت دول اليونان والرومان القديمة - بخاصة في بداية تاريخها - كثيراً من العناصر النموذجية للأنظمة الاجتماعية في الشرق.

ليس ثمة أي فرق مبني بين دول الشرق والتقديم الكلاسيكي: الخصائص الثانوية التي تميزها لا تمنعنا من تصنيفها في نفس الشكل الاجتماعي والاقتصادي.

يقدم تاريخ الشرق فائدة كبيرة: منها ولدت أول المجتمعات المقسومة إلى طبقات

ووضعت أسس الثقافة المادية والروحية التي تشبهت بها شعوب اليونان وروما وصارت أخيرا وقفا على الحضارة المعاصرة.

مصادر تاريخ الشرق القديم

يجب تقسيمها إلى ثلاث مجموعات: نصوص يونانية ولاتينية، بقايا آثار ونصوص بلغات الشعوب الشرقية.

النصوص اليونانية واللاتينية، التي درست منذ زمن، والتوراة، الذي سنتناوله فيما بعد، تقدمتها حتى بداية القرن التاسع عشر إعادة كتابة تاريخ الشرق القديم. إنها أعمال مؤرخي وجغرافي العصور القديمة، الذين زار بعضهم مصر، سوريا وما بين النهرين، بينما بنى البعض الآخر على معلومات متداولة أو فسروا كتباً اختفت الآن. يبين هؤلاء الباحثين، يعين مكان خاص لهيرودوت، الكاتب اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد، الذي ارتحل كثيرا، لا حظ وتحدث عن أعراف وعادات البلدان التي زارها؛ ويذكر أيضا خرافات كثيرة حول ماضي مصر ودول أخرى.

لكن كتابات هيرودوت أتت بأخطاء جسيمة انعكست على أعمال بداية القرن التاسع عشر. لقد عاش هيرودوت في نهاية التاريخ القديم للشرق: كان معاصرا لملوك فارس، لكن ٢٥٠٠ عام تفصله عن المراحل الأولى لتاريخ مصر وما بين النهرين؛ فضلا عن أنه لم يكن يعرف اللغات الشرقية. وإن كانت هذه الأخبار عن فارس ذات قيمة فعلية، فما يقصه عن مصر سطحي. متناقض وخرافي. فعمل هيرودوت لا يمكن أن يكون مصدرا إلا لدراسة الحقبة الأخيرة من التاريخ القديم للشرق. وينطبق هذا أكثر على باحثين أحدث (سترابون، ديودور، بلوتارك) الذين لا يقدمون سوى معلومات متفرقة غير مترابطة حول هذه المسألة أو تلك.

بين المؤرخين الذين كتبوا باليونانية، يجب تمييز الكاهن المصري مانيتون (القرن الثالث قبل الميلاد): لقد دخل دور محفوظات المعابد وأمل أن يطلع قراء اليونان على تاريخ بلدهم. للأسف، لم يحفظ كتابه ونحن لا نعرف منه إلا استشهادات واردة في أعمال لاحقة. وهذا ما وقع لأعمال الكاهن البابلوني بيروز، معاصر مانيتون، الذي جاول أن يكتب تاريخ ما بين النهرين.

إن نصوص الباحثين القدماء لا تتضمن إلا معطيات عجفاء حول التاريخ القديم

للشرق الأدنى؛ وقليلًا ما تناولوا الهند (ثمة بعض الأخبار حول النظام الاجتماعي والسياسي لهذا البلد في حدود القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد في كتاب ميغاستيم، سفير اليونان لدى الهند، لكنه لم يصلنا إلا ناقصًا)؛ أما الصين، يكاد مؤرخو القديم لا يعرفون عنها شيئًا. لذا بقي العلماء حتى بداية الحفريات الأثرية في الشرق بدون وثائق حول تاريخه فلا يقدرّون إنجاز دراسة معمقة عنه.

بدأت التنقيبات المنهجية في الشرق الأدنى في منتصف القرن التاسع عشر. كشف بوتا ولايار آثارًا في القصور الملكية الآشورية. ثم سبروا خرائب مدن ما بين النهرين الأدنى، منها بابل ولاغاش. وشرع بأعمال ضخمة في مصر، حيث تدرس بقايا المعابد والقبور.

زودتنا حفريات نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ببعض المعارف الشرقية. فقد عثر ج. مورغن في مصر وغرب إيران على آثار سبقت ولادة المجتمع الطبقي؛ ودرس الإنجليزي فلاندر بترى بخاصة مدينة كاهون، ليس عنواحة الفيوم وفي آسيا الصغرى؛ قرب بوغاز-كووي، سبر واكر وماكريدي بي هاتوزا، عاصمة الحثيين.

كان نشاط علماء الآثار كبير الفائدة بخاصة فيما بين الحربين ١٩٢٠ - ١٩٣٠. ففي هذه الفترة اكتشفت حضارة الهند القديمة (تنقيبات موهاندجو - دارو وهارابا في حوض الهندوس)، وتنقيبات عن مدينة صينية قرب أنيان، مقابر ومدن سومرية تخص المجتمع البدائي وأول مجتمع طبقي، دراسة المدن الأكادية (كيش، أشنوناك، الخ)، واكتشاف مملكة مارني في المجرى الأوسط للفرات ومدينة أوغاريت الفينيقية، وتنقيبات في شمال سوريا (مدينتا ألالا وسامال) وكثير من اللقى الأخرى التي غيرت بعمق أفكارنا حول تاريخ الشرق. وأعمال العشرينات والثلاثينات، المنفذة بمهارة رائعة كالتي وردت الآن، كشفت عن تجليات حضارة منسية حتى آنئذ أو يشار إليها لمأما.

وتمت مكتشفات هامة في تلك الحقبة في مصر: نجحوا منذ ١٩٢٢ في العثور على رمس سليم لأحد الفراعنة، وقبل الحرب العالمية الثانية اكتشف رمس آخر في تانيس. ورغم أن الرمس الأول (توتأنخامون) لم تعش سوى عدة سنوات وماتت شابة، والشانني (شيشانك الأول) الذي حكم في نهاية تاريخ مصر القديمة، يوم لم تعد البلاد تستطيع ادعاء السيادة في الشرق-الأدنى، فللمرسمين أهمية استثنائية لدراسة تاريخ وثقافة مصر. وفي شامكارا

سبرت رموس أقدم ملوك وكبار موظفي مصر، أهمها رمس هيمكي الذي يعد أكثر من خمسين حجرة.

ليس لمكتشفات العقد الأخير أن تنافس لقي ماري وأوغاريت، هارابا وآلالاه، لكنها أضاعت بعض قضايا التاريخ القديم: لقد حددت تنقيبات تل-حسن (الآشوري) وأمكنة أخرى آراءنا حول بدء الزراعة والتدجين وحول ظهور مدن في الشرق-الأدنى، وتشهد حفريات جيزير، هاتسور، بيت-تسور مراكز أخرى في فلسطين على الثقافة الرفيعة لهذا البلد في العصر الكنعاني وتسهل بعمق إلقاء نظرة جديدة على تاريخه. وفي حلوان (مصر) بدأوا حفريات لمدينة أموات واسعة تعود إلى أيام تشكل الدولة المصرية، وفي الصين، قرب دانيان، اكتشف قبر ضخم من النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد.

تزودنا أعمال علماء الآثار السوفيات في شرق القفقاس وآسيا الوسطى أيضا بمواد رفيعة الأهمية: حرر ب.بيوتروفسكي خرائب حصن أورارتي في كارمير-بلور قرب إيريفان، ثم اكتشفت في نفس المنطقة بقايا قلعة أورارتي آخر على هضبة آرين-بيرد. وعثر س.تولستوف وزملاؤه على عدد كبير من الآثار التي تتحدث عن تاريخ القبائل الرعوية وولادة دول عبودية في آسيا الوسطى.

فقد أغنى علم الآثار بعمق معارفنا حول معرفة الشرق، وأزال النسيان عن حضارات مهولة أو تكاد تكون غير معروفة. فحفريات مراكز قديمة ثقافية شرقية تأتي دوما بأبناء جديدة تدرس وتعمق معرفتنا. تضيء الحفريات قبل كل شيء الآثار المادية التي توضح بذاتها تاريخ الشرق الاجتماعي والاقتصادي: الأدوات، الفخاريات، عظام الحيوانات، وبقايا أخرى تكشف ارتفاع الاقتصاد؛ وترسم خرائب القصور والمساكن البسيطة صورة عن المدينة القديمة. فقد أعطت حفريات عالم الآثار م.زغوتيم، الذي كشف سنة ١٩٥٤ قبر سبمحاحيت، أحد فراعنة الأسرة الثالثة غير المعروف حتى آنذ، أعطت موادا هامة حول مصر. وأتاحت أعمال باروت في ماري إعادة تركيب قصر ملكي، ومعبد للإلهة عشتار، ومدرسة ملحقة بالقصر. وكانت البيوت الشعبية مبنية بطمي الأنهار.

وتشهد مقبرة ماري على فاروق كبير في الثروة: فإلى جانب قبور بسيطة ترابية، وجدت قبور فخمة من البلاط الحجري. ولوحة مشابهة قدمتها مدن قديمة أخرى في الشرق، منذ كاحون في واحة الفيوم حتى أنيان على ضفة هوانغ-هو.

لكن البقايا المادية لم تميز العلاقات الاجتماعية إلا باختصار: فللحصول على صورة صحيحة لمجتمع العبودية، ولأشكال الملكية أو البنية القوقية السياسية، لابد من الكلام عن التاريخ المدني. ونحن نولي أهمية خاصة لمعرفة الرسوم الموجودة على المواد الأكثر تنوعاً: معدن، حجر، عظم، ألواح آجرية، البردي والرق. فلم تحظ أغلب نصوص لغات شعوب الشرق القديم بالدراسة إلا بعد حفريات القرن التاسع عشر والعشرين. بل إن بعضها فقط عرف (بخاصة باللغتين الصينية والهندية) استناداً إلى مخطوطات محفوظة في بعض المكتبات، وهكذا كان وضع التوراة.

إن التوراة، أحد أعقد مصادر تاريخ الشرق الأدنى، فهو جمع لتقاليد من كل نوع، مخرافات سامية وبخاصة عبرانية، وجدت في حقب متباعدة بدءاً بالألف الثاني وجمعت حوالي القرن الثاني قبل الميلاد. تعرض قسم أساسي منه ولاشك لتحريفات وتعديلات مقصودة، خدمة لمصالح الكهنوت. التوراة هو كتاب العبرانيين المقدس، وبعدهم لبعض المسيحيين: وبعد زمن طويل اعتبر من وحي الله نفسه. فمن الطبيعي أن تقبل المعلومات الواردة فيه حول تاريخ العبرانيين وجيرانهم، في العصر الوسيط دون شكوك أو انتقادات. فقط، نقد التوراة، الذي تطور في النضال ضد الصورة للعصر الوسيط، الاقطاعي، عن العالم، هو الذي رفع الأقوال المكررة، والتناقضات والأخطاء الواردة في هذا الكتاب "المقدس". كان المبادر الأول لهذا النقد هو الفيلسوف المادي للقرن السابع عشر ب.سبينوزا، وقبله، آبن ايزرا، أحد علماء القرن الثاني عشر، الذي أشار إلى تناقضات في النص التوراتي. وتابع باحثون بورجوازيون آراء سبينوزا، (ج.ويلهوزن، س.مونكل وآخرون)، وخطأ مؤرخون سوفيات (ن.نيكولسكي، أ.رانوفيتش) خطوة أخرى على هذا الطريق: عوضاً من الاكتفاء بالنقد الأدبي البحث للنص، جاهدوا في تحرير الآراء الاجتماعية في كل كتاب والأصول الاجتماعية للتعديلات والتحريفات التي أدخلها المنقحون لأغراض معينة، أولها خدمة الأكليروس قديماً وخدمة للسياسة حالياً. ولقد دعمت نقد التوراة النصوص العبرية القديمة المكتشفة في العام ١٩٥٠ في الأردن؛ تعود هذه النصوص إلى الحقبة الممتدة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثاني بعد الميلاد، وتتضمن فيما تتضمن أجزاء من التوراة تختلف بشكل ملموس عن النص التقليدي، المعروف في نسخات القرن الوسيط.

بدل هذا أن معطيات التوراة لاتساهم في دراسة تاريخ الشرق الأدنى (مبدئياً في الألف الأول قبل الميلاد) إلا بشرط تمحيصها بحذر وأستدّة.

أهم بما لايقاس، من وجهة النظر التوثيقية، الكتابات المصرية، السومرية، الأكادية، الحثية، الأورارتية، وغيرها التي عثر على أغلبها في أثناء التنقيبات. كان علماء من القرن الثامن عشر قد اطلع على هذه الآثار (نقوش على الصخر والجدران، والبردي)، لكن أحدا لم يستطع أن يتقصاها، لأن فن قراءة الهيروغليفية (وهي كتابة أغلب شعوب الشرق الأدنى) كان قد أهمل تماماً وقبل دراسة هذه النصوص، كان يجب تعلم إزالة رموزها.

كان شامبوليون قد حل إشكالية الكتابة المصرية المعروفة بثلاثة أشكال، منذ العام ١٨٢٢. اعتمد على نقش مسمى "حجر الرشيد، أو صخرة روزيت"، الموجود في مرفأ مصري بهذا الاسم. تكرر النقش ثلاث مرات: باليوناني، بالهيروغليفي القديم وبحروف ديموطية (سريعة مصرية من أصل أحدث).

كشفت قراءة النص اليوناني أن هذا قرار الفرعون بتوليمية الخامس، بنقوش على الصخرة باللغة المصرية (مرتين) وبال يونانية. فصلنا على ترجمة النص المصري. كان معروفاً قبل شامبليون، أن الأسماء الملكية محاطة بإطار بيضوي، اسمه "كرتوش" بفضل كرتوش، حدد شامبليون الحروف الهيروغليفية التي تشكل اسم الفرعون ووجد مفتاح الكتابة المصرية.

وبالطريقة ذاتها، قرأ في نقوش أخرى أسماء كليوباترا، بيرينيه، الكسندر، ثم حل رموز الأسماء المصرية تحوتمس ورمسيس. وبامتلاكه عدداً كبيراً من الشارات قرأ الأسماء ونصوصاً كاملة. ومعرفة اللغة القبطية (لغة مصرية مسيحية)، والعربية والعبرية أعانته على تذليل هذه المهمة. وضع معنى لكثير من التراكيب الهيروغليفية وأنشأ كتاب صرف ونحو (قواعد) مصرية. ومنذئذ، صار للغة المصرية أساس متين.

ولقد تم حل رموز الكتابة المسمارية على يد غروتغاند واولنسون.

وفي العام ١٨٠٢، نجح غروتغاند، بقوة المثابرة والطروح المبتكرة، بترجمة القسم الأعظم للنقش الفارسي لأيام كيركسس، المرسوم بثلاثة أنماط من الحروف المسمارية. لكنه لم يجد معنى لكل الإشارات، المسألة التي أفلقت علماء العالم قاطبة طيلة نصف قرون

تقريبا. كان نص بابل هو النص الأصعب، الذي تمثل شاراته مقاطع وكلمات كاملة، دون الاهتمام أن كل شارة لها عدة معاني. وكانت الكتابة المسمارية البابلية قد حلت رموزها نهائيا حوالي العام ١٨٥٠م، حصيلة لاكتشاف راولنسن نقشا ضخما للملك داريوس بثلاث لغات - *susienne*، الفارسية القديمة والبابلية- على صخرة بأستون *be'histoun*. كان النص الفارسي، وقد قرئ بدون صعوبة، يتضمن حوالي ٢٠٠ اسم ملك، وبلد وشعب. الأمر الذي مكن راولنسون، هانكس وأوبرت من حل لغز الجزء الفارسي أولا، ثم الجزء البابلي من النقش؛ باستخدام لوحات مدرسية، وجدت أننذ في بقايا قصر آشور بانيبال. كانت تحمل، إلى اليسار، شارات تمثل كلمات تامة (رموز فكرة)، وإلى اليمين، ذات الكلمات مرسومة بمقاطع وشارات صوتية. فالكتابة المسمارية المستخدمة فيما بين النهرين كانت إذن بالغة التعقيد وتبدو بثلاثة أنواع من الحروف: رموز فكرة، مقطعي وصوتي -رمزي *phonogramme*.

كانت قراءة النصوص الحثية والأورائية سهلة، لأنها كانت بالحروف الأكادية؛ لكنها كانت صعبة على الفهم، لأن العلماء كانوا يجهلون هاتين اللغتين. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر حاول العالم الإنجليزي سايس قراءة وترجمة عدة نقوش أورائية؛ فقد أقام عالم الأسلحة ك. كاتكوف لدراسة هذه اللغة وساعده عالم الآشوريات المعروف م. نكوبلوسكي والعالم السوفيياتي ج. فلكتشيلي. وبدأ ب. هروزني بدراسة اللغة الحثية في أثناء الحرب العالمية الأولى؛ وفي العام ١٩٥٢، نشر ج. فريدرك أول قاموس حثي. والآن تحقق تقدم واسع في قراءة النصوص المسمارية. وبالتتابع حل أربعة علماء رموز الرقيم الفينيقية لكتابة الأبجدية.

كانت الهيروغليفية الحثية صعبة على الفهم؛ لكن تنقيبات كارا-تبيي (فني سيليسيا) التي جرت في العام ١٩٥٠ زودت العلماء بنقوش مزدوجة اللغة من القرن السابع قبل الميلاد، بحروف فينيقية وهيروغليفية حثية. وهكذا وضعت القاعدة اللغوية الضرورية لهذه الدراسة.

لم تحل رموز الكتابة الهيروغليفية للغة الهندية القديمة، التي اكتشفت آثارها في أثناء التنقيب في موهندجودارو وهارابا. فضلا عن ضرورة بذل جهود كبرى أخرى من أجل لغات الشرق الباقية: تحديد القواعد، تأليف المعاجم، تحقيق صحة القراءة. فليس بدون

سبب يرى العلماء أنفسهم مضطرين باستمرار على تغيير تدوين أسماء العلم، التعابير، وتصحيح الترجمات الموجودة.

إن النصوص بلغات الشرق القديمة بالغة التنوع. يمكن تصنيفها في عينتين رئيسيتين: وثائق وأخبار. ينتسب للعينة الأولى قبل كل شيء القوانين. عدا التشريع العبراني، الملحق بالتوراة، يجهل علماء القرن التاسع عشر قوانين دول الشرق القديمة: ففي عامي ١٩٠١-١٩٠٢ اكتشفت شريعة حمورابي، ملك بابل. ثم، اغتنى العلم بشرائع أخرى (مقاطع متناثرة غير كاملة ولا مترابطة) من ملوك ما بين النهرين، الحثيين، الآشوريين؛ وقد اكتشف حديثا في توما الجبل (هرموبولس القديمة) أجزاء من الشريعة المصرية تخص الملكية، الإيجار والميراث.

تتألف أغلب المصادر الوثائقية من نصوص رسمية: علاقات الموظفين، عناوين الشراء، كتب العبادة، أعمال التبادل، عقود الإيجار، قرض وإيداع، إلخ. في أثناء التنقيب في مدن ما بين النهرين المنخفضة (شورباك، لاغاش، لارسا وغيرها)، جمعت مئات آلاف الرقم الآجرية تحمل وثائق من هذا الشكل، التي تتيح -بسبب عددها ذاته- التغلغل في حياة البلاد الاقتصادية في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد. واكتشف أرشيفات مشابهة في مدينة كحوريت دي نوزي، في ماري، في مركز مقاطعة غانيوز وغيره. وظهرت بعض الرقم في حفريات كارمير-بلور. وقد نشرت الرقم المسماة "الكنز"، أصول بيرسيولس، مصادر ثمينة لدراسة موضوع ما يزال مجهولا: وضع المنتجين المباشرين في فارس القديمة. أما الوثائق المصرية، البردي أو الحجارة والصخور المنحوتة، فقد وصلتنا بعدد أقل بكثير من عدد الرقم الآجرية؛ فضلا عن أنها تعود إلى أيام السيطرة الفارسية.

المكان الهام تحتله الوثيقة المسماة "اكتشاف حران"، لائحة بمواطن المعمرين الآشوريين في هذه المنطقة، بما فيها المواشي، الأعمال الهيدروليكية، والعبيد، إلخ. تتضمن المصادر الوثائقية أخيرا رسائل الأشخاص المتميزين، الموظفين والملوك، الواصلة إلينا بعدد كبير؛ أهم هذه المراسلات هي رسائل حمورابي، التي تعالج مختلف القضايا الاقتصادية، الإدارية والمالية. وثمة مجموعتان من الرسائل لها أهمية كبرى لفهم تاريخ السياسة الخارجية في الشرق الأدنى: أرشيفات ملوك ماري التي تجلو العلاقات بين

بابل، بلد ماري، وآشور في النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، والرسائل المسماة تل الحمارنة، المرسلة إلى الفراعنة آمثوفس الثالث وأخناتون (نهاية القرن الخامس عشر بداية الرابع عشر قبل الميلاد) من المتنفذين السوريين وملوك آشور، بابل، ميتاني ودول أخرى. وجدت في مكان عاصمة أخناتون، التي تقع خرائبها قرب تل الحمارنة.

تشكل بعض النصوص التاريخية أهم المصادر الإخبارية. هي النقوش الموقوفة للحملات العسكرية، التي نحتها الفراعنة على جدران المعابد الخارجية؛ سير أو تراجم شخصية كاملة للملوك، مثل سيرة إيدريمي، ملك ألاش (القرن الخامس عشر قبل الميلاد)، منقوشة على نصب؛ وقائع تاريخية تشبه واقعات الحثيين، تتحدث بالتفصيل عن النزاعات في السياسة الخارجية بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر.

ونموذج آخر من المصادر، النصوص الأدبية، الأخبار، الحكايات والخرافات التي تطلعنا ليس فقط على تاريخ الثقافة الروحية، إنما على العلاقات الاجتماعية أيضا. هكذا، يمتلك العلماء الآن نصوصا متنوعة مكتوبة بعدة لغات شرقية. يزداد عدد هذه النصوص من عام إلى آخر. وهي المصادر الرئيسية لدراسة تاريخ الشرق.

دراسة تاريخ الشرق القديم

رغم الأعمال الحثيثة، منذ القرن الثامن وبداية التاسع عشر، لمباشرة دراسة تاريخ الشرق القديم، لم تتمكن هذه المحاولات أن تتجح؛ فنقص المصادر جعل الكتابات خيالية وسطحية. فقط تكديس المعطيات الأثرية وحل رموز الكتابة خولت العلماء في النصف الثاني من القرن الماضي الانتقال من المخططات النظرية إلى محاولة إعادة كتابة تاريخ مصر وما بين النهرين استنادا إلى معطيات ملموسة ومحددة. اكتفى بعض دارسي مصر وآشور بعامة بنشر النصوص والتعليق عليها، لكن في نهاية القرن التاسع عشر ظهرت مؤلفات توليف جمعي لـ آد. إيرمن، ج. ماسبيرو وغيرهما.

في هذه الجعبة إذن انبعثت قضية العلاقات بين الحضارة المكتشفة وحضارات الشعوب القديمة الأخرى؛ أرادوا حلها بنظرية الوحدة البابلية، لواضعيها العالمين ف. ديبلتزش وه. وينكلر. تتضمن هذه النظرية ولاشك فكرة صحيحة: بمقارنة الخرافات البابلية بالأساطير التوراتية (وفيما بعد، بعد اكتشاف شريعة حمورابي، الحق البابلي إلى

الحق العبري، استخلص ديليتزش ووينكلر أن التشريع والخرافات الواردة في التوراة ولدت بتأثير الثقافة البابلية، الأقدم جدا من العبرية. إنه استنتاج هام يساعد بخاصة في نقد التوراة. لكن أنصار هذه النظرية (الوحدة البابلية) لم يققوا عند هذه الملاحظة الصحيحة (بل الفريدة): إنما عموما مدعين أن الحضارة الإنسانية كلها تأخذ جذرها من بابل، التي كانت مهد الثقافة المصرية، اليونانية، الصينية وحتى البيرووية (نسبة إلى البيرو).

هكذا وصلوا إلى خلاصة خاطئة كلية، وهي أن القيم الرئيسية للحضارة خلقت حتى نقطة معينة (في بابل)، لتشتع بالتالي في أنحاء العالم قاطبة.

ليس هذا كل شيء. بل على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين، حينما كتب وينكلر أعماله، لم تكن الثقافة القديمة السومرية قد كشفت بعد وكان العلماء يجهلون ولادة الحضارة السومرية البابلية. لذا اتسمت الثقافة البابلية، كما يتصورها وينكلر، بصيغة أسطورية: وكأنها سابقة الوجود، انبعثت جاهزة في لحظة معينة، كما أثينا التي خرجت من رأس زيوس مسلحة.

وبعبارة أخرى، العيب الأساسي في نظرية الوحدة البابلية، هو جحودها الارتقاء؛ الأمر هام جدا بالنسبة لنظرية ظهرت في ظل الامبريالية.

لقد انتقدها بعض العلماء البورجوازيين، في مقدمتهم إد. ماير، مؤلف تاريخ العصور القديمة (١٨٨٤-١٩٠٢) في عدة مجلدات، الذي يتضمن فضلا عن الشرق الأدنى اليونان وروما. استنادا إلى دراسة مصادر عديدة، يتضمن كتاب ماير الكثير من الملاحظات والخلاصات الهامة. كان المؤلف محقا في استقائه وجهة نظر التاريخ العام ليدل على طريق التطور الوحيد لشعوب العصور القديمة. لكنه أخطأ الدرب، لأنه عصرن التاريخ القديم، غير مبال بطبيعة مجتمعاته العبودية وقدمها كإقطاعية في الحقبة الأولى من عهدها وكرأسمالية في الحقبة التالية. إن هذا التعليل اللا-تاريخي للنظام الاجتماعي لبلدان الشرق القديمة اتبعه كثير من الباحثين، مثل ج. هـ. بريستد الذي يجد في تاريخ مصر، حقبة التفكك الإقطاعي والاستبداد المستتير. ولقد عاشت نظرية الإقطاع الشرقي في العصور القديمة حتى يومنا هذا وهي بادية في مؤلفات ل. ديلاپورت "شعوب شرق البحر الأبيض المتوسط" (١٩٤٨) وكتاب ي. درتون وج. فياندير "مصر" (١٩٥٢).

ثمة علماء في الغرب يقبنون التاريخ الفاشي، ويدرسون تاريخ الشرق القديم بالروح

العرقية، ويقومون من القبائل الهند-أوربية (الآرية) عرقا متفوقا، حامل التقدم، ومن جهة أخرى، ينادون بالملكية المستبدة باعتبارها خير الأنظمة.

يحاول آخرون بعفوية إعطاء دورة التاريخ تعليلًا مادريًا فتوصلوا، بدراسة ذات المصادر، إلى وعي خصائص ارتفاع مجتمع الشرق القديم أو نظامه السياسي. نذكر هنا ت. هـ. جاكوبسون الذي شكك، في كتابه المخصص للنظام السياسي لأولى الدول السومرية، بالنظرية الرجعية حول خلود الاستبداد الشرقي. ويهتم المؤرخون الأجانب الحاليون بحيوية بولادة الحضارة في الشرق؛ وأعمال المؤرخ الإنكليزي ج. شيلد تعالج هذه المسألة. ويهتمون أكثر فأكثر بالبلدان الواقعة وراء "الشرق الكلاسيكي": الهند والصين.

لكن رغم النتائج القيمة، ورغم وفرة الوثائق، لم يستطع العلم البورجوازي المعاصر أن يؤلف التاريخ القديم للشرق؛ يشهد على ذلك المجلد الأول من "تاريخ الحضارات القديمة" المنشور في باريس ١٩٥٣، ومؤلفات مثل "تاريخ العالم" (بيرون، ١٩٥٢-١٩٥٦)، و"شعوب وحضارات" (باريس، ١٩٣٦-١٩٥٣). والنظرة المثالية للعالم، والمبالغة في تقدير الدين، إهمال قضايا العبودية، الملكية، المجتمع المجاور: الخصائص الاجتماعية، الاقتصادية، حتى نظرية الركود، وغيرها من السمات النوعية لأغلب المؤلفات المعاصرة حول لتاريخ الشرق.

تسلسل الأحداث (تاريخيا)

إن تسلسل الأحداث واحدة من أعقد قضايا تاريخ الشرق. فالشعوب الشرقية تسورخ الأحداث استنادا إلى سني الملك أو غيرها من الظواهر الطارئة ("السنة التي تلت تأسيس دورماتي")؛ فليس ثمة نقطة انطلاق عامة. ولتثبيت تسلسل الأحداث في الشرق تستخدم لوائح الملوك والأسر المالكة مع إشارة لمدة الملك؛ لوائح الملوك الآشوريين، مثلا كاملة ونتيح تدوين واقعات التاريخ الآشوري انطلاقا من العام ٩١١ قبل الميلاد. تستخدم وثائق مشابهة لتسلسل الأحداث في أزمنة غابرة. هكذا وضع مانيتون لائحة الأسر المالكة المصرية، ويردي تورين تعطي لائحة الفراعنة (مع ثغرات ضخمة، لغير هذا، وليس لتاريخ مصر كله). والعلماء أيضا لم ينجحوا بإعادة كتابة إلا تسلسل الأحداث النسبي (تتابع) أحداث الألف الثالث والثاني قبل الميلاد؛ وذكر الظواهر الفلكية في النصوص

القديمة كانت تخول الباحث من تحديد تسلسل الأحداث المطلق لبعض الفترات التاريخية؛ لكن فصوص الألفين الثالث والثاني لا تذكر منها سوى القليل. والتزامن الوارد في بعض الوثائق (منها رسائل تل العمارنة) يذكر رجال السياسة المعاصرون وسبل تحقيق التواريخ.

ساهمت كل هذه العوامل لوضع التسلسل الحثي العام الذي حدد، مثلاً، ملك حمورابي في القرن الواحد والعشرين، أو العشرين قبل الميلاد. لكن المراسلة الدبلوماسية التي وجدت في ماري و"اللائحة الملكية كورساباد" التي نشرت في ١٩٤٢-١٩٤٣ مكنّت من مراجعة كل التسلسل الحثي في الشرق. وكما دل و.ف. البرايت، يجب "تقليصها" وبخاصة، حكم حمورابي يعود إلى القرن الثامن عشر. أيدت هذه النتيجة لما اكتشف في الآلاه وأوغاريت، التي تشهد على تشابه كبير بين فخاريات أيام حمورابي والقرن الخامس عشر قبل الميلاد. لا يمكن قبل فارق ٥٠٠ عام، فضلاً عن العثور على آثار من عهد حمورابي في طبقة أرضية أحدث من تلك التي جوت الأشياء المصرية من عهد أمنمحيث الثالث؛ وإن دراسة القويم المصري حدثت منذ زمن بعيد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

حتى اليوم لم تحل كل القضايا الخلاف حول تسلسل الأحداث في الشرق، وكثير من العلماء يفضلون على التسلسل "القصير" لأولبرايت التسلسل "الوسطى" الذي يطرحه س.سميث وأ.أنياد. لكن القول بثقة أن التسلسل "الطويل"، المسؤول به قبل الحرب العالمية الثانية، فات زمانه. وستفسي مكتشفات جديدة إلى تحديد أكيد لتسلسل الأحداث في ما بين النهرين ومصر.

لم يعد تسلسل أحداث البلدان الأخرى للألف الثاني (مملكة الحثيين، ميتاني، سوريا، إلخ) إعداداً مرضياً، وسيوضح في الأغلب بفضل التزامن مع تاريخ بابل ومصر.

الفصل السادس

سومر وأكاد

جغرافيا ما بين النهرين

إن وادي دجلة والفرات، الذي حمل الاسم الإغريقي ميزوبوتامي ("بلدان ما بين النهرين")، هو مهد الدول التي تعد بين الأقدم في العالم. ينبع دجلة والفرات من جبال أرمينيا. في البداية، يكونان قريبين جداً من بعضهما، ثم يتباعدان جداً ولا يقتربان مرة أخرى إلا عند دخولهما أرض العراق الحالي. هنا يبدأ الوادي المسمى ميزوبوتامي. يقسم الوادي قسمين، الأعلى والأدنى، يختلفان في شروطهما الطبيعية.

في الغرب، يتأخم ما بين النهرين أرض العرب على طول الوادي تقريباً؛ في الطرف الشمالي الغربي فقط، في القطع الأقرب إلى البحر الأبيض المتوسط، ينضاف إلى وادي أورانت الخصب. في الشرق، على طول ميزوبوتامي، تنتصب جبال زاغروس التي تفصلها عن إيران. يصب ميزوبوتامي في الخليج العربي. لعب هذا الوضع الجغرافي دوراً هاماً في تاريخ البلاد القديم. كانت الشعوب التي تقطنه في صراع مستمر مع القبائل الجبلية والسهبية الراغبة في ولوج الوادي الخصب واحتلاله. أما العلاقات التجارية والثقافية، كانت شعوب الميزوبوتامي تباشرها مبدئياً مع بلدان البحر الأبيض المتوسط (عن طريق وادي الأورانت).

تتألف تربة الميزوبوتامي - الأسفل بخاصة من الطمي. من الألف الرابع حتى الألف الأول قبل الميلاد، كان الشط الذي يحده الخليج العربي إلى الشمال مما هو عليه الآن ب ٢٥٠ كم تقريباً، وكان لدجلة والفرات مصباتها الخاصة. في الأزمنة الغابرة، كانا يصبان ولاشك في البحر في النقطة الأكثر تقارباً بينهما الآن. وتربة الطمي للميزوبوتامي الأسفل خصبة جداً. لكن حرارتها تكلف الناس بذل جهود مضنية.

تتأني الصعوبة أساساً من جفاف الصيف ، والاجتياحات التي يسببها الفيضان . فتفيض الأنهار على مساحة أرضية واسعة تبقى غارقة حتى شهر تموز . وأثناء الفيضان وبعده ، حتى تشرين الثاني ، يكون الطقس جميلاً ، وتجف التربة بالتدريج ، لكن بصورة غير منتظمة أبداً . في المناطق العالية ، يتم الجفاف عاجلاً ، وتفسو التربة كالحجر ، وتتشقق ؛ وفي المنخفضات ، بالعكس ، يتجمع الماء ويشكل أهواراً ، مواطن للحميات . إن لم تحارب هذه الشروط السلبية يعاني الشعب الجوع والأمراض التي تهلكه . هذا ماكشفه لنا التاريخ الحديث والمعاصر للميزوبوتامي . لكن الجزء المنخفض من هذه المنطقة كان في العصور القديمة مناطق خصبة تغذي جماهير غفيرة ؛ وفي ذلك العصر ، كان عمل الأجيال العديدة قد خلق شبكة معقدة من المنشآت التي تنظم الفيضانات وتؤمن احتياطات من الماء من أجل الفصل الجاف .

كان فقدان المواد الأولية (الحجارة والمعادن) ، بشكل تام تقريباً ، وهو مالا غنى عنه لتطوير الاقتصاد ، إحدى سمات هذه المنطقة . ومن حيث الشجر ، لاينبت هنا سوى النخيل ، ثماره غداء ، لكن خشبه ليس مادة بناءية . كان الغضار هو الثروة الوحيدة : يصنع منه الآجر ، والأواني وحتى الرقم للكتابة .

أما في الميزوبوتامي الأعلى ، التربة والمناخ شيء آخر ، فيضاناته أقل إيذاء . وحياته الاقتصادية أيضاً وأخلاقه مختلفة .

تشكل الطبقات والدول في الميزوبوتامي-الأسفل

أقدم قرية اكتشفت في الميزوبوتامي هي تل-حسون ، في شمال البلاد : من العصر الحجري القديم والألف الخامس تحديداً . في هذه المنطقة سارع الناس نحو الزراعة البدائية . وهنا أقام أوائل المزارعين والمدجنين . ويرى كثير من العلماء أن الناس انتقلوا من هنا في بداية الألف الرابع إلى ميزوبوتامي-الأسفل (سومر) وشرعوا يصلحون الأراضي السبخية في مجرى الفرات الأدنى .

لقد استقر الشعب السومري قديماً على المرتفعات التي لاتصلها الفيضانات . كانوا يعيشون من الصيد ، من الزراعة بالنكاش ، ومن تربية المواشي ، و يصنعون الخزف الملون وأدوات نحاسية (الخطاطيف ، السكاكين ، إلخ) . كان الناس يقطنون أكواخا من آجر وخيزران وكانوا أيضاً يجهلون الفارق الاجتماعي والرزقي ، كما تشهد وحدة شكل القبور

والمآتم. ونصب المرأة الأجرية المكتشفة، تجعلنا نقول أن عهد الأم في سومر دام حتى النصف الأول من الألف الرابع.

لقد وسعت منشآت الري كثيراً القوى المنتجة، لأنها أمنت سقاية الحقول بشكل منتظم، لمنع التربة من الانهيار والسبخية. وكانت المياه الزائدة تساق من الأمكنة المغمورة نحو مجمعات وغدران، وفي وقت الجفاف، يصل ماء التجمعات والأنهار نفسها إلى الحقول بالأقنية. ولاتقاء اجتياح الأراضي المنخفضة، تحاط بالسود. بداية، كانت أعمال الري تتم بمآزر هذه المشاعة العشيرية أو تلك، لكن إنجازها على مدى واسع كان يتطلب توحيد جهود عدة تعاونيات.

لقد أفضى التطور اللاحق للقوى المنتجة إلى تفكك النظام المشاعي البدائي وإلى تشكل طبقات اجتماعية. فالأعمال الفنية في النصف الثاني من الألف الرابع تمثل معارك، مقتلين على العربات، واتخاذ أسرى. ثم ينحدر الأسرى إلى عبيد ويستخدم عملهم فني اقتصاد النبلاء أو في بناء منشآت للري.

ترافق هذا التقدم الاجتماعي الهام مع تبدلات ثقافية عميقة: ظهور الكتابة (بداية نقشية)، بناء صروح دينية (معابد) من الطمي الغضار. ولقد وصلتنا من ذاك الزمن نقوش عديدة تمثل مشاهد الصيد أو العبادة وأختام دائرية، الأولى في ميزوبوتامي: يدحرجونها على الآجر الطري حيث تترك بصمة تخدم مثلاً كإشارة على الملكية الخاصة.

يربط مؤرخون بورجوازيون مثل سيبيرس وباروت هذه التطورات الاقتصادية والثقافية بغزو عروق جديدة: وإلى هذا الزمن يرجعون غزو السومريين، الآتين من الخارج، حاملين الكتابة، النقش أو الحفر والأختام وفق البناء الدقيق والجميل. إن هذه النظرية التي تنكر، إجمالاً، فكرة الارتقاء التقني وتقيم مقامه تقدم هجرة شعب ما هجرها بعض الأخصائيين الغربيين بخاصة فرانكورت وشيلد اللذين أثبتا وجود استمرارية بين السكان الزراعيين البدائيين لميزوبوتامي الأسفل وسومري النصف الثاني من الألف الرابع. لذا يدعوا شيلد سكان هذه المنطقة الأقدمين قبائل جنود السومريين.

تظهر طبقة المجتمع ثابتة في الخفريات التي كشفت مدينة الأموات الملكية في أور، في جنوب سومر (بداية الألف الثالث). بخلاف قبور العشير. كانت مدينة الأموات هذه مبنية بالآجر، مؤلفة من عدة غرف؛ والميت المزدان بالحلي كان مدفوناً مع عربات مقرونة

إلى ثيران، ومحاربين مسلحين، وفصيل من العبيد من الجنسين. وقبور الملوك في أور (ومراكز أخرى من ميزوبوتامي، مثل كيش وماري) تشهد على تشكل الدولة في هذه البلاد في بداية الألف الثالث.

في الأصل، تشكلت هنا دول مستقلة (أريدو، أور، شوروياك، أوما، لاغاش، ليسش، ماري، إلخ)، كان سكانها غير متجانسين: أكاد، الواقعة في شمال سومر، والمجرى الأوسط للفرات تسكنهما قبائل تختلف عن السومريين، من حيث الشكل واللغة. تتكلمان لغة سامية (الأكادية) وتقرب قبائل السهوب التي تعيش في غرب ميزوبوتامي؛ لاشك في أن سامي أكاد أتوا من الغرب.

مع ذلك، لم يكن السومريون والأكاديون في بداية الألف الثالث يختلفون من حيث مستوى التطور الاقتصادي: كان الشعبان يشكلان دولا عبودية في محطتها الأولى.

اقتصاد ومجتمع سومر وأكاد

إن نصوصا عديدة رسمية (آية بخاصة من أرشيفات شوروياك ولاغاش تطلعنا بالتفصيل على اقتصاد ميزوبوتامي في منتصف الألف الثالث. أساس الزراعة يقوم على الري، شبكة واسعة من الأقنية، السدود والحراجز التي تتيح سقاية منتظمة للحقول. ويتم العمل بالأرض بواسطة محراث بسيط من الخشب، تجره الحمير أو الثيران؛ وكان المنكاش مستخدما بتوسع. والمنجل منشار من صوان بغمد آجري. يقطع ساق القمح بعامة تحت السنبلة تماما، وبعد الحصاد تجلب الماشية إلى الحقول. لدرس السنايل، تدوسها على البيدر الثيران والحمير. يجمع الحب في أكوام، يذرى بالمذراة وينقل إلى الامراء. ثم يهرس أو يسحق بالحجر.

كانت الحبوب الأكثر انتشارا هي الشعير والحنطة الرومية التي تستخدم لصنع الخبز والجة. وكان السومريون يزرعون الكتان، العدس والسمسم لاستخراج الزيت. والشجرة المثمرة الأهم هي النخيل؛ من خشبها تصنع الأوعية المنزلية، وبأليافها -الحبال والحصر؛ تشكل ثمارها أغذية متنوعة. ويزورها المنقوعة بالماء تستخدم علفا. وتأتي الكرمة من سومر، وكان خمر الشمال هاما بشكل عام.

كانت تربة المواشي أيضا متطورة في ميزوبوتامي السفلى: فالنصوص الأقدم تذكر وفرة الغنم. ترعى المواشي في المراعي المستنقعية والجبلية؛ وفي الزرائب، تغذى

بالحبوب. وتعطي الأبقار اللحم والحليب الذي يصنعون منه الزبدة والجبن؛ وتربى الخراف للحمها وصوفها؛ وكما قلنا أنفاً، تستخدم الحمير والثيران دابة ركوب. لم يعرف السومريون الحصان. أخيراً، لعبت تربية البط والحيش دوراً واسعاً.

ينتج من هذا أن الأشكال القديمة بحثاً عن الغذاء - الصيد والقنص - تراجعت إلى المقام الثاني، رغم أن جمهرة من الميزوبوتاميين استمرت في العيش على الصيد.

بقيت الأدوات حتى الألف الثالث بدائية جداً: أغلبها من الحجر والآجر، كان النحاس قد ظهر منذ الألف الرابع، لكنهم لم يتعلموا صنع البرونز إلا في النصف الثاني من الألف الثالث. بالمقابل، كان الفخار السومري، الحرفي حتماً، يستخدم في صنع الأواني والأوعية المشوية. وكان التجارون يعرفون صناعة العربات والقوارب، ويطرق صناعات السلاح الخناجر والسهام. والثياب منسوجة من الصوف والكتان، وأسلحة الوقاية هي من جلد. ويتقن الجواهريون صناعة الحلي من الذهب والفضة والحجارة الثمينة.

تقنية بناء المسكن بدائية تماماً: البيوت البسيطة من الغضار والخيزران، وتشاد المعابد والقصور فقط من الآجر الخريني. تزدان هذه الصروح بنقوش قليلة البروز استمدت عناصرها من الأسطورة والتاريخ.

طبعاً، لم يكن الحرفي منعزلاً أبداً عن الزراعة وتجهيز الإنتاج البضاعي. على ذلك، ومنذ الألف الثالث، يستورد السومريون من بعيد المعدن والصخور أو الحجارة، وخشب الأرز والخمر. كانت طرق المواصلات الرئيسية هي الفرات ودجلة وكذلك الألفية الواسعة الفاصلة بينها. وتقل كل الأحوال على ظهور الحمير.

والشكل الاستثماري الأقدم، الناجم عن التطور الكبير بقوى الإنتاج، هو استغلال عمل العبيد. وحسب إحصائيات (تقريبية جداً طبعاً) لـ أ. دياكونوف، كان عبيد لاغاش يشكلون نصف السكان، في أواسط الألف الثالث، وعدد النساء يتجاوز عدد الرجال. كانت المصادر الرئيسية للعبودية الحروب وشراء العبيد من البلدان المجاورة (بعمالة قليلة العدد)؛ واستثناء، كانوا يشترون الفتيان. وتحول الناس المدنيين الأحرار إلى عبيد، لم يكن في البدء موجوداً؛ أشير إلى هذا الأمر لأول مرة في وثائق القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

كانت العبودية في سومر وأكاد ذات طبيعة أبوية: لا يحتل العبيد حيزاً خاصاً بهم في الإنتاج ويعملون بالتساوي مع الناس الأحرار، وغالباً في عمل واحد. كان كدحهم مستغلاً

في المنزل؛ ويرسلون أيضا لبناء منشآت الري، وإلى حراثة أرض البقول وبساتين الثمار؛ كان ثمة عبيد رعاة وعبيد حصادين. ويخصص عدد كبير منهم للمعابد وحكام المدن، وكان الأعيان يمتلكون عبيدا أيضا.

تتألف جمهرة السكان من مالكي عقاريين، وأعضاء المشاعة. ولقد ولدت مشاعة الجوار السومرية الأكادية عند تطور الزراعة المروية: كان التنظيم الاقتصادي العادي في ميزوبوتامي السفلى يرتبط بالتوزيع المنتظم للماء. كانت مشاعة الجوار إذن شديدة الاهتمام بان تبقى بين يديها الملكية العليا لمصادر الماء -قطاعات الأنهار والأقنية، أكثر من اهتمامها بالإدارة العليا للأرض. وفي الوقت ذاته، كان إنشاء منشآت الري، فتح وإغلاق المسود، تنظيف الأقنية -كان كل هذا يعضد المشاعة، لأنه يفرض التعاون البسيط، العمل المتكاتف بين أعضائها: وكانت هذه الاهتمامات تتطلب الإنجاز بوقت قصير وتحتم توافر جهود مئات الأيدي. والدور المهيمن لملكية الماء في ميزوبوتامي السفلى سمح بتسمية مشاعة السومريين-الأكاديين مشاعة المياه والأراضي.

كانت مشاعة المياه والأراضي تضم عائلات كبيرة وصغيرة؛ وكانت هذه العائلات دوما ذات طبيعة أبوية، تحددها هيمنة الزراعة بسكة حديدية للمحراث وتربية الدواجن، رغم نفوذ الكثير من بقايا عهد الأمومة، خاصة في جنوب البلاد. كانت المواشي والأراضي ملكية خاصة للأسر الصغيرة، لكن الأسرة الكبيرة كالمشاعة لها حقوق واسعة تحدد حقوق المالكين. يتضح هذا في عقود الشراء في شوروباك (القرن السادس عشر والرابع قبل الميلاد). فحسب هذه العقود يبيع الأرض عدد من الشركاء المشايخين، بينما يتلقى ذوهم (أ، جوارهم) هدايا لقاء خسارتهم حقوق تملكهم الأرض المبيعة. تطلق عليهم الوثائق التعبير المعبر "أكل-مساهم بالسعر". وعرفت أيضا انتقالات حيث تباع الأسرة الكبيرة مشاعة الجوار الأرض: بدون شك، كان جزء من الأرض يخص مشاعة الجوار والأسر الكبيرة.

لم تكن إعادة توزيع الأرض، المواشي والأرزاق الأخرى بين أعضاء المشاعة عادلة: كان نبلاء الدم يمتلكون أراضي واسعة تبلغ ١٠٠-٣٠٠ هكتار. وكانت ملكية الأشراف تبقى في يد العائلات الكبرى. وكان النبلاء بالولادة يعملون على دعم تقاليد نظام العشير في المرحلة الأخيرة، ويستند نفوذهم غالبا إلى الحفاظ على علاقات الأسر الكبيرة والعشير.

وكان النبلاء يشغلون في أراضيهم ليس العبيد فقط، بل أيضا ذويهم الذين كانوا أحرارا واقتروا.

كانت ملكية المعابد تحتل مكانا هاما في اقتصاد البلاد: حوالي منتصف الألف الثالث، كانت المعابد في لاغاش تمتلك نصف أراضي المملكة المحروثة. تتكون سيادة الاكليروس من النبلاء، وتفيد ملكية المعابد إذن في دعم سلطة النبلاء بالولادة.

كانت أملاك المعابد تستغل بطريقتين: يؤجر قسم إلى مزارعين أحرار، يتلقون غالبا أيضا المواشي وحبوب البذار ويؤدون لقاء التمتع بهذه الأرض جزءا من محصولها؛ وكلن القسم الثاني، الموضوع تحت رقابة المعبد المباشرة، يحرثه العبيد ومزارعون أحرار، يتوجب عليهم تسليم كل الموسم إلى أمراء المعبد ويستلمون حبوبا لقاء تعبهم وأحيانا منتوجات أخرى.

يضم جهاز المعبد، عدا الكاهنين، حرفيين، كتابا، مرتلين، وسواهم. ويوظف رهطا يشكل جزءا هاما من مرتزقة الدولة. لاتنفصل الأراضي المؤجرة للخدم، كونها أملاك معبد، لكن العلاقات الأبوية، وهي دوما في خدمة مشاعات الجوار، قد فقدت دورها الرئيسي هنا.

يتمتع كبار القسس أيضا بأراض واسعة إلى هذا الحد أو ذاك، يحرثها عبيد، رجال أحرار ومأجورون ومزارعون. ويسلب النبلاء حصة النخب من مردود تربية المواشي ويتلقون حصصا ضخمة مما يعتبر احتياط المعبد.

النظام السياسي لسومر وأكاد

في منتصف الألف الثالث كان في ميزوبوتامي كثير من الدول الصغرى المستقلة. لاتتجاوز مساحة إحداها، المسماة لاغاش، (بما فيها الأراضي غير المروية)، ٣٠٠٠ كم^٢ وتتضم ستة محلات هامة إلى هذا الحد أو ذاك، محاطة بأسوار، وعدد الناس الإجمالي ليس أكثر من ١٥٠٠٠٠ إنسان. وفيها ٢٠ معبدا ومحرمات، وفقا على عدة مقدسات.

على رأس الدولة عاهل يسمى باتيزي (يقرأ بعض العلماء هذه الكلمة السومرية "أنزي"، وأحيانا لوغال (السيد:بالمعنى الأدبي). بشكل عام، يجب اختيار هذا الباتيزي من أسرة شهيرة، بحيث يكون خلفه أحد أبنائه. كان يمارس مهام الكاهن الأكبر ويمثل الآلهة؛ يقود مرتزقة المعبد، يحكم اقتصاد المعبد، أهمها أعمال البناء والري. بداية، كان يعتبر

الملك-الكاهن، وأيضا عادة القتل أو المصير الشعائري للملك، المرتبط بهذه الفكرة، التي عاشت طويلا في ما بين النهرين، لا تتبدى إلا بشكل "طهارة" دورية للشخص الملكي. في منتصف الألف الثالث لم يكن الباتيزي بعد هو المالك الأعلى لكل أراضي الدولة. وأحيانا كان ملوك سومر وأكاد يشترون أراض من الأسر الكبرى أو المشاعات المجاورة. ولا يسمح للباتيزي أن يتصرف بأمالك المعابد.

في المدن، كان يوجد جمعيات شعبية ومجالس شيوخ، تتولى الحقوق الفعلية: تنتخب (وتقيل ربما) العاهل، تحقق العدالة، تتخذ التدابير الإدارية، تناقش مع الباتيزي المسائل السياسية الأساسية (إعلان الحرب، مثلا)، يقبلون مواطنين جدد في المشاعة، تدبر الأملاك العامة، إلخ. ومن مجلس الشيوخ يسمى ممثلو الإدارة، مثل مرعى المشاعة.

كان الجيش ما يزال منظمة شعبية: كان جنوده بنفس الوقت حراثا، رعاة، مزارعين في أرض المعابد. كل هذا يخلو أن نؤكد استمرار مظاهر هامة من الديمقراطية العسكرية في الميزوبوتامي السفلى-على الأقل حتى منتصف الألف الثالث.

من جهة أخرى، بزغت خصائص سياسية جديدة: ظهرت وظيفة إدارة المعابد، التي يديرها الموظف، الذي يصدر توجيهاته لفصيل من الكتاب؛ وتشكل حرس خاص للباتيزي. كل هذا النهج، المرتبط مباشرة بالباتيزي، يختلف جذريا عن تقاليد الديمقراطية العسكرية. لقد أثارت الحاجة للاستفادة الحكيمة من شبكة الري، وحصر العلاقات الاقتصادية بين المناطق التوجه إلى توحيد سومر سياسيا. وشددت ضرورة تعميق السلطة على العبيد هذه الحركة المركزية. ادعت بعض الدول المسيطرة ونجحت بضم أراض واسعة. وبدأ ملك كيش أور هذا الدور، لكن ايناتوم، عاهل لاغاش (القرن الخامس عشر)، نجح في دحر هذين الخصمين وبسط سيطرته حتى حدود ماري. غير أن هذه الإلحاقات لم تكن مستقرة.

الصراع الاجتماعي في سومر وأكاد

لقد تراقق تشكل الطبقات والدول فيما بين النهرين الأسفل طيعا بنضال ضار بين العبيد والسادة، بين الناس الفقراء ونبلاء الدم. وبالعنف والاضطهاد مورست السيطرة على العبيد المزارعين، الهيمنة التي تثير غضب ومقاومة المنتجين المباشرين. أخيرا، كانت نبالة الدم القديمة، المستقوية بأرزاقها الشاسعة وبموقعها المتميز في المعابد، تتناقض وتعارض الارستقراطية الحديثة، الناشئة من غزوات القتال والإدارة. للأسف، المصادر التاريخية

لا تقول شيئاً هاماً في هذا المجال.

إن أحد النصوص التي تعكس بحيوية النضال بين الشرائح الاجتماعية في لاغاش هو نقش الملك أوروكاجينا. نقرأ في هذا النص أن سلفه، الباتيزي لوغالندا، أذى حقوق المشاعات لصالح "المتنفذين"، مزق "قرارات الماضي"، أقام رقباء في كل مشاعات لاغاش، الذين فرض عليهم ضرائب تعسفية لمصلحته ومصلحة كهنته. وهؤلاء الرقباء، غير المكتفين بالضرائب، راحوا ببساطة ينهايرون الناس. انتزعوا من الفلاحين مواشيهم، طيورهم، الأواني النحاسية، الألبسة، خيرة الأشجار وأطيب الثمار، ويطلبون أسعاراً باهظة لدفن موتاهم أو إقامة المآتم أو الولائم. ويصادر الباتيزي ورجاله صوف أجمل الخراف البيضاء، ويفرضون على الخراف الأخرى فريضة خمسة شيكلات من الفضة لكل رأس؛ ويدخلون أيضاً حقوق الجمارك على الوثائق والأعمال القضائية. ولدى مجيئه (حوالي ٢٣٧٠ قبل الميلاد) أعاد أوروكاجينا ضوابط الضرائب القديمة، منع الابتزاز ودفع المال، وعزل المراقبين من المشاعات. وكان يزدهي، في نصه المنقوش، بأنه "أرسي الحرية". لكن النبلاء حافظوا، حتى بعد هذه الإصلاحات، على سلطة واسعة اقتصادية لم يستطع الباتيزي أن يلغيها. واستمر تفكك مشاعية الجوار. ويعيدند، فقدت لاغاش استقلالها. وجدد باتيزي أوما ولوغالجيزي الصراع ضد أوروكاجينا، مستفيداً من الاضطرابات التي نشبت في هذه الدولة، هزم جيشها وألحق لاغاش. جعله هذا النصر قوياً ليخضع مؤقتاً كل سومر. وجعل مدينة أوروك القديمة عاصمة لدولته.

ميزوبوتامي تحت حكم ملوك أكاد

في غضون ذلك، صار عواهل أكاد عتاة أقوىاء في شمال البلاد. كانت مدينة أكاد واقعة بين الفرات ودجلة، في نقطة اقتراب النهرين من بعضهما كثيراً. وليس بعيداً منها، على الفرات، كانت مدينة سيبار، مع معبد إله-الشمس شاماش، الذي شيده السومريون لكن الساميين احتلوا ووسعوها؛ وعلى دجلة بنوا مركزاً هاماً، أوبيس. وفي جنوب سيبار، أيضاً على الفرات، أنشئت كيش، أقدم مدينة في ميزوبوتامي. وبين دجلة والفرات، وجد معبر قوافل في غربه طرق أرابيا وفي الشرق الطرق الواصلة إلى جبال زاغروس. ويقدم موقع أكاد المركزي مكسباً كبيراً لملكها، مكنه من احتلال أراضٍ تقع بين سيبار وأوبيس. وكان سارغون، ملك أكاد أول من نجح هنا حوالي ٢٣٦٩ قبل الميلاد.

لم يكن سارغون من سلالة باتيزي أكاد؛ فأسس أسرة جديدة. غير معروف بالضبط

ظروف وصوله إلى السلطة. بل كباقي قادة العصور القديمة، استوحى خرافات يصعب إرجاع بذورها إلى التاريخ.

اعتمد سارغون بعد وصوله إلى حكم أكاد على الجيش: خلق جحفا من ٥٤٠٠ مقاتل محترف. وبينما كانت ميليشيا المعابد السومرية المؤلفة من جنود ثقيلي السلاح، يقاتلون بأرتال متراسة ويرمون الأعداء بحراب طويلة، كان الدور الأول في جيش سارغون يعود إلى السهام ورماتها. كان أكثرها محروما من ملكية الأرض، قطعوا صلاتهم بمشاعاتهم وصاروا رصيда للملك.

في هذه الحقبة، نضجت ميزوبوتامي السفلى لتبني المركزة. قبدونها، لن يتيسر التطور للاقتصاد المبني على لاري؛ فالالاقتصاد معوق بحدود الدولة الصغرى التي تملك كل منها قطعا مختلفة القياس والمساحة. أخيرا، كان توسع العبودية يفرض منظمة سياسية قادرة لتأخذ في قبضتها الصارمة شرائح العبيد.

بدأ سارغون توحيد أكاد. فبعد أن صار ملك كيش ورئيسا لكل الدول الأكادية، شهد هجمات موفقة على الجنوب. انتصر على لوغالزاجيزي، استولى على أور ولاغاش، بلغ الشط وأخضع جنوب البحر كله. فتحت سلطة سارغون وأتباعه خلقت أول مملكة موحدة في ميزوبوتامي.

اشتد ساعد أكاد بشكل فريد في أيام حفيد سارغون، نارامسين (القرن الثالث والعشرون قبل الميلاد)، الذي لقب بـ"ملك أقطار العالم الأربعة". أخضع منطقة مارى وقاتل جبال زاغروس ومدن عيلام. وفي الشمال، بلغت قواته جبال أرمينيا.

بدأ ملوك أكاد أعمالا إنشائية ضخمة؛ أعاد سارغون بناء كيش، احتل قصر أكاد، وبنى عدة معابد. وأخذت أعمال الري بعدها الأوسع: بخاصة، حفرت قناة وصلت دجلة بالفرات. فتأزم وضع المشاعات التي أكره أفرادها على المشاركة بأعمال القصر؛ بنفس الوقت، وسع ملوك أكاد حقولهم، بالزام المشاعات ببيع أراضيها. فقد عثر على نقش أكلدي يتحدث عن شراء أراضي الناس من قبل الملوك؛ كانت الأراضي مقسمة إلى أسهم واسعة تقيس حتى ٢٠٠٠ هكتار. ورغم أن البيع قرر في الجمعية الشهبية (ذكر هذا في النقش الملكي)، كان سعر الشراء (من الحبوب، النقود، الثياب، العبيد، إلخ)، يدفع إلى عميد العشائر وقرابته.

لقد أثار توسع الأعباء، احتكار أراضي المشاعات، وأخيرا، حروب الغزو الضارية،

نقمة الشعب. ثمة مصادر، أحدث، تتحدث عن عصيانين نشبا في نهاية ملك سارغون. وكانت انتفاضة هامة في أيام نارامسين. قاد الانتفاضة النبلاء الذين خشوا استيلاء الأرستقراطية الجديدة العسكرية والإدارية، مدعومة من السلطة الملكية في أكاد، وأبدوا غضبهم من اتساع الأملاك الملكية على حساب المدن والمعابد. واصطدم الملك أيضا بمقاومة الحكام السومريين، المعادين لمركزه دولة كهذه.

كبح نارامسين كل التمردات، لكن أتباعه لن ينجحوا بالحفاظ على وحدة مملكة "الأقطار الأربعة"؛ وإلى الاضطرابات السياسية الداخلية، أضيف التهديد الأجنبي. وحوالي العام ٢٢٠٠، هوجمت أكاد وسومر من قبل *Les Gouti*، السذي سماهم الميزوبوتاميون "أبالسة الجبال". سحق الغوتي مملكة أكاد، استباحوا مدنها (بخاصة مدن الشمال)، وفرضوا على الناس ضريبة باهظة. كانت معاناة مدن الجنوب السومرية أخف لأنهم عرفوا كيف يحافظون على استقلالهم. قادوا النضال ضد الغوتي، هزمهم ودحروهم من البلاد. وبعد زمن، توحدت سومر وأكاد من جديد، بزعامة أور هذه المرة.

زعامة أور (٢١١٨-٢٠٠٧ ق.م)

سمي ملوك أور الذين وحدوا تحت سلطتهم ميزوبوتامي-السفلى "ملوك سومر وأكاد"؛ ثم سموا أسرة أور الثالثة. كان أشهرهم شولجي، الذي حكم قرابة خمسين عاما. ونجح باخضاع آشور (على دجلة) وحقق عدة انتصارات على محاربي عيلام.

في أيام أسرة أور الثالثة، استمرت الزراعة المروية والمهن بالتطور؛ أصلح السومريون والأكاديون مساحات واسعة من الأرض على طول مجرى دجلة، لم تكن تغمرها الفيضانات: أقاموا تقنيات نوعية لرفع الماء إلى مستوى "الحقول العالية".

مارسوا الزراعة بالسكة الحديد في كل مكان؛ فعوض المحراث البسيط الذي لا يتجاوز "هرش" التربة، استخدمت سكة الحديد التي تقلب التربة؛ وعوض الحمير، قرنا الثيران. وأصلحت سومر الكثير من الحقول لزراعة النخيل وفي أكاد غرسوا الكروم.

تشير نصوص عديدة من الألف الثالث إلى ورشات البرونز، الفخار، النجارة الدقيقة، النسيج ومستودعات المعادن، الصوف، الخشب، إلخ. ووسع ارتقاء الزراعة والمهن والإنتاج البضاعي ومتن العلاقات بين مختلف مناطق البلاد.

خلق التطور الاقتصادي في نهاية الألف الثالث تيارين للتقدم الاقتصادي والاجتماعي. قبل كل شيء - تدعمت الملكية الخاصة للأرض، في الحقول العالية والتي تسقى طبيعيا.

وراحت الملكيات العامة تنتقل شيئاً فشيئاً إلى أيدي الأسر الصغيرة والكبيرة، الأمر الذي أفضى إلى فوارق الثروة. وفقد كثير من الناس أرضهم وصاروا أجراء أو مزارعين صغاراً يعملون في حقول المالكين الكبار ويبيعون أحياناً كعبيد يؤمن لهم الحد الأدنى من الغذاء واللباس ، ويحدد حجم الأعمال.

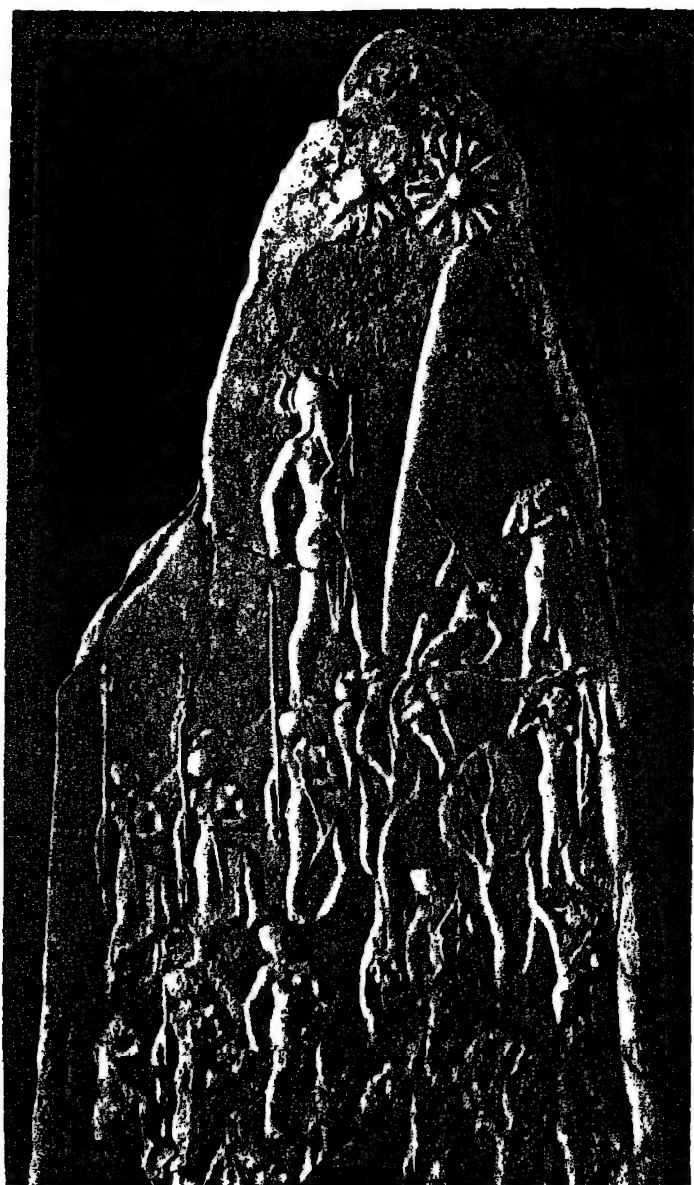
تفاقم تطور الربا الناجم عن اتساع الإنتاج السلعي، وضع الناس الأحرار؛ فراح المقرضون (بخاصة الرهبان والراهبات) يضاربون على المراعي، الحقول، والبيوت، يقرضون الفقراء الحبوب، المال، الأجر، رباً فاحشاً؛ فيتحول المدين العاجز إلى الخدمة: يعمل عندهم هو أو نوهه.

كرس تشريع أسرة أور الثالثة تطور الملكية الفردية. والتيار الآخر هو ترسيخ اقتصاد القصر. واستمراراً لسياسة أسلافهم احتل ملوك الأسرة الثالثة أراضي المعابد وأخضعوها كلياً لإرادتهم. وألحق العاهل عدداً كبيراً من أرزاق المشاعة. وجعلها ملكيات كبرى تعمل فيها جمهرة من النساء العبيد والـ"غروشي". كان الغروشي (الأسرى وأبناء البلد) يعملون في المجال الملكي طيلة العام، فتزلهم وسائل إنتاجهم.

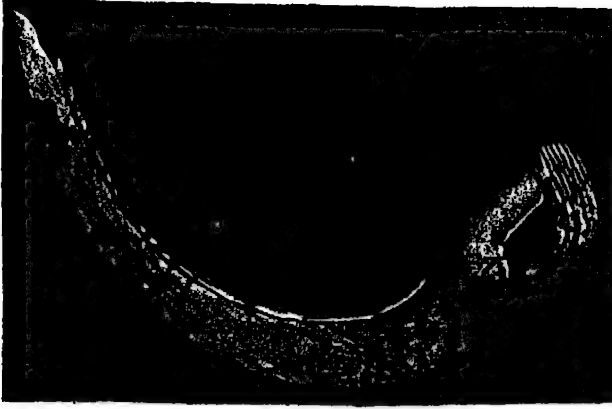
عدا الغروشي، كان القصر يستخدم، بخاصة أثناء الحصاد، جمهرة مياومين أحراراً. وكان الغروشي، والنساء العبيد يخدمون في ورشات الملك.

إن توطيد الاقتصاد الملكي ، وملكية الملك العقارية ساهمت بمركزة البلد سياسياً. كانت سلطة الحكام في مدن سومر وأكاد عملياً باطلة: إذ لم يكونوا إلا موظفين يعينهم ويسرحهم عاهلهم؛ وهكذا أطلقت طلبة الرحمة على سلالات النبالة القديمة. ولإرساء سلطتهم، أله ملوك أسرة أور الثالثة أنفسهم: وشلغي وابنه أعلنوا إلهين. والأعمال الفنية لتلك الحقبة تقدم غالباً الآلهة يسلمون إمارات السلطة الملكية وشعاراتها إلى عاهل سومر وأكاد.

لكن الاتساع غير المحدود للاقتصاد الملكي، حول العمال الأحرار إلى غروشي محرومين من كل الحقوق، وطور الربا والخدمة لقاء الدين، كل هذا كان يضعف المملكة. كان خلفاء شولغي يصنون بصعوبة قصوى ضغط الجوار: كانت عيالهم التي ماتزال تعترف بسلطة ملوك أور، قد استعادت استقلالها وانتقلت إلى الهجوم؛ وفي الغرب، تغلغت في البلاد قبائل رحل من الصحراء السورية، كانوا يتكلمون إحدى اللهجات السامية، العمورية. وفي العام ٢٠٠٧ هدم العيلاميون المدن السومرية وسجنوا آخر ملوك الأسرة. ثم أسس العموريون في مدن أكاد وسومر عدة أسر مستقلة.



معلة لانتصار نارامسين من القرن ٢٣ ق.م



منجل يده من خشب ونصله من الصوان



إنينا إلهة الخصب

الفصل السابع

بابل

تأسيس الامبراطورية البابلية

بعد سقوط أسرة أور الثالثة، أقام العموريون في ميزوبوتامي-السفلى. وأسسوا فيها مملكتين، بعاصمتين هما: إيزن ولارسا. ثمة وثيقة تلتفت الانتباه من السلطة الملكية في إيزن هي القانون الذي كتبه ليبيتشتار، باللغة السومرية. وإلى الشمال قليلا، وجدت دولة مارى وأشنوناك. كانت هذه الدول تتحارب من أجل السيطرة فيميزوبوتامي السفلى والوسطى. ولم يحقق أحد مشاريعه: وحد جزء واسع من البلاد على يد عاهل بابل، المملكة الصغيرة العمورية، التي أسست في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. أفاد ملوك بابل من موقع هذه المدينة المناسب، المبنية عند نقطة اقتراب دجلة والفرات من بعضهما، عند تقاطع الطرق التجارية للشرق الأوسط؛ فضلا عن دعم الوضع السياسي لملوك بابل: كانت مارى وأشنوناك قد ضعفتا جراء الصراع ضد آشور التي كانت سطوتها تتمتع، بينما كانت لارسا تواجه ضغط العيلاميين حتى احتلتها إحدى أسرهم بدورها (نهاية القرن التاسع عشر قبل الميلاد).

إن حقبة وجود امبراطورية بابل القديمة (١٨٩٤-١٥٩٥ ق.م) هي فصل هام من تاريخ ميزوبوتامي. تشكلت هذه الجنسية البابلية وكذلك حضارة بابل، التي امتصت كل ماكان أنجز سابقا في ميزوبوتامي. ومدينة صغيرة لاشان لها في عهد أوائل الملوك العموريين، صارت بابل مركزا هاما تجاريا، سياسيا وثقافيا، وحافظت على دورها حتى العهد الهليني، رغم النكبات والعداوات.

لم تتم وحدة ميزوبوتامي تحت سلطة بابل إلا بعد صراع دام مائة عام وفي أيام الملك السادس للأسرة، الشهير حمورابي. كان الهم الأول لملوك بابل هو دحر الإمارات العمورية الأخرى المحتلة من مراكز أكادية ضخمة.

أنجز حمورابي الوحدة في منتصف القرن الثامن عشر. بدأ بضم المدن السومرية أوروك وإيزن. لكن جنوب سومر بقيت تحت سيطرة العيلامي ريمسين. وفي الشمال كانت السلطة البابلية غير مستقرة، رغم اتحاد حمورابي وملك ماري زيمريلين. لم تكن الظروف لصالح بابل. أخيراً، وبعد أن دحر مملكة أنوناك وصان الحدود الشمالية في ثلاثينات حكمه الأولى، تصدى حمورابي لريمسين في العام التالي ووحد كل الجنوب. وخوفاً من سطوة بابل القادمة، تخلى زيمريلين عن مواجهته. وبينما كان حمورابي يشن حملة ضده، احتل ونهب مدينة ماري.

ثم تابع تقدمه نحو الشمال وأخضع مملكة آشور الصغيرة. خلقت هذه الظروف إمبراطورية بابلية مستبدة مركزية. لأنها وحدتها. وقد نجم تلازمها عن عوامل عديدة.

أضعف ملوك أور نبلاء سومر وأكاد، لكن العموريين والعيلاميين قضوا عليهم نهائياً. لم يعد أمام ملوك بابل إلا القبائل العمورية والمشاعات الحضرية والزراعية لسومر وأكاد، التي يسهل حكمها ضمن المناطق، أو الأقاليم التي يديرها موظفون ملكيون. لم تعانِ أكاد، وهي القطر الزراعي الرئيسي في ظل سارغون، ماعاناه الجنوب السومري من الاحتلال. كان الاحتلال العموري تسرباً تدريجياً، وكان شعب أكاد قريب المحتلين، يتكلم لغة يفهمونها، يبجل نفس المقدسات، وذا عادات مشابهة. فكانت سومر، المدمرة، رزقاً وشعباً، تابعة تماماً لاقتصاد أكاد.

أفاد ملوك بابل من الخبرة الإدارية والسياسية التي كونها ملوك أسرة أور الثالثة وملوك إيزن ولارسا. تحقق هذا بوضوح فريد فيما يخص الحق. فقانون حمورابي عكس كثيراً من شريعة ليببشتار؛ نصوص البيع والشراء والدين حافظت على الصيغ والعبارات السومرية. على ذلك، أوجدت شريعة حمورابي مؤسسات جديدة.

خلقت ايديولوجيا جديدة لتبرير التصرف المطلق، وعبادة جديدة أرسيت في كل أنحاء الإمبراطورية: عبادة مردوخ، الإله الأعظم. كان مردوخ سابقاً إله بابل. ويعون كهنته ومسايعهم، خلقوا له أساطير جديدة، أضيفت إلى الخرافات السومرية القديمة وأحييتها. وهكذا صار مردوخ الإله المعظم.

حكومة وشريعة حمورابي

قدر الملك السادس من الأسرة البابلية الأولى، حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل الميلاد)، أن يوحد ميزوبوتاميا ويكون الامبراطورية البابلية.

كانت الامبراطورية مقسومة إلى إقليمين إداريين حسب مبادئ مختلفة. حكم أكاد وشمال سومر حكام يحملون ألقاباً متنوعة، حسب منطقة عملهم ومهامهم. عينوا للأقاليم والمدن؛ ولقبهم "شوكالو"، رجال مكلفون بجمع الضرائب، بإرسال الناس إلى الورشات الملكية، وعند هؤلاء جهاز ضخم من المفوضين ومجندي اليد العاملة. يهتم الشوكامو أولاً بالضرائب، بـ"أعمال للقصر" وتنظيم الجيش. في أيام حمورابي (وقبله أيضاً) كان ثمة جيش دائم، مكون من محاربين من مختلف الرتب. من أجل عملهم، يملكون قطعاً من الأرض. تذكر الوثائق أربع مراتب عسكرية: ديكوم ولوبتوم للضباط، ريدوم وبيروم للجند (حتى هنا لا يعرف بالضبط مايميزهم).

نصف الامبراطورية الآخر، سومر الجنوبية، يحكمه الوزير سينيدينام. يضم الاقتصاد الشخصي للملك، أرزاق عقارية وقطعان ضخمة كانت تخص ريمسين. يراقب الوزير المدراء والموظفين الآخرين، ويصرف كل المكاتب الإدارية والمالية التابعة.

هكذا ظهرت بكل وضوح مهمة الاستبداد الشرقي الذي وصفه ماركس سرقة الشعب. والمهمة الثانية، سرقة الشعوب الأخرى، كانت أقل أهمية في حكم حمورابي مما كان في مملكة سومر وأكاد في ظل أسرة أور الثالثة، أو، بعدئذ، في آشوريا. والمهمة الثالثة، الري، يكمن بخاصة بمراقبة وصيانة الأبنية والقناطر. أعمال هذا النوع مذكورة في قرارات حمورابي. وكان تنظيمها مسنداً إلى رجال مختصين، اسمهم "رجال الأبنية". فتحت إدارتهم ثم خفر القناة العظمى المسماة إكراما للملك "خير-حمورابي".

لم يكن النهج الإداري الموصوف آنفاً، إجمالاً، جديداً، لأن قواعده كانت قد وضعت في أيام أسرة أور الثالثة. واقتصر عمل ملوك بابل على التنفيذ والتلاؤم مع شروط الشمال والجنوب النوعية.

كان الحدث الرئيس هو إعلان وتنفيذ شريعة جديدة. ولقد فرض هذا التدبير ضرورة تبديل الشريعة السومرية، التي وضعتها أسرة أور الثالثة، وملوك ليببشتار، التي لم تعد تتجاوب مع الشروط الاقتصادية والاجتماعية في الامبراطورية البابلية. فضلاً عن أن هذه

الشرعية كانت قد كتبت بالسومرية التي لا يفهمها الشعب. فشرعية حمورابي أثير تاريخي هام لميزوبوتامي ، ووثيقة ثمينة تكشف بنية المجتمع في ذلك الزمن، تظهر الشرائح الاجتماعية التي كان يعتمد عليها ملوك بابل ، وعن أي مصالح يدافعون في المقام الأول. كما أطلعنا شرعية حمورابي على الطبقات والفئات الاجتماعية في مجتمع بابل وعلاقاتهم الحقوقية. تتألف الشرعية من ثلاثة أبواب: مقدمة، متن وخلاصة. تتضمن المقدمة عبارات تفخيم لمؤسسة "العدالة والسعادة" لكل رعايا الملك. ضم التشريع ٢٨٢ مادة، ضاع منها ٣٣ مادة بسبب التلف الذي لحق المسلة البابلية التي نقشت عليها: وحفظ بعضها نتيجة العثور على أجزاء من النقش وجدت في أمكنة أخرى. نص التشريع على الجرائم، الأسرة، الملكية، الميراث والالتزامات، عدة مواد للحق العام وغيرها للعبودية. نرى فيها، من أولها إلى آخرها، ضرورة صيانة حقوق الملكية العقارية، والكهنة، والتجار والمرابين، بخاصة حقهم في تملك العبيد. سرقة العبد وإخفاء العبد الهارب عقوبتها الموت. وفي الخلاصة، يزدهي الملك مرة أخرى بالحماية التي يحيط رعاياه بها؛ يسمى "ملك الحق" ويلعن أولئك الذين يتجرون على تخريب المسلة حيث نقشت القوانين. تدافع هذه القوانين عن حقوق ومصالح أعيان المجتمع البابلي.

عدا الشرعية، بقي لنا من امبراطورية بابل القديمة مئات الوثائق ورسائل الشؤون الخاصة، التي تخولنا تمييز أخلاقهم واقتصادهم، رغم بقاء العديد من قضايا التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لبابل محل نقاش.

الزراعة، الملكية العقارية، والتمتع بالأرض

كان شعب امبراطورية بابل يعيش أساسا من الزراعة. ولم تكن تربية المواشي الواسعة قد انتشرت إلا في الجنوب، كما في السابق، على الشط الذي يقدم مراع واسعة للأمكنة السبخية.

بين المزروعات، يخصص المقام الأول للقمح، للشعير والحنطة الرومية. وأهم شجرة مثمرة هي النخلة. كانت الحقول تعطي، في الشروط العادية محاصيل وفيرة تكفي حاجات السكان وتخلق فضلا أيضا، يذهب جزء منها لتعريم مخازن الملك والمعابد، بصفة فريضة عينية، وكان الباقي يباع في السوق. كان احتياطي قمح القصر والمعبد يوضع جزئيا في التداول (عند عبور القبائل الرعوية في الصحراء السورية). وكانت الحبوب تشكل أيضا

القيمة الأولى في التداول الزراعي.

كان الملك اسمياً المالك الأعلى لكل أرض الإمبراطورية. لكن امتداد المجالات الموضوعة تحت مراقبة القصر المباشرة أقل فعلياً بالنسبة لأيام أسرة أور الثالثة. وكانت المجالات الملكية الواسعة (في الجنوب، مثلاً) في الغالب مقسمة إلى أسهم صغيرة بالأجرة للموظفي الكبار، للمحاربين أو المزارعين، الذين يدفعون عينا (قمحاً). وكانت هذه الأسهم لاتنفصل عن الأرض العامة.

قسم من الأرض يخص المعابد، لكن أبعاده أقل مما كانت في الألف الثالث. ويطبق هذا أيضاً على مشاعات الجوار: وتشير المصادر أيضاً إلى الأراضي العامة التي يديرها الشيوخ، لكن لم يبق منها شيء يذكر. للمشاعات حقوق حصرية على قطاعات الأبقية (حتى منع الصيد فيها على الأجانب)، لكن الأرض كانت تنتقل إلى أيدي الأسر.

من المستحيل أن نحصى الآن المساحة الكلية للأرض التي تخص العائلات الأبوية والعائلات الصغيرة. والأمر البين، هو أن تطور الإنتاج البضاعي والنهج العبودي كان يساهم بتوطيد الملكية الخاصة. ولقد عثر على أرشيفات المرابين الذين كانوا يعتمدون على الحقول والبساتين. لكن بعكس الأسر النبيلة للدول السومرية الأولى، التي كانت تملك الأملاك الشاسعة، كان الملوك البابليون مغبونين. واستناداً إلى إحصاءات تقريبية، لم يكن ٩٠% من المالكين الفرديين يملكون سوى ٨,٥ هكتاراً مربعاً، والحقول التي تسمح عشرات الهكتارات تعد بالوحدات، وأوسع ملكية عرفت يومئذ كانت تسمح ٣١,٥ هكتار.

كان الملوك الخاصون يؤجرون قسماً كبيراً من أراضيهم، بالأسهم، إلى منتجين صغار. وعلى المزارعين أن يدفعوا حتى ثلثي المحصول. لم تكن زراعة الحبوب في الحقول الخاصة تكفي بشكل عام وسوى تغذية المالك نفسه، وعبيده وأجراته. وكل المالكين كانوا موظفين ممتازين ملكيين، وكهنة أو تجارياً كباراً ومرابين. لا يأتي دخلهم الرئيسي من الأراضي بل من وظائفهم (لدى القصر أو المعبد) أو العمليات التجارية والربوية. كانت الشريحة العليا من الموظفين الإدارة أو القصر يعيشون على حساب البلاط ويحظون من حين إلى آخر على هدايا قيمة من الملك. وكانوا يغتنون بابتزاز مرؤوسهم. ويقتسم الاكليروس عائدات المعابد المأخوذة بداية من الخزينة الملكية من أجل الصيانة. ثم من تربية المواشي والربا، أخيراً من احتفالات الأضاحي، التي يدفعها الخواص والعوام.

هكذا إذا، كما في الألف الثالث، كانت هذه الشريحة من مستغلي المجتمع البابلي تعيش على حساب المشاعات الريفية والعيبد. فالمجتمع العبودي في الشرق القديم يتسم بالاستثمار المزدوج.

حرف وتجارة

تتخطى الحرف في دولة بابل إطار المشاعات. فقد ظهر، في المدن، حرفيون يعيشون من حرفهم. كان لهم في باحة السوق حانوت أو منقش حيث يأخذون الطلبات وينفذونها. لكن، إلى جانب الحرفين المقيمين على نفقتهم، كان ثمة منهم من يعمل في ورشات تخصص أفرادا. تنص شريعة حمورابي، في عداد هؤلاء الحرفيين، الفخاريين، قصاصي الصخور، الخياطيين، الحدادين والدباغين. لم تكن شروطهم جيدة دوماً، لأن الملك التزم بتعيين لهم الحد الأدنى من الأجرة اليومية.

كانت التجارة تتطور بشكل محسوس. الملك والكهنة يستسلمون لتجارة الجملة بواسطة الموظفين المحظوظين والمرابين، الذين يستغلون هذا الأمر لإتمام مضارباتهم. لهم زلمهم ومنديبوهم الذين ينتهي أمرهم إلى تاجر. يبيع المندوبون والمرابون القمح، الصوف، زيت السمسم، البلح المواشي، الفضة والنحاس. يزاول كثير منهم الربا، يقرضون بفوائد باهظة الحبوب والنقود: ٢٠% للدرهم، ٣٣.٣% (قرابة الثلث) للحبوب. لم يكن الكهنة رجال المعابد يخلون بهذا العمل. تتم التجارة بالمفرق في السوق، في مجال النقش أو يدا بيد.

التصنيف الاجتماعي للناس الأحرار

تميز شريعة حمورابي عينتين من الناس الأحرار: ١- إنسان بلا أهمية (موشكنو)؛ ٢- "إنسان" أو "ابن إنسان". عبيد ومالكون. لكن غير متساوين بالحقوق. ينجم الفرق في بعض القرارات من التعويضات. هكذا، في حال سرقة الماشية، التعويض على الأميلو أعلى بثلاثين مرة من سعر المادة المسروقة، بينما لاتساوي أكثر من عشر مرات في حال التعويض على الموشكنو؛ ومن يعور أميلو أو يكسر له عظما، يخضع للأذى ذاته، وإذا وقع هذا الأذى على موشكنو، يحتاج تنفيذ العقوبة إلى وكالة.

كيف يعال هذا الفرق؟ وضع المؤرخون الروس عدة فرضيات. يرى الأكاديمي ستروفي أن "الأميلو"، المواطن البابلي المتمتع بكل الحقوق، هو المنتصر أو الفاتح العموري، وأن مصطلح "موشكنو" يعني شعب سومر وأكاد الحر الخاضع؛ وحسب

دياكونوف، الأميلو هو عضو المشاعة، بينما الموشكنو، مزارع الملك، هو من استعبده العجز عن تأدية ضرائب الدولة. وفي هذه العينة، يصنف الحراثون الذين يتوجب عليهم أن يؤديوا أتاوات قمحا ما يدفعه الموظفون المحظيون والمرابون والكهنة الذين تلقوا أراضيهم من الملك. فقط المحاربون، رغم أن أرضهم من الملك، كانوا يبقون أعضاء المشاعات ولم يكونوا موشكنو.

أيا كان تفسير هذه المصطلحات، يمكن أن نعرف، استنادا إلى شريعة حمورابي ووثائق الشؤون العامة، العديد من أنواع المواطنين الأحرار. فهم أعضاء المشاعات، المزارعون المملكون الذين يؤدون ضريبة عينية، المحاربون الذين يتلقون أراض غير قابلة للتصرف، الحرفيون، الموظفون المحظيون والمرابون الذين كانوا في وقت معا تجارا، مرابين ووكلاء، أخيرا الكهنة والأرستقراطية العليا.

وضع المشاعات

كانت المشاعات الريفية، المؤلفة من الحراثين الأحرار، مرتبطة قبل كل شيء بالحقوق والواجبات المشتركة الخاصة بالري. وكان الري المنتظم، وبالتالي، الموسم يرتبطان بصيانة المنشآت: الأكنية، تجمعات المياه والسدود. كان يتوجب على كل عناصر المشاعة أن يساهموا بالأعمال، وهذا يعطي الحق لكل منهم أن يروي حقله بقنوات وخزانات مياه المشاعة. وتصلح المشاعة أيضا التلف والضرر الذي تسببه مشاعة الجوار أو أي نفقة أخرى، إن بخطرنا خربت المياه السدود وغمرت الحقول والمراعي. وكان رفع الضرر يوزع بين كل الأعضاء. وتتعهد المشاعة ماديا دم القتل أو السرقة التي تقع على أرضها ولم يكتشف الجاني.

كل عضو في المشاعة، أو بالضبط، كل مشاعة عائلية تدير حقلها الخاص. وليس ثمن معلومات محدودة حول الحق الذي تأخذه لقاء هذا. ولقد وصلتنا عقود بيع حقول عقدها الحراثون، لكن الصعوبة في عدم معرفة نوع القطعة التي بيعت: موروثة أم مملوكة حديثا. وكان تفكك المشاعات يتم بخاصة جراء دمار الناس، الذين يفقدون أرضهم أو لم يحصلوا على أرض عند التوزيع على أعضاء الأسرة الكبيرة. هؤلاء الصعاليك يصيرون مزارعين أو يضافون إلى فئة الأجراء التي يشير إليها تشريع حمورابي. ويعملون رعاة، حراثين، وبستانيين؛ "عرفة الملك" تقدم لهم أدنى الأجور؟ لكن عددهم لم يكن يكفي طلب المالكين

أثناء الأعمال العاجلة الموسمية أو غيرها، كالحصاد، جني البلح أو غرس حقول جديدة بالنخيل. فيضطر المالكون آنئذ أن يتوجهوا إلى المشاعات، ليعقدوا معها عقودا للحصول على اليد العاملة المطلوبة. كثيرا ما عقدت هذه العقود مسبقا. يصرف المستخدم مبلغا ما ليلزم عددا من الشغيلة ليأتوا بالوقت المحدد. في حال عدم التنفيذ، تقام دعوى على المشاعة. وهكذا كثيرا ما يخضع المالكون للمشاعات في الأوقات الحرجة.

في الوقت نفسه، كان أعضاء المشاعة يحرمون من الحقوق في بعض المناسبات، فعندما يكون العمل في بيت الملك، مثلا، لايهتم القانون بمدة السخرة ولا بطبيعتها. يطلب منهم حفر الأبنية الملكية وترميمها أو تنظيفها، بناء وإصلاح القصور والمعابد، جز الماشية، ونقل الأحمال، إلخ. ويسهر زلم الملك على ماتقدم التعاونيات من رجال راشدين وأشداء. كانت شروط العمل متساوية لدى الأحرار والعبيد. فالسوط يداعب ظهور هؤلاء وأولئك. لاستحق السخرات الملكية أي أجر أو ثواب؛ فقط العمال الأحرار يحظون بجعالة غذائية، كالعبيد.

الأسرة الأبوية

في الامبراطورية البابلية، كان يوجد، عدا مشاعات الجوار، مشاعات أسرية. ولم تكن التبدلات الجارية عندهم، منذ أسرة أور الثالثة، ذات أهمية.

فالمشاعة الأسرية البابلية ذات طبيعة أبوية. الرئيس هو الأب؛ نادرا، عند وفاته، ينتقل دوره إلى الأم. والأسرة الأبوية مؤلفة من الأب، ونسائه، وأبنائه وأحيانا أحفاده. كان اسمه الموقوف عليه "بيت الأب"، "البيت الأبوي"؛ ورزقه يسمى "رزق البيت الأبوي". لا يستخدم تشريع حمورابي إلا هذا التعبير، لايوجد في القانون أي عبارة تشير إلى الملكية الشخصية. يتضمن "رزق بيت الأب" الأرض، البيت ومنشآت الاستثمار، الماشية، العبيد، الأوعية، منتوج الحقل، النحاس، الفضة والذهب.

لقد ترجمت التبدلات في وضع المشاعة العائلية بإرساء دعائم الملكية الفردية واتجاه الجيل الجديد نحو إضعاف القيود التقليدية التي كانت تقف حائلا في وجه الغنى الشخصي لأعضاء المشاعة. كان هذا واضحا في الأوساط العبودية الغنية. كانت شريعة حمورابي تشجع هذه الاتجاهات وتنص على تغييرات في الأوضاع الأسرية.

يقدر كل عضو في الأسرة أن يمتلك رزقا يخصه، يسمى سيبتو، الغنيمة (أي الرزق

الذي كسبه أو حازه الإنسان بنفسه، بجهد الشخصي أو وسائله الخاصة). فقد خضع قنانون التملك في الأسرة إلى تبدل أساسي: من الآن، يحق للأب ترك جزء من ثروته لولده، "الأول في نظره". تصير هذه الحصة سيبتو من جناها. ثم، توطد شرعة حمورابي القسمة وتعطلها بالتفصيل. تعين حصة الأم، البنات العازبات، الأبناء الذين لهم خليات، مع الاحتفاظ دوماً على تساوي حصص الأبناء. لكن هذه القاعدة الأخيرة غير مرعية الإجراء دوماً. فاتفاقات بين الورثة تخلق قسمة غير متساوية، فيحظى الابن البكر بأكبر نصيب أو أجود حصة. يفضل الأبناء الآخرون أن يبيعوه نصيبهم أثناء القسمة. ويحدث أحياناً أن تحرم البنات وكذلك الأمهات. وهكذا أرسى الملكية الفردية تفكك المشاعة العائلية؛ لكن هذه الأخيرة استمرت بالوجود، لأن الأخوة الأبناء، بعد أن يسلبوا أخوتهم الأصغر وأخواتهم ويتزوجون، يصيرون قادة مشاعات جديدة. وينجم عن هذا، كما الأمر في المشاعات الريفية، استبعاد من الإرث له، ومنهم يؤخذ موظفو الملك العزبان، الأتباع، ومنهم يخرج مرتكبو الجرائم، إلخ.

في الأسرة الأبوية، المرأة أقل امتيازاً من الرجل. وعقوبة المرأة الزانية أشد كثيراً من الرجل غير المخلص. طلب الزوجة بالتفريق صعب. وينص القانون على حالات تخضع المرأة فيها لمساكنة المرأة الثانية، أو الخلية المختارة من العبيد. على ذلك، المرأة البابلية غير محرومة من كل الحقوق. فالمرأة الشرعية، المتزوجة بعقد، ترث، عند وفاة الزوج، مهرها، وحصة تساوي حصة الابن، إلا إذا كان الميت قد أعطاها هبة ما. ويقدر الزوج أن يطلق متى يشاء المرأة العاقر، لكنها عندئذ تأخذ مهرها. وتحصل البنات، غير المتزوجات حتى وفاة الأب، نصيب الذكر. وبعض شرائع النساء، بعامّة، الراهبة والأرملة، مسموح لهن مزاوله مختلف الأعمال المشروعة باسمهن، وحيازة أملاك، وامتلاكها، ويصرفن شؤونهن، يشتريّن أرزاقاً منقولة وغير منقولة ويمارسن الربا.

العبودية

في الإمبراطورية البابلية، حافظت العبودية إجمالاً على ماكانت عليه في الألف الثالث. وحفظت العبودية الألفية أهميتها. العبد ملكية مطلقة للمالك، يستطيع بيعه ومبادلته بالنقود، وأن يوصي به، وأخيراً، أن يرهنه كأي سلعة. وفي حال رفض الطاعة، يسمح القانون للمالك أن يشوه عبده كأن يبتز أحد أعضائه (المادة ٢٨٢). بعض العبيد يوشمون

واللحية التي تخفي الوشم بدون إذن عقوبتها قطع الأصابع (المادة ٢٢٦). وعند قتل عبد غير بدون قصد، يفدي الجاني جنايته ببساطة بعيد ما (المادة ٢٣١). يمكن عتق العبد بالتخلص أي الوفاء وبالتبني.

تتمتع المرأة العبدية بمكان خاص في المشاعة العائلية. إن كانت المرأة المشروعة عاقرا حق للزوج أن يتخذ له خليفة، وهي غالبا عبدة؛ أحيانا، تختارها المرأة المشروعة من عبيدها. في هذه الحالة لاتعتق العبدية، لكن هذا لايمنعها، إن توفرت الفرصة السانحة، من أن تحكم الأسرة، وتستبعد المرأة المشروعة إلى المقام الثاني. أبناؤها أحرار، لكنهم لايرثون إلا إذا وافق الأب على صيغة "أنتم أبنائي".

أثمة الكثير من الوثائق الخاصة بالمعاملات التجارية أو سواها: كان العبيد يباعون ويشتررون، يقدمون هدايا، يتركون إرثا، ومطرح تأجير. في بعض الحقول كان عددهم كبيرا، ولايتجاوز مع ذلك العشرات. بعامة، يحتفظ البيت بخمسة منهم كحد أقصى. كانوا في الأغلب، أسرى حرب، أو عبيدا مشترين، وأحيانا مدانين.

في أيام حمورابي، ازداد عدد العبيد لعدم وفاء الدين، على أثر استبعاد المحرومين من الإرث ومن ازدياد المشاعات التي لاتملك أرضا. يحدد القانون الاستبعاد لدين بثلاث سنين. ولقد حرصت على هذا التدبير الاضطرابات الناجمة عن اتساع هذا النوع من العبيد وازدياد عدد المفقرين والعاطلين عن العمل، علما أن المصادر التاريخية لاتذكرهم.

الخصائص العامة للامبراطورية البابلية

في القرن السابع عشر قبل الميلاد، كانت ميزوبوتاميا في قمة الازدهار الاقتصادي والسياسي. حسنت طرق إدارة شبكة الري واستخدمت آلات الرفع على نطاق واسع، وطورت سكة الحراثة؛ واستخدم الحصان كحيوان أليف. تقدمت الحرف، بخاصة البرونزية: استخدمت المناجل والأدوات البرونزية الأخرى، التي تسهل العمل في الحجر والخشب. اتسع الإنتاج البضاعي، تطورت التجارة في داخل بابل وامتدت إلى البلدان المجاورة: عيلام، سوريا، آشور وسواها.

وطد نمو الإنتاج البضاعي الملكية الخاصة للأرض والعبد. لكن الملكية الفردية بقيت محدودة (بخاصة فيما يخص الوصية) وحافظت العبودية على الخاصة الأبوية (بوسع العبد أن يتزوج من حرة).

الحقول الشاسعة التي يتصرف الملك، المعابد ونبلاء الدم، التي كانت تميز تاريخ ميزوبوتاميا، تقلصت جدا أو اختفت تماما. والشكل النموذج للاقتصاد هو الملكية الصغيرة أو المتوسطة المؤسسة على استغلال عدد بسيط من العبيد. وتوارث الأشكال الأبوية لارتباط الناس الأحرار، عدا عبودية الدين؛ وعاش الغورشي أيضا أيامهم.

ترعزت القسمة في مشاعات الجوار، إذ حافظت إجمالا على حقوقها في أعمال الوي، لكن المشاعة العائلية بقيت هي خلية الاقتصاد الرئيسية. والفرق بالثورة الذي فاقمه الربا والضرائب الباهظة، فكك مساحات شرائح واسعة من محرومي الإرث الذين آل بعضهم إلى خدمة الملك كمزارعين أو محاربين، وانحدر الآخرون إلى عبودية الدين.

حاول حمورابي كبح تحكم التانكاروم؛ حددت عبودية الدين بثلاث سنوات، ألغى حق الهرابي بالدخول إلى بيت المدين، واضطره التانكاروم على أخذ وكالة في عدم مساعدته. كانت هذه التدابير تهدف إلى تمتين وحدة الفئة الحرة وتوحيد مختلف شرائحها ضد العبيد. لكنها لم تنجح: تطلعت رسائل العصر على حالات خرق قوانين حمورابي من قبل التانكاروم، بخاصة وضع اليد أو حجز أراضي مزارعي ومقاتلي الملك التي لايجوز التصرف بها.

فالمجتمع البابلي لم يعرف التناحر بين الأحرار والعبيد فقط، بل أيضا التناقضات بين مختلف الشرائح الحرة.

كانت دولة العبودية، المدافع عن مصالح الطبقة المهيمنة، استبدادية، ملكية مطلقة حيث يحكم الملك بواسطة العديد من الموظفين والقضاة.

سقوط امبراطورية بابل، عصر الكاسيت

انهارت امبراطورية بابل على عهد آخر ملكين من الأسرة البابلية الأولى، هاجمها أربعة أعداء، الواحد بعد الآخر: ساميو المناطق البحرية من سومر، عيلاميو زاغروس، الحثيون الآتون من الشمال، أخيرا مربو الخيول الكاسيت الذين كانوا يعيشون في شمال عيلام. تحقق النصر على يد القبائل البحرية التي احتلت جنوب الامبراطورية، والكاسيت الذين أقاموا في وسط وشمال بابل.

أسس الملك الكاسيت غانداش فيها أسرة. وأخضع خلفاؤه القسم الجنوبي من البلاد. دامت السيطرة الكاسيت حتى ١١٦٥ قبل الميلاد.

انحدر الكاسيت من الجبال وصاروا سادة بابل، واحتلوا بالمشاعات العشيرية. وبعد أن احتلوا مساحات واسعة منهوبة وخالية من السكان جراء الغزوات والحروب، سارعوا إلى الزراعة المقيمة، التي أخذوا أساليبها من البابليين. اعتمد الملوك الكاسيت على جنودهم ومجنديهم، لكنهم أوجدوا أيضا حلفاء بين كهنة بابل، بخاصة كهنة المدينة المقدسة نيبور.

انقسم العهد الكاسيت إلى مرحلتين، خلال المرحلة الأولى، حتى الربع الأخير من القرن الخامس عشر، عاشت البلاد دمارا رهيبا وكسادا اقتصاديا. إذ شرعوا بأعمال ضخمة لترميم شبكة الري، وأعادوا بناء السدود وأداروا خزانات جديدة.

في نهاية القرن الخامس تبدأ المرحلة الثانية. خلالها تتطور الحياة الاقتصادية بسووعة قصوى. أقيمت تجارة منتظمة مع مصر وغيرها، الأمر الذي دفع ملوك الكاسيت إلى إصلاح دروب القوافل. وبذلوا جهودا جبارة لحماية هذه المسالك من اللصوص. وفي الوقت ذاته، أعيد تشييد المعابد. تفككت مشاعات الكاسيت، لذا أرسيت دعائم الملكية الخاصة. كافأ الملوك "إلى الأبد" النبلاء بالأراضي التي انتزعوها من المشاعات. القوارات الملكية في التملك والمكافأة منقوشة بشكل عام على الحجارة والصخور المسماة كودورو، الموضوعة على حدود الأراضي المقصودة. كانت أبعاد هذه الحقول الجديدة أكبر بكثير مما كانت في أيام امبراطورية بابل القديمة (من ٢٠-٢٠٠ هكتار)؛ لكن عددها كان حتما أقل بكثير من زمن حمورابي.

لقد نجمت انطلاقة الاقتصاد الملكي والفردى من نهب المشاعات وأعضائها، الذين ملأ ارتاحوا بعد من الحروب والدمار. وافترض ازدهار الحضارة الملكية تجدد الاضطهاد، وأفضى فتح ورشات لبناء معابد جديدة إلى تفاقم السخرات. خدمة للقصر. وانتزاع أملاك الناس العاديين سلب أسر للفلاحين، الذين لايتلقون شيئا لقاء هذا، لأن الأذاء، إن حدث، يأخذ الشيوخ. أفادت هذه المظالم المرابين. وصارت عملياتهم اللصوصية أكثر توحشا حتى أن بعضهم راحوا يجنون الضرائب الملكية ويسرقون الناس بدون رحمة.

الفصل الثامن

الحضارة البابلية

أهمية الحضارة البابلية

يعني هذا التعبير حضارة ميزوبوتاميا-السفلى. تشكلت في أثناء ارتقاء هذه البلاد تاريخيا، في القرن الرابع قبل الميلاد عند أقول امبراطورية بابل القديمة. عواملها الرئيسية هي أنجازات سومر الثقافية، التي قبلها الأكاديون وطوروها، وتبعهم في هذا البابليون. فالأصح إذن أن نسميها: الحضارة السومرية- البابلية. أسست الحضارتان الآشورية والكلدانية، اللتان تلتاها ولم تتخطياها. مارست الحضارة البابلية منذ الألف الثانية قبل الميلاد تأثيرا واسعا وعميقا على البلدان المجاورة: سوريا، فنيقيا وفلسطين، وعلى الحثيين وغيرهم. في الحقبة الآشورية والكلدانية، امتد نفوذها إلى الشمال الغربي، في البلدان التي يغمرها بحر إيجه، وإلى الشمال (أورارتو) وإلى الشرق (إيران). ولقد نقل العبريون، اليونان والرومان بصمات عميقة من الحضارة البابلية إلى شعوب أوربا، مائزات نرى تجلياتها في الحضارة الأوروبية المعاصرة.

الكتابة

كل النصوص المكتشفة في ميزوبوتاميا هي الكتابة المسماة مسمارية، المؤلف حروفها أساسا من زوايا مرسومة أفقيا أو عموديا. ولدت هذه الكتابة في النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد، مشتقة من الصور المنقوشة في الشارات المسمارية. تخمن بسهولة الرسوم المقصودة: إنسان، حيوان، أغراس، جبال، غابات، مياه، أوعية منزلية وأدوات. تختلف رسمه هذه الحروف حسب المواد المفيدة، ومعنى الشارات ويهدف توسيع الكتابة. وأهم وأقدم المكتشفات هي رموز فكرة منقوشة على صفائح صخرية أو حجرية، أي شارات يمثل كل منها كلمة أو فكرة. ثم صارت المادة الأكثر تداولاً لكتابة من شرائح الفخار؛ النص المنقوش على الشريحة الرطبة بحيث تترك شارة بشكل زاوية.

هكذا استعويض عن الرسوم القلمية بشارات مسمارية، لكن بعضها استمر حتى منتصف الألف الثالث.

في الوقت ذاته تبدل معنى الحروف، والرموز تتغير شيئاً فشيئاً إلى الشارات المقطعية التي تشكل من الآن أغلب شارات الكتابة المسمارية. لكن عدداً من الشارات المصورة بقيت وأظهر غيرها يمثل أصواتاً أبجدية. فالنهج المسماري إذن شديد التعقيد وصعب الدراسة. يعد قرابة ٦٠٠ حرف لكثير منها عدة معاني.

إن مؤسسي الكتابة المسمارية هم السومريون. تعلمها الأكليدون، ثم انتقلت إلى العيلاميين، والبابليين، والآشوريين والحثيين. وأفاد منها الفينيقيون ليصنعوا أبجديتهم الأولى. واقتبسها الأورارتيون، الذين كانوا يقطنون أرض أرمينيا الحالية؛ واستوعبها وعدلها الفرس الذين غزوا ميزوبوتاميا حوالي العام ٣٥٠ قبل الميلاد.

الدين

الدين البابلي، كما وصلنا في نصوص الألف الثالث، هو توليفة من العوامل السومرية والسامية. وثمة عبادات أخرى ذات اسم مزدوج؛ ولغيرها اسم سامي أو سومري. البابليون^١ البابلي، كبير العدد، لأقل من ١٠٠ إله. في رأسهم "الآلهة الكبار" الذين كانوا المعبود المحلي في مدن سومر وأكاد. وهم: أنليل، الإله الأكبر عند السومريين وهو أيضاً إله أرضي: أنوم، إله أوروك؛ إيا، إله إيرودو. في الألف الثالث جمعهم الكهنة في ثلاثي أسمى، وأعطى أنوم مملكة السموات، وإيا مملكة البحار والمياه الجوفية. عدا هذا الثلاث، ثمة حلقة أخرى من العبادات معروفة ومعترف بها في أرجاء البلاد قاطبة: إله الشمس شاماش (إله مدينة سيبار)، إله القمر سنن (إله مدينة أور) وإلهان زراعيان: تموز وزوجته عشتار.

كان تموز وعشتار إلهي النبات والخصب. تقام كل عام أعياد موت وبعث تموز، المترافقة بالأسرار التي تقدم عشتار تبكي زوجها، نزولها "نحو الأرض" دونما عودة للبحث عن المتوفى، ونضالها ضد إلهة مملكة الظلمات أرشيغال، وبعث تموز وظهوره ثانية على الأرض. وفي مشاعات الجوار، تسجل هذه الأعياد بداية ونهاية أعمال الحقول؛ وكانت

^١ - مجمع الأرباب عند القدماء.

الطقوس والشعائر الدرامية، المدن الكبرى، تجرى الاحتفالات الشعبية بأبهة وإجلال، مع أضحاحي لاتحصى.

ترتبط عبادات شاموش وسن سوية أيضا بالإنتاج: عبادة شاموش ترتبط بالزراعة، وعبادة سن ترتبط بتربية الدواجن. لكن شاموش يمارس في البانتيون الرسمي وظائف إله العدالة. كان معبده الرئيس، في سيبار، مقر محكمة أعلى الدعاوى ويوجد إلى جانبها مركز للعقود والإجراءات القضائية.

تمثل الآلهة عشتار في الميثولوجيا الرسمية الكوكب عطارد؛ بهذا الشكل، يشكل الكهنة الكوكبية الأولى من الآلهة النجوم: شاماش، سن، عشتار.

بعد تأسيس امبراطورية بابل القديمة، صار ملك الآلهة مردوخ، الذي هو أصلا إله بابل. وأعطى لقب بل (سيد)، لقب أنليل حتى آنثذ؛ ومنحه الكهنة مهمات أنليل وتموز.

باسمه، تحتفل بابل في الربيع بعيد رأس السنة، المسمى زاغ-موك. ذكرى نصر مردوك على تيامات، ومجيئه إلى العرش الإلهي، خلق العالم والناس وإرساء سماء بابل.

تنفذ طقوس درامية لدى قراءة قصيدة الخلق، التي تعرض الحلقات الرئيسية. في معبد منزّل، اسمه "قاعة الأقدار"، يرأس الكهنة المستقبل أمام أنصاب الآلهة، أي بحضورهم. ولقد لعبت هذه التكهّنات دورا هاما، لأن الملك مضطر لاستيحاءها في ممارسة سياسته. ينهي العيد بشعائر مستقاة من طقوس تموز وعشتار. يمثل أحدهما الموت وبعث بل-مردوخ. ويقرأ نص يذكر بشكل فريد بقصة موت وقيامه يسوع. وطقس آخر، يرمز إلى زواج مردوخ من زوجته ساريانيتو، وذلك لتأمين خصب الأرض.

لا يقتصر الدين البابلي عند عبادة "الآلهة العظام" وآلهة الزراعة. ليس الشعب فقط، بل أصحاب العبيد أيضا كانوا يؤمنون بالإحيائية وماقبلها، التي ترجع إلى عهد المجتمع البدائي. كانوا يقبلون تعدد الأرواح، طيبة كانت أم سيئة، التي تحكم ظواهر الطبيعة، ترسل الأمراض والموت، تؤازر الناس في عملهم وحياتهم. من هذه الأرواح، نذكر أرواح الأنهار والقنوات التي تمارس عبادتها في الدين الرسمي والأرواح الأليفة، وأرواح الأموات التي تقدم لها الأضاحي بانتظام. أخيرا يولي المجتمع البابلي كله أهمية بالغة لطقوس السحر، المستقاة من فكرة أرواح الخير والشر. ولقد تمثل علم الأبالسة والسحر الشعبي في الدين الرسمي وطورها. وإلى جانب المعابد، أنشئت المعاهد الخاصة للتعزيم التي تؤلف

علم الأبلسة وتنتشر أسطورة خضوع الأرواح إلى الآلهة "الكباز" أنوم، أنليل وإيا. وتقيم هذه المعابد الاحتفالات الرسمية لإقناع الناس بالصيغ والشعائر السحرية وهدايتهم إليها، حيث تقدم الأضحيات. وعلى أثر هذا التبدل، تتشكل طوائف خاصة، تكتمل فيما بعد على يد العبادة الآشورية.

كان إكليروس المعابد الرسمي لبابل والمدن الأخرى غير العدد، ويقسم إلى عدة مراتب، حسب التصنيف والوظيفة. وكان ثمة راهبات من مستويات عديدة، يخدمن في معهد شاماش في سيبار، حيث بنى لهن ملك أكاد مسكنا ضخما مع استثمارة مساعدة وحديقة أشجار مثمرة واسعة. في أثناء الاحتفال يساعدن مرتلون ومرتلات، وموسيقيون وكل أنواع الخدم. ومهنة الكاهن، الجزيلة العطاء تنتقل بالوراثة في المشاعة الأسرية؛ عند اقتسام أرزاق البيت الأبوي، كانت مهنة الكهنة توزع بين الأبناء، بحيث يمارسها كل منهم لمدة سنة، ومن كان دوره يجتني أرباح تلك السنة. وإن انتقلت المهام الكهنوتية للابن البكر، يبال أخوته حصة تحسم من باقي الإرث. كان الاكليروس يتمتع بنفوذ واسع، لأنهم يتولون شؤون السلاح الأهم وهو التأليه في الحياة الدينية في تلك العهود، وكذلك مناهل خيرات المعابد الوفيرة المتسعة باستمرار عن طريق أعمال الربا.

الأدب السومري-البابلي

لقد وصلنا عدد لا بأس به من الأعمال الأدبية السومرية والبابلية من الألف الثالث والثاني. ينسب مضمونها بطريقة أو بأخرى إلى الدين. أغلبها نصوص طقسية أو سحرية، والأعمال الأخرى التي لاتخص العبادة، تعالج مع ذلك مواضيع دينية، بخاصة ميتولوجية. والكتابات التي تخص موضوعات أخرى نادرة.

ميتولوجيا الدين الرسمي هي خلاصة الميتولوجيا الشعبية، أحد أهم عناصر التقليد الشفهي أو الفولكلوري. لا نجد في الاعمال السومرية البابلية مقاطع فولكلورية عديدة. تستخلص بكل وضوح من الأساطير المتحدة عن أصل العالم، الناس، الزراعة، الحياة الأبدية، بشكل خرافات ساذجة تشبه قصصا شعبية من المضمون ذاته. استخدم شعراء بابل هذه الخرافات السومرية لخلق أعمال رائعة. أهم هذه الأعمال هو القصيدة المعنونة، حسب كلماتها الأولى، الخلق. مستلهمة من القصيدة السومرية خلق العالم، ويطلبها أنليل؛ لكن الكهنة البابليين استبدلوه بمردوخ. وأجمل إنجاز من الأدب البابلي هو القصيدة الملحمية

جلجامش. كانت النصوص الأولى التي تتحدث عن مآثر هذا المقدم الشهم بالسومرية؛ أخذها كتاب بابليون، من طبقة الكهنة على الأرجح وحوروها. وهكذا ظهرت ملحمة جلجامش البابلية، مكتوبة على إثني عشر رقما كبيرة، تتضمن كل منها نوعا من الغناء المنفرد. تخولنا فكرته ومواصفاته الشعرية بتصنيفه بين ألمع أعمال الأدب العالمي.

ليس القصيد أبدا من الأعمال الطقسية. ولا يرتبط بأسطورة معينة، ولا بشعيرة ما. استخدم المؤلف الخرافات والحكايات الشعبية لإبداع عمل مستقل عن الحياة والموت.

كان هذا الموضوع يشغل منذ زمن بعيد المجتمع السومري-البابلي. وكان ثمة أساطير تعمل لإيضاح سبب خلود الآلهة وموت البشر. تقول إحداها: إن علة الموت البشري هي جنون الإنسان الأول، أدايا، الابن الأعز عند الإله إيا الذي أعطاه الحكمة العظمى، وليس الحياة الخالدة. قدمت مناسبة حيازة الخلود يوما لأدايا، لكنه رفضها. أُنذر بالمثل أمام الإله آنوم لأنه كسر جناحي ريح الجنوب. فأخطره إيا أن غداء وماء الموت سيقدمان له وليس له أن يذوقهما. وأثناء المحاكمة، أخذ الآلهة الآخرون الدفاع عنه وأنوم، رقيق القلب، حمل له غداء وماء الحياة؛ لكن أدايا رفض تناولها. دهش آنوم وسأله السبب. فأجاب: "الآخر قال: لن تأكل ولن تشرب." آنئذ أمر آنوم بعودته إلى الأرض. تسعى هذه الخرافة، التي ابتكرها الكهنة إلى الوفاق بين الناس وقدرهم وإقناعهم بعجزهم أمام الآلهة. لكن هذا التعليل لم يرض مفكري المجتمع البابلي. فطرح ملحمة جلجامش القضية مجددا. ولم تعط جوابا شافيا.

جلجامش هو الملك الخرافي لأوروك، المدينة السومرية الأقدم. أله بعد موته وأقيمت في ياوروك عبادة لمجده. تقدمه الملحمة كمقدم جبار، جميل وعاقل، إله العوام: أنجز أنكيديو، صديقه ورفيق السلاح، مآثر لامثيل لها جعلته يحظى بحب الإلهة عشتار. لكن جلجامش رفض هذه الهبات. غضبت عشتار وأرسلت ضده الثور السماوي الذي يخرب حقول القمح، لكن جلجامش وأنكيديو قتلاه. آنئذ، بناء على طلب عشتار، أنزلت الآلهة بأنكيديو مرضا مميتا. ارتعب جلجامش لموت صديقه، وأخذ خوف فيما يخصه هو:

جلجامش على قبر أنكيديو، صديقه،

يبكي بمرارة ويهرب من المعمة:

"وأنا أيضا سأموت مثل إيباني"^١

تغلغل الألم إلى أحشائي،

إنني أخشى الموت وأهرب من المعركة."

يقرر جلجامش كشف سر الحياة والموت. فقد علمته الخرافات القديمة أن ثمة أناسا منحبهم الآلهة الخلود: أوتنابشيم وزوجته. فيشرع برحلة خطيرة عبر البلدان المقدسة بحثا عن أوتنابشيم ليسأله كيف حصل على الخلود. وبعد تجول طويل، يجتاز عقبات رهيبة تعترض دربه ، ويبلغ شاطئ البحر السماوي. وهنا صابئية تعترضه (عابدة الشمس) وتنبئه أنه يتابع هدفا خياليا، فالخلود وقف على الآلهة فقط. وتتصحح العودة على أعقابيه والتمتع بالحياة. لكن هذه القناعة، المنتشرة جدا بين علية القوم البابلي لم ترض جلجامش مطلقا. فيتابع سبيله ويلقى أوتنابشيم الذي لايمالك شيئا يعزیه يقوله له. بل يقص عليه أن الآلهة، الغاضبة على البشر، أرسلت إلى الأرض طوفانا. الكل هلك، سوى أوتنابشيم وأسرته، وأن الإله إيا، الذي كان يحذب عليه اتقى النازلة وحرص على بناء مركب. وينتهي الطوفان، وتستقبل الآلهة في كنفها الزوجين الملكيين وتمنحهما الخلود. استخلاصا، يطلب أوتنابشيم من جلجامش: "أي إله ضمك إلى المجموعة، لتلقى الحياة التي عنها تبحث؟" ولما لم يكن أحد الآلهة كلف بهذه المهمة، يحاول جلجامش، بناء على نصيحة أوتنابشيم، قهر الموت بمختلف الطرق السحرية لكنه يفشل في هذا أيضا، منهكا، محطما، يعود إلى مسقط رأسه ويستدعي من مملكة الموتى أنكيكو ليعترف "بقانون الحياة" وبالحظ التعس لعناصر نرغال وأرشكيغال. نهاية الملحمة مفقودة. يجب الإقرار أن جلجامش ملت. دون أن يحل لغز الموت والحياة، لكن عمله هام، لأنه أول محاولة لنقد الدين. يجرؤ جلجامش على تحدي الآلهة ويتفوق عليها أحيانا، وتضطر الآلهة للصفح عن هذا التمرد. لقد أثرت هذه الملحمة تأثيرا عميقا في أدب الشعوب الأخرى في العصور الغابرة. وبين الكتابات الإرشادية، أهمها "حوار السيد والعبد" الذي يعكس لأخلاقية سادة المجتمع العبودي.

عاش السيد حسب مبدأ: "استغل الحياة مادمت على الأرض". وينتهي بالقرف: الحرب، الطرد أو الصيد، الحب، بناء البيوت، المكائد كل هذا يقززه. خائب الظن بالآلهة،

^١ - تسمية أخرى لأنكيكو.

يستخلص أن لا الأضاحي ولا السحر تمكن الآلهة من "جعل الإنسان يتبعها كالكلب". فلم يبق له سوى: "أن يكسر عنقه ويرمي نفسه في الماء".

كان لدى البابليين أيضاً ثروة وفيرة من الحكم والأمثال والقواعد الأخلاقية، التي يرجع أحدها بالتأكيد في مجمله، إلى أيام الامبراطورية القديمة. يزخر بالخوف من المؤامرات والاضطرابات الداخلية. يعظ بأخلاق عالم التناحر والخضوع للمستغلين. تنتهي هذه التوصيات، الموجهة في الأرجح إلى أعضاء المشاعة، بنصيحة بليغة المغزى، التضرع إلى الآلهة: "التضحية تطيل الحياة، والصلاة تكفر عن الخطيئة".

في الادب النيبوي، يجب تصنيف بعض النقوش الملكية للألف الثالث والرابع الأول من الألف الثاني. تقص هذه النصوص القريبة من الخرافات بمضمونها، أحداثاً تاريخية. مثل نقش أوركاينا العظيم الذي يتحدث عن بؤس سكان لاغاش عند توليه العرش ويحكي عن ثروته. ونقش حاكم لاغاش، ليناتون، حول غزوته المظفرة ضد عاهل أوما.

بذور المعارف العلمية

في عهد امبراطورية بابل القديمة، كان في ميزوبوتاميا-السفلى بذور علمية، تمارس في الحياة اليومية والاقتصاد. تفيد بخاصة في الفلك والرياضيات وتنفع في حساب الزمن، مسح الأراض، تسوية شبكة الري، وكذلك في أعمال التبادل والربا.

كانت عوامل الفلك، المعدة والمعدلة في ميزوبوتاميا في الألف الثالث وفي بداية الألف الثاني، والتي تطورت في أثناء العصور التالية، أساس الفلك اليوناني، ثم العربي، الذي أخذ منه الفلك الأوري جذوره.

الأفكار الفلكية لدى كهنة بابل مشتقة من علم الفلك البدائي. كانت الأرض، السماء والمحيط، في نظرهم، هي عناصر العالم الأساسية. الأرض نوع من الجبل الدائري، منتصب في وسط المحيط الأولي. وفوق الأرض يقوم، ككوب مقلوب، الفضاء السماوي أو الهوائي، الذي يهيمن عليه سد سماوي، تسكنه الآلهة، محاط بمحيط سماوي تصل أطرافه السفلى المحيط الأرضي. بداية، شبهت النجوم بخراف ترعى في السد السماوي، والشمس والقمر فلكان خلقهما الآلهة. وتحدث الكسوفات لأن أرواحاً شريرة خبات القمر أو الشمس. وفي بداية الألف الثاني، ميز علماء الفلك من النجوم الثابتة خمسة كواكب معروفة اليوم بأسمائها اللاتينية: فينوس، مارس، جوبيتر، مركوري وساتورن. في نفس الحقبة تكونت

مجموعات نجمية؛ ثم، ميز اثنا عشر مجموعة نجمية "على درب الشمس" (الكسوفية)، المسماة زودياك، وأقر أنه قرب "دب الشمس" هذا تقع الكواكب المسماة أعلاه. لا يعرف الكهنة تفسير الكسوف أو الخسوف يومئذ ويخلطون الظواهر الفلكية والتغيرات المناخية. وعلى قاعدة الملاحظات الفلكية البدائية، أعد تقويم يشبه التقويم الذي وضعه الصينيون؛ والمناهج الأمريكية القديمة تمت لهم أيضاً. وقد لعب التقويم البابلي دوراً فريداً في تاريخ الحضارة، وخدم جزئياً نموذجاً متطوراً لدى الشعوب الأوروبية.

كان كهنة بابل يجهدون في تفسير المستقبل استناداً إلى الظواهر السماوية والفلكية. لا يمكن وصف هذا النهج بترو بعلم فلك، لأن التفاسير تستند إلى تطابق النبوءات الأرصادية-المناخية والفلكية. مثلاً: "إن غضب آداد (إله العاصفة) يوم اختفاء القمر، سيكون الموسم وفيراً وتستقر الأسعار". وكان التقديس بعامه ذا أهمية سياسية عميقة.

لقد أفضت متطلبات الحياة، في بداية الألف الثانية، إلى تطوير ملحوظ بعلم الرياضيات. وكان الانجاز الهام الذي اضطلع به الرياضيون البابليون هو ما عرف بـ "نهج الوضع القائم": الاعتراف أن رقماً واحداً يمكن أن يكون ذا قيم مختلفة، حسب وضعه في العدد. بهذا الصدد، سبقت بابل اليونان والرومان. لكن العد الستيني عرقل التطور جداً. إن المصدر الفعلي لهذه الموضوعات مجهول: ربما كانت مرتبطة بالعينات العددية "المقدسة"، المستخلصة من حساب الزمن: ٧، استناداً إلى عدد أيام المرحلة القمرية، و١٢، استناداً إلى أشهر السنة. فوجود العدد ستون 60×12 في هذا النهج يكشف أنه مأخوذ أيضاً من الحساب أو العد على أصابع اليد، الممارس بسعة في العصر البدائي. أما المعارف الرياضية، فقد عرف البابليون في بداية الألف الثاني العمليات الحسابية الأربعة، والتربيع والتجذير المربع، وكذلك مبادئ الهندسة الضرورية لقياس السطوح. وكانت الصيغ الهندسية مستخدمة في قياس الأراضي، الحقول، المراعي والأماكن. ولقد عثر المنقبون على خرائط ومخططات مترافقة بالحسابات المناسبة.

وأخيراً، استقر العد الستون على يد البابليين، في علاقته المرجحة بقياس الدائرة التي ترسمها الشمس في السماء. كانوا يحسبون أننا إذا رتبنا جنباً إلى جنب، على خط السير النهاري للشمس، أفراساً مساوية للقرص الشمسي، نحصل على ١٨٠، إذن ٣٦٠ لليوم الكامل. يتضح الأمر بالصيغة التالية: تخطو الشمس في اليوم ٣٦٠ خطوة. هذه القسمة،

المطبقة على كل الدوائر، اقتبسها الرومان وتبنتها فيما بعد الهندسة الأوروبية: هي ذي قسمة الدائرة إلى ٣٦٠ درجة و(في اللاتيني *gradus*، الخطوة).

كان البابليون قد حددوا ١٢ ساعة للنهار ومثلها لليل؛ وفيما بعد قسمت الساعة إلى ٦٠ دقيقة والدقيقة إلى ٦٠ ثانية. ينسب هذا التقريغ إلى تاريخ العلم الأوربي.

قسم البابليون الشهر إلى أربعة أجزاء، حسب مراحل القمر؛ لكن إعطاء الأسبوع سبعة أيام، لم يأت قبل منتصف الألف الأول قبل الميلاد، تأسيس الآلهة السبعة "الكبار" الأفلاك: الشمس، القمر، والكواكب الخمسة المرئية بالعين المجردة، التي منها أخذت الأيام اسمها. وعن طريق الرومان، انتقل الأسبوع بأيامه السبعة إلى شعوب أوروبا وعم العالم قاطبة.

الفنون التشكيلية

السومريون هم أصحاب أولى نماذج الفن التشكيلي والمعماري في ميزوبوتاميا؛ قلدت أكاد وبابل وطورت الطرق والأسلوب التي أبدعت في سومر. وتؤرخ أغلب الأعمال الفنية التي وصلتنا بالنصف الأول من الألف الثالثة. لكن هذا لا يثبت أن الفن في ظل أسرة أور الثالثة وفي أيام امبراطورية بابل القديمة قد انهار بالنسبة إلى العصور السابقة. المقصود هو الظروف الخارجية، بخاصة الهزائم الحربية التي أتت على يد مملكة أور والامبراطورية البابلية. خلال هذه الحقب المضطربة، أُنْتُفِ الكثير من الأعمال الفنية، وأغلب الأعمال الفنية التي حفظت حتى هذه الأيام نقلها المحاربون العيلاميون والحثيون إلى العواصم.

مثلت الفنون التشكيلية أساساً بالمنمنمات والنحت. أسلوب المنمنمات بدائي: جذع بشري مواجه، وجه جانبي، أفضاخ جانبية والواحد وراء الآخر. كل الشخص بنموذج واحد، لكن الألبسة السومرية تختلف بوضوح عن الأكادية. تماثيل الحكام والملوك تتميز بكثافة الجذع؛ ورؤوسها متقنة وتوحي بالحياة.

صور الحيوانات طبيعية تماماً، أنيقة وجيدة التناسب الجسدي. يتأتى هذا من أن الفن الحيواني^١ ذو تقاليد قديمة جداً، تعود إلى العصر الحجري الأعلى.

^١ - الذي يشبه الحيوانات.

إن أجمل المنحوتات السومرية هي لوحات الثيران، البقر والعجول مع رعاتها، التي تزين معبدا من محيط أور (بداية الألف الثالث). نذكر أيضا منحوتات "مسلة النسر"، مع نصب لايناتوم وغزوته المظفرة ضد أوما. للأسف لم يصلنا سوى جزء منها. ونرى فيها أرباب كتبية من محاربي لاغاش، برئاسة ايناتوم. بحماية الدروع، والرماح المروسة، يدوسون بالأقدام الأعداء الصرعى. وفصيلان آخران يمثلان هرما من محاربي لاغاش سقطوا في ساحة الشرف وكلفوا بحرق الأموات، وسرب من النسر ينهش جثث محاربي أوما. وعثر المنقبون أيضا على أنية رائعة فضية لأنتمينا، حاكم لاغاش، منحوتة بدقة على نقد إله الصيد إيميجج، الطير المقدس ينشرب مخالبه بأسدين. وبين أنصاب الحكام الأهم، ثمة ثلاثة لغوديا الذي حكم لاغاش في أيام سسيطرة أسرة غوتي؛ اثنان جالسان، الثالث واقف. الثلاثة للأسف مشوهة ومقطوعة الرأس؛ وقد عثر المنقبون على رأسين منفصلين.

بين أعمال أكاد الفنية، نذكر "مسلة انتصار نارامسين" وتمثال لحمورابي. الأولى ذكرى لإرسالية في بلاد جبيلية: العاهل، محاط بمحاربيه، يجلس قرب قمة. وحمورابي على المسلة التي حملت شريعته، يمثل بين يدي الإله شاماش ليسلمه القانون.

الرسم الجداري معروف منذ نهاية الألف الثالث. لدينا منه نموذج رائع، وجد في قصر ملكي في ماري. يعرض هذا الرسم احتفالا حيث يراق الخمر تكريما لاستجابة الآلهة لابتهاال الناس بأن يكون الموسم وفيرا.

هكذا إذن، منذ الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد، عرفت حضارة مااجدة في بلاد ميزوبوتاميا-السفلى: السومريون والأكاديون يمتلكون بذور المعارف العلمية، كتابة متطورة، وأدبا راتعا. لكن الانعكاس المخلص للواقع غير ممكن في زمن يهيمن فيه مفهوم للعالم يتبناه الكهنوت، حيث يمجّد الدين السلطة الملكية وينذر الإنسان لإحساس الإحباط الناجم عن ضآلته.

الفصل التاسع

مصر القديمة

الشروط الطبيعية

تشغل مصر الوادي الضيق للنيل المحاط بالجبال من الغرب والشرق؛ يتراوح عرض الوادي بين ١٥-٢٥ كم. تفصله الجبال الغربية عن الصحراء، المسماة في العصر القديم الصحراء الليبية. خلف الجبال الشرقية، يمتد شاطئ البحر الأحمر. في الجنوب تقطع مجرى النيل سيول تجعل الإبحار صعب وت عزل مصر عن بلدان الجنوب. وفي الشمال، يعرض الوادي وينتهي بدلًا النيل. في الماضي، كانت المنطقة غير مزروعة، مستنقعية ومحرومة من الموارد الملائمة.

الوضع الجغرافي لوادي النيل يوفر له مكاسب ضخمة نسبة إلى وادي ما بين النهرين -ميزوبوتاميا- الجبال المحيطة به غنية بحجارة البناء: غرانيت، بازلت، كلكير. الجبال الشرقية وبخاصة جبال النوبة تحوي مخدرات ثرة من الذهب. تنمو في الوادي جواهر ثمينة، كالنخيل، والأثل، والجميز -تين فرعون- تستخدم جذوعها في بناء المراكب النهرية وكل أنواع الهياكل. يصب النيل في البحر الأبيض المتوسط، الشريان الرئيس في تجارة العصور القديمة. أخيراً، الزراعة هنا أكثر منها في ميزوبوتاميا.

مصر نوع من الواحة في طرف الصحراء؛ المطر نادر جداً هنا، وينظر إلى هذا المطر النادر نذير شؤم. لكن فيضان النيل يؤمن للبلاد رطوبة كافية وأجود أنواع السماد، أي الطمي. والنهر الذي يبدأ يطفح في شهر تموز، يغمر كل الوادي. يبقى الماء حتى تشرين الثاني، ثم ينخفض بالتدريج. وبعد الشح، يبقى على التربة طمي خصب، مركب من بقايا النباتات المائية العفنة والجزيئات المعدنية. وفي كانون الثاني، تغلح الأرض وتبذر. وبفعل الغرين الذي يغطيها، تعطي محاصيل وفيرة. فمن الطبيعي أن يقدس المصريون النيل منذ أقدم العصور.

تقي الرمال والبحر مصر من الهجمات المفاجئة. ومن هذا الطرف، كان موقعها أفضل من موقع ميزوبوتاميا سهلة البلوغ. على هذا، لم تكن مصر بمنجى من الغزوات، لكنها كانت أقل بكثير مما تعرضت له ميزوبوتاميا. ومصر لم تصب بالدمار الرهيب الذي تحملته بابل، مثلاً.

سكان مصر الأولون

في العصر الحجري القديم، يوم كانت الأمطار الغزيرة تحمي النمو السريع للأشجار والنباتات حيث تنبسط اليوم رمال الصحراء الرتيبة، لم يلج الناس أبداً وادي النيل، الذين إذ كانوا يعتبرون فيضانه الصاخب داهية دهياء. وأدوات العصر الحجري القديم لم تكتشف إلا في الجبال الواقعة على ضفاف الوادي. فقط، تطور الجني جيد التنظيم وزراعة الأرض المروية طبيعياً، شددت الناس إلى أرض ضفاف النيل، لكن هذا كان في العصر الحجري الحديث والوسيط.

كانت قبائل العصر الحجري الحديث تعمر مصر في الألف الخامسة قبل الميلاد، تعيش من الصيد والقتل، لكنها تهتم أيضاً بالزراعة وتربية المواشي والطيور: كانت تزرع القمح، الشعير والكتان، تربي الخنازير، الأبقار والأغنام. بداية، أقام الناس في أرباض الوادي حيث كانت الواحات (الغيوم)، حيث تسيل السيول الجبلية التي توفر الماء الضروري للحقول.

تنتسب قبائل وادي النيل إلى مجموعات أثنية مختلفة، كما تثبت أبحاث تكون الإنسان التي تكشف أن سكان مصر الأولين يضمون جماعات تمت إلى الليبيين، والزنوج وربما إلى قبائل سامية من جنوب فلسطين.

لقد توثقت معطيات الانثروبولوجيا^١ - بالمواد الأثرية التي تشهد على وجود مختلف نماذج القبور: على المجرى الأوسط للنيل، كانت قبائل الحضارة "التايزية" *taienne* تدفن موتاهم في مقابر خاصة، تاركة أباريق مترعة بالغذاء، بينما يدفن سكان شمال مصر (مناطق حلوان، مريدي) وفياتهم تحت تراب أكواخهم، على الخاصة، باتجاه النيل، ولايمونونهم، مفترضين على الأرجح أن أرواح الموتى تقاسم كل يوم الأحياء وجبتهم.

^١ - تكون الإنسان.

أخيراً، تثبت دراسة اللغة المصرية القديمة -استناداً إلى الآثار التي تعود إلى حوالي ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد- أنها تتضمن، عدا العناصر *chamitiques*^١، عناصر سامية.

يمنحنا كل هذا الافتراض أن الأمة المصرية تكونت في وادي النيل بعد اتصال جماعات أثنية أتت من الغرب، والجنوب والشرق.

في الألف الرابعة قبل الميلاد، حققت القبائل المصرية تقدماً عميقاً في مختلف فروع الاقتصاد: فنضوب الواحات وجفاف السيول أكرهم على حراثة الأراضي التي يرونها النيل؛ ولصنع الأدوات والحلي استخدموا المعادن (الذهب، النحاس)، الأمر الذي دفع المصريين على إقامة وشائج متينة مع البلدان المجاورة؛ وإتقان صناعة الصوان والخزف. أفضى كل هذا إلى زيادة السكان، وتعزيز وضع القبائل من جهة، ومن جهة أخرى، إلى ظهور عدم المساواة بالثروة والشروط، وقسمة المجتمع إلى عبيد، أحرار وأرستقراط. وتفكك نظام العشير.

مشاعية الجوار والقبائل (مشاعية الجوار *les nomes*)

في المرحلة التي تلت الارتقاء الاقتصادي، اتجه الناس لتشييد منشآت بدائية للري لتنظيم وصول مياه النيل -مصدر الماء الوحيد- إلى الحقول. ومع الزمن، كون الطمي، على طول النهر، مضاباً عالية كونت في سنة الفيض الضعيف، عقبات في وجه الغمر، وحالت دون تصريف المياه من الأراضي: وفقدان المصريف سبب المستنقعات.

كانت أولى أعمال الري كانت حفرأ بسيطة في جروف النيل، حيث السدود الخاصة تنظم الصبيب. وفيما بعد، تعلم المصريون إدارة الأتنية التي تحول المياه وتسقي بالدور الحقول المحيطة بالسدود.

رفع استخدام المحراث مردود العمل الزراعي، وابتكار الدوران حوالي ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد يثبت أن صنع الفخار كان قد صار حرفة مميزة. وظهر صناع مهنيون -باعة الخردوات، قصاصو الحجارة- في الأرجح في الفترة ذاتها. وأقيمت علاقات غير منتظمة مع البلدان المجاورة، وربما حتى مع سومر.

وأخيراً كان ابتكار الكتابة الرسمية إنجاز العصر الأهم.

١ - مجموعة لغات: مصرية، بربر، وفي أفريقيا، كوشيتيك *couchitique*.

المعطيات الأثرية التي تميز تطور العلاقات الاجتماعية شديدة الإيجاز. يمكن أن نقول: إن العبودية بدأت في الألف الرابعة: فالتمائيل الصغيرة للأسرى وقد قيدت أيديهم إلى ظهورهم هي البرهان على هذا، كما يبدو. وإلى جانب الملكية على الشيوخ، ولدت الملكية الخاصة: شاراتها، المسماة تامنا، نقشت بعامة على الدوارق؛ في الغالب، دوارق نفس القبر تحمل ذات التامنا. وتطور تربية الأنعام والطيور، والزراعة بالسكة الحديد، والمهن، قلص الدور الاقتصادي للمرأة في الإنتاج وأفضى إلى إرساء عهد الأبوة. وقد انتهت هذه التطورات إلى هدم نظام العشير وولادة مشاعية الجوار، المؤلفة من الأسر الصغيرة والكبيرة. وكما هو الأمر في ميزوبوتاميا، مشاعية الجوار هي مشاعية المياه والأرض، أي الملكية المشتركة بالأرض والماء خاصة.

شكلت بعض المشاعيات جزءا من اتحادات أرضية أوسع، طبعاً من القبائل السابقة؛ كان اسمها في مصر (سبات)، لكن المؤرخين اعتادوا إعطاءها الاسم اليوناني قبيلة *nome*. ومن الملفت أن الكتابة النقشية-التصويرية *pictagaphique* المصرية تمثل الـ(السبات) بصورة حقل مقطوع من القنوات، وكان تنظيم شبكة الري واحداً من أهم اهتمامات القبائل.

بالأصل، كانت القبائل منفصلة عن بعضها، بخاصة في الدلتا، حيث تشكل أفرع النيل والمستنقعات حدوداً طبيعية.

ربما كان لكل قبيلة لهجتها؛ على كل حال كان لها أساطيرها وخرافاتها، كانت أكبر القبائل هي القبيلة الفيلية^١ في أقصى الجنوب، و *raconpolis, Abidos, hie* كانت القبايل *Memphis et Bouto* كانت القبائل تتحارب، من أجل توزيع الأسلاب أو العبيد، أو بسبب النزاعات التي يثيرها شح المياه. ثمة نقوشات على صفائح من العاج أو الحجر تمثل مشاهد المعركة؛ وتكشف أنهم كانوا يتخاصمون بشأن الماء والأرض.

يرأس كل قبيلة رئيس، أحدهم هو الملك العقب، الذي وضع تحت سلطته مساحات من الأرض تبدأ من هياراكونبوليس حتى مامفيس. قبضة أسلحته الحجرية المكتشفة في هياراكونبوليس، مزينة بصور أبو منجل^٢ مربوط، يرمز إلى أعداء الـ"الملك". ورايات

^١ - نسبة إلى الفيل.

^٢ - طائر مائي طويل القاصتين والمنقار.

مزينة بحروف هيروغليفية تخفق فوقه: يذكر هذا المشهد على الأرجح بانتصار العقرب على العواهل الخصوم.

تحمل هذه القبضة رسم العقرب يمارس مهام الملك-الكاهن: المنكاش باليد، يحرسه اثنان من ذويه يهشان بالمروحة، يرسم التلم الأول لتأمين موسم وفيرو، ورجل آخر يرمي الحب في التلم، يأخذه من سلة.

المعطيات التي بين يدينا عاجزة عن تمييز سلطة الملك العقرب. وبما أن الدولة لم تكن قد وجدت بعد، كان لابد من اعتبار العقرب رئيس قبيلة وليس ملكاً باتساع الكلمة. ينتج من هذا أن محاولات توحيد وادي النيل سبقت تشكل الدولة. وفي هذه الحقبة الزمنية، على الأرجح، تشكل اتحادان كبيران من القبائل، يحكم الأول الدلتا الإقليم المتأخم لممفيس (سمي مصر-السفلى)، والآخر (مصر-العليا) يمتد نحو الجنوب حتى الفانتين *Ele'phontine*. بداية، كان مركز مصر-السفلى بوتو *Bouto*. ومركز مصر-العليا هياراكو مبوليس.

الإمبراطورية الثينية

تشكل الدولة بعيد ملك العقرب، في أيام الأسرتين المالكتين الأولى والثانية (نهاية الألف الرابعة). قبور هذا العهد تشهد على مساواة واضحة في الثروة والشروط: الناس البسطاء مدفونون في حفر بسيطة تضم سحلية بسيطة، بينما قبور الملوك والسادة صروح معمارية فعلاً. فقبر حيماكى، مثلاً، يضم ٥٠ غرفة وجد فيها حوالي ٢٠٠٠ مادة (رغم سرقتها فيما مضى من الزمن). ومنحوتات وأنصاب العصر تقدم عامة الشعب عارياً تقريباً، الشعور حليقة، مع أن النبلاء يرتدون أفخم الثياب والشعور المستعارة للرأس واللحي. وكان عبيد الملوك والنبلاء مدفونين قرب سادتهم.

المحطة الأولى من وجود الدولة المصرية سميت الإمبراطورية الثينية. تدوم تقريباً من القرن الثلاثين حتى القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد. وربما ولدت الدولة في نهاية الألف الرابعة؛ لكن الثابت أنها وجدت في العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد. تثبت الآثار النادرة لاتحاد الشمال والجنوب أن النضال الذي سبقها كان طويلاً وضارياً. ونحن نجهل اسم الملك الذي وحد البلاد. وحسب موروث جمعة هيرودوت، كان مؤسس الأسرة الأولى هو مينيس. لكنه كان اتحاداً غير مستقر. شريحة حجرية نقص حكاية انتصار نارمير، ملك مصر-العليا، على مصر-السفلى؛ وبعد هزيمة العدو، أسر نارمير ٦٠٠٠ مقاتل. ربما كان

الحديث يدور حول إيادة تمرد نشب في الشمال.
في نهاية حكم الأسرة الثانية أعلن عصيان آخر في مصر-السفلى، كلفت إيادته
خمسين ألف قتيل.

الفصل العاشر

إمبراطورية مصر القديمة

الاقتصاد والنظام الاجتماعي

عاشت دولة العبودية المصرية قرابة ألفين وخمسمائة سنة: من نهاية الألف الرابعة حتى العام ٥٢٥ قبل الميلاد يوم قهرها الفرس. وينقسم تاريخ الدولة المصرية إلى خمس محطات: الإمبراطورية الثينية، الإمبراطورية القديمة، الإمبراطورية الوسطى، الإمبراطورية الجديدة والعهد الأخير. وتميزت أيضا حقبة انتقالية. تنقسم العهود إلى أسر مالكة. الإمبراطورية القديمة التي تمتد تقريبا من القرن ٢٨ حتى ٢٤ قبل الميلاد، تبدأ مع الأسرة الثالثة وتنتهي مع الأسرة الثامنة (لأنعرف شيئا تقريبا عن الأسرتين الأولى والثانية).

في مصر كما في ميزوبوتاميا، يؤسس الاقتصاد على حراثة الحقول وتربية المواشي والطيور، وري معقد، زراعة الكرمة، والأشجار المثمرة، مواد زراعية بدائية، من نموذج العصر الحجري الجديد. كان المنكاش والتقف لنقل التراب الأدوات الوحيدتين المستخدمتين في حفر الترع وتشبيد السدود؛ كانوا يحرثون بالمنكاش أو المحراث الخشبي، تجره البقر؛ وفي الحصاد استخدم نصل الصوان ذو المقبض الخشبي؛ يداس العنب بالأقدام ويدرس القمح بوطء البهائم الصغيرة على السنابل المنتشرة على البيدر.

كانت أدوات الحرفيين من الحجارة من الخشب ومن النحاس؛ كان أغلب الأدوات النحاسية مطروقا وليس مصبوبا أو مسكوبا. وكانت الأدوات النحاسية تستخدم بسعة لتسوية الخشب وبخاصة الحجارة الطرية.

بواسطة السكاكين والبلطات النحاسية، صنعوا المراكب (التي وجد بعضها قرب القبور الملكية، وسكة المحراث الحديدية، ومواد أخرى؛ كان قاطعو الحجارة المصريون، المسلحون بهذه الأدوات البدائية نفسها، يصنعون صفائح كلسية قابلة للإتقان.

لقد وصلتنا أعمال هامة، نحوت وجداريات قبور تخص الارستقراطية المصرية، تمثل أنواعا من الأعمال الزراعية ونشاطات الورشات الحرفية. بعض هذه الورشات متخصص: النجارة الضخمة والدقيقة، مدابغ، نسيج منفذ أعمال دقيقة لكنها من نوع محدد؛ هكذا صنعت ورشات النجارة حاجات دقيقة من الخشب وكذلك المراكب الضخمة.

وحلقات أخرى من مهن مختلفة: باعة الخردوات والصاغة، الدباغون، قاطعو الحجارة، إلخ. أغلب الحرفيين ذكور؛ فقط النساجون، في زمن الإمبراطورية القديمة، نسوة. ومكان خاص يعود للمهن التي تعالج المنتجات الغذائية، على رأسها الأفران ومعامل الجعة.

رغم تطور المهن يستمر الوفور في الاجمالي الطبيعي؛ إن نزل جزء من المنتجات إلى السوق، يظل التبادل بدائيا: يبادل منتج بآخر؛ السمك، مثلا، يبادل بالحذاء أو الخضار لقاء النسيج. ولما كانت النقود لم تعرف بعد، يبادل النحاس بالوزن. على هذا، ترسخت العلاقات الاقتصادية مع البلدان المجاورة، بخاصة مع سوريا، فمنها يأتي خشب الأرز. والسلع الآتية من سوريا وأثيوبيا هي بعامة المواد الكمالية التي لاتهم طبقة الكادحين.

العلاقات الاجتماعية في الإمبراطورية القديمة غير معروفة: فلم يعثر تقريبا على وثائق الشؤون المصرية المماثلة لرقم الفخار السومرية للألف الثالثة؛ أما المشاهد التي تزين جدران القبور تشير جيدا إلى تقنيات الإنتاج، لكنها لاتحولنا معرفة وبالصبط لمن تخص الأرض، ولم تكن الشرط الاجتماعي للرعاة، الحصادين أو قاطعي الطرق.

في المجتمع المصري، انتشرت العبودية. شكلت الحرب مصدراً للأسرى وبالتالي للعبودية (من الاثيوبيين والليبيين) الذين يأتي بهم الملوك من غزواتهم. يختال عاهل من الأسرة الرابعة، في نقوشه، انه أسر مرة مائة ألف أسير ومرة أخرى سبعة آلاف. لكن ماعدا هؤلاء الأسرى، كان بين العبيد مصريون استعبدوا؛ فانهدار الناس الأحرار إلى عبيد مذكور في النقوش العائدة إلى نهاية الإمبراطورية القديمة. ومعروف أيضاً أن العبيد كانوا يشرون ويباعون.

ليست حياتهم أكثر من مكان للفرضيات. وفي كل حال، تبقى العبودية أبوية: فالعبيد لايشغلون مكاناً خاصاً في عملية الإنتاج؛ الناس الأحرار وحتى الارستقراطيون -سادة وكهنة- يشاركون بالأعمال الزراعية وغيرها.

أنباء الملكية ضئيلة جداً. في الأرجح، كانت النواة الاقتصادية للمجتمع دوماً هي مشاعية الجوار التي تنظم توزيع المياه على الأراضي. وربما حفظت المشاعية المصرية أنواعاً من العمل التعاوني في تقسيم أعمال الري ومنشآته أو درس القمح: وتدرس القرى حبوبها على بيدر مشترك. وليس واضحاً أمر التنظيم الداخلي للمشاعية المصرية، لكن الثابت ان الأرض والأنعام كانت، في زمن الإمبراطورية القديمة، تباع أو تترك إرثاً. وحسب ف. أفدييف، كانت جمعية خاصة تضطلع بشؤون المشاعية (توزيع المياه، والدعاوى وسواها).

كانت المشاعية تتضمن أسراً أبوية صغيرة وكبيرة. وكان المالك الرئيس هو الابن البكر، الذي يحصل على الثروة كلها أو الجزء الأهم؛ على ذلك، لرئيس الأسرة الحق في أن يوصي بأرزاقه لشخص غريب. تتمتع سيدة البيت بنفوذ واسع: المصري هو ابن هذه وليس ابن ذاك؛ وبقايا الأمومة كانت تبين أيضاً في قدرة المرأة على حكم البلاد (نظرياً) ينتقل عرش مصر من الأم إلى البنت. وفي حقول وورشات الملك، والمعابد والسادة، لا يعمل العبيد فقط، بل أيضاً الناس الأحرار، المشار إليهم في بعض النصوص باسم ميرتو *mertou*. ويشكلون عادة طواقم يديرها رؤوساء. ورسوم ونقوش القبور، تقدم هؤلاء الرؤساء مسلحين بسوط أو هراوة. لانعرف إن كان الـ(ميرتو) أعضاء في المشاعية أم أنهم تركوها لسبب ما. يفترض بعض العلماء أنهم كانوا عبيداً، لكن غير معروف كيف يحدث هذا.

كان الحسبة يراقبون بدقة عمل العمال. وفي أثناء تنفيذ المهمة، كان هؤلاء يتلقون أغذية: خبز، بيرة وخضار. ولانعرف كيف كانت تنظم السخرة؛ أما المؤكد، أنها لاتستغرق كل وقت الشغيلة: لهم أن يعملوا لحسابهم ويبيعون في السوق ماينتجون. تشمل الطبقة السيدة نبلاء القصر وارشتراطية القبائل (النوم)، الذين انحدر أغلبهم من حكام النوم). كان السادة يملكون أراض شاسعة تشمل قرى منفصلة. وكان يدير الاقتصاد العديد من الموظفين والحسبة. كان قسم من هذه الأملاك ميراثاً، لكن النبلاء يتلقون أيضاً أراضي من الملك، مكافأة لخدمتهم. كان عليّة الكهنة ينتسبون أيضاً إلى الطبقة المهيمنة. عدا أعيان الارشتراطية، كان ثمة موظفون صغار وكهنة يملكون عبيدين أو ثلاثة عبيد (بعمامة من النساء). ليس لهم ان يبنوا قبوراً فخمة، بل يسكنون أقبية مزدانة بالنقوش والنحت.

النظام السياسي للإمبراطورية القديمة

في أوج الإمبراطورية القديمة، كانت الدولة المصرية هيئة استبدادية تدافع عن مصالح النبالة المستعبدة. وكانت أعتى وأشد مركزية من دولة سارغون في ميزوبوتاميا؛ يعلل هذا بخاصة في الشروط الطبيعية لوادي النيل، حيث تقيم القبائل في بقعة ضيقة على حوافي نهر فريد. والتوزيع المعقل للمياه والاستثمار الطبيعي لوسائل النقل غير ممكنة إلا في مصر موحدة.

كانت ممفيس عاصمة الإمبراطورية القديمة، في مصر-السفلى. وكما تدل المعطيات الأثرية، كانت أملاك وقصور الأرسطراطية في هذه المنطقة. فحول ممفيس (في الجيزة، أبوصير، ساكاراه، إلخ.) عثر على الشهود الرئيسيين لازدهار الإمبراطورية القديمة، بينما لم يعثروا في باقي بقاع البلاد سوى على آثار منزلة ومصر-السفلى (بخاصة الدلتا)، المنطقة التي احتلها نارمير وملوك آخرون من الأسر الأولى، كانت تشمل غالبية المراعي والكروم الملكية، بينما كانت مروج الدلتا تغذي قطعانا ضخمة من البقر والأغنام. وكانت الأملاك الملكية القاعدة المادية للسلطة الحاكمة.

كان الملك، الذي دعي فيما بعد فرعون (*depeaa* التي تعني بالمصرية "البيت الكبير") يحكم حكما مطلقا يعين الموظفين الكبار، يعزل الحكام، يفرض الأثاوات، يرسل الجيوش إلى البلدان المجاورة، إلخ. يقدر أن يصادر أرزاق رعاياه ويحكمهم بالموت بدون محاكمة. ليدعم نفوذه، قدس وأعلن "الإله الأكبر": تعبد ابتهالي يقام حول شخصه. ويعتبر حتى تقبيل حذائه يعتبر شرفا عظيما. يقدمه فنانون مصر معادلا للآلهة.

كان الفرعون يرتكز إلى جهاز واسع من الموظفين يديرهم الوزير الأول، المسمى بالعربية الـ: "وزير". كان الوزير قائد الجيوش، والقاضي الأول؛ فرض الضرائب، أعمال الري ومنشأته، وبكلمة، كل المهام الرئيسة للحكومة المصرية تصدر عنه. تحت إشرافه "ست قاعات" تحقق العدالة، و"غرف" أخرى ترأس مختلف فروع الاقتصاد.

كان عدد خدمات الدولة المصرية الاستبدادية الرئيسة ثلاثا: العامة التي تتولى بخاصة أعمال الري؛ الجيش ("قاعة السلاح") التي تسرق الشعوب الأخرى. كان الجيش المصري ميليشيات مؤلفة من فئات تجهزها القبائل (النوم) ومتطوعين أثيوبيين. يمكن الظن أن هذه الوحدات تفتقر للانضباط؛ وفي كل حال، يذكر أحد القادة بفخر أن فصائله لا تسرق

المصريين، لاحتطم الأبواب لتنتهب الخبز والحبوب. كان المحاربون مسلحين بأقواس وأكوام من الحجارة، وفيما بعد استخدموا الخناجر والبلاطات البرونزية كسلاح دفاعي، وتدرعوا بدروع مصنوعة من جلد الحيوانات. وكانت التكنات تشكل منشآت دفاعية حصينة: هكذا، كانت القلعة القريبة من أبيدوس ذات سورين من الآجر، تقيس من الداخل ١٢م ارتفاعا وسماكة القاعدة قرابة ٦م.

كانت المعابد تساهم بنشاط بتعزيز السلطة الملكية. وعند أفول الإمبراطورية القديمة، تلقى بعضها الوثائق التي توزع المرتبات الملكية على، ليس فقط الكهنة، بل على كل الجهاز، الأحرار والعبيد.

لقد أثارت قضية الوثائق جدلا عنيفا: اعتبرها اغلب العلماء امتيازات ورأوا فيها برهانا على وجود الإقطاع في مصر القديمة. إن وثائق الإمبراطورية القديمة لا تمت بصلة إلى امتيازات العصر الوسيط: فهي لا تعطي المعابد أي استقلال، أي حق مدني على جهازها، بل تهدف إلى حرمانها من سلطة الحكام الذين يفرضون السخرة على السكان المحليين، وبهذا تجعل المعابد دعاء لسياسة الفرعون.

انطلاق سياسي للإمبراطورية القديمة

إن التاريخ السياسي للإمبراطورية القديمة غير معروف معرفة كافية؛ فالنقوش المحفورة على القبور لا تعطي سوى معلومات جزئية عن هذا الحدث أو ذاك (أحيانا رئيسي)؛ والنصوص الأحدث على البابيروس المصري والمانتون تتضمن بخاصة خرافات تصعب غربلتها وأخذ الوقائع التاريخية منها. هذا إذا لم نذكر أن التسلسل التاريخي للإمبراطورية القديمة مستقر استقرارا تقريبا.

كان فراعنة الأسرتين الثالثة والرابعة فاتحين غزاة. يتميز سينفرو، من الأسرة الرابعة يتميز بشكل فريد: حملة إلى إثيوبيا جلبت له الكثير من الأسرى و٢٠٠٠٠٠ رأس من الماشية؛ وانتصر على ليبيا، وضم إلى مصر سيناء الغنية بمعدن النحاس وأرسل حملة إلى فينيقيا لتأمين خشب الأرز. وعلى تخوم مصر أقام حصونا حصينة لحماية البلاد من الغزوات. واستمرت حروب الغزو في حكم ابنه شيوبس (خوفو باليونانية) الذي غزا هو الآخر سيناء.

ويشرع ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة بأعمال بناء ضخمة، على رأسها، الأهرامات،

التي رتبها اليونانيون مؤخرا بين عجائب العالم السبع. الأهرامات قبور رائعة للملوك، مبنية بالكتل الحجرية. أضخمها (قرب قرية الجيزة، في أنحاء ممفيس) بني من أجل خوفو؛ يبلغ طول ضلع القاعدة ٢٣٠م، وارتفاعه ٤٦,٥م، ومكون من مليوني حجر زنة الواحد منها ٢,٥ طنا. في داخل هذا الصرح العملاق أروقة وقاعات.

كان الأهرام الذي ضم جثمان الفرعون، مخصصا للطقوس الإلهية التي، حسب المعتقدات المصرية، تؤمن بعث الملك ودخوله مقام الآلهة في السماء. إلى جانب الأهرام تقام المعابد حيث يحيي الكهنة احتفالات سحرية.

كانت الأهرامات محاطة بقبور الملوك التي تسمى بالعربي مصطبة *mastaba*. ففي زمن حكم الأسرتين، الأولى والثانية، ما كان يسمح أن تكون قبور السادة أوسع من قبور الملوك. ومصاطب الإمبراطورية القديمة، وهي صروح حجرية، تبدو ضئيلة قياسا مع الأهرامات الضخمة؛ يشير هذا الفرق بشكل ما إلى عتو ملوك مصر وسعة نفوذهم واستبدادهم.

لبناء الأهرامات كانوا يجندون فصائل من العمال الذين يتلقون من المخازن الملكية مواد الإعاشة والثياب. وجدت شارات على الأهرامات خولت الأثريين حساب عدد هذه الورديات. نعرف، مثلا، أن أهرام خوفو كان يشغل أربعة ورديات، مكونة من قاطعي الحجارة المهرة، يقودها مهندس معماري من لدن الملك ورئيس عمال. كان يساعد البنائين جماهير من اليد العاملة، كان يوجد بينهم بالتأكيد أعضاء من المشاعات، انتزعوا من العمل الحقلّي وأرسلوا إلى الجيزة لقص الحجارة، وحملها حتى الورشة على ظهورهم ورفعها، بواسطة صقالات خشبية وحبال، إلى علو مدهل.

كان البناء يتطلب جهودا جبارة. سمع المؤرخون اليونان أحاديثا عن غضب الشعب الناتج عن هذه الأعمال: حسب ديودور، رمى المتمردون رفات الفراعنة خارج قبورهم الفخمة.

أيا كان الأمر، فقد عزف فراعنة الأسرة الخامسة عن بناء أهرامات ضخمة: فقبورهم المبنية في سكاراه، متواضعة جدا قياسا إلى قبور الجيزة. مع ذلك، رفع هؤلاء الملوك على شرف را، إله هليوبوليس، معابد مزينة بالمسلات البيضاء بارتفاع سبعين مترا. تابع فراعنة الأسرة الخامسة حروب الفتوح: تتحدث نقوشهم عن نزاعات مع قبائل

سيناء، الرازياس في ليبيا. تعززت مع سوريا العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية؛ وجدت منحوتة تمثل مراكب آتية من شواطئ فينيقيا ويفترض بعض الباحثين تمثيل وصول أميرة سورية تزوجت الفرعون ساهورا. وفي أيام بيبي الأول، من الأسرة الخامسة، نظمت بعثات ضخمة: كانت الجيوش المصرية تتغلغل من حين إلى آخر في شمال أثيوبيا وجنوب فلسطين. والمنحوتة أوي نقص عن الدمار المرتكب في فلسطين: دمر الغزاة المحال، قطعوا أشجار التين والعنب، ورجعوا بمساجين يسميهم المصريون اسما معبرا "الموتى الأحياء".

تنامي نفوذ أرسقراطية الس(نوم) وتراجع سياسة مصر

في أيام حكم الأسرتين الثالثة والرابعة، كانت السلطة الملكية تتوطد: كان هذا ضروريا لتوحيد مصر وتأمين مسار طبيعي لنهج الري؛ وسحق مقاومة العبيد والمشاعات والحصول على سرايا العبيد من أثيوبيا، ليبيا وفلسطين؛ أخيرا لتكنيس بقايا النظام العشيري. كان الفرعنة سنيفرو، خوفا وأخلافهما قد نجحوا، إجمالا، بتحقيق هذه المهام.

بدءا بمنتصف الألف الثالث، لوحظ اتساع سلطة النبلاء، بخاصة حكام الس(نوم). وفي أيام الأسرتين الخامسة والسادسة، صارت قبور السادة أفخم. لم تعد تقاس في منطقة ممفيس، بل في الس(نومات). كان حكام الس(نوم) يعززون مواقعهم في الأقاليم ويصيرون سادة وارثين ومستقلين. وكوفور، حاكم اليبانتين، الذي حكم في أيام الأسرة السادسة، يخاطر ويرسل حملات إلى أثيوبيا للحصول على العاج، البخور وجلود الحيوانات. يعترف بالسلطة الاسمية للفرعون ويهديه قزما للتعبير عن الفرق، لكنه يحتفظ بأضخم الأسلاب.

كيف يعمل نمو سلطة الحكام؟ المصادر التي نملكها حاليا لاتعطينا سوى الافتراضات. من الطبيعي أن يغضب استغلال البلاد في مصلحة شريحة ضعيفة من النبلاء تقم في ممفيس، أن يغضب الشعب غضبا جديا، وخاصة في مصر العليا. ومن جهة أخرى، أن يقلص التوزيع المستمر للأرض على السادة والمعابد (بخاصة في أيام الأسرتين الخامسة والسادسة)، ان يقلص بوضوح الأملاك الملكية ويضعف السلطة الفعلية للفرعنة. ولقد أفضى تطور الملكية الخاصة وتفكك المشاعة المجاورة إلى اتساع أملاك الحكام؛ وكان هؤلاء يستغلون الغضب العام الذي تسببه الأعمال الضخمة الملكية، وسياسة الموظفين الضريبية. وفي نقوشهم، كان الحكام يقفون مدافعين عن الشعب: يفخر أحدهم ويتباهى

بتقديم الخبز، الجمعة والثياب لليوساء؛ ويعلن حاكم آخر أنه الأخير في المدينة، انه نيل
الـ(نوم). وكان تعزيز وتوطيد نفوذ الحكام، يترجم إلى ضعف وتراجع لسلطة الفراعنة.
لا بل فقد آخر ملوك الأسرة السادسة كل نفوذ، ويقول لنا مانيتون: إن سبعين فرعوناً من
الأسرة السابعة حكموا إجمالاً سبعين يوماً. على احتمال أن الأسرة السابعة لم توجد أصلاً،
فالخرافة التي ينقلها لنا مانيتون تثبتنا عن جو تلك الحقبة المضطرب. ولم يدم ملك الأسرة
الثامنة طويلاً. وفي نهاية المطاف، آلت مصر إلى نومات، أي إيالات.

لقد انعكس تصدع البلاد بعنف على الري: في كثير من الأمكنة أهملت المنشآت،
وركدت المياه، مشكلة المستنقعات. ونشبت النزاعات بين النومات، ونجم أغلبها عن توزيع
الماء. كان الحكام يهاجمون في الأغلب المناطق المجاورة التي يبحث سكانها عن ملجأ لهم
في المستنقعات.

وترافق تخلخل امبراطورية مصر مع نضال طبقي حاد: كتابات بعض الحكام
لا تتحدث إلا عن "الاضطرابات" التي تغلب المدن؛ ويفخر هؤلاء الحكام بكبح الاضطرابات
بمؤازرة سرايا المحاربين.

وفي هذه الحقبة، على الأرجح، أفادت قبائل سامية من الصحراء السورية من خور
الدولة المصرية لتتغلغل في شرق الدلتا.

الفصل الحادي عشر

امبراطورية مصر الوسطى

إعادة توحيد مصر

أدى تفكك البلاد إلى مناطق منعزلة إلى انهيار الري، انسداد الحروب الداخلية، وبالتالي، الجوع. تشير مدونات العصر إلى الفقر المدقع الذي دفع إلى أكل لحوم البشر. فكان توسيع حقول القمح، وإعادة الأرض إلى الإنتاج مسألة في غاية الإلحاح. وفي الأرجح، في حقبة الانتقال إلى الإمبراطورية الوسطى يبدأ المزارعون المصريون باستخدام الحقول السهلة، أي الحقول التي لا يغمرها النيل في أثناء الفيضان. كانوا ملزمين على سقيتها بواسطة الآلات الرافعة التي كان الشادوف أبسطها. وربما كانت حراثة الحقول العالية سببا في ظهور سكة حديد متقنة، مزودة بمقبض يسهل عمل الفلاح. طيلة المرحلة الانتقالية، تختفي الحقول الواسعة من أرستقراطية العاصمة، فقد تعبت كثيرا فرق *demertou* العديدة. وصارت أملاك السادة أقل اتساعا وحرثها بشكل عام عبيد سموا "رؤوسا". في النصوص القديمة. يملك السيد ٢٠-٣٠ "رأسا" أغلبهم نساء. كان قسم من العبيد أجانب، سوريين، مثلا.

في الوقت ذاته، تأخذ العناصر الغنية في المشاعة نفوذا أوسع فأوسع: تسميهم المصادر *puissante nezes* ("nezeses" تعني "صغير") أي الأقوياء الصغار. امتلك هؤلاء الأقوياء الصغار أراض واسعة، ومواش وعبيدا؛ وأحيانا صاروا سادة *seigneuss*، في هذه الحالة، كانوا يعلنون في مدوناتهم التوصل إلى النبيل بطرقهم الخاصة وليس بالولادة. وهكذا في هذا العصر المضطرب، تتغير بنية الطبقة المهيمنة في الإمبراطورية القديمة، كان المقام الأول وفقا على أصحاب الرتب العالية الذين يقطنون عادة العاصمة ويستغلون فسي أراضيهم الشاسعة المصريين الأحرار، أما الآن تتألف الطبقة الحاكمة من أصحاب العبيد، الذين يملكون أراض أضيق وكان بعضهم منذ مدة بسيطة أعضاء بسطاء في المشاعات.

كانت هذه الأرستقراطية الجديدة -بخاصة الأقوياء الصغار- مشغولين بتوحيد مصر، الأمر الذي يعدمهم ليس فقط بإصلاح شبكة الري ونهاية الحروب الأهلية، بل أيضا بتوطيد جهاز الدولة ؛ فكانوا بحاجة لحكومة قوية لتثبيت وضعهم في البلاد وزيادة عدد عبيدهم في أثناء الامتداد.

بداية، تحقق التوحيد حول هيراكليوبوليس، التي نجح أمراؤها بإخضاع ممفيس؛ وفي الجنوب، امتدت أراضيهم حتى أيديوس . ثمة نص محفوظ ملفت، يرسم العلاقات الاجتماعية تحت حكم هيراكليوبوليس: هو تعليمات الملك كحيثي. يدافع كاتب هذا النص السياسي -وهو الملك بالذات أو مستشاره- يدافع بوضوح عن مصالح الطبقة الحاكمة. المحروم من الملك، متمرد أبدا. ويجب على الملك أن يكون قاسيا مع الشعب. أما السادة ورثة التاج عليهم أن يصونوا ملكهم وحياتهم. لأن "ثروتهم تفيد التاج". بين الارستقراطية التي يعتمد عليها ملك هيراكليوبوليس، يشغل الأقوياء الصغار مقاما هاما. ينصح كحيثي الثالث وريثه برفع الناس حسب مهنتهم، بحسب "أهليتهم" وليس بناء على أصلهم.

تدل هذه الوثيقة أن كحيثي الثاني يؤسس سلطته على طبقة محددة. ويذكر أيضا السند المادي لهذه السلطة: جيش ممتلئ من الشباب (ربما كانوا أولئك الذين تركوا أسرهم الأبوية المتصدعة). وتكشف وصايا كحيثي الثالث عن مفهوم جديد للسلطة الملكية: لم يعد الملك "إلها"، بل هو راع صالح، حكيم يهتم بشعبه. يقدم كاتب النص عامل هيراكليوبولس مدافعا عن "الأرملة واليتيم".

لكن الجيش المحترف والديماغوجية لم تؤمن الاستقرار لهذه الأسرة: فالوحدة أنتت من الجنوب، من حكام طيبة؛ فالتناحرات الاجتماعية فيها يجب أن تكون أقل حدة مما في الشمال حيث سلطة الحكام تتجاوز غالبا سلطة الفرعون. وعواهل طيبة الذين سموا مانتوحتيب، حكموا مصر كلها: والرواية التاريخية تربط مانتوحتيب طيبة بالأسرة الثانية عشرة (من القرن العشرين حتى بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد).

السياسة الداخلية والخارجية للإمبراطورية الوسطى

إن مؤسس الأسرة الثانية عشرة أمنحيت الأول هو الذي قضى نهائيا على التوجه الانفصالي لدى الحكام وخلق دولة وطيدة. لكن رؤساء القبائل (النوم)، مع الاعتراف بسلطة الفرعون المركزية، حافظوا على استقلال محلي. وحافظت القبائل على إدارتها، وعدالتها

وخزيفتها، التي تأسست في أيام الأسر السابقة، والقوى المسلحة المستقلة. كان الفراعنة مضطرين للاكتفاء بإرسال الرجال إلى الأعمال الملكية. واحتفظ أعيان القبائل بفرض الضرائب وتجنيد اليد العاملة للملك ولأنفسهم.

من وجهة النظر الضريبية، كانت أملاك بعض الـ(نومات) الضخمة تقسم إلى منطقتين: منطقة الملك ومنطقة الحاكم. وكان على الحكام رؤساء النومات، بناء على أمر فرعون، أن يتبعوه في الحملات العسكرية. لكنهم كانوا يتصرفون كملوك صغار، سمو "السادة" يبنون قبورا، ويشيدون معابد للآلهة المحلية.

كان فراعنة الإمبراطورية الوسطى يمارسون وظائف ويتخذون تدابير في مصر كلها. نذكر بهذا الصدد، الهم الذي يعانونه من ترميم وإصلاح نظام الري. تم أكبر هذه الأعمال على بعد ٥٠ كم جنوب-غرب ممفيس، حيث كان يوجد من زمن سحيق القدم منخفض واسع أوطأ من البحر بـ ٤٠ كم. كانت فيضانات النيل قد حولته إلى بحيرة شاسعة -بحيرة موريس- المحاطة بالمستنقعات. بدأ أمنمحت الثالث (١٨٤٩-١٨٠١) أعمالا ضخمة لتجفيف المنطقة. بنيت حول البحيرة حواجز سميكة وحفرت قنوات لتغذيتها وتصريف المياه الزائدة. جففوا أكثر من ٢٥٠٠ هكتار وصارت قابلة للزراعة. وأقيم فيها نصبان، هائلان للفرعون، وقصر، ومعبد، بل ولدت هنا مدينة كاملة.

اتخذت تدابير أخرى على مستوى الوطن تهدف الدفاع عن الحدود. فحوالي نهاية الإمبراطورية القديمة كانت النومات السامية قد بدأت التغلغل في مصر. وإلى هذا التهديد الآتي من الشرق، أضيف خطر غزو الأثيوبيين من الجنوب. ولينقادوا كل هذا، دعموا الحدود الشرقية خلف الدلتا. نشبت الحروب مجددا؛ وانتهت في حكم سنوسرت الثالث، والد أمنمحت الثالث، بإخضاع القبائل الأثيوبية على طول ٣٠٠ كم من مجرى النيل. وعلى الحدود الجديدة، قرب المحال الحالية كومح وسمح، بنى سنوسرت الثالث قلعتين ضخمتين، مازالت بقاياهما شامخة حتى اليوم. كانت حماية الحدود تحتاج إلى جيش دائم. واحتاج الفراعنة الجيش لحماية سلطتهم أيضا في داخل البلاد. تشكل هذا الجيش من المصريين حصرا؛ نجل تجنيده ونفقاته ومرتباته.

أرسل فراعنة الإمبراطورية الوسطى أيضا بعثات تجارية، أساسا إلى فينيقيا: إلى جبيل وأغاريت، في شمال البلاد. وأرسوا أيضا حركة العبور مع البلدان الإيجية. وكانت

التجارة أنشط منها في زمن الإمبراطورية القديمة، فقد وجدت في أيام الأسرة الثانية عشرة طبقة تجارة ومحاسبة هامة.

أفضت كل هذه العوامل إلى انطلاق القوى المنتجة، انطلاقاً لم تعرفها الإمبراطورية القديمة. وساهم ترميم وإصلاح نظام السقاية في ازدهار الزراعة؛ وإتقان المهن. توضع التنقيبات بين يدينا معلومات هامة حول المدن المصرية. دعم ارتقاء المهن والإنتاج والتجارة الإنتاج البضاعي خاصة في نهاية الإمبراطورية الوسطى، وصار الذهب أساس القيمة. ولقد أمن نفوذ هذا المعدن في مصر بالاستيلاء على مناجمه في أثيوبيا.

العلاقات الاجتماعية

تفاقت التناحرات الاجتماعية في أيام الإمبراطورية الوسطى. تطورت العبودية؛ إذ لم يعد أصحاب الأتبان الواسعة -النبلاء- هم فقط من يملكون عبيداً، بل أيضاً صار الموظفون الصغار وحتى الناس العاديون صار عندهم عبيد. واتسعت اليد العاملة العبدية بفعل الحروب التي تأتي بالمساجين من سوريا، فلسطين وأثيوبيا. لكن عموم الشعب المصري -الزراع وأعضاء المشاعات- لم يستفيدوا من تحسن وضع الدولة ولا من نقص الفرائض والأتاوات الملكية، لأن استقلال السادة أثقل كاهلهم بنير مزدوج، نير الملك والسادة. ونجم عن هذا فقر شديد لدى الفلاحين. وتحدثت أعمال العصر الأدبية عن بؤسهم: الجوع يجوس حول أكواخ الحراث، فالعمل المضني لا يكفي لتأمين حياة العامل. كل الناس تسرقه، ينتزعون منه الحبوب التي يخصصها للسوق، ويصادرون حميره، وشعييره، ويضربونه بدون رحمة ويمنعونه من الاحتجاج. وإن ذهب ليشكو الابتزاز والاعتصاب والقهر، لا يجد العدل في أي مكان، حتى لدى كبار الموظفين الذين يحاول استدرار عطفهم بشكاويه ونفجعاته.

كان هذا قدر الصناع، النساجين، الحدادين أيضاً، المدانين بحياة لا راحة فيها، بعمل مهلك، وبالعوز والجوع. لا أحد سعيد سوى الموظفين والمدونين الذين يدبجون لوائح بالقادرين على المساهمة، واليد العاملة والذين يرافقون ملاحظي ومراقبي ورشات الملك والسادة. ولقد تحدثت تنقيبات مدينة الفيوم، قرب بحيرة مورييس، في أنحاء كاحوم، المدينة الحالية، عن حي فقير يسكنه صغار الحانوتيين، الصناع وباقي أصناف الكادحين. وكانوا يأوون إلى الأكواخ الترابية، حيث يعيشون فوق بعضهم. والأحياء المجاورة،

الموقوفة على الكهنة والموظفين، تضم عمارات من ٥٠-٧٠ غرفة، في وسط حقول واسعة مزروعة على الأرجح بالكروم والأشجار المثمرة. فظهور عدد ضخم من الصناعات في المدن سببه فقر الفلاحين الذين غادروا الريف بحثا عن عمل. وحي الأغنياء، في كاحوم، كان منعزلا عن حي العمال بسور سميك وكان محميا بسرية عسكرية قوية. تشهد هذه السمة المتميزة على الجو السائد الذي يخيم في مصر الإمبراطورية الوسطى. كان المتنفذون يخشون تمرد الفلاحين المضطهدين، والصناع والعبيد. وكانوا يحسون الأرض تميد تحت أقدامهم، ومن ضعف سلطة فرعون "الإلهية" والخوف من الآلهة بالذات. فالدين الرسمي، باحتفالاته الفخمة واكليروسه الضخم، كان غريبا عن الشعب. فالكهنة أيضا يعيشون من عمل الفلاحين المقهورين والعبيد والضرائب العالية التي تهدر على المعابد. أفضى هذا الضنك والتوتر، بعيد الأسرة الثانية عشر، إلى اضطرابات انتهت بانتهيار الإمبراطورية الوسطى.

انتفاضة الفلاحين والعبيد في منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

سرعان ما نشبت الاضطرابات بعد موت أمنمحت الثالث، آخر ملك قوي من الأسرة الثانية عشر. وعاشت البلاد فترة تمرد وحروب داخلية، دامت قرابة ثمانين عاما. لانملك أي معلومة موثوقة حول هذا الموضوع. وإن كشفت بعض الأخبار المبعثرة أن الملوك حكموا فترات قصيرة، وأن أحدهم لم يملك سوى ثلاثة أيام ناقصة وأن ملكا آخر دعي مير-ميشو، أي رئيس الـ"عسكر".

ربما في هذه الحقبة وقعت الأحداث المذكورة في نصين أدبيين. هما "نبوءات نفرتيتي" المحفوظة في متحف الأرميتاج، في لينينغراد، والثاني إنذار حكيم (جامعة ليد) في هولندا، وصف حي لوقائع توجب على المنشيء أن ينقلها إلى الملك. إيپور يطلع الفرعون على الكوارث الرهيبة التي، كما يرى، أصابت مصر بسبب حكومة ملحدة، أهملت الإجلال المتوجب للآلهة والواجبات التي فرضها الدين. واستنادا إلى لغته، يعود هذا العمل إلى عهد الإمبراطورية الوسطى. يرى الأكاديمي ستروني أن الأحداث التي ذكرتها نفرتيتي وإيپور تعود إلى حكم الأسرة ١٣، أي نهاية الإمبراطورية الوسطى؛ لكن بعض الباحثين السوفييات والأجانب يشكون بالأمر ويفترضون أن النصين أقدم من هذا.

ويقص "إنذار حكيم" انتفاضة جماهيرية للفلاحين، الحرفيين والعبيد، عمت مصر

قاطبة. المتمردون بؤساء لا يملكون شيئاً، سجنوا الملك، طردوا الأغنياء من قصورهم، رموا مومياءات الفراعنة خارج القبور، احتلوا المعابد ودمروا المكاتب الدينية. احتلوا المخازن الملكية، الأميرية والكليركية، وأعلنوا القمح المخزون ملكية عامة. واحتل العصاة مساكن الأغنياء، ولبسوا ثياب السادة وتزينوا بحليهم وألزمهم أن يعملوا لمصلحتهم. وحسب تعبير إيبور، 'دارت الأرض كدورة الفواخيري'. واحتل المنتفضون قصر العدل، دمروا كثائته، ورموا في الشارع لفائف القوانين، أبادوا المدونين ولوائح الموسم. وهكذا بقي بيت الملك بدون مدخول، والمعابد بدون قرابين. لسوء الحظ، لم تذكر المصادر السلطة التي حلت محل الفرعون المخلوع.

استغلت القبائل الرحل الآسيوية ضعف وتصدع مصر، واحتلت في العام ١٧١٠ قبل الميلاد شمال وادي النيل. يسمى مانيتون هؤلاء المحتلين بالـ "هكسوس". عاصمة مليكهم هي أفاريس، في مصر السفلى. وفرضت ضرائب ثقيلة على المصريين، وصار الفلاحون عبيدا لدى الغزاة الأعراب. قدم الهكسوس براهين على التسامح تجاه أرسقراطية البلاد؛ في الجنوب وجزئيا في الشمال، تركوا السلطة في أيدي الحكام السابقين، وأخضعوهم إلى مراقبتهم. سلبت المعابد ودمر بعضها. دام نير الهكسوس أكثر من مائة عام ولم يرحلوا إلا في أيام الفراعنة الأوائل للامبراطورية الجديدة.

الفصل الثاني عشر

إمبراطورية مصر الحديثة

طرد الهكسوس وتوحيد مصر

بدأت حركة التحرر في الجنوب، حيث كانت سلطة ملوك الهكسوس أضعف مما كانت في الشمال. كانت الحركة وطنية. استلم ملوك طيبة القيادة. في البداية، لم يجدوا أي سند حول ملوك الجنوب الآخرين؛ لكنهم بمؤازرة المليشيا الشعبية قاموا شيئاً فشيئاً بمهمتهم وهم يقاتلون دفعة واحدة خصومهم والهكسوس. حفظ الشعب ذكرى مبادرة التحرر، ملك طيبة كاميس.

بعد نضال طويل، تحررت مصر وتوحدت في حوالي العام ١٥٦٠ قبل الميلاد على يد ملك طيبة أحمس الأول، الذي أخضع قادة متمردي الجنوب، ومشى نحو الشمال، دحر الهكسوس، احتل أفاريس وطرد غزاة البلاد. وبهذا الملك بدأت الأسرة الثامنة عشر، التي في ظلها بلغت مصر الموحدة قمة نفوذها وحضارتها.

وسم توحيد مصر في عهد الإمبراطورية الجديدة بتنامي القوى المنتجة. اتقنت آلات الإنتاج. ازداد مردود الزراعة والحرفة، قويت التجارة وانبسطت في داخل البلاد وراء تخومها. ولقد توطد توحيد مصر وتدعمت السلطة الفرعونية بلجوء أحمس الأول للحركة الشعبية في مناضلة الهكسوس والسادة الانفصاليين. ولم يبق في قيادة الأرياف سوى الحكام الطيعين والذين أعيدوا إلى حالة الحكام البسطاء، بدون حق التوريث. وتولى رجال من الفراعنة حكم الأمصار.

وهكذا، في أيام الأسرة الثامنة عشر، تركزت حكومة مصر. جدد أحمس تنظيم جيشه وينشره في كل المناطق. يعيش المحاربون على حساب الفرعون ويتلقى الضباط، فضلاً عن هذا، أراض ذات أبعاد متواضعة. جذبت القوات من الشعب المصري الريفي والمديني. لم يفتقر المتطوعون، لأن البلد الذي دمرته الاضطرابات، ونهب الهكسوس

والحرب، في هذا البلد فقد مئات الناس أملكهم وفقدوا القدرة على استعادتها. تشكلت الوحدات من المشاة، الذين يختلفون عن مشاة الإمبراطورية القديمة والوسطى في أن الجند بمعهد الدولة ويتسلحون من المخازن الملكية. كل الأسلحة المعروفة حتى أنثذ -أقواس، أسهم، خناجر - أنقنت؛ وظهر السيف. التجديد الرئيس هو تأهيل قوة متميزة من قادة الدبابات، مؤلفة بخاصة من النبلاء والأغنياء. وللدخول إلى مدرسة الدبابات، كان لابد من توفر حماة متنفيذين. الجيش إن هو ركن السلطة الملكية.

لقد مكنت إعادة تنظيم الجيش أحمس من الرجوع إلى شن حملات خارجية. وسجلت غزواته بداية فتوح الأسرة الثامنة عشرة، التي أفضت إلى خلق دولة عسكرية ضخمة.

فتوح فراعنة الأسرة الثامنة عشرة

تمت غزوات أحمس بعد توحيد مصر بهدف الفتح والنهب. وبمطاردة الهكسوس، تغلغل الفرعون في آسيا، لكننا لانعرف تفاصيل هذه العمليات. معرفتنا أحسن حول غزوة النوبة التي هدفت إعادة السلطة المصرية على الأملاك الفرعونية القديمة في هذه المنطقة. ولقد أولى أوائل خلفاء أحمس هذه المهمة. لكن الفراعنة التاليين لم يكتفوا بهذا. بل باشروا حملات جديدة على فلسطين وسوريا، بغاية السيطرة على الدول الفينيقية وغيرها للحصول على الذهب، الفضة، الخشب، الخمر، المواشي، والعبيد، وليس بالتبادل التجاري، بل كضريبة، مستمرة وبكميات ضخمة. كانت هذه الحملات تسهم قمة المجتمع العبودي: فرعون، أسرته، موظفوه الكبار، الاكليروس والجنرالات. وأفاد جنود الجيش المصري أيضا من هذه الحروب، لأن كلا منهم حصل على شيء من الغنيمة.

لم يتم فتح فلسطين وسوريا إلا بعد حملات صعبة، بدأه اخلفاء أحمس. وأخيرا سقطتا بأيدي الفراعنة في أيام تحوتمس الثالث (١٥٢٥-١٤٩١).

كانت حقبة هذه الحروب قاسية، أولا، لأن الجيش المصري لم يكن جرارا يقاتل ضد عدة تحالفات من المدن والأراضي. كان عدوه الأهم دولة قوية، تشكلت حول قادش على العاصي، المدينة التي قامت في أخصب منطقة في سوريا وأكثرها ازدهارا. بموازرة ملوك قادش، انتفضت المدن والإمارات الخاضعة لفلسطين وجنوب سوريا ضد الهيمنة والاحتلال المصري، واضطر تحوتمس الثالث إلى إرسال عدة حملات لتهدئة إلى هذا الحد، أو ذاك أمراء فلسطين وعدد من المدن الفينيقية. وبهذا فقط تمكن من الالتفاف حول قادش. كانت

المدينة جيدة التحصين، قد احتلت ودمرت بعد حصار طويل ومعارك ضارية. ثم انطلق فرعون نحو الشمال وأدرك الفرات بعد حملتين متتاليتين. وهكذا خلق احتلال فلسطين وسوريا من مصر أقوى دولة في الشرق الأدنى، ولقد أرسل ملك الكاسيت في بابل وملك الحثيين إلى تحوتمس الثالث هدايا رائعة. كما فعلت الكنوز المنهوبة من فلسطين وسوريا فعلها في مصر.

لتقدير ضخامة نهب البلدان المحتلة على يد تحوتمس الثالث، يكفي ذكر بعض الأرقام: جلبت الحملة ضد المدينة الفلسطينية ماجيدو للفرعون مئات المساجين، ٩٢٤ دبابة، ٢٢٣٨ حصانا، ٢٠٠٠ رأس بقر، ٢٢٥٠٠ رأس من المواشي الصغيرة، ١١٣٠٠٠ صاع من القمح، ٢٠٠ قطعة سلاح فردي، حوالي ٢٠٠ كغ ذهب وفضة. فضلا عن هذا، خضوع الإمارات والممالك لدفع ضريبة سنوية.

نال الجيش قسما من الأسلاب، لكن القسم الأكبر والضريبة وضعت تحت تصرف الفرعون الذي وزعها حسب رغبته. الخنائم، المواشي والعبيد ذهبت أولا إلى المعابد، في رأسها معبد الإله الرسمي آمون، في طيبة. استنادا إلى المدونات الملكية لذلك العهد، كان هذا المعبد يتلقى بعد كل حملة عددا كبيرا من العبيد، من المواشي "التي لاتحصى"، سبائك الذهب، الفضة والحلي؛ فضلا عن تلقيه جزءا من جبل لبنان وثلاث مدن، هدية. وكنوز مماثلة تذهب إلى المخازن والأهرامات الملكية؛ وعدد من العبيد وآلاف الدواب كانت في طريقها نحو أملاك الفرعون.

لكن تحوتمس الثالث، رغم انتصاراته، لم يستطع ان يبقى إذا سطوة في سوريا وفلسطين. فبعد هذه البلاد والمناطق الصحراوية التي تفصلها عن وادي النيل حرمة من توطيد وجوده وتأمين مراقبة صارمة. فكان يضطر، من حين إلى حين، ان يرسل حملات لكبح التمردات. وبنهاية ملك تحوتمس الثالث الطويل، بنظم أمراء قادش ضده انتفاضة واسعة المدى. وليهزم المتمردين، أرسل الحملة الأخيرة إلى آسيا، احتل من جديد قادش وأرسى سلطته. لكن الصراع، في أيام خلفائه، عاد وتتابع دون انقطاع.

عدا حملته إلى آسيا، اندفع تحوتمس الثالث نحو الغرب، وراء النيل، وأخضع جزءا من ليبيا. وفي نهاية ملكه، دخل النوبة ووسع حدود مصر باتجاه الجنوب حتى الشلال الرابع.

وتحت ملك تحوتمس الثالث تشكلت الدولة العسكرية المصرية. دامت ٢٠٠ عام، لكنها، في القرن الثاني لوجودها اضطرت أن تتصدى لنضال شرس انتهى باندحارها.

العلاقات الاجتماعية بعد الفتوح

لقد أفضت السياسة العدوانية لفرعنة الأسرة الثامنة عشرة إلى توسيع الدولة. فنظام الحكم السابق الذي لم يعد يلائم الشروط المستجدة. عوضا عن وزير واحد، أقيم اثنان: واحد للجنوب، والثاني للشمال. لكن وزير الجنوب حافظ على السلطة وطرح القضايا التي تهم كل البلاد. خدمت حكومته بواسطة جهاز ضخم من الموظفين والمدونين، ووحدت كل المصالح: إدارة، ري، الأملاك، العدل والجيش؛ وتوجب على الخدمات، ومصالح الدولة المحلية والعامّة أن تقدم للوزير تقارير دورية؛ كان يدرس الشكاوي، يناقش شخصيا الشؤون الهامة، يحل الخصومات العقارية، ويصادق على الوثائق. كانت القضايا العقارية هامة بشكل فريد، لأن الأرض كلها نزعّت من يد فرعون.

مارست الفتوح تأثيرا حادا على العلاقات الاجتماعية. احتلت زمرتان من هذه العلاقات مقام الصدارة. شملت الزمرة الأولى نبلاء القصر والإكليروس. اللذين اغتنيا بشكل خرافي على حساب البلدان والشعوب المحتلة وكانا، فضلا عن هذا، قد دعما سلطتهما بتوسيع أملاكهما. فقسم واسع من الأرض ترك بسكانه للمعابد.

وهكذا، صارت المعابد مالكا عقاريا كبيرا. أوطدها وأغناها، معبد آمون في طيبة، والذي كان يتلقى باستمرار أراض جديدة. أعطى تحوتمس الثالث آمون خيرة الحقول والمروج في مصر العليا والسفلى، والأراضي العالية، والمساجين الآسيويين والزنوج الذين يجب عليهم أن يملؤوا أهرامات الإله. كان معبد آمون يمتلك من الأرض والعبيد والفلاحين أكثر من كل المعابد الأخرى مجتمعة. لعب هذا التمييز دورا هاما في تاريخ مصر اللاحق.

كانت الزمرة الثانية من العلاقات الاجتماعية الهامة هي الشريحة العسكرية، حديثة الأصل والمنبت، المؤلفة من ضباط قادة وأمراء. كان الضباط الأمراء، الذين يعينهم الفرعون في الوظائف الإدارية العليا والمركزية ويسميهم القصر، قادرين على التأثير في رسم السياسة الداخلية. وكان الضباط القادة ومروسيهم يتلقون أراض لقاء خدماتهم، ونظرا لعددهم الكبير، كانوا يشكلون دعامة متينة للسلطة الملكية. فمن الطبيعي أن يكون فرعون مهتما برغبتهم.

كان شرط الفلاحين يبقى إجمالاً على حاله. كان أعضاء المشاعات مرفقين دوماً بالضرائب والبخرة وخدمة الملك والمعابد. وتقل الفتوحات هذا النير، بتخريض المنتصرين على إعادة بناء وعلى نطاق واسع المعابد والقصور: كانت مصر عامرة بصروح ضخمة، بعظمة وروعة لاسابق لها، تدهش أطلالها حتى اليوم زائريها. أما الفلاحة في الإمبراطورية الجديدة، تزرع تحت وزر هذه الأعمال. فينظر إلى الفرائض الملكية كأمر مقيم أبداً.

كان أسرى الحرب وسكان البلاد المهزومة يسخمون عدد العبيد. كان يصعب تحديد عددهم؛ فكانوا يحصون بعشرات الألوف. وكان العبيد موزعين بغير عدل. الملك والمعابد يمتلكون الغالبية. ونبلاء القصر والأرستقراطية العسكرية يملكون منهم الكثير. فبعد كل حملة كان فرعون يوزع المساجين بكرم. تثبت النصوص أن جنوداً بسطاء، ومزارعين وصناعاً كانوا يملكون عبيدين أو ثلاثة. يستخدمون في الحقول، في المقالع في نقل الأحمال، وخدماء في المعابد، إلخ.

كما عززت الفتوح أيضاً التجارة الخارجية، واحتكار الفرعون وكهنة آمون. كانت التجارة تتم بإرسال حملات خاصة إلى الجنوب، إلى بونت *pount*، وإلى جزر بحر إيجه، لأن ماكان يريد الملك والكهنة الحصول عليه، كان يسلم، منذ فتح فلسطين وسوريا، بشكل ضريبة سنوية. فقط مدينة صور الفينيقية حافظت على حق إقامة علاقات تجارية مع مصر.

أرسلت حملتان ضخمتان إلى الجنوب، أرسلت الأولى الملكة حاتشبسوت، وأرسلت الثانية تحوتمس الثالث. أهمها حملة حاتشبسوت، عادت بكمية كبيرة من العاج، الراتنج العطر، الأبنوس، الفضة، الذهب، الريحان الشامي، القردة، الكلاب والعبيد.

كان الفرعون والكهنة يبادلون ثمار الاسلاب بسلع يستوردها التجار الملكيون من بابل، قبرص، كريت وجزر إيجه أخرى. وكان يتوجب على التجار أن يقدموا أولاً عروضهم للفرعون والـ"إله آمون" ولا يبيعون إلا ماتبقى. كان هذا يفضي كهنة المعابد الأخرى، والتجار أنفسهم، الذين كبر عددهم يوضح في أيام الإمبراطورية الجديدة. وكان حديثو النعمة، مالكو العبيد السابقون الصغار، أثرياء الحروب، يعارضون نبلاء القصر الشيوخ والإكليروس.

مكذا، في المجتمع المصري أيام تحوتمس الثالث، يتفاهم التناحر ليس فقط بين المستعبدين والعمال، بل أيضا بين المستعبدين أنفسهم.

إصلاح أخناتون الديني والصراع الاجتماعي والسياسي الذي تلاه

في أيام حكم خلفاء تحوتمس الثالث، تنضج أزمة سياسية في الدولة المصرية العسكرية. ينشب الصراع بين الملوك الصغار لبلدان آسيا المحتلة، بينما تتغلغل فيها قبائل سامية على الأرجح ومذكورة في التقارير المقدمة إلى الفرعون تحت اسم شابيرو، آتية من الجزيرة العربية. يتقدم الحثيون في سوريا من الشمال. ولعدم كفاية السرايا العسكرية، لم يتيسر للحكام تهدئة الملوك الصغار الأخذين بخناق بعضهم البعض، ولا إيقاف لغزو الشابيرو. وكان الفراغة عاجزين عن الرد أيضاً، بسبب استحالة استبقاء القوات الضخمة، المجندة من السكان الأحرار، في الأرض المحتلة. ولم يجروا أن يرسلوا إلى سوريا الألوية المنتشرة في مصر، لأن الجو مضطرب في داخل البلاد. فمنذ نهاية ملك أمنوفيس الثالث، عبرت شرائح متباينة عن عدم رضاها عن كهنة آمون، الذين تعمق نفوذهم. اشترك أمنوفيس الرابع (١٤٢٤-١٣٨٨) بالمقاومة وحاول، مع مساعده، إنقاذ السلطة الملكية من تسلط كهنة آمون والنبلاء السابقين، الذين كانوا يرون في عبادة هذا الإله دعماً إيديولوجياً هاما والذين كانوا يجهدون في إعادة السلطة لحكام الـ(نومات). أما الفرعون، كان يطمح في امتلاك واستقرار السلطنتين السياسية والدينية. وجمهرة الشعب الحر، التي تشكل سلاح المشاة المصري، كانت تؤازره في مخططة وكانت لتحسين مستقبلها تعتمد انتزاع ملكية النبلاء والكهنوت.

لم يكن ممكناً تحقيق الهدف الذي يطرحه أمنوفيس الرابع إلا بإصلاح ديني. حاول الفرعون بداية معارضة آمون بإله الشمس رع، الشعبي جداً. سام كاهنا كبيراً لرع وشرع ببناء هيكل له في طيبة. لكن عبادة هذا الإله، المرتبطة بمنطقة هليوبوليس قليلة الإنتاج، لم تتجج. الأمر الذي دفع أمنوفيس الرابع إلى صرم العلاقة مع كل الأكليروس وعبادة الآلهة التقليديين، ليقيم إلهاً وحيداً لمصر هو قرص الشمس آتون. وبرر هذه العبادة بأن الشمس تنير وتدفيء العالم كله. وسمي الملك أخناتون ("النافع من يرضي آتون")، وأغلق المعابد القديمة وابتنى محارب لآتون في أرجاء مصر. غادر طيبة، تل-العمارنة، وسماها أخناتون ("أفق آتون"). وهنا نهض معبد آتون الرئيسي الذي سمي الفرعون كبير كهنته.

أثار هذا التحول المفاجئ في السياسة الدينية مقاومة ضارية من قبل الكهنوت والنبالة القديمة. في هذا الوضع، لم يكن للفرعون سوى جيش من المرتزقة والأرستقراطية الجديدة التي أفادت من الإصلاح بابتلاع قسم من الأرض المنتزعة من الإكليروس. والفلاحون، الذين أملوا تحسين حياتهم، لم يتأخروا عن التأكيد في أن شرطهم مازال متافهما وليس موضع اهتمام المصلحين. فالنفقات الضخمة لعبادة آتون والقصر الملكي كانت تتلف الخزينة، وأساليب الحرب والضريرية نضبت بسبب توقف الغزو، فانعكس كل هذا على استغلال الفلاحين. وأشعل كهنة آمون الغضب الشعبي؛ إذ نشروا تنبؤات عن غضب الآلهة، وعن الاعتداءات التي تهدد أمن البلاد، وغيرها.

كان النبلاء يدبرون مؤامرات ضد أختاتون. لكن الفرعون كبش بالحديد والنار التمردات على يد جنوده. وبعيد هذا مات، خلفا لخليفته امبراطورية مصدعة. ونشبت الاضطرابات في الداخل، بينما كانت ضرائب كحايرو تتسرب أكثر فأكثر إلى الأملاك الآسيوية؛ كان الحثيون قد احتلوا شمال سوريا، وانفصل الملوك الصغار عن مصر، الواحد تلو الآخر. وبعد ثلاث سنين من موت أختاتون، اضطر خليفته الثاني توتانكاhton لمصالحة كهنة آمون. وعاد أدراجه إلى طيبة وبذل اسمه إلى توث أنخامون. وثلت موته اضطرابات رهيبة. كبها الجنرال المصري حورمحب، سليل أسرة نبيلة سابقة. وبمساعدة كهنة آمون، صعد إلى العرش وأسس الأسرة التاسعة عشرة. اتخذ تدابير حازمة بهدف تهدئة الإمبراطورية وعمد إلى إصلاح ديني كامل. لعن أختاتون، وألغى اسمه واسم آتون من كل مكان؛ أخلت مدينة أختاتون وهجرت. استعادت معابد آمون أملاكها؛ وأقيمت من جديد عبادة الآلهة السابقة.

فشل إصلاح أختاتون، لأنه كان مصطنعا. فلم تستفد منه أية شريحة من المجتمع المصري، عدا كهنة آتون والأرستقراطية الجديدة.

الأسرة التاسعة عشرة وسقوط الإمبراطورية الجديدة

نشط فراغة الأسرة التاسعة عشرة بخاصة لاستقرار سيطرة مصر على سوريا وفلسطين، وفي جنوب النوبة، حيث كانت الانتفاضات قد نشبت في أيام أختاتون. ولقد شن سيتي الأول ورمسيس الثاني حروبا طاحنة على فلسطين وسوريا. لم يعودوا يعتمدون على الجحافل المصرية، بل على المرتزقة الليبيين والسوريين، الذين يتقاضون رواتبهم من

الاحتياطات الواسعة من القمح، الذهب والفضة. يشهد الانتقال إلى نظام الجيش المرتزق أن تجنيد المحاربين من المصريين كان قد أصبح صعباً، وأن العمال دللوا على عداوتهم لسلطة الفرعون والكهنوت.

نجح سيتي من جديد في إخضاع صور التي انفصلت عن مصر في أيام اخناتون وتوطيد المواصلات البحرية مع سوريا، ثم احتل مجدداً شمال فلسطين ومنطقة لبنان. وبنى فيها عدة قلاع وخلق قاعدة لينطلق أبعد نحو الشمال. حاول خلفه رمسيس الثاني تحقيق هذا المشروع. كانت مهمته هذه كاداءً، لأن سوريا كلها كانت آنئذ تقريباً في أيدي عدو جبار هو الحيثيون. انتهت حملة رمسيس الثاني الأولى بالفشل: تعرض جيشه لهزيمة على يد قادش وكاد الملك نفسه أن يقع في الأسر (سنة ١٣١٢). لكن الحملة الثانية حققت هذا المشروع. تمكن الفرعون من بلوغ المجرى الأعلى للعاصي واستقر هنا. في غضون ذلك، كان الصراع على العرش يعصف في الإمبراطورية الحيثية، الأمر الذي أجبر الملك هاتوسيل أن يبرم معاهدة مع رمسيس الثاني (١٣١٧-١٢٥١)، نصت أن الفريقين ملتزمان بالعيش بسلام وبالمساعدة المتبادلة في حال التعرض لهجوم معاد. وختمت المعاهدة بزواج الفرعون من أميرة حيثية. لكن هذا النجاح لم يؤمن أبداً السيطرة المصرية على سوريا. فانتفاضات الملوك الصغار السوريين والفلسطينيين تجددت في المنطقة العربية وجزر إيجه. وفي أواسط القرن الثاني عشر، تحررت سوريا وفلسطين نهائياً من ربة مصر.

بعد موت رمسيس الثاني ضعفت سلطة الفرعون في مصر نفسها. لكن ميرنمات، خلفه المباشر، استطاع صيانة السلطة، والتصدي ورد هجوم الشعوب البحرية والحفاظ على التاج. وبعده، خضعت البلاد للاضطرابات والفوضى: "كل يفعل ما يشاء"، يحكم السادة حكماً مطلقاً في (نومات). واستغل إيارسو "السوري" الوضع ليستولي على السلطة. وبعد خمسة أعوام من الصراع الداخلي، تولى العرش سننكحت، سليل الأسرة العشرين، التي اتبع فراعنتها سياسة عبادة آمون، وحاولوا عبثاً كبح الحركة الانفصالية في المناطق الآسيوية. وفي هذه الحقبة بدأت تنفذ الكنوز الخيالية واحتياطات الأرزاق الواسعة؛ حتى الفلاحون السخرة رفضوا أحياناً العمل، لأنهم لم يستلموا مرتباتهم. وحدثت أحداث مماثلة في طيبة، في ورشات المعابد.

تمرد الفلاحون الساخطون من الجوع والجور في القرى. واستمرت سلطة الفرعون

بالتصديق، بينما كانت تتوسع سلطة الكاهن الأكبر للإله آمون. وحوالي منتصف ملك الأسرة العشرين، كان كهنة آمون يمتلكون قرابة ٨٠٠٠٠ عبد، وكان لدى الكاهن الأكبر جيش كبير وعدد ضخم من الموظفين والمديرين. وتصير مهمته وراثية تنتقل من الأب إلى الابن، بشكل مؤبد. سابقاً كان الكاهن الأكبر يخضع أساساً للملك، أما الآن يولييه آمون بالذات ويستقل عن العاهل.

كلما ضعفت سلطة الفرعون، توطدت سلطة النبالة المحلية: كهنوت، موظفون كبار، وتجار. وتتسع الأملاك الخاصة بشراء أراضي الفلاحين المرفقين أو الاحتكارات. نجم عن هذا تفكك سريع في المشاعات الريفية واستقرار الحق في الملك العقاري الفردي. وتضاعفت انتفاضات الفلاحين التي يشترك فيها العبيد عادة.

عصر الانحطاط

لقد أفضى تصدع السلطة المركزية والاستقلال المتنامي لارستقراطية الـ(نومات) وبعض رفاق الكهنة إلى تشتت مصري جديد، بعد أن أنهكتها الحروب الطويلة.

فقد صار حيريهو، كبير كهنة آمون، في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، فرعون الأسرة الواحد والعشرين، لكنه لم يحكم مصر كلها. إذ كان لـ(نومات) الشمال ملوكها المحليون. وتم التوحيد في القرن العاشر، هذه المرة بقيادة أجنبية. فقد نجم عن تنامي دور جيش المرتزقة تسليم العرش إلى سليل أسرة أرستقراطية من جنرالات ليبيا دافع عن مصر: شيشانك الأول. وأفضى تدفق القوات الليبية إلى توطيد الإمبراطورية توطيدا ملحوظا. شن شيشانك حربا مظفرة على فلسطين وبنى عدة صروح، أكثرها قلاع.

لكن صراعا استجد في ظل خلفائه وتجزأت مصر إلى عدة دول مستقلة.

بفعل هذا الضعف، أخضع عواهل النوبة مصر في القرن الثامن قبل الميلاد. لم يجلب الفراعنة الليبيين شيئا جديدا إلى البلاد، والدولة النوبية نفسها تطورت بتأثير مصر. ففي أثناء ملك الأسرة النوبية، هاجم الآشوريون مصر، ورغم مقاومة ضارية، قهر أسلهامون البلاد في ٦٧١. لكن الهيمنة الآشورية بقيت عارضة إذ كان المصريون يستغلون أبسط الفرص ليستعيدوا استقلالهم. وفي ملك آشور بانيبال، دمر الآشوريون مصر مرتين، لأنهم لم يستطيعوا الصمود إلا باستغلال الصراع بين عواهل النوبة والملوك الصغار لنومات - قبائل - الشمال. كان أقوى هذه الدول تلك التي تشكلت حول مدينة سيناء، في الدلتا، بمساعدة الآشوريين.

استغل بسامتيك الأول (حوالي ٦٥٤-٦١١) اتفاقات نشطة مع بلدان شرق البحر الأبيض المتوسط، على رأسهم اليونان، حيث تصدر مصر قمحها. فظهر العديد من التجار والمرترقة في مصر وأسسوا مستعمرات. إن هذه الانطلاقة القصيرة، المعروفة باسم حقبة سايت *saite*، متميزة بتطو الإنتاج البضاعي، وبداية التداول النقدي وارتقاء المهن. وساهمت بهذه الانطلاقة المبادلات التجارية والثقافية مع اليونان وآسيا الصغرى. كانت السياسة الخارجية للفراعنة الساييت تهدف إلى رفع النفوذ العالمي لبلادهم بعقد أحلاف مع الدول العظمى، لأن ضعف مصر النسبي لم يعد يسمح للفراعنة أن يتصرفوا كفاتحين.

كانت السياسة الخارجية الأنشط هي سياسة نيشايو الثاني (نحو ٦١١-٥٩٥)، الذي وسع التجارة مع البلدان المجاورة (في أيامه حفر قناة النيل على البحر الأحمر) وحلول أن يخلق بواسطة الأحلاف العسكرية نقاط ارتكاز في فلسطين، في سوريا وعلى المجرى الأوسط لنهر الفرات. لكن القوات المتحالفة المصرية والآشورية انهزمت أمام البابليين في كركميش وانتقلت الهيمنة في الشرق الأدنى إلى إمبراطورية بابل الجديدة.

فرضت القوة العاتية للأرستقراطية والكهنة على الفراعنة الساييت أن يبحثوا عن دعم التجار والمرترقة، الأمر الذي حجم تيار مصادقة اليونان في سياستهم الخارجية. فالمنح والامتيازات الواسعة للتجار الأجانب، ونفقات جيش المرترقة الضخمة أغضبت الشعب المصري، الذي انتفض. واستلم جنرال من عند فرعون، قيادة المنتفضين، وهزم المرترقة وتولى العرش تحت اسم أحمس الثاني (أماسيس) (٥٦٩-٥٢٥). تابع أحمس الثاني السياسة التقليدية لأسرة الساييت، عزز الروابط مع اليونان وشجع إقامة المستعمرات اليونانية على الأرض المصرية.

إن سحق إمبراطورية بابل الجديدة والدول الأخرى في الشرق الأدنى، خول مصر تفعيل سياستها الخارجية لبعض الوقت. فتغلغت قوات فرعون من جديد في فلسطين. لكن هذا الانتعاش كان قصير الأمد. فمنذ السنة الأولى لملك خليفة أحمس الثاني، بسمتيك الثالث، دخلت القوات الفارسية مصر، الممزقة بالصراع الداخلي، وهزمت قوات فرعون في بيلوز (٢٥٢ ق.م)، وأنهت استقلالها. ولقد مارست حضارة مصر، المدينة بازدهارها للعلاقات التجارية والسياسية مع اليونان، نفوذًا واسعًا على الحضارة الإغريقية.

الفصل الثالث عشر

الحضارة المصرية

خصائص عامة

لقد خلق الشعب المصري، خلال تاريخه الطويل حضارة رائعة. فنحن مدينون له بأعمال أدبية خالدة. إن صروحته، نقوشه ورسومه تؤخذ نماذج حتى اليوم، شأنه في هذا شأن اليونان القديمة.

تستقي الآداب والفنون المصرية من تقاليد ثرة، فالشعب المصري صان أبداً وحدته وميزاته النوعية. إن بعثات عديدة على النيل وفي البحر، مع أخطارها ومغامراتها، تغذي الخيال، تعمق وتوسع أفق الناس وتساهم بتطوير الأدب العلماني. وفي الوقت ذاته حسنت، الوفرة بحجارة البناء والمواد الثمينة، كالذهب، والأبنوس والعاج فن العمارة والنقش والفنون التطبيقية.

من الخطأ اعتبار الحضارة المصرية كإقطاعية لأرستقراطية العبودية. فالأقاصيص، حكايات المغامرات، قصائد الحب ومختلف أجناس الأدب تنهل بالتأكد من منهل الفولكلور المصري الغني. والفنون التشكيلية تستند كلياً إلى تقاليد شعبية تعود إلى عهد المجتمع البدائي. وكان العديد من أروع هذه الفنون عمل فنانين الشعب الكبار.

الدين

يقدم الدين المصري نفس الثنائية التي قدمها الدين البابلي. فمن جهة، عبادة الآلهة "العظام" والميثولوجيا الملائمة، حيث تتغلغل التأملات التي سعى إليها الكهنوت لتدعيم نظام العبودية. ومن جهة أخرى، لدينا معطيات حول وجود دين شعبي زراعي، بأساطيره واحتفالاته التي ترتبط إلى حد ما بالدين الرسمي.

كان لكل نوم إله، إله المزدوج أو الثلاثي. تعود عبادتهم إلى بداية المجتمع البدائي، لأن لآلهة النوم تمت دوماً برباط القرى مع الطواطم القديمة. ينتسب الإله المحلي إلى

حيوان معين، وسمي الكثير من النومات باسم حيوانات: نوم الكركدن، الغزال، الفحل، الصقر، الأرنب، وغيرها. وغالباً تبقى عبادة الحيوانات بشكلها البدائي: ففي ممفيس، مثلاً، يعبد الثور آبيس، تجسيداً للإله فتاح؛ وفي تينيس، الصقر حوروس؛ ولقد اعتادوا تقديم الآلهة والآلهات بشكل حيوانات أو كائنات بجسد بشري ورأس حيوان. من هذه الزاوية، يتفق الدين الرسمي مع الدين الشعبي، لأن هيرودوت يقول: إن عبادة الحيوانات كانت منتشرة في كل البلاد. بقيت هذه العبادة حتى التاريخ المصري. لكن آلهة النومات لم تتمتع بالسحر. فقط آلهة النومات الأوسع والتي لها تأثير سياسي، يمكن أن تأخذ الصفة القومية. هذا ماكان فتاح في ممفيس، را في إينو (هليوبوليس)، أوزيرس في أيديوس، هوريس في تينيس، وأمون في طيبة، وغيرها. كان لبعضها، مثل راء، إله الشمس، أوزيرس وإيزيس، آلهة النبات والخصب، وظائف ترجع إلى أقدم العهود؛ ولقد حافظت على مقامها في الدين الشعبي. ويأخذ بعضها نسبة من تعاليم الدين والكهنوت: هكذا، أعلن فتاح خالقاً للعالم، والآلهة والناس.

دور الإله الأسمى، سيد الآلهة، أسند لأمون، إله الشمس، الذي يقدم برأس فحل، في أثناء التفوق في طيبة خلال الإمبراطورية الوسطى وبخاصة أيام الإمبراطورية الجديدة؛ وصارت عبادته العبادة الرئيسة في مصر.

كانت العبادة الأكثر شعبية هي عبادة أوزيرس وإيزيس. وصار أوزيرس إله المملكة النباتية. تقول إحدى الأساطير: إنه سمي إله القمح والشعير. ترتبط ميثولوجيته ارتباطاً وثيقاً بالخاصة الزراعية لعبادته: سيث، إله الصحراء الشرس، قتله وقطع جسمه إرباءً ثم هوروس، ابن أوزيرس، بعثه. وأعلنه الكهنة أيضاً ملك وقاضي الأموات. لكن التقاليد الشعبي يثابر على تقديمه إلهاً للزراعة. وبدءاً من الإمبراطورية الوسطى، منذ أن كان الكهنوت أوزيرس ملك وقاضي الأموات، صارت عبادته أداة اضطهاد جديدة في يد الكهنوت والأرستقراطية الاستعبادية.

في الدين المصري، يعود دور هام إلى عبادة الفرعون، المعتبر صورة حية للشمس. وقد كان لهذه العبادة أهمية سياسية عظيمة: تقدس الدولة وتظهر العاهل. وبعد موته، يتحد الفرعون المعبود بأوزيرس. ففي النصوص الدينية القديمة المرسومة على جدران الأهرامات يسمى الملك المتوفى أوزيرس، والتعازيم الجنائزية تعلن دوماً أن العاهل سيبعث

حيًا كما الإله. وهكذا، خدمت عبادة أوزيرس الفكرة السياسية المركزية في الدين المصوي: تأليه السلطة الملكية وتقديس الدولة الاستعبادية.

كانت الطقوس السحرية منتشرة في البلاد. يمارسها كهنة المعابد العظمى، بخاصة في أثناء العبادة الجنائزية وأفكار الآخرة. جمعت هذه الصيغ في "كتاب الموتى"، العمل الضخم المتضمن أكثر من مائة فصل ووفرة من الرسوم، بعضها ملون؛ جمع في حقبه الإمبراطورية الجديدة، استناداً إلى مدونات كهنوتية أقدم. عند جنازة الملوك والموظفين الكبار، توضع لفائف "كتاب الموتى" في القبر لتقي الميت من أهوال ما بعد الموت وتأمين غيبته بعد الموت. من لايملك كتاب السحر الثمين هذا، عليه أن يحيا حياة فاضلة، أي أن يخضع للأقوياء. هكذا إذن تستخدم العبادة الجنائزية أيضاً كوسيلة ضغط روحي على العمال.

الكتابة

إن الكتابة، التي يسميها اليونان الهيروغليفية - "الصور المقدسة" - مشتقة من النقر التصويرية للأزمنة البدائية. فأقدم كتابة مصرية كانت نقرا تصويريا: كل شارة مرسومة تمثل مفهوما، وربما جملة قصيرة. ولقد استمرت الكتابة الهيروغليفية في مصر حتى نهاية تاريخها القديم؛ لكن الرسم تبدل شيئا فشيئا، وإلى جانب الحروف الأولية ظهرت حروف أخرى، مبسطة سهلة الكتابة. ومنذ الإمبراطورية القديمة، وجدت كتابة سماها اليونان *hieratique*. وفي القرن الثامن قبل الميلاد، ارتقت وتحولت إلى كتابة معروفة باسم يوناني *de'motique*.

تعد الكتابة الهيروغليفية المصرية قرابة سبعمائة شارة إجمالاً. وفي ملك الأسرتين الأوليين اكتسب الكثير من الهيروغليف معنى مقطعياً و٢٤ حرفاً سميت حروفاً صامتة. شكلت هذه الـ ٢٤ شارة وعشرات أخرى - ٧٠ إجمالاً - أساساً للكتابة المصرية. كانت الكتابة إذن معقدة كالمسمارية البابلية. كانوا يكتبون على الحجر، الخشب، الرق والقماش، لكن المادة الأكثر رواجاً كانت البردي، المصنوعة من سيقان أو جذوع النخيل، الذي ينمو على ضفاف النيل. إن الكتابة المصرية ذات أهمية تاريخية كبرى. ففي النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد، استخدمت كنموذج للكتابة الأبجدية الفينيقية، التي تعد ٢٤ شارة فقط.

الأدب

إن الكتابات في الإمبراطورية القديمة أساساً دينية وتحوي بخاصة نصوصاً سحرية منقوشة على جدران الأهرامات، الأقبية والقبور. يجب الاعتقاد أنهم، منذ ذلك العهد، رتبت وكتبت طقوس الأسرار التي تلعب في أعياد أوزيرس والآلهة الأخرى والألحان على شرف "كبار" الآلهة. تعود النصوص والألحان التي وصلتنا إلى الإمبراطوريتين الوسطى والجديدة. أحسنها نشيد ولحن الآمون وآتون، كتبهم أخناتون. وفي عهد الإمبراطورية الجديدة، يندج كهنة المعابد الرئيسة نصوصاً لاهوتية تعرض نظريات نسب الآلهة وتشكل الكون، لمدارس متخاصمة مختلفة.

تبين بذور الأدب النقي منذ عصر الإمبراطورية القديمة. إنها النقوش الجنائزية التي تنص، على الشخص الأول، حياة الميت. فأقدم السيرات، التي تؤرخ للأسرة الثالثة، هي سرد جاف ومختصر لأملالك، وظائف ومناقب المتوفى. لكن في أيام الأسرة السادسة، تصير موضوعات مفصلة تقدم أحياناً بعض الخواص الأدبية. مثل سيرة نيافة أونى التي خدمت ثلاثة فراعنة من الأسرة السادسة، أونى الذي شن الحملة الأولى على سادة النوملت الآسيوية، وحكم الجنوب، وقاد الحملات على النيل حتى المناطق الجنوبية وأثيوبيا. نقرأ العديد من القصص الجميلة من هذا النوع في تراجم كثيرة لموظفين كبار من الإمبراطورية الوسطى والجديدة؛ تشير إلى سيرة مانتوحتوب، معاصر سنوسرت الأول، وسيرة أحمس التي خدمت أحمس وأمنوفس الأول، وسير ركحميري وأنيوتف التي خدمت تحوتمس الثالث. تضم سيرة ركحميري، بخاصة، عرضاً رائعاً للحقوق، والواجبات وطرق حكم الوزير في الإمبراطورية الجديدة. إن قصة سنوحيه، التي ظهرت في الإمبراطورية الوسطى، تقدم أيضاً سيرة ذاتية؛ تنص مغامرات الأمير سنوحيه، الذي أصيب بنكبة في بداية ملك سنوسرت الأول ولجأ إلى سوريا. عاش أعواماً في كنف قبيلة سورية، في خدمة شيخها؛ وصفت العادات والتقاليد بموهبة. ثم، يسمح لسنوحيه بالعودة إلى مصر، حيث يستقبله الفرعون بحفاوة ويسبغ عليه الأمجاد.

يتضمن أدب الإمبراطورية الجديدة مختلف الأجناس، أشعاراً ونثراً. ونحن نعرف قصائد حب كتبت بغنائية فاتنة، وأغاني في احتساء الخمرة، وخرافات، وأحاجي. وثمة أيضاً قصص، حكايا حول روائع المرزبان الملكي، وأنباء عن رحلات غريبة في الجنوب وفي آسيا. وثمة عملان يتمتعان بتفرد هام. الأول، يؤرخ للإمبراطورية الوسطى، وهو

قصة موجزة لكنه تصوير لبعثة مصرية إلى بونت، الذي غرقت سفينته وقذفته الأمواج إلى جزيرة يحكمها ثعبان، ثم، عودته إلى مسقط رأسه. وكتبت الثانية في أيام الإمبراطورية الجديدة، وهي "قصة الأخوين" يستلهمان أساطير الآلهة. مغامرات الأخ الأصغر الذي يموت ويبعث حياً في عدة مناسبات، تذكر بخرافة أوزيرس. وكانت الأقاصيص التي تستقي موضوعها من التقاليد الشعبية، واسعة الانتشار. أبرزها قصة الأمير الذي يتوقع له عند ولادته، موت مبكر. حماه أبوه ما استطاع. لكنه مأن يشب، حتى يرحل إلى بلاد بعيدة. حيث يتزوج ابنة الملك الذي ينقذ حياته بقتل الثعبان الذي يزحف نحوه تحت جناح الليل. ويهرب بأعجوبة من كركدن كان يهدده. نهاية القصة ضاعته، لكن الأمير يلقي نهايته على الأرجح من قبل كلب مذكور في نبوءة الحيوانات الثلاثة التي تسبب موته.

إلى جانب هذه الخرافات، ثمة قصص مستندة إلى واقعات تاريخية، مثل، حكاية الملك سكينجرا الذي بدأ الصراع ضد الهكسوس، أو رئيس تحوتمس الثالث، الذي احتل مدينة يافا. تصدر هذه القصص بالتأكد من الحوليات الملكية التي، في أيام الإمبراطورية الجديدة، تأخذ شكلاً أدبياً وتسجل أحياناً إمارة الموهبة. كانت تقص الغزوات، الفتوح وأعمال الفرعون العظيمة؛ أشهرها وأروعها، "حوليات" تحوتمس الثالث، ونقوشات رمسيس الثاني حول غزوته لقادش؛ ولقد خلدت معمعة قادش بقصيدة شهيرة، لأحد شعراء القصر، التي بدلت هزيمة الفرعون إلى نصر.

منذ الإمبراطورية القديمة، كان في مصر أدب تعليمي. وكان إما معلومات مباشرة، أو تنبؤية. تطلعننا هذه الكتابات على أخلاق عليا المجتمع الاستعبادي. مثلاً، المعلومات التي تتبع من الأرستقراطية العسكرية. الخصيصة النموذجية لبعض هذه الأعمال، مثل "تشيد عازف القيثارة"، وبخاصة "حوار رجل تعب من الحياة مع روحه"، الذي يعود للإمبراطورية الوسطى، هي التشاؤم والخيبة. وتعكس التبدلات الاجتماعية العميقة الحادثة في المجتمع المصري وحياة الفقراء المضنية، الذين يضطهدهم سادة العبيد.

الفنون التشكيلية وفن العمارة

لقد تطورت الفنون التشكيلية في مصر بشكل ملحوظ في أيام الإمبراطورية القديمة، لكن ليس في كل الأجناس.

يومئذ، حقق فن الأنصاب التذكارية إنجازات مشهودة. فأنصاب الملوك والوزراء جيدة التناسب، ولكل منها وجهه الخاص، الذي يتلاءم حتماً مع النموذج؛ لكن وقفاتها فيها

شيء من الفجاجة، مصطنع. أحسن أمثلة الحفر والنحت المصري هي النصب القاعد للفرعون شافرا (شفرن)، وتمثال الكاهن رانيفر والنصب المشهور لأحد النساخ متربعا، محفوظاً في اللوفر. تأخذ الرسوم النافرة مدى أوسع. بخاصة على القبور. وتمثل مشاهد من حياة الدفين والأعمال الناجزة في ممتلكاته. تنسب إلى هذه الصور السلطة السحرية التي تؤمن للميت الحياة التي عاشها في الأرض. عيبها فقدان التأمل وتبسيطة الأشكال. الإنسان مقدم بطريقة توفيقية: الرأس مجانب، والجذع مواجه. لكن الطيور والحيوانات من واقعية مذهلة. والمنحوتات غالباً مطلية: كان الصناع يعرفون صنع الألوان المقاومة جداً، التي حافظت على ألونها حتى الآن.

في أيام الإمبراطورية الوسطى، أتقن النحت والحفر وصنع التماثيل، وإلى جانب المنحوتات المطلية ظهرت الجداريات الحقيقية، التي تقدم نماذج رائعة من المناظر الطبيعية، والرسوم الشخصية *portraits*، مشاهد المعارك وسواها. وكان فنانون الإمبراطورية الجديدة أمهر أيضاً. إذ لم تعد تماثيلهم بليدة خرقاء وساكنة لا حركة فيها؛ وظهرت تماثيل نصفية *bustes* رائعة. وكانت رائعات الإمبراطورية الوسطى والجديدة هي تماثيل أمنمحت الأول، رمسيس الثاني ورأس نفرتيتي، زوجة اخناتون. بين المنحوتات، تميز تركيبات دقيقة ومعقدة تذكر حملة حتشبسوت إلى بونت، معركة قادش، والعمليات الحربية لسيتي الأول. وحقق الرسم أيضاً تقدماً واسعاً. أعطى صوراً صادقة للنبات، للطيور للحيوانات وللوجوه البشرية. والشخص، البعيدة عن كل تبسيط، تصوير رسوماً شخصية *portraits*.

لقد مارس ذوق وأستذة فنانين مصر نفوذاً دامغاً في إنتاج السلع المتداولة وسائل التعبد. ولقد عثر في قبور الإمبراطورية الوسطى والجديدة على كمية من الأنصاب الخشبية والحجرية التي تمثل العبيد، الحراث، الرعاة، الصناع، المحاربين وسوى ذلك. وثمة أنصاب صغيرة -"متجاوية"- تلبية نداء الدفين والعمل من أجله. هذه الأنصاب منحوتة بمهارة. فالإمبراطورية الحديثة والعهد التالية تركت لنا عدداً لا يحصى من مواد الاستخدام المألوف، المرايا، الصناديق، الموبيليا المرصعة، علب العطور، الجرار، الصحن، الأواني، الحلى -كلها من الذهب، الفضة، العاج، الأبنوس، البرونز، الزجاج، إلخ. لم يعط هذه السلع صناع بسطاء، بل فنانون تدربوا جيداً بتدريبات نوعية.

بلغ فن العمارة في مصر درجة عالية من الإتقان. آثارهم الأقدم هي القبور الضخمة،

وأهرامات الملوك ومصاطب السادة. المنظر المعروض يتحد فيها مع خطوط في غاية البساطة. وفي أيام الإمبراطورية القديمة، كان بناء المعابد أقل أهمية. وفي هذا الزمان استخدمت أعمدة موشورية أو بشكل النباتات. إذ ترجع أجمل المعابد إلى الإمبراطورية الحديثة. وأطلال الكرنك والأقصر -في مكان طيبة القديمة- وآثار أخرى تعطي فكرة عن عظمة ومجد هذه القبور. في المدخل تبنى الأروقة بأساليب متباينة؛ الأدرج العريضة والمداخل تزين بعنقاوات مصطنعة. يتضمن معبد الكرنك قاعة واسعة من ١٣٤ عموداً سمكية تؤلف ١٦ صفاً؛ بمساحة ٢٥٠٠٠ م^٢. مثل هذه الأبنية تتطلب مهارة واسعة من البنائين. عدا المعابد، بنوا قصوراً ملكية غاية في الإتقان. لكنها وقد كانت من الخشب، لم نستطع أن نحكم عليها إلا من خلال صور المنحوتات البارزة.

تقنية بذور العلم

إن صروح مصر الضخمة -الأهرامات والمعابد- كانت مبنية بتقنية بدائية. كل الأعمال تم باليد، بعرق الفلاحين والعبيد. لكنها تنجز دوماً بناء على مخططات وحسابات مهندسي العمارة وملاحظي الورشات الآخرين. وتشاد التصاميم طبعاً بالخبرة المنقولة من جيل إلى جيل، وليس على مبادئ نظرية للآلية.

كانت ضخامة الأعمال تتطلب حسابات أولية بالأرقام المدورة، أي الصحيحة بدون كسور. فمن أجل قياس الحقول بهدف زيادة الضرائب، كان يجب أيضاً معرفة حساب السطوح. لذا كان الحساب متطوراً جداً في مصر. وانطلاقاً من النهج الطبيعي للحساب باليد (خمسة أصابع) وبالنهج العشري، خلق المصريون العد العشري لتقدير الأعداد ١٠، ١٠٠، إلخ. حتى ١٠ ملايين. وكانت الهندسة متطورة أيضاً. فلا تقاس مساحة المستطيل فقط بل أيضاً حجم الدائرة، بإعطاء رقم ٣,١٤، كان الفلكيون يدرسون السماء ويضعون لوائح للنجوم حسب تجمعها، دون أن يساوا البابليين. كان التقويم المصري (الموضوع في أيام الإمبراطورية القديمة) شمسياً، لكنه غير مستخلص من مراقبة حركة الشمس السنوية: وكنقطة انطلاق، اعتبروا يوم بزوغ الشمس سيربوس؛ وفي تلك الحقبة بدأت الفيضانات بعامة. وبعد عدة أعوام من المراقبة تحققوا أن الأمر يتكرر كل ٣٦٥ يوماً وأعطيت هذه المدة للسنة، التي قسمت إلى ١٢ شهراً و ٣٠ يوماً لكل شهر. وخمسة أيام أعياد في آخر العام. لكن هذه السنة تتأخر حوالي ٦ ساعات عن العام الشمسي؛ وفي التقويم الحديث، جرى التصحيح بواسطة سنة الكبيس من ٣٦٦ يوماً، الذي يتكرر كل أربعة

أعوام. لم يجر المصريون هذا التصحيح، وخلال قرون، سينمو الفرق ولم يكن يلغى إلا كل ١٤٦٠ عاماً. لاحظ هذه الدورة الفلكيون المصريون الذين سموه زمن سوتيس (اسم مصري لسيريس). وقد حقق الطب في مصر تقدماً ملحوظاً. وضرورة فتح الجثة لتحنيطها حسب العادة الدينية خولهم دراسة التشريح، وهذا، بدوره، أظهر بذور علم الفيزيولوجيا وعلم الطب. ويبحث الأطباء المصريون عن سبب الأمراض في تلف الأعضاء، لكنهم لم يستطيعوا التخلص من السحر، وفي أعراقهم بل أساطيرهم تتجاوز الريع السحرية مع الوصايا الطبية البحتة.

الفصل الرابع عشر

الإمبراطورية الحثية

الأصول

تشكلت الإمبراطورية الحثية في شرق آسيا الصغرى، في حوض حاليس *halys*، الإقليم الذي سمي مؤخرًا كبادوس *capadoce*. لم تكن شروط البلاد تسمح بزراعة أراض مروية. لأن حاليس نهر أقل أهمية بكثير من النيل والفرات. كان الحثيون قد تعلموا حفر أقبية صغيرة لسقاية المراعي والكروم، لكن الزراعة لعبت عندهم دورا أقل من تربية المواشي والطيور. ففي مراعي الجبل، كانوا يملكون قطعانا غفيرة من الأحصنة والخرفان: كانت هذه المنطقة تزودهم، منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، بصوف ممتاز.

كانت كبادوس غنية بالمعادن (بخاصة الفضة) وشهيرة بفن التصنيع المعدني؛ وكانت الجبال عامرة بالغابات والحجارة.

كان الشعب متنافرا: في الألف الثالثة كان ثمة قبائل هاتي *hatti* التي أعطت البلاد اسمها؛ كانت لغتهم تقرب لغة ترانسقازيا؛ على ذلك تمثل الثقافة المادية للهاتي والقبائل القفقازية القديمة تماثلات عديدة. وفيما بعد، على الأرجح على تخوم الألفين الثالث والثاني، غزت آسيا الصغرى قبائل أخرى: النيزيت واللويت الذين يتكلمون لغات هند-أوربية. لكن بعد اجتلال قبائل الهاتي البلاد سموا أنفسهم حثيين [*he'the'ens ou hittites*].

تشكل الطبقات الاجتماعية والدولة عند الحثيين غير معروف كفاية. يمكن الافتراض أن تطور التنجين الضخم وصناعة البرونز خلقت، في بداية الألف الثاني، الأساس الاقتصادي للعبودية.

ففي تلك الحقبة تشكل في شرق آسيا الصغرى قبائل (أو اتحاد قبلي) كانت تقاثل بعضها. تجمعت هذه القبائل حول مراكز جيدة التحصين، أهمها كوسار، نيشاساح وحاتوزا. بداية، استلم القيادة ملوك كوسار الذين استعبدوا نيشاساح ودمروا حاتوزا. وبعدئذ صارت

هذه الأخيرة عاصمة الإمبراطورية الحثية.

استناداً إلى التنقيبات، كان لحاتوزا سوران. وكانت جدرانها مؤلفة من حاجز ترابي ومن البلاط الحجري والآجر المشوي؛ وزودت بأبراج تتدرج بفواصل منتظمة. كل هذا أعطى المدينة مظهر البقعة المحصنة.

القليل مما لدينا من تاريخ الحثيين الأول، يشهد على نضال شرس بين العبيد والأحرار، بلغ أقصاه في النصف الثاني من القرن السابع عشر قبل الميلاد، أثناء تمرد "عبيد الأبناء الملكيين" الذين دمروا بيوت السادة و"أراقوا دمهم". وكانت تتأخرات قاسية تمزق على الأرجح الطبقة الحاكمة: كانت تتضح أولاً بالنزاع بين مدعي التاج، الأمر الذي أوجب، في القرن السادس عشر، إصلاحاً يهدف تسوية الخلافة. وأخيراً نعرف أن الملوك الحثيين شرعوا، في نهاية القرن السابع عشر وبداية السادس عشر، بحروب الفتح: كان أكثرها نجاحاً غزوات مورسيل الأول الذي احتل كحالبا (حلب) في شمال سوريا، ثم تغلغل في بابل وهزمها ودمرها.

لكن معرفتنا أحسن بكثير للإمبراطورية الحثية منذ القرن الخامس عشر حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. كسرات من القوانين حفظت، تعطينا فكرة عن العلاقات الاجتماعية في تلك الحقبة، وحوليات تتضمن معلومات مفصلة عن الدبلوماسية والحروب.

النظام الاجتماعي

كانت الإمبراطورية الحثية دولة استعبادية؛ فالملك، المعابد وحتى بعض الأفراد يملكون عبيداً؛ ويعد بعض الحقول أكثر من مائة منهم. كان العبيد بخاصة صناعات ورعاة. عند ارتكاب الجريمة ذاتها، يدفع الحر تعويضاً وعقوبة العبد الموت أو بتر أحد الأعضاء: يقطع أنف وأذن العبد إن أحرق أو سرق. كان العبد يشبه مادة ما والرجل الحر عن قتل عبد لا يعتبر قاتلاً: بل عليه أن يعرض الخسارة على المالك بإعطائه عبداً (أو أكثر).

بيد أن بعض سمات الحق الحثي تثبت قدم العبودية. وكان العبيد يقدر أن يملكوا رزقاً أو عقاراً وأن يقتطعوا من الغرامات التي ترهقهم: وأن يتزوجوا من حرائر، ويتدخلوا في بعض الحالات - بالمحاكم؛ عند التفريق بين عبد وامرأة حرة، يقتسم الزوجان الأولاد والأرزاق.

عدا العبيد، كان المجتمع الحثي يتضمن عينات أخرى من المنتجين المباشرين

المستثمرين. فأقرب أقرباء الحثيين الهبار *les hippars*. ربما كان هؤلاء من مناطق محتلة، أو كانوا منفيين ليعملوا سخرة لمصلحة الملك؛ وكانوا أحيانا ملزمين بالأعمال العسكرية. كان الهبار يتحدثون في جماعات تحمي أعضائها كفالات متينة. المقصود كما يبدو نوع من مشاعات الجوار. كان العبيد والهبار من أصل أجنبي وبعمامة أسرى. لكن الحثيين الأحرار قد يعودون أيضا إلى العبودية: في سنة قحط، تعرضوا لخطر الوقوع وإلى الأبد في قبضة ذلك الذي "جعلهم أحياء" بسبب قرض، لولم يقدموا عاملا آخر عوضا عنهم. كان الفقراء يقدرون أن يبيعوا أبناءهم (أمر ملفت، لم يسمح بهذا الحق للهبار).

أقل قسوة كان تعلق الناس (بالنصيب الوراثي). كانوا حتما أناسا خرجوا من المشاعة واکرهم أن يصيروا زبائن الحثيين المخولين كل الحقوق المدنية، ومحاربين وملاك عقارات يعملون في الأرض. وكان لهم بعض الحقوق في الاقتصاد حيثما استخدموا: عند فسخ العقد، يتلقون ثلث الثروة.

كانت الكتلة الأساسية من السكان الأحرار مؤلفة من أعضاء المشاعات. كان لدى مشاعات الجوار حقوقا لاتقبل القسمة، رغم انتقال القسم الأكبر من الأرض إلى أيدي الأسر الأبوية ووزعت الأسهم على الأسر الصغيرة. كان قائد الأسرة الكبرى هو المدير الأعلى للكرزاق وينفذ السخرة للدولة؛ وكان "صاحب الدم"، أي قاضي الجرائم التي يقتربها أعضاء الأسرة؛ وكانت تبدو هنا بقايا نظام العشير في أخذ الثأر، في الكفالة المتينة وزواج السلفة. كانت الأرض قابلة للتحويل، لكن البيع والشراء يعتبر إجراما، عقوبته تضحية تكفيرية. والحالة الجنينية للملكية العقارية الفردية ترجع أيضا بتقاهة السعر: حقل من ٣٥ هكتارا يساوي عشر ثور. والكروم التي صارت، بالمقابل، ملكية خاصة في عهد أقدم، كانت أحسن قيمة: كرمة تساوي أربعين حقلا قابلا للزراعة.

كان أعضاء المشاعات، الذين حصلوا على نصيب من الأرض منظم، ملزمين بكل أنواع السخرة المسماة لوزي *louzzi*، التي تشمل كل الأعمال: بناء القلاع والمعابد، إصلاح الطرق، القطاف، إلخ. وكان عليهم، أيضا، تأدية الخدمة العسكرية؛ ومن يهرب من هذا يصادر حقله. فمالك الأرض يضطلع بمهام المالك السابق.

^١ - قانون عبراني يفرض على الشقيق أن يتزوج زوجة شقيقه المتوفى بدون ذرية.

كان الصناع خاضعين أيضا للسخرة؛ فقط، بعض المتميزين من المحاربين، الكهنة، ومن تلقى سهما من الأرض من الملك مع إجازة خاصة، يعفى من السخرة. كان النبلاء في قمة الطبقة المتنفذة: أعضاء الأسرة المالكة، الكهنة، القادة العسكريون، المنحدرون من أرستقراطية الدم، الذين يبقون غالبا سادة أيضا فسي إقطاعاتهم يملكون الأرض والعبيد ونصيبا من أسلاب الحرب.

النظام السياسي

في رأس الإمبراطورية الحثية، كان "الملك المعظم" الذي يدعى "الشمس". ويعتبر مانح الخير والسعادة للشعب، يتم طقوسا ويوجه أعيادا دينية بصفة الكاهن-الأكبر. ويعبد بعد موته. ويشغل الملك وظائف عدة: قيادة الجيش، المرشد المشرف والقاضي الأعلى. كانت السلطة الملكية محاطة بمجلس يسمى بانك *pank*. لغويا، هذه الكلمة تعني كثرة أو حشد. بالأصل، مجلس محاربي موسار، لكن بحسب تطوّر النظام العبودي، تفقد منظمات الديمقراطية العسكرية سلطتها: يتقلص البانك ليصبح مجلسا أرستقراطيا يمثل قمة الشريحة الحاكمة. ويتمتع البانك، المكون من أهل الملك المباشرين (ابن، أخ، إلخ)، ومن الأوصياء والقادة العسكريين، بحقوق واسعة، بخاصة حق محاكمة العاهل؛ والعاهل بالعكس، لا يقدر أن يحكم بالموت على عضو من الأسرة المالكة بدون موافقة البانك. صحيح أن الملك يقدر أن يعيد النظر بقرار البانك، بخاصة تخفيف عقوبة ما.

وهكذا، كان نظام الإمبراطورية، في أيامه الأولى، أرستقراطيا: القمة النبيلة (أسر الملك) التي تملك القطعان الضخمة، العديد من العبيد، والتي توجه "بيوتا" (أسر أبوية) متنفذة، تتمتع بسلطة واسعة ونجحت في تحجيم العاهل. لكن، فيما بعد، عندما صارت الإمبراطورية دولة عسكرية قوية، توطدت السلطة المنيكية وفقد البانك نفوذه.

كان نظام الأرستقراطية يفرض إدارة لامركزية. بالفعل، لم تكن الشروط الطبيعية لآسيا الصغرى قادرة على المساهمة بوحدة البلاد: لكن الافتقار لشبكات الري ولد، كما في مصر، الحاجة للمركزية. وكانت بعض المناطق مستقلة كليا من وجهة نظر الاقتصاد.

كانت الدولة الحثية موزعة إلى أقاليم خاضعة لحكام، مختارين غالبا من الأسرة المالكة ويحملون لقب "ملك". وعلى تخوم الإمبراطورية، وجدت محميات سوت علاقاتها مع الممالك الأكبر "معاهدات خاصة تتوقع الأحداث الخاصة في حالة الحرب، وحصة

الأسلاب وحقوق التجارة والعلاقات الدبلوماسية مع البلدان الأخرى. كان لهذه المحميات حق إعلان الحرب وتوسيع حدودها على حساب الجوار غير الخاضعين للإمبراطورية الحثية.

كانت السلطة العليا "للملك المعظم" تمتد أيضاً إلى مدن مقدسة مثل أرينا ونيريك، التي تتمتع باستقلال أكيد. وفي الأرياف، يضطلع شيوخ المشاعات بالوظائف الإدارية والقضائية.

تشكل الدولة العسكرية

في نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد، مارس الملوك الحثيون سيادة خارجية فعالة، تهدف إلى توسيع الأملاك بالسلاح والدبلوماسية. يومئذ، كانت السيطرة في الشوق-الأدنى بيد الكوريت، مرتبي الخيول الذين شكلوا في النصف الأول من الألف الثاني عدة دول صغيرة في شمال ميزوبوتاميا وسوريا؛ كانت الشريحة العليا من السكان أرسنقراطية تقاتل على عربات. وفي القرن الخامس عشر، توحد الكوريت في مملكة شاسعة، ميتاني، ممتدة من كحالبها وألalach حتى نوزي، الواقعة شرق دجلة. اضطرت آشوريا بالذات للاعتراف بتفوقها، جلب ملك ميتاني من آشور، عاصمة آشوريا، باباً من الذهب والفضة زين به قصره في فاشوغاني (على الخابور). وكانت الدولة الأخرى القوية في الشرق - الأدنى آنئذ هي مصر التي، في أيام تحوتمس الثالث، وسعت حدودها حتى شمال الفرات.

لكن وضع هاتين الإمبراطوريتين تزعزع حوالي نهاية القرن الخامس عشر. نجعل الأسباب الداخلية التي أضعفت ميتاني، مع أن رسائل تل العمارنة تكشف أن ملوك آشوريا حققوا في هذا الزمن استقلالهم؛ وفي فاشوغاني ذاتها (عاصمة ميتاني) انطلقت ثورات في القصر وتفجر الصراع على السلطة والميراث. وفي مصر، انتهت حروب الفتح في أيام أمنوفس الثالث؛ وفي أيام أخناتون، خلفه، بدأت إمبراطورية مصر، التي أهلكها ومزقها الصراع السياسي، بالتفكك.

في ظل هذه الظروف المواتية، شرع نبلاء العبودية الحثيون بانتشار واسع. ودلل ملوكهم شوبوليوما على مهارته الدبلوماسية. فبفعل السلاح والمفاوضات، توصل إلى مد نفوذ إمبراطوريته مداً ملموساً وجعلها أقوى دولة في الشرق الأدنى.

نجح بداية بفتح الكوريت: انتصرت قواته في شمال سوريا، اجتازت الفرات ودمرت فاشوغاني. وبعد هذه الهزيمة، قلبت الاضطرابات ميتاني: أكرهت ثورة من القصر، نجعل

أسبابها وحوافزها، ماتوا، وريث العرش، على الهرب إلى عند الكاسيت. وباعترافه، استقبل استقبالاً بارداً، وخوفاً من أن يسلمه الكاسيت للأشوريين أو لأعدائه في فاشوغاني، "استسلم مع ثلاث عربات فقط وعدد بسيط من الحواشي إلى قصر شوبولولياما، دون أن يكون معه بديل للثوب الذي يرتديه". أدرك شوبولولياما الفوائد التي يجنيها من التقرب من الوريث الشرعي لتاج ميتاني. أعطاه ابنته زوجة وأرسل قواته ضد المتمردين. ويصير ماتوا ملك ميتاني، لكن البلاد صارت محمية للإمبراطورية الحثية؛ وفي معاهدة نوعية، عدد ماتوا المكاسب التي قدمها له "الملك الأعظم" واعترف بتفوق شوبولولياما.

دعم هذا الأخير نفوذه في شمال سوريا. ارتبطت كحاليا وقمرقميش بالإمبراطورية، ووضعت تحت إمرة الأمراء الحثيين. حث شوبولولياما الملوك الصغار في سوريا وفينيقياً على التمرد على مصر؛ وكان رجل السياسة الحثية في سوريا أزيرو، عاهل بلاد عمورو، الذي شمر السلاح ضد خلفاء الفرعون. لم يرسل أكناتون تعزيزات، رغم إلحاح ملك بيلوس، فاحتل أزيرو هذه المدينة؛ فقد أمن غضب الجماهير الشعبية من اضطهاد الموظفين المصريين، أمن دعماً ملموساً لأزيرو. فقدت مصر امتيازاتها في سوريا وفي فينيقياً، لصالح الحثيين، الذين كان اشتراكهم ضعيفاً في هذا الصراع؛ وهكذا ألحقت الدولتان الصغيرتان سوريا وفينيقياً بدائرة نفوذ الإمبراطورية الحثية.

أخيراً، حاول شوبولولياما التدخل في شؤون مصر الداخلية بعد موت أكناتون، والبلاد فريسة صراعات داخلية أودت بفرعون بعد أن حرم السلطة. كان شوبولولياما يرغب في تزويج أحد الأمراء الحثيين من أرملة أحد الفرعنة السابقين (ربما كان توتانخامون)، آملاً تحويل مصر -كما فعل بميتاني- إلى محمية. لكن مشروعه فشل.

لقد وسمت مملكة شوبولوليامي الإمبراطورية الحثية بالأوج السياسي. واختفت شيئاً فشيئاً الخصائص الخاصة بالممالك الأولى؛ وسلطة الملك الذي كان يدير التوسع العسكري في إمبراطورية العبودية، تدعمت واقتربت، بطبيعتها، من الاستبداد المصري والبابلي.

كانت أسلحة الحرب الضخمة وآلاف الهبار المستقرون على الأرض الملكية الأساس المادي لسلطة "الملك الأعظم"، "الشمس".

انهيار الإمبراطورية الحثية

لم يستطع ازدهار الإمبراطورية أن يستمر طويلاً، لأن دولة شوبولولياما مترامية

الأطراف كانت تفتقر للحمة والانسجام. كانت حروب الفتح تتطلب جهودا ضخمة وتستنفذ الاحتياط البشري: فليس بدون سبب ألزم الحثيون الهبار بخدمة الجيش. وكانت السخرة تنقل كاهل الفلاحين، أعضاء المشاعات؛ فانتهى الجوع والاستعباد إلى دمار اقتصاد الحراثين والمدجنين.

اصطدم أول خلفاء سوبولولياما بمصاعب جديدة. كان على ولده مورسيل الثاني أن يقاتل قبائل الكسكاثيين الذي يسكنون جنوب البحر الأسود، وغرب مملكة أكحيواوا التي أسسها اليونان (الأثينيون)، الذين كانوا يقطنون بلوبونيز في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد.

في نهاية القرن الخامس عشر، نشب نزاع مسلح بين الحثيين والمصريين الذين، في ملك رمسيس الثاني، كانوا يطمعون من جديد بسوريا. انهزم المصريون أمام قادش (١٣١٢)، واستنادا إلى المصادر الحثية، مشوا بسرعة إلى دمشق. لكن هذا كان آخر نصر هام للحثيين.

لقد ترك حاتوسيل الثالث، الذي أتى إلى السلطة في بداية القرن الثالث عشر، سيرة ذاتية ملفتة، تتضمن ذاتية لاتناقش تهدف أساسا تبرير اغتصابه العرش. لم يكن لحاتوسيل، ابن حاتوسيل الثاني، أي حق بالعرش. بل كان يحكم عدة أمصار من الإمبراطورية والمدينة المقدسة نيريك. ولما صار حفيد حاتوسيل، أوركتشوب "الملك الأعظم" كاد له عمه وظاهر أعداء العاهل الحثيني. ونجح أخيرا بقلب أوركتشوب (باتهامه إياه في سيرته الذاتية بمخططات ضارة ومهلكة ونفيه إلى جزيرة في البحر الأبيض المتوسط. وقد فاقم هذا الصراع الملكي من وضع الدولة.

كانت سياسة حاتوسيل الثالث دفاعية بحتة؛ أوقف تقدم الكاسكيين وعقد في ١٢٩٦ معاهدة مع رمسيس الثاني. كانت العلاقات مع آشوريا أقل حظا: احتل ملك هذه البلاد مناطق المجرى الأوسط للفرات، حيث كانت ميتاني، وطمع بان يعادل "الملك الأعظم" الحثيني؛ ورغب في أن يناديه حاتوسيل الثاني "يا أخ". رفض هذا. "نحن من أم واحدة؟" أجاب. لكن هذا الجواب لم يمنع طبعاً من توطيد آشوريا وأكحيواوا أيضاً. وفي نهاية القرن الثالث عشر؛ نشب عصيان عنيف في الأمصار الغربية وأفضى إلى انفصالها. وحوالي العام ١٢٠٠ قبل الميلاد، انهارت الإمبراطورية الحثية. وفي نفس الحقبة، احتل الأثينيون،

أحلاف الحثيين، مدينة طروادة. وهاجم هؤلاء وشعوب أخرى من "شعوب البحر" شواطئ مصر وأبحروا إلى فلسطين.

الحضارة الحثية

كانت الثقافة الحثية بالغة التنوع: يكفي القول: إن رعاياها كانوا يتكلمون عدة لغات وتستخدم نهجين من الكتابة: الحروف المسمارية المأخوذة من الساميين والهيروغليفية.

يؤمن الحثيون بعدد كبير من الآلهة، منهم ثلاثة معظمون بشكل فريد: الإلهة-الأم العظيمة، إله العاصفة وتليينو الذي بعث حيا كما تموز البابلي.

تروي الخرافة أن تليينو اختفى غاضبا على الآلهة والحيوانات والناس، وكونه يحسد قوى الطبيعة جلب غيابه البؤس والجوع (وهذه من بقايا العبادات القديمة لبطل التشكل الإنساني) بحثت الآلهة عن تليينو، لكن لا النسر ولاحتى إله العاصفة استطاعا العثور عليه. فقط النحلة، مرسله من الإلهة العظيمة، أدركته وأقنعتة بنسيان الغضب.

رغم بقايا العبادات القديمة، عبادة قوى الطبيعة، كان الدين الحثي، في مجمله، قوة ايدولوجية كبيرة تدافع عن الطبقة الحاكمة المالكة: فقد عثروا ليس بعيدا عن حاتوسا على منحوتة تمثل الإله يعانق الملك.

لقد خضع الدين الحثي إلى فنون الأديان والميثولوجيا الكوريت والسومرية-الأكادية. إذ قبل الحثيون التعبد لإله العاصفة الكوريتي تشوب ومجدوا ثيرانهم المقدسة؛ وتعبدوا أيضا عشتار، وسن وآلهة بابلية أخرى. وبدوره، أثر الدين الحثي بالميثولوجيا الإغريقية: فربما من هنا أتت عبادة أبولون الذي يحمي، حسب أسطورة حرب طروادة، الطرواديين من الأتثيين.

الأعمال الفنية التي وصلتنا في غالبها منحوتات حجرية. وجوه الآلهة ثقيلة وسلكنة، لكن المشاهد التي رسمها فنانون ليسوا عبيدا، معبرة وحية. إن منحوتة قرقيش ذات أهمية فريدة: فيها مشاهد عن المعارك، الحيوانات، وكائنات حيوانية خيالية. وجدت منحوتات أقدم قرب حاتوسا: حيوانات، أزهار رائعة، منقوشة بموهبة؛ وخنزير بري مخيف يهجم على صياد، ركبتة في الأرض، يصده بهدوء بقوسه، إلى جانب أيل يحني رأسه الخشبي نحو زهرة غريبة.

قليلة هي الأشياء التي نعرفها عن الأدب الحثي. كان الحثيون يكتبون بعامة على

ألواح خشبية، وأغلب موجودات مكتبة حاتوسا الضخمة فقدت. وبين النذر اليسير المتبقي نقرأ نصوصاً مستوحاة من الميثولوجيا؛ على ذلك، يعتبرها بعض العلماء تراجعاً لملاحم كوريت. السمة الأصلية لهذه الحكايا قحة الآلهة، البادية بخاصة في قصة كوماربي. كان كوماربي ملك الآلهة؛ لكن ثمة آخرون راغبون في انتزاع سلطته، فقرر خلق معين له يعتمد عليه. ولما كان أحد الشجعان يبغى الحصول على أم مناضلة شجاعة، تزوج كوماربي من صخرة أنجبت له ابناً سمي أوللكومو. خباه أبوه في صندوق حيث كبر بدون علم أحد. لكن الآلهة علمت بوجوده وخلصت إلى إغوائه وتضليله. والآلهة عشتار، المزدانة بأحلى الحلبي، تغني أمام الصخرة الجبارة. لكن جهدها ضاع، لأن أوللكومي كان بدون عينين ولا أذنين. بنست الآلهة ورمت حلبيها في الأرض. يرى بعض الباحثين أن خرافة كوماربي مارست أثرها على الأساطير الإغريقية، بخاصة على أسطورة كرونوس، أب زيوس *Zeus*.



كبير آلهة الحثيين، بصورة محارب

الفصل الخامس عشر

فينيقيا وفلسطين

أصل الدول الفينيقية

يعني اسم فينيقيا شريطاً رقيقاً ناعماً من الشاطئ السوري، يبدأ من صور حتى أوغاريت. وفي الشرق، تمتد سلسلة جبال لبنان المغطاة بالغابات الكثيفة. ثم تتقدم الجبال حتى الشاطئ وتسقط رأساً في البحر. الأراضي القابلة للزراعة ضيقة لكنها شديدة الخصب. في المنحدرات تتوفر المراعي. وفي العصور الغابرة، عرف هذا الشط أكثر من عشر مدن بحرية، كانت كل منها صاحبة للمنطقة المحيطة. اشتهر الفينيقيون بجرأة وإقدام بحارتهم ونشاط تجارهم.

هذه التسمية "فينيقيون"، التي اختارها المؤرخون الإغريق، اصطلاحية؛ لم يعرفها السكان الأصليون. كان جدودهم يسكنون حتى الألف الثالثة جنوب وغرب فلسطين. وكانوا عدة قبائل تتكلم لغات سامية. وفي الألف الثالثة بدأوا تقدمهم نحو الشمال، على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

بنت هذه القبائل على الشاطئ السوري أولى مساكنها، التي آلت إلى أوغاريت، جبيل (بيبلوس بالإغريقية) وصيدون. وفيما بعد يظهر مستقبل تسور *tsor* (بالإغريقي تير *tyr*) صور.

بداية، كانت هذه الأماكن قرى صيادين تجمعوا في مشاعات؛ لكنها سرعان ماتحولت إلى مدن، وصارت مراكز للمناطق حيث استقر المهاجرون بمشاعات الجوار. لقد ارتبط تحول مشاعات العشير إلى مشاعات جوار بولادة طبقات اجتماعية وتأسيس دول فينيقية. ليس لدينا أية معلومة دقيقة حول هذا التطور؛ تدعي الخرافة أن مؤسس وملك صيدون الأول هو كيريت *ke're't*، الذي امتلك جيشاً خاصاً به؛ وفي صيدون أقيمت معابد للآلهة القبائل.

نظرة في التاريخ السياسي للممالك الفينيقية

لم تتحد دول فينيقيا الصغيرة أبدا في دولة واحدة. بل عاش كل منها حياته السياسية. وعبر التاريخ، تميزت أربع ممالك: أوغاريت، جبيل، صيدون وصور، بغناها ومناعتها. قبل أن يغزو تحوتمس الثالث فلسطين وسوريا، كانت الممالك الفينيقية مستقلة. وكانت جبيل وأغاريت تشغلان المكانة الأهم.

كانت جبيل قد عقدت، منذ الألف الثالثة، ارتباطات تجارية مع مصر. وكانت أوغاريت قد صارت في نهاية الألف الثالثة مدينة هامة تتاجر مع مصر وكريت وفي النصف الأول من الألف الثالثة، ازدهرت أوغاريت، وكانت عامرة بالمعابد والقصور؛ يقطن التجار والسادة في بيوت من حجر فخمة الأثاث ومزودة بأقبيبة المؤونة والطبخ. وكان تجار كريت يسكنون حيا خاصا بهم؛ ويتاجرون أيضا مع قبرص.

في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، خضعت المدن الفينيقية ثلاثمائة سنة لمصر والحثيين الذين غزوا في النصف الأول من القرن الرابع عشر شمال سوريا، وألحقت مؤقتا أوغاريت وجبيل. ومنئذ وحتى نهاية الألف الثانية، تعيش فينيقيا عهد انحطاط، ناجم أولا بأول عن حروب مصر والحثيين، الجارية على أرضها، ثم "دخول شعوب البحر" الآتية من الجزر الإيجية.

في نهاية القرن الثالث عشر، سمح ضعف مصر وانحطاط الامبراطورية الحثيية لممالك الفينيقية أن تستعيد استقلالها. وفي تلك الحقبة كانت المكانة الأولى تخص صور التي، كونها واقعة في جزيرة، لم تعان كثيرا من ويلات الحروب والاعتداءات. كان عاھلها الأشهر حيرام الذي ملك في منتصف القرن العاشر. كان بإمرته أسطول تجاري ضخم يستغل نفوذه في أرجاء البحر الأبيض المتوسط؛ وسع حصن صور ليجعل منها قلعة منيعة الجانب، قاومت حملة الآشوريين.

دام هذا الاستقلال حتى نهاية القرن الثامن، يوم فقدت الممالك الفينيقية استقلالها إلى الأبد على يد الآشوريين.

النظام الاقتصادي، الاجتماعي والسياسي للممالك الفينيقية

إن الوثائق التي عثر عليها في أثناء التنقيب في أوغاريت، تميز بعض مظاهر النظام الاقتصادي والاجتماعي لهذه الدولة. كانت غالبية الناس يزرعون الحبوب والكرمة في

وادي العاصي الخصبة، وخلفه، في الصحراء، تمر حدود المملكة. وكانت الأرض تعطي مواسم وفيرة؛ وكان مايزيد يباع إلى تجار أوغاريت الأجانب. وكان الزراع يعيشون نظاماً مشاعياً. مشاعات الجوار تصدر من مشاعات العشير، وقد حافظ بعضها على اسمه القديم. كانوا يدفعون مرتبات إلى الملك ويزودونه باليد العاملة لأعماله. كان كل منها ملزماً بأن يعمل من ١٣ يوماً حتى شهرين سخرة، ويقدمون للجيش رماة الأقواس. وفي المنطقة الشاطئية، كانت تقيم مشاعات الصيادين الذين يجندون في الأسطول الملكي.

كانت رعايا أوغاريت مؤلفة من صناعيين، تجار، كهنة وكبار الموظفين؛ والكل عدا الصناعيين، يملك عبداً. ويحوز بعضهم كروماً متواضعة المساحة. فالعبودية تشكل خصيصة أليفة. وفي إحصاءات الوصيات أو عقود البيع، يذكر العبيد في خانة الدواب والمواد الثمينة كالبرونز والفضة. كان عدد العبيد قليلاً؛ والسيد الذي يفقد عبيدين أو ثلاثة يتعرض للافتقار فعلاً، لا بل للدمار. وكانت أراضي الملك مخدومة جيداً؛ والقصور تغص بالخدم، ويعمل عبيد آخرون في مراعي وكروم العاهل أو يجذفون على مراكبه. أكثر العبيد يشتري من السوق. تطورت العبودية بخاصة في صور، في الألف الأول. وكان ملوك صور يملكون تجارة بحرية رائجة ومقاتلين أشداء كفاء، ويهتم تجاره بمعاملة العبيد المخلوبين من حيث يوجد مستوطنات لصور.

منذ النصف الأول من الألف الثانية، تشكلت شريحة غفيرة من التجار في الممالك الفينيقية. كانت لا تعمل إلا بتجارة الوساطة. بين البضائع الكثيرة المصدرة، لنذكر كمادة منتجة في فينيقيا نفسها سوى القمح، الخمر، خشب لبنان المجفف؛ ماعدا ذلك يستورد من الخارج عيشى أو يبادل في بلاد ليباع أو يقايض في بلد آخر. وقد بقي الملوك، حتى أقول الدول الفينيقية، على رأس البائعين والشايعين. وفي الألف الثانية، كان تجار فينيقيا الأشهر في العالم؛ ولقد أشار ماركس^١ إلى دورهم الهام في التجارة.

من حيث النظام السياسي، كانت الممالك الفينيقية استبداديات صغيرة. نجهل بنية جهاز الدولة، لكننا نعرف جيداً أيديولوجية السلطة الملكية. كان ملوك فينيقيا يدعون الطبيعة الإلهية. فملوك صيدون، مثلاً، ينسبون ذريتهم إلى آلهة (كريت، الملك الخرافي، وصار

١ - ك. ماركس، رأس المال، الكتاب الأول، المجلد الأول، منشورات اجتماعية، باريس ١٩٥٠ ص ١٣٧/

ملاحظة ٣.

إلهاً)؛ ومؤسس جبيل كان يزعم الإله إل *EL*، وإله صور كان يسمى ملكارث ("ملك المدينة" بالفينيقية). ومنظمة العبادة الرسمية تتلاءم مع هذه الإيديولوجيا التيوقراطية: كان ملوك جبيل، أوغاريت، صور وصيدون في ذات الوقت كهنة الآلهة العليا لمنهم ويرأسون شخصياً الاحتفالات الطقسية الضخمة. لكنهم لم يكونوا مطلقي السلطة كما كان ملوك بابل وفراعنة مصر.

الظلم الاجتماعي الذي توطد منذ بزوغ الممالك التجارية والعبودية الغنية، وتطور العبودية أثارا اضطرابات ومكائد لم تتوقف، وكذلك ثورات في أوساط الأسر المالكة. وحدثت تشوشات في صور حوالي نهاية القرن التاسع، عندما دبرت أخت الملك مكيدة ضده. ليس لدينا معطيات حول حقوق العبيد، عدا لقصة بالغة الغموض حول عصيان نشب في صور في القرن الخامس قبل الميلاد، يوم كانت جزءاً من فارس.

. إبحار ومستوطنات

يعتبر الفينيقيون أجود بحارة العصور القديمة. وقد تطور العمل البحري بفعل الوضع البحري لكل هذه الممالك، التي يعيش سكان شطآنها من الصيد ويرحلون كثيراً في عباب البحر على متن مراكب خفيفة ذات مجاذيف. فمئذ الألف الثالث كان الفينيقيون يبحرون حتى مصر وحتى بحر إيجة. وفي الألف الثانية، وصلوا، في الغرب، إلى نوميديا وإيبيريا (اسبانيا). وكان بحارة صور أول من وصل مضيق جبل طارق، ولدى رؤية بحر بدون حدود، اعتقدوا أنهم في طرف الدنيا. وسما الصخرتين الضخمتين التي انتصبتا وجها لوجه أمامهم، على الشط الأوربي سوتا *Ceuta*، عمودي ملكارث، مفترضين أن الإله غرسهما هنا بيده بالذات من أجل تحديد الأرض. وفيما بعد، وبعد التحقق أن العالم لا ينتهي هنا، تجاوزوا جبل طارق عدة مرات. لكن هذه الفكرة المرتبطة بالمضيق عاشت وأخذها اليونان والرومان، وسموها عمودي هرقل.

في الألف الأولى قبل الميلاد، خرج الفينيقيون من البحر الأبيض المتوسط: وفي القرن السادس، سار البحار القرطاجي حانون على طول شواطئ إفريقيا الغربية حتى الكاميرون الحالية، ووصف رحلته في نص وصلنا مترجماً إلى الإغريقية.

أثناء بعثاتهم البحرية، أسس الفينيقيون مستوطنات، وعقدوا معاهدات تجارية مع سكان جزر البحر الأبيض المتوسط وجنوبه. لكننا نخطئ إن نحن اعتقدنا أن هؤلاء التجار كانوا

دوما مسالمين؛ فإذا ما أتت السانحة، يسارعون إلى نهب القبائل التي تسكن شواطئ أفريقيا، أسبانيا وآسيا الصغرى. وكانت التجارة متبادلة. حيث كانوا يقدرّون استقبال وباستمرار بضائع ثمينة وتأسيس مرافئ سهلة التناول، كان الفينيقيون يشيدون مستعمرات، تصير فيما بعد مدنا كبيرة. كان منها في جزر بحر إيجه ومضائق الدردنيل وأمكنة أخرى. حوالي العام ٨٠٠ قبل الميلاد بنيت أهم مدينة، قرطاجة "المدينة الجديدة" قرب تونس الحالية وسرعان ما صارت أروج مركز تجاري في غرب المتوسط.

لقد طور الإبحار البناء البحري في صور، صيدون وجبيل. وعمر أهالي صور أسطولا كاملا لملك آشوريا سناشرب. وجهزوا سفنا لسلطان فار التي صارت تجهز المدن الفينيقية لحروبها.

الحضارة الفينيقية

تدل المكتشفات في أوغاريت وجبيل أن الفينيقيين خلقوا حضارة أصيلة في كل المجالات: الدين، الكتابة، الآداب والفن.

إن الدين الفينيقي، ككل أديان الشرق القديم، يتميز بتعايش العبادة الرسمية والعبادة الشعبية، الزراعية. ولكل دولة آلهتها الرسمية: بعل وبعلات، سيد وسيدة المدينة أو المملكة. وفي جبيل، كان أدونيس واستارتيه؛ في أغاريت، آليين وأنيت؛ في صور، ملكارث (اسم "زوجته" غير معروف). وكان ثمة آلهة آخرون. ويلتقي دين الدولة ودين الشعب في نقطة: عبادة آلهة النبات والخصب. البعل والبعلات في كل مملكة موقران ليس فقط كحاميين للبلاد، بل كإلهين للخصب والنبات. وكانت تنسب هذه المقامات لأدونيس وأيضا لآليين، ملكارث، أستارتيه وأنيت. يعلن العيد الرئيس للتعبد في كل مكان بدء الأعمال الزراعية ويرتبط بأسطورة البعث وظهور إله النبات والخصب.

في دين الشعب، يخص المقام الأول العبادات الزراعية، الموقوفة على "آلهة الخير" لمطر، خصب التربة، الحرث والبذر، المواسم، الحصاد، القمح والخمرة. وحسب المثلوجيا الشعبية، "تول" هذه الآلة أو تظهر في أثناء فصل الأعمال الحقلية؛ ويعطي هذا "لاين البحر" آليين، موزع المطر، الذي يهطل فجأة قبل البذر وينتصر على إله الجفاف موت Mot. فالحرث والبذر، الحصاد وجمع الثمار تترافق مع طقوس سحرية تؤمن وفرتها تتم كل هذه الطقوس جماعيا في المشاعات.

كان الأدب الفينيقي يؤثر معالجة الموضوعات الاجتماعية الميثولوجية. فنصوص أوغاريت تصف موت آيين، نزوله إلى المملكة السفلى لموت *Mot*، بعثه وعودته إلى الأرض، مجيئه وبناء معبد لمجده. وعدا الشعر الميثولوجي، كان ثمة الأدب القصصي. فالتقيب في أوغاريت كشف لنا ملحمة كيريت، ملك صيدون الخرافي. وثمة أيضا أجزاء من حوليات صور تحكي على الأرجح قصة المدينة منذ القديم الغابر حتى الألف الأولى، ووصفا لملك صيدون الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. وأحد أهم نجاحات الحضارة الفينيقية هو إبداع الكتابة الأبجدية. وتطور الإبحار والتجارة أوجب كتابة مناسبة سهلة، أبسط من المسمارية والهيروغليفية. وفي الألف الثانية قبل الميلاد، تشكلت الكتابة الأبجدية كما يبدو بالموازاة في مختلف المدن: ففي الشمال، في أوغاريت، بنيت الكتابة على المسمارية، بينما أخذوا في النوبة نموذج الهيروغليف المصري الذي يبرز الصوت أو الرنة أو اللحن *lesoase*. واستخدمت الحروف الفينيقية بدورها في تأسيس الأبجدية الإغريقية، الآرامية، اللاتينية والروسية. وليس صدفة أن تشتق كلمة أبجدية ذاتها من كلمتين فينيقيتين: *aleph* (ثور) و *beth* (بيت)، أي *aleph beth* (ألفا بيت)، لتصير أخيرا *aleph* و *beta* باليونانية.

كان ينقص الأبجدية الفينيقية الشارات لتقديم الحروف الصوتية *voy elles*، المبدأ الموجود حتى اليوم في الكتابة العبرية والعربية.

لقد وجدوا في جيبيل وأغاريت نماذج عديدة من الفن الفينيقي، أنصاها ضخمة وصغيرة للآلهة، ومسلات وعليها منحوتات، وسلعا ذهبية، فضية، برونزية وخشبية، مشربيات بديكور أحمر. تعود هذه الأعمال إلى حقبة عديدة، من الألف الثالثة حتى منتصف الألف الأولى قبل الميلاد. وفي صيدون، وفي المعمرات الفينيقية في قبرص وغيرها، اكتشفت كمية من الأغراض العائدة للألف الأولى. وقد خلق الفنانون أسلوبا أصيلا، فينيقيا أو سوريا، مستقى من التقاليد المصرية والحثية-الكوريت. ومن أعمال الفن الفينيقي الرائعة هي منحوتات القبر الضخم لآحيرام، ملك جيبيل (القرن الثالث عشر-الثاني عشر)، مسلات أوغاريت التي تحمل صورة آيين، أوزانا من البرونز بشكل ثيران، صحنون فضية تبرز أسطورة أدونيس. كما مارس الفن الفينيقي نفوذا واسعا على شعوب سوريا وفلسطين، بخاصة الفن العبري.

قبائل اسرائيل وجودها وتغلغلها في شانآن Chanaan

لقد سمي الإغريق البلاد الواقعة في جنوب سوريا، فلسطين، استنادا إلى الفلستينس الذين كانوا يعيشون منذ القرن الثالث عشر على الشاطئ الجنوبي الشرقي للبحر المتوسط. وكان نهر الأردن الذي يجتاز البلاد من الشمال إلى الجنوب ويصب في البحر الميت. يقسم فلسطين إلى منطقتين متميزتين: غرب الوادي، الأراضي الخصبة، ووفرة النبات؛ والضفة الشرقية صخرية وجرداء. في الشمال، تنتصب ملتقيات لبنان الغربي الغابية؛ وفي الجنوب بحر الميت، تنبسط السهول التي تزهر في أثناء فصل الأمطار وتتحول إلى صحراء خلال فصل الجفاف.

في الألف الثانية قبل الميلاد، كانت فلسطين المسماة آنذ شانآن عامرة بالشانانيين، الذين يتكلمون لغة سامية، والكوريت. كانت هذه المناطق الخصبة تثير، منذ الألف الثالثة، اهتمام واشتياق المصريين أبان حكم فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، استعبدها كما استعبدوا فينيقيا. وفي نهاية الألف الثانية بعد غزوات "شعوب البحر" فقدت مصر فلسطين التي أضحت رهان الصراع بين مختلف القبائل.

آنذ تبدأ بالتغلغل في فلسطين، من خلف الأردن، قبائل عبرية متحدة تحت اسم اسرائيل. لم تكن هذه الحركة حملة عسكرية منظمة، بل تسال بطى للقبائل المنعزلة، التي، في بعض الحالات، كانت تبني أبناء البلد الأصليين أو تستعبدهم، وفي حالات أخرى، تقيم في أراض غير مأهولة، جنبا إلى جنب مع الشانانيين. وبعد الهجرة حافظت القبائل الاسرائيلية، وخاصة قبائل الجودا، والقبائل المجاورة، القاطنة في المنطقة شبه -الصحراوية في نوب فلسطين، حافظت على النظام العشيري لبعض الوقت. لكن أسلوب حياتهم الرعوي تحول، شيئا فشيئا، إلى الأسلوب الزراعي، الغالب في الشمال ومركز الشانآن منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وأمسيت القبائل المؤسسة على العشير مشاعات جوار، رغم بقاء بعض التقاليد القديمة، التي تؤثر على النظام الاجتماعي والسياسي للمهاجرين. ومع انتشارها على أرض واسعة وانتقالها إلى حياة الزراعة المقيمين، حافظت القبائل طويلا على أعرافها وعاداتها العشيرية الحضرية، العسكرية والدينية. مع ذلك، خلق تطور العبودية والامساواة المادية، منذ نهاية الألف الثانية، الشروط الاقتصادية لولادة الدولة.

في القرن الثاني عشر والحادي عشر، تغلغلت قبائل أخرى في شانآن. ساميون رحل

من شرق الأردن وصلوا من الشرق؛ وأبحر أحد "شعوب البحر" الفلسطينيين، إلى الغرب، على الشط الفلسطيني. وقف الاسرائيليون على رأس الغزة الآتين من الشرق بوسائلهم الخاصة. أما الفلسطينيين، دلوا أنهم رهيون. جيوش بسيف من حديد، احتلت الشط وبدأت غزو داخل البلاد: بنوا فيها ميادين محصنة (أهمها أشدود أو آزوت وغزة) وأسسوا عدة إمارات.

أسهمت الحرب ضد الفلسطينيين في توحيد القبائل الاسرائيلية في دولة واحدة. نفذ المحاولة الأولى قائد من القبيلة اسمه سول *Saül*، ما أن صار ملكا، حتى حارب الفلسطينيين. واشتركت القبائل الاسرائيلية في الجنوب (بما فيها يهودا) بالصراع. ولدى موت سول، عادت المعارك بقيادة مروض ومدرّب سول، دافيد، من قبيلة يهودا. وما أن استلم عرش يهودا، حتى وحد تحت سلطته القبائل الاسرائيلية من جنوب ووسط شأنان. عرفت هذه الدولة باسم مملكة اسرائيل أو يهودا. نجحوا في دحر الفلسطينيين وطردتهم من البلاد. وقد خلد هذا النصر سلطة دافيد (بداية القرن العاشر قبل الميلاد).

مملكة اسرائيل ويهوذا

بعد دحر الفلسطينيين، قام دافيد بعدة حملات في الشمال وبسط سلطته على القبائل الاسرائيلية في تلك المناطق. واختار عاصمة له مدينة القدس القديمة (أورشليم) وبنى مقام له في جبل صهيون، المحصن بحيث يستطيع "العرجان والعميان" الدفاع عنه. وهنا شيد لإله قبيلة يهودا يهوه معبدا بشكل خيمة، حسب عادة القبائل الراحلة.

خلف دافيد، الذي مات في بداية القرن العاشر قبل الميلاد، ولده سلومون الذي أنجز بناء القدس. كان سلومون، وكان ملكه سلميا، نموذج الاستبدادي للشرق القديم. يدفع له السكان الأتاوات الطبيعية. واستنادا إلى "كتب الملوك" وهي فصل من التوراة -كانت مملكة سلومون من خمس دوائر، تخضع كل منها فقط إلى التقسيم البلدي. على رأس كل دائرة، وضع العاهل حاكما مكلفا بحماية "الملك وبيته"، يعني الاسرة المالكة وحاشيتها، بإرسال الفرائض الطبيعية إلى القدس، المترتبة على منطقته. وكان موظف خاص مكلفا بإدارة الأعمال "لبيت الملك" المفروضة على كل "اسرائيلي". ثلاثون ألف رجل يؤدون أدوارهم بالسخرة. وهكذا بنى القصر الملكي ومعبد يهوه.

القصر والمعبد لا يدهشان بأبعادهما، لكن، استنادا للنصوص، كانا آية في الإبداع من

الداخل والخارج. ولقد بنى سلومون تحصينات وقلاعاً عديدة. والتتقيبات وضعت أيدينا على بقايا من تحصينات القدس والإصطبلات الملكية في مجيدو. وألزم الملك أيضاً السكان الأصليين، الشانآن، بالسخرة. وعقد عقوداً تجارية مع فينيقيا، مصر، سوريا، الجزيرة العربية، التي صدرت له الخيول، العبيد، الذهب، الفضة، الحجارة الثمينة، الزيوت العطرية ومواد البذخ الأخرى.

كانت ورشات سولمون الواسعة، وصيانة قصره، وبذخ حياته، تستند إلى العمل الإجباري وسلب رعاياه. فليس غريباً أن يكون الوضع في فلسطين في، نهاية حكمه، حرجاً جداً. وتفاقم الوضع أيضاً، الملك لم يكن يهتم بمصالح قبائل الشمال بل يولي ارسنقراطية يهودا كل رعايته. فتبدى الغضب بخاصة لدى ايفاريجيم، أكبر القبائل الإسرائيلية، وتمردت. كبح العصيان لكن تجدد الصراع بعد موت سولمون أفضى إلى قسمة الدولة إلى مملكتين: يهودا وإسرائيل (٩٣٥ قبل الميلاد).

لقد مزقت الصراعات الداخلية مملكة إسرائيل. وبعد ٥٠ عاماً من النزاعات، سقط العرش بيد قائد المليشيات الشعبية أومري (٨٩٠ قبل الميلاد). كان عهد أسرته الأكمع فسي تاريخ المملكة. شيد أومري على قمة شومرون عاصمة جديدة وقصراً منيفاً ومعبداً اكتشف بقية منه عند التتقيبات، وسمي شومرون (السامرة)، باسم الجبل. كان هذا المعامل وخلفاؤه على اتصال دائم مع فينيقياً وقادوا حملة مظفرة ضد ملوك سوريا في دمشق الذين كانوا يطمحون في إخضاع إسرائيل. إنما في الداخل، كان الوضع مضطرباً. فإلى عبء الأتاوات أضيف الجوع (الذي سبقه زمن طويل من الجفاف والقحط). ويتمرد الفلاحون، يبلغ الغليان الجيش، تقلب أسرة أومري وتبدأ المملكة بالانهيار. وفي القرن الثامن، تتتابع الحروب الداخلية، بينما يظهر عدو رهيب على الحدود: آشوريا. في ٧٢٢، بعد تصد إسرائيليين ياتس، يحتل الملك الآشوري صارغون السامرة ويدمرها. وهنا انتهت مملكة إسرائيل.

دامت مملكة يهودا أكثر من هذا. ففي القرنين التاسع والثامن، حاول ملوكها عدة مرات إعادة سلطتهم إلى الشمال. كانوا أضعف من أن يشنوا حرباً؛ لكنهم كانوا يحاولون تأريث متاعب هذه المملكة ويبتئون الدعايات الدينية، لكن عبثاً. وبعد سقوط ودمار سماره، حل الفقر في القدس: وانتظرها ذات المصير. حاصرت القوات الآشورية المدينة. لكن عدة منفرات أجبرت ملك آشوريا على رفع الحصار. وأكره حزقيا، ملك يهودا على دفع ضريبة ضخمة والاعتراف بتفوقه. وبعد هذا، استمرت المملكة بالحياة قرابة قرن ونصف.

النظام الاجتماعي والنضال الطبقي في إسرائيل ويهودا.

كان الاقتصاد الفلسطيني في النصف الأول من الألف الأول يرتكز على الزراعة وتربية الدواجن والطيور. كان هذا يهيمن في الجنوب، في الأقاليم السهلية والجبلية: كانوا يربون صغار الحيوانات، الماعز والغنم. وفي شمال يهودا وإسرائيل، كان يعيش الناس أساسا على زراعة الحبوب، الكرمة، الزيتون والتين. وكانت الأرض تحرق بسكة حديد، ويتم الحصاد بمناجل حديد: أدوات من حديد اكتشفت في هذه البقاع تعود للقرن التاسع عشر.

كانت المهن تتفرع من الزراعة: الحدادون، الفخارون، والنجارون صناعيون محترفون. وقد تسارع تطور الصناعة بتأثير المدن الفينيقية الأرقى حضارة.

كان تطور العلاقات الاجتماعية في فلسطين قد حدده واقع القبائل العبرية الرحل التي غرست في وسط اقتصادي واجتماعي جديد، حيث حازت الحرف والتجارة، الربا، والملكية تقاليد متينة، ولدت منذ زمن في المراكز الفينيقية والشانآن. فتكون مجال في المجتمع العبري لبروز ظاهرات متناقضة من جهة، بقايا نظام عشيري مستقر بكل وضوح؛ ومن جهة أخرى، كانت الملكية الخاصة، الربا، الفرق في الثروة، يتطور بسرعة.

كانت المشاعة هي الخلية الاجتماعية الأساسية : بداية ، يعني هذا التعبير المشاعة المؤسسة على العشير، لكنه ضم فيما بعد مشاعة الجوار. وكانت هذه تحافظ على بقايا هامة من نظام العشير: مجلس العشير، مقبرة العشير، الثأر، إلخ. يحكم المشاعة أحد الشيوخ (ناشي). وكانت مشاعة الجوار مبنية على الملكية التعاونية-الجماعية للأرض. فمنذ القرن الثامن قبل الميلاد، كان في يهودا مشاعات هيأت أرضا للزراعة تعاونيا ووزع محصولها بين الأعضاء. لكن الأرض، في أغلب الحالات، كانت على الأرجح تقسم إلى أسهم أو حصص فردية عن طريق القرعة؛ وكانت القسمة تتم في اجتماع عام يترافق مع طقوس نوعية. كان هذا أمرا عاديا يدل على إعادة توزيع الأرض دوريا. وكان لكل مشاعة معبدها وكاهنها. وكان أعضاؤها متعاقدين على التزامات عديدة: إنقاذ من يقع منهم عبدا لعجز وفاء الدين، معاقبة جماعية للجناة والتوسط بين القاتل والمنتمق لتجنب الثأر.

رغم بقايا نظام العشير، دفنت العدالة في المجتمع العبري في النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد. كان الأغنياء يملكون قطعانا غفيرة من الغنم، الماعز، الحمير، والعيبد من الجنسين وكل الأرزاق. وكانوا يبنون بيوتا من طابق واحد؛ والقبو للعيبد والعمام،

والأعلى لأسرة السيد، التي تتناول المرطبات، مساء، على سطح المنزل.
كان تشكل الملكية الفردية (المواشي، ثم الأرض) واسع الانتشار في فلسطين:
فالأرض المشاع كانت تنتقل إلى رؤساء الأسر الأبوية. وغياب نظام ري واسع تتطلب
إدارته وإعادته إلى الحياة تعاوناً بسيطاً، أفضى إلى تفكك المشاعة: يمكن بناء خزانات لمياه
المطر يعمل أفراد الأسرة وعبدهم الخاصين. وكانت الملكية الفردية واسعة التطور في
فلسطين بحيث لا يملك الملك نفسه حق مصادرة الأرض.

القد نجم عن تطور الملكية الخاصة الربل وسبب خراب بعض أعضاء المشاعة، الذي
تفاقم نتيجة الحروب والأثاوات الثقيلة. فيصير البؤساء الذين لا يستطيعون وفاء دينهم عبيد
دائنينهم. وكثيراً ما ترك المفلسون المشاعات ليعملوا أجراً، أو يلجؤون إلى الجبال، أو إلى
غابات ضفاف الأردن، هرباً من الدائنين، أو من "وكلاء الملك".

لم يكتف المزارعون بمقاومة سلبية. وفي ظل أسرة أومري، كان شعب إسرائيل
يتململ ضد الملوك وأصحاب الحظوة لديهم. كانت هذه التمردات ذات خصيصة دينية.
وكان الفلاحون الذين يأملون بالتبدل الاجتماعي، يبنون آمالهم على مجيء ملك عادل،
"مسيح حقيقي"، مسيح الله ورسول الله بالذات، يلغي نير العمل الثقيل وعصا الوكلاء-
المراقبين، من أجل توطيد السلام والعدالة. كان الناطقون باسمهم الأنبياء الذين يقودون
أحياناً الحركات الشعبية في القرنين التاسع والثامن (على ألا يخلطوا بينهم وبين الأنبياء
الذين يعملون في المعابد الملكية في القدس والسامرة كعملاء مخلصين للكهنة والملك).
كانت الحركات الشعبية تفضي أحياناً إلى تبديل الأسرة المالكة، لكن وضع الكاهنين لم يكن
يتبدل. وفي القرن الثامن تبدل الغضب إلى عصيان. أنبياء يرأسون "سقوط كل السروج"،
"المذبحة الكبرى" للعاطلين الذين يضطهدون الشعب: الإله نفسه حضر الهجوم الجديد، وبعد
قلب العامل الملحد وأتباعه، يلغى الملك، يهدم القصر الملكي وإلى الأبد؛ الشعب ذاته
سيصير ملكاً، تتوارى الفاقة والقحط، وتغمر المملكة الجديدة بالمسرة والخير الأبدي.

دون الوصول إلى ثورة اجتماعية، كانت الحركات الشعبية إنذاراً جدياً للأرستقراطية
المستعبدة. إذ اضطر الملوك لاتخاذ تدابير لتحسين وضع الفقراء. وسن قانون لتحديد
العبودية الناجمة عن الدين بست سنوات؛ ونشرت قرارات تهدف إلى الدفاع عن الأراذل
واليتامى، الذين كثروا في أيام الحرب، وحقوق المأجورين. وقانون العام "اليوبيلي" (الذي
أعد، لكنه لم يطبق أبداً، كما يبدو) كان ينبغي إعادة، بعد مدة معينة، الأرض المستلبة.

أقول نجم مملكة يهودا

بعد سقوط مملكة إسرائيل. أكره ملوك يهودا، كما قلنا آنفاً، على الاعتراف بتفوق ملك آشوريا. واضطروا أن يدفعوا له ضريبة باهظة وقعت كلها على عنق الفلاحين. أثارت هذه الاعتصابات الجديدة في منتصف القرن السابع تمرداً. قلب الشعب المتمرد الملك آمون. واستلم العرش أشعيا وهو في عامه الثامن؛ حكم أكثر من ثلاثين عاماً وكان آخر عاهل كبير في البلاد.

كانت الأمباطورية الآشورية في حالة انحطاط، في أيام الملك أشعيا، الأمر الذي مكنه من استعادة استقلال بلاده. وبعد هذا، حاول توطيد دولة الاستعباد، ومركزة الحكومة. وابتغى الإصلاح عام ٦٢١ قبل الميلاد بحرمان المشاعات استقلالها. ألغى الملك كل المهام القضائية، ووظف قضائه في كل مكان؛ وأرسل إلى كل المشاعات موظفين مكلفين بتجنيد الجنود. وأصدر قراراً بمنع تغيير الحدود، دفاعاً عن حقوق المالكين الفرديين ضد محاولات المشاعات لاستعادة الأراضي المستلبة. لكن الأمر الأهم للإصلاح مركزة العبادة في القدس. كانت العبادات المحلية محظورة، والمعابد الإقليمية مدمرة؛ وصار، من الآن، المعبد الوحيد الوطني هو معبد القدس. بهذا التدبير، وافق الملك من جهة على طمع كهنوت القدس في احتكار العبادة والبحث، من جهة أخرى، عن تحجيم خطر الحركات الشعبية، التي قادها أنبياء وكهنة معابد المشاعات وأرشدوها. وفي نفس الوقت، ألغى أشعيا من القدس العبادات الأجنبية التي أدخلها أسلافه وكل العبادات التقليدية، عدا عبادة يهوه، الذي صار إله يهودا الوحيد.

لكن محاولة التمرکز هذه لم تقدر أن تتخذ المملكة. فجيوشان الجماهير الشعبية تتابع، وعلاقاتهم مع الملك تفاقمت أكثر فأكثر. وفي نهاية القرن السابع، مشى فرعون مصر نيشايو إلى البلاد. خسر أشعيا المعركة. وسلم نيشايو العرش لابن أشعيا الأصغر وفرض عليه ضريبة ثقيلة. بعيد هذا، غزت قوات الملك البابلي نبوخذ نصر سوريا وفلسطين. وفي ٥٨٦ ق.م احتلت القدس ودمرت، أحرق معبدها واقتيد كل السكان عدا "الفقراء" (المزارعين)، أسرى إلى بابل. ولم تعد مملكة يهودا موجودة كدولة مستقلة.

حضارة إسرائيل ويهودا

لقد أثرت الثقافة التي خلفها الشعب الإسرائيلي مؤخراً على الحضارة الأوربية. فالدين الأكثر انتشاراً في أوربا، المسيحية، ولد في ظل الدين اليهودي الذي ماثله في عدة عوامل؛ ولقد استلهم الشعراء، الكتاب والفنانون الأوربيون موضوعاتهم ونماذجهم من الأدب

التوراتي (أي الإسرائيلي اليهودي).

دين إسرائيل ودين يهوه هما النتيجة ذاتها للبنية الاجتماعية الفينيقية (قبيلة وعشيرة)؛ تتضمن كلها عدة عناصر مشتركة. الإله الرئيس ليهودا كان يسمى يهوه، وإسرائيل شلدي *shaddai*، عدا هذه الآلهة، كانوا يعبدون شالم، إله السعادة، استرتيه، إلهة الخصب، وغيرهم. بداية، كان يهوه يجسد القوى الرهيبة للجبال الجرداء، وانتقل ليصير إله العاصفة والأمطار، المحمول فوق الغيوم. وفي أثناء سيطرة يهودا على إسرائيل ومجيء أسرة يهودا، تتلمذ يهوه على الكهنة في صف خلق العالم (السماء، الأرض، النبات، الحيوان، والإنسان)، حامى المملكة والملك. تقدم الميثولوجيا والخرافة يهوه قائداً، مستشاراً، القاضي والأب المغذي لشعبه، يعطي الخبز، الزيت والخمر، ويعاقب عند الحاجة. لقد حوفظ إذن حتى في المجتمع الطبقي على السمات النوعية لإله قبيلة يهودية.

كان الدين الشعبي ذا خصيصة زراعية واضحة. بين الآلهة العبرية الوطنية، كان أيضاً إله الشمس (شاميش)، الأرض المسماة أم الحياة، وإله القمح داغان *Dagan*. ولكل مشاعة أيضاً إلهها المحلي، بعل ("السيد")، الموزع المباشر للخبز، الزيت والخمر. وكانت الشعائر الشعبية موزعة حتى الأعمال الحقلية وتمارس في أثناء ثلاثة أعياد: أولاً حصاد الشعير، حصاد القمح، قطاف الثمار والإعداد للبذر. كان هذا الأخير هو العيد الأهم، يحتفى به في المشاعات بمناسبة انتهاء السنة الزراعية.

أدب إسرائيل ويهودا ثري جداً. فالأساطير العبرية تحدثت عن خلق العالم، عن الناس الأوائل وعن الطوفان؛ تذكر هذه إلهتها الأساطير البابلية، لكنها أقل إحياءً. والجنس الإنشائي يتضمن أعمالاً أصيلة أصالة مطلقة. في القرنين الثامن والتاسع أنشئ بالتوازي في يهودا وإسرائيل قصتان في أصل القبائل العبرية وتاريخها قبل تشكل المملكة. استوحتا الخرافات والتقاليد الشعبية ببساطة الأسلوب والوعي. ابتغى الكاتبان أموراً محددة: يسعى الكاتب اليهودي إلى إثبات أحقية قبائل يهودا بالمقام الأول، بينما يدعي الكاتب الإسرائيلي العكس. وتظهر في يهودا قصص ضخمة تمجد حياة دافيد وسلومون وتتصرهما. وفي قصر ملوك يهودا وإسرائيل كان يوجد مؤرخون يكتبون حوليات كل مملكة. ومنذ ظهور الأنبياء، بدأوا بجمع أقوالهم والخرافات التي تدور حولهم. وبعد سقوط مملكة يهودا، استخدمت هذه القصص أساساً لـ "كتب الأنبياء" في التوراة، أجودها من حيث الأدب والموقف الجدلي، هي قصص أشعيا *issais* وجرميا *je're'mie*. وعبادة يهوه تنسخ مجاًلاً للعديد من التراتيل والصلوات تسمى "مزامير". وبعد هذا، جمعت الأغاني والقصص

الشعبي. وأضمومة من أناشيد الزفاف، "نشيد الأناشيد"، اشتهرت في العالم قاطبة. الكتاب مجهولون أو مُفَلون؛ لاهوتيون يهود من نهاية الألف الأولى قبل الميلاد ينسبونها إلى عدة شخصيات تاريخية يهودية-إسرائيلية، قادة وأنبياء خرافيين. نخب هؤلاء اللاهوتيون وحوروا وبدلوا الأعمال الأنبية لأيام المملكة لتكون الفصول الرئيسية في التوراة (العهد القديم)، الذي يصير بعد هذا الكتاب المقدس لليهود والمسيحيين. ينسبون لموسى كل القوانين التي سنّها ونشرها الملوك وطقوس التضحية، السحر والعيد المقام في معبد القدس.

الصحراء العربية وسورية

في شرق وجنوب-شرق فنيقيا وفلسطين، كانت تمتد سهول مأهولة بمد جنين يتكلمون لغات سامية. ونظام العشير وحتى بقايا من عهد الأمومة استمرت حتى نهاية الألف الأولى قبل الميلاد. لكن في بعض المناطق تتشكل دول العبودية. وفي جنوب الصحراء العربية، ظهرت العبودية في حدود الألفين الثاني والأول؛ وتشكلت هنا عدة ممالك: دولة الميديين، السبئيين وسواهما. نظامها الاجتماعي والسياسي غير معروف جيدا؛ لكننا نعرف أن العرب أقاموا في الألف الأولى علاقات اقتصادية وسياسية مع دول الشرق-الأدنى، مع فلسطين خاصة: ففي القرن التاسع اشتركت قبائل عربية في صراع ملكي سوريا وفلسطين ضد آشوريا.

لقد عزز تدجين الجمل تطور التجارة مع فلسطين وميزوبوتاميا؛ وفي الوقت ذاته، كان تجار الصحراء العربية يتاجرون مع الهند وأفريقيا، فمنها يجلبون العطور.

حوالي نهاية الألف الثانية، تغلغت قبائل المدجنين الأراميين في سوريا، أثبتة من للصحراء العربية. دحروا الآشوريين وبنوا عدة دول صغيرة عبودية، كانت دمشق في المقدمة. وفي القرن التاسع شنت دمشق ضد الآشوريين صراعا ضاريا: وفي العام ٨٥٤ ق.م تنتصر القوات الدمشقية، الإسرائيلية والقبائل العربية في كركر على الجيوش الآشورية التي كانت قد دخلت سوريا. وتتشكل في شمال هذه البلاد إمارات خثية-أرامية.

لكن هذه القبائل المبعثرة، المتحاربة أبدا، لم تستطع المقاومة الطويلة للضغط البشوي الآشوري فسقطت في قبضتها في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد.

الفصل السادس عشر

آشوريا، أورارتو وبابل الكلدانية

آشوريا وأصل شعبها

سميت آشوريا منطقة شمال ميزوبوتاميا، الواقعة على مجرى دجلة الأوسط. في شمال العراق الحالي. بشروطها الطبيعية، تتميز آشوريا بوضوح عن ميزوبوتاميا- السفلى. يبتعد هنا دجلة عن الفرات مسافة تتراوح بين ٣٠٠-٤٠٠ كم، فيضانهما أضعف مما هو في بابل، وتتهل عملية الري هنا فقط من مياه دجلة، والآبار والمطر المجموع في خزانات خاصة. وفي الشرق، آشوريا محاطة بالجبال التي تتقدم حتى دجلة: وآشوريا، أول عاصمة للبلاد، ماكانت تبعد عن الجبال سوى أربعين كيلومترا ، وإلى الشمال، حيث انتقل تركز آشوريا في الألف الثانية، تتاخم الجبال ضفة النهر.

أثرت الطبيعة الجبلية للمنطقة الممتدة إلى شرق نهر دجلة، في الاقتصاد والتاريخ الاجتماعي والسياسي لآشوريا. لم تكن المشاعات الجبلية تقدر على العيش من الزراعة فقط. فتربية المواشي والطيور والقنص لعبا دورا هاما في وجودها. أخيرا، كانت أطراف الجبال تؤمن الخشب، الحجر والمعادن.

كان أقدم سكان الشرق-الأدنى على الأرجح هم الكوريت، أقرباء الأورارتيين، وفي الألف الثالثة، بدأ الأكاديون التغلغل في بقاع مجرى دجلة الأوسط. أسسوا فيه عدة محال سكنية، بها سميت آشور استنادا إلى القبيلة وإلهها. كانت آشور على دجلة، إلى شمال بابل بـ ٣٥٠ كم. وجدت فيها منحوتات ونقوش هامة. خاصة منحوتة لملك آشور شمشي-أداد، معاصر حمورابي، الذي يحكي عن إنشاء معبد يوقف لإله آشور. ومنذ الألف الثالثة، عقدت المدينة علاقات تجارية مع المنطقة المجاورة لكبادوسيا *Cappadoce*.

آشوريا في الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد

نحن لانعرف الشيء الكثير عن آشوريا الألف الثالثة. واستنادا إلى بعض الوثائق التي

وصلتنا، كان المجتمع الآشوري من نهاية الألف الثالثة وبعض قرون الألف الثانية مجتمعاً عبودياً. وسميت الدولة بـ"مشاعة آشور"؛ كان في رأسها إيشاكو، العامل الوارث الذي لم يفقد مشيخة القبيلة والعشير والذي لم يصر مستبداً شرقياً سوى في الحقبة التالية. استمرت حياة الناس في مشاعات، لكن مشاعات العشير كانت تتحول باستمرار إلى مشاعات جوار. كانت الارستقراطية العبودية التي ولدت في تلك الحقبة مؤلفة من العشائر القديمة والموظفين الملكيين الكبار الذين ظهروا بعد تشكل مملكة آشور. لم تتخلف جماعة التجار عن اللحاق بهم. فالتطور المبكر للتجارة الآشورية يعكس في أن ميزوبوتاميا-السفلى كانت محرومة من الطبقات المعدنية وتتلقى المعادن من آشوريا، من آسيا الصغرى ومن أرمينيا الحالية حيث يستخرج النحاس والفضة. كان الطريق إلى هذين المصرين يعبر آشوريا، الأمر الذي مكن ملوكها من استلام وساطة التجارة بالمعادن والأخشاب. نتج من هذا غنى سريع لأعيان المجتمع الآشوري ونمو حاد في مركزها، مدينة آشور. أسس التجار في كبادوسيا معمرات تجارية، تطلعنا وثائقها على اقتصاد وأخلاق التجار الآشوريين، سادة العبيد. كان هؤلاء قلة. وكان التجار يشترونهم من لولوبي *Loulloubi*، القبائل الفقيرة في سلسلة جبال زاغروس، حيث كان الأهل يضطرون لبيع أبنائهم مقابل القمح. كان العبيد يقومون بأعمال الخدمة. والتجار يختارون منهم رجالاً موثوقين يشرفون على البيت في أثناء رحيل رب البيت إلى كبادوسيا. وكان عبيد آخرون يعملون حمالين، بغالين وحراساً مسلحين للقوافل.

كان النظام السياسي لتلك الحقبة المسماة "آشوريا القديمة" انتقالياً بين دولة العبودية البدائية التي تقدم أيضاً سمات مشاعية، وبين الاستبدادية العبودية. وكانت سلطة عاهل آشور محدودة بمنظمة تعاونية عليا، تحمل أيضاً اسم "مشاعة آشور". لم يكن هذا المجلس يضم سوى "الكبار" بينما يعيش الشعب بعيداً عن الحكومة. وكان العاهل يحمل لقب "نائب الإله أنليل"؛ كان يرأس مجلس الكبار، يوجه الشؤون الدينية وطبعاً الحربية. العدالة، الخزينة والاقتصاد غير خاضعة للموظفين النوعيين. يشبه هذا النظام إذن من بعض الوجوه حكومة القلة في اليونان القديمة. ولم تتسع سلطة العاهل إلا بعد الفتوح الأولى، عندما لقب شامشي-أداد الأول بـ"ملك الكون".

في القرن السادس عشر انتقلت سلطة الشرق-الأدنى إلى ميتاني. إذ لم نتعرف على

النظام الداخلي لمناطق ميتاني الشرقية إلا عن طريق الوثائق المكتشفة في محلة نوزي لكوريت. وربما قامت علاقات مشابهة في آشوريا، المحكومة في منتصف الألف الثانية بحكام ميتاني. فهؤلاء، غير الراغبين في زيادة الضرائب وتنظيم السخرة للعاهل، كانوا يشغلون الشعب لمصلحتهم وينهبونه لجيوبهم وجيوب أتباعهم، بدعوى تغطية الأتاوات "النوعية". ونتيجة هذا الاستغلال الغاشم، منذ أواسط الألف الثانية؛ دمر العديد من مشلعات الكوريت: وكان المرابون يفيدون من الوضع لاستخدام الفلاحين واحتلال أراضيهم. ولما كانت التقاليد تمنع هذا، كانوا يلجأون إلى الحيل والخداع. إذ يصير المدينون المعسرون، حسب العادة، عبيداً وقتيين للدائنين. لكن القانون لم يحدد مدة هذا الاستعباد، فيدوم من ٦-٥٠ سنة، حسب الاتفاق المعقود بين المرابي والمدين، وبعد بدء المدة المحدودة يلزم الرجل المستعبد على الاعتراف باستعباده المؤبد. وكان المستغلون بنفس الطريقة يحتلون أرض ومرعى الحراث المدمرين أو المفلسين. والمحاكم المكونة من هؤلاء أنفسهم تشرع هذه "العقود وهذا الرضى" الباعى.

في القرن الخامس عشر استعادت آشوريا استقلالها وبدأت مرحلة الانطلاق، المسماة "مرحلة آشوريا الوسطى". ولقد تركت لنا وفرة من الوثائق التي تدل بكل أشكالها على العلاقات الاجتماعية والسياسية لذلك العهد. كان أساس المجتمع والدولة الآشورية النظام المشاعى، الذي تعيشه جمهرة الناس المزارعين. لم تكن المشاعات منسجمة مطلقاً، لأنها عدا الأعضاء البسطاء كانت تضم "كبار العائلات". وكانت كل أرض المشاعة محاطة بـ"رابطات أعيان الإقطاعيين" التي عقوبة من لا يحترمها أو يحاول تغييرها مائة عصا، وغرامة وشهر من "الأعمال الملكية"، أقصى وأقصى عقوبة حسب القانون الآشوري. وكانت أرض المشاعة مقسومة إلى أراض قابلة للزراعة وأراض احتياط. وهذه الأخيرة موزعة إلى حصص بالقرعة ويعاد توزيعها من حين لآخر. والحصص محاطة بإقطاعات صغيرة عقوبة الاعتداء عليها ٥٠ عصا، غرامة وشهر من "الأعمال الملكية". وكانت أرض المشاعة تخص حقاً وفعلاً المشاعة. لكن، برضى أعضائها، كان يمكن استلاب بعض الحصص، الأمر الذي صار فيما بعد أحد أسباب تفكك النظام المشاعى. المشاعات تدفع الضرائب -"حصة الملك"- دون حساب الخدمة العسكرية والسخرات: إدارة الأكنية والطرق، إشادة المعابد، القصور والصروح الأخرى. وكان الاستغلال المفروض من الملك

والعناصر الفنية في المشاعة نفسها، يفضي إلى خراب أعضائها بل المشاعات كلها . والتوسع السريع للأملاك الفردية. ففي آشوريا لتلك الحقبة، كان عدد المالكين العقاريين ومساحات أراضيهم أوسع مما كان في بابل. كان كثير من المالكين يحوزون بالفعل أراضي المدينين الذين "اختاروهم" فيصير شرطهم أقرب إلى العبودية..

في القرنين الرابع عشر والثالث قبل الميلاد، ظهرت أول شريعة آشورية تشرع وتخلد التطور العملي للملكية العقارية الخاصة. عقدت هذه القوانين القسمة غير العادلة للثروة. إذ يخصص الابن البكر بنصيبين من الميراث، يختار هو نصيبا عادلا ويتلقى الآخر بالقرعة. يقسم الباقي بالتساوي بين الأخوة الآخرين، أيا كان عددهم. ثم، تسلب عناصر الإفقار المتزايدة أبدا أرض ورزق المشاعات. والأخوة الصغار، الذين لا يكتفيهم نصيبهم، كانوا بعامه يبيعون أرضهم ويبحثون عن كسب حياتهم بسبل أخرى. من هذه الشرائع المعوزة، كان ملوك آشوريا يجندون الألوف من أجل حروبهم وفتوحهم. ولم تكن القسمة غير العادلة هي التدابير الوحيدة الملحوظة في القوانين الآشورية للدفاع عن الملكية العقارية الخاصة وتشجيعها. فمن يختصب حق التملك، كانت عقوبته أشد من تعويض الضرر وأقسى. فالأصول القضائية النوعية، التي تتدخل لتثبيت أعمال بيع الأرض والبيت، تدافع عن مصالح وحقوق الحائز.

بعد أن جند جيشا جرارا، شرع ملك آشوريا سلمنصر الأول في القرن الثالث عشر حملات استمرت في حكم ابنه توكولتي نورتا الأول. كانت المهمة الأساسية لسلمنصر السحق النهائي لميتاني، التي أضعفها الحثيون، ووقاية الحدود الآشورية من الإمبراطورية الحثية. نجح بهذا: دمرت ميتاني وبلغ الجيش الآشوري نهر الفرات. وسعت الحملات التالية تخوم البلاد إلى الغرب حتى كركميش، وإلى الشمال حتى بحيرة فان Van، وإلى الجنوب حتى بابل. حول توكولتي-نورتا، الراغب في تقليص النفوذ السياسي للنيل، حول العاصمة إلى مدينة جديدة، سماها "حصن توكولتي نورتا". كان هذا الانطلاق العسكري لآشوريا قصير العمر. إذ سقط توكولتي نورتا ضحية مكيدة؛ وبعد موته، عرفت البلاد عهد الانحطاط.

الدولة العسكرية الآشورية في الألف الأولى

في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، كانت آشوريا تخضع لتهديد الأراميين الذين

غزوا البلاد مرارا، نهبوا واستعبدوا الناس، ساقوا القطعان، دمروا وأحرقوا المدن والقرى. لجأ سكان الوديان إلى الجبال، وخوت المدن. ثم جاء عدو آخر. قبائل كانت تعيش في أرمينيا الحالية، حول بحيرة فان Van وإلى الشمال قليلا. الآشوريون يسمونهم أورارتيين (أورارتو).

في القرن العاشر قبل الميلاد، ضعف هجوم الآراميين على آشوريا. قسم من الغزاة استقر بين دجلة والفرات، واندمج بالتدريج وتوقفت الغارات. فعاد الآشوريون شيئا فشيئا إلى التخریب، وفي نهاية القرن العاشر تيسر لملوكها أن ينتقلوا إلى الهجوم على الأورارتيين، والآراميين وجبيلي الشرق. انتهى هذا الهجوم في بداية القرن التاسع بانتصارات أور -نذير- بل الثاني (٨٣٣-٨٥٩) ق.م أخضع الملوك الصغار الآراميين واقتاد آلاف الأسرى، الأمر الذي مكّنه من تنفيذ أعمال هائلة في كلج. بنى فيها قصرا منيفا مزدانا بالمنحوتات والزخارف، ومشاهد النصر، وشيد ميادين محصنة على حدود المملكة. ووضع آشور -نذير- بل أسسا لمستقبل آشوريا العسكري. وفي نهاية القرن التاسع، أضعفت آشوريا الاضطرابات الداخلية، الناجمة من كره الاستقرائية التي حاولت الانتقال من نهب الأرض المحتلة إلى ضمها نهائيا؛ أزهرهم في هذا الجنود البسطاء، أعضاء المشاعات، الذين يعانون من حرمان الأرض، لكن أصحاب الامتيازات وقادة الجيش الذين يبتلعون القسم الأكبر من الغنائم، ماكانوا يهتمون بتوطيد الفتوح بل يفضلون الغزو المتكرر لنفس البلاد، التي يدمرون كليا قواها المنتجة؛ فضلا عن هذا، حمل هجوم الأورارتيين (نهاية القرن التاسع -نهاية القرن الثامن) ضربة قاسية لآشوريا.

لم يستفد التوسع الآشوري إلا في أواسط القرن الثامن. فقد تبنى الملكان تيغلاث-فلازر الثالث (٧٤٥-٧٢٧) وسرعون الثاني (٧٢٢-٧٠٥) سياسة عدوانية أساسا. أعادوا تجهيز الجيش. وانطلاقا من تيغلاث-فلازر، ضمت القوات الآشورية محاربين ذوي رمح يقودون عربات تقرن زوجا من الأحصنة؛ وسلاح خيالة أضخم مرتين من وحدات العربات؛ وسلاح مشاة معزز، مسلح برماح ودروع؛ وسلاح مشاة خفيف، مؤلف من رماة سهام وأضخم مرتين من السلاح السابق. ووحدات خاصة تتلاءم مع النسف والتفجير والمدفعية، وأيضا وحدات حفر وبناء ضخمة، مؤلفة بشكل عام من العبيد، ومن مساجين الحرب السابقين. وفي أثناء القتال، تقيم هذه الوحدات المساعدة جسورا عائمة، تشق

الطرق، وتشييد معسكرات محصنة، وتحمل الأتقال، إلخ. وخلال حصار الميادين، تحفر الخنادق، ترمي المنجنيقات قذائفها لهدم الاستحكامات والأبراج؛ وأثناء الهجوم، يتسلقون السلالم المعدة مسبقا. وكانت العربات معروفة أيضا لدى الهكسوس والمصريين، لكن ملوك آشوريا كانوا أول من استخدم منهاجيا سلاح الخيالة. ثم تعلموا تعزيز فعل كل هذه الأسلحة؛ تبدأ المعركة بهجوم العربات، تتبعها المشاة، التي تهاجم صفوف الخصم المشتتة، المصدعة؛ ويطارد الفرسان العدو المتراجع أو المنهزم. ولقد أدخل سرغون تجديدا هاما في التجنيد: عدا الرجال الذين يؤدون الخدمة العسكرية الإلزامية، طوع مرتزقة، في البداية من الآشوريين، ثم من الأجانب.

ازداد مع الزمن عدد المتطوعين أو المرتزقة بشكل محسوس؛ واستخدم ملوك آشوريا هؤلاء المتطوعين في داخل البلاد.

لقد شن تيغلات-فلأزر الثالث وسرغون الثاني أقسى حروب الفتح. احتل الأول، قاهر القوات المتحالفة التابعة لملكي دمشق وإسرائيل، احتل كل سوريا. بما فيها دمشق. وألحق بابل نهائيا وسمي ملك بابل. وأخيرا، أنزل هزيمة منكرة بمملكة أورارتو، التي تكونت في القرن التاسع قبل الميلاد وصارت أنطلاقا من القرن الثامن عدو آشوريا الرئيس. ولقد خاض ملك أورارتو، أرغشتي (٧٨١-٧٦٠)، صراعا ضد عدو آشوريا وحقق نصرا على عاھلها. وصارت الحرب مع أورارتو المهمة العسكرية الأولى إذن لدى الملوك الآشوريين. كلف سرغون الثاني بحل هذا العبء. وبما أنه كان مطمئنا إلى الحدود السورية والفلسطينية، وكان قد دمر مملكة إسرائيل والإمارات الحثية-الآرامية التي بقيت في منطقة كركميش، وجه كل قواته إلى أورارتو. أضعف غزو سرغون هذه المملكة التي عاشت حتى القرن السادس قبل الميلاد، يوم أبادها الميديون.

لكن خلفاء سرغون لم يتابعوا حروب الغزو بشكل منهجي. بل جاهدوا للتمدد نحو الجنوب الغربي، لاحتلال مصر. سحق سنحريب مقاومة البابليين واستباح مدينتهم أو عاصمتهم؛ ساعدته في هذا مملكة يهودا؛ وبلغ خليفته أسارهدون في العام ٦٧١ مصر وهزمها. لكن هذا النصر كان عارضا، لأن الملك الآشوري لم يتمكن أن يترك في مصر حامية كافية؛ وبعد عشرين عاما، استعادت مصر استقلالها.

بعد أسارحدون، انصب النشاط العسكري لملوك آشوريا مبدئيا على توطيد نفوذهم

في البلدان المحتلة والخاضعة لدفع الضرائب. إذ كانوا مكرهين على إرسال التعزيزات لكبح التمردات العديدة وزيادة الأتاوات، مع الاحتفاظ بأفواج غفيرة في آشوريا ذاتها، بسبب الغليان المتسع أبدا في داخل البلاد.

النظام السياسي في الدولة العسكرية الآشورية

كانت آشوريا في قمة الاستبداد الشرقي، لكن تنظيمها يقدم بعض الخصائص.

كان الملك يستند أولا على الجيش والاستقرائية العسكرية. ولدى قدومه، قدم نفسه أولا إلى القوات وانتظر تأييدها. وكان ملوك آشوريا يعززون نفوذهم بإعلان الألوهية أو قداسة السلطة الملكية. لكن هذا كان يضعهم في علاقة متينة مع كهنة آشوريا، بابل والبلدان الأخرى المحتلة. وفرض عليهم أوسع الاهتمام بالمعابد، في آشوريا كما في بابل، وإعفاءها من الضرائب، من السخرة وحتى من القضاء الملكي. وأوسع الامتيازات أعطيت للمعابد والكهنوت في آشور وبابل.

تتلاءم إدارة مناطق الدولة مع شروط تجعل هذه المناطق متكاملة. وفي آشوريا بخاصة، كانت الإدارة تتبع تقاليد الحكومة الملكية في بلدان ميزوبوتاميا. وكانت الأراضي المحتلة تعيش في ظل أنظمة متباينة. والبقاع الكوريت، وهي الأقرب إلى آشوريا، كان لها حكامها. وكانت بابل تخضع أيضا لمشرفين يختارهم الملك من أهله وذويه، لكنها حافظت على شريعتها وعدالتها. وكانت مدن بابل، سيبار ونيبور تتمتع بوضع خاص فيما يتعلق بالضرائب. إنما تخضع البقاع البلدان المحتلة فيما وراء ميزوبوتاميا لمعاملة أخرى. ففي مملكة إسرائيل القديمة، مثلا، وفي بعض أقاليم سوريا أبيد السكان أونفوا، وحل محلهم معمرن آشوريون؛ وكانت الإدارة في يد حكام ملكيين. وفي مكان آخر، بخاصة في صور، صيدا، يهودا وفي بعض البقاع السورية، ترك الملوك الصغار والأمراء، الذين التزموا بدفع الضريبة، بتقديم الجنود وبالخضوع لكل الأوامر السلطانية.

كانت آشوريا ومناطق الإمبراطورية كافة مرتبطة أبدا بالبريد. ولتأمين هذه المواصلات والتنقلات العسكرية، شق الملوك طرقا مزودة بمحطات تفصل بينها مسافة منتظمة وكانوا يحاولون أيضا، لكن عبثا، مراقبة إدارة حكامهم. وكانت مستشارية القصر تتلقى شكاوى الظلم والعسف وسرقات نواب-الملك. لكن هذه الشكاوى نادرا ما حققت العدالة، وكانت السلطات المحلية، والحكام وأتباعهم، يعيشون على هواهم. وكانت المحصلة

هي المصدر الرئيس لدخول الموظفين الآشوريين من أكبرهم حتى أصغرهم. وكانت الشريحة العليا المدنية والعسكرية والمعابد تتلقى من الملك، أملاكا مع كل الاحتياجات والعبيد وإعفاءات من السخرة ومن الضرائب. وقد تضاعفت هذه العطاءات بخاصة مع مجيء آشور بانيبال.

الاقتصاد والمجتمع الآشوري في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد

في هذه الحقبة الزمنية، عرفت الحياة الاقتصادية في آشوريا تبدلات ضخمة، ناجمة ليس من نمو القوى المنتجة، إنما من الكميات الكبيرة من أسلاب الحرب والضرائب الثقيلة التي تدفعها رعايا البلاد المحتلة. الأمر الذي أدى إلى حدة تطور التجارة. أغنت الغنائم قادة الجيش، الكهنة، كبار الموظفين والجنود؛ كانت الضريبة، قبل أن تصل إلى خزينة الملك، تمر أيضا على أيدي العسكريين والموظفين الشرهة. وكان الجنود والمنفعون الآخرون يكسبون كثيرا من الحاجات الكمالية ويبيعونها في السوق. ويتشكل سوق مشابه في نينيف، التي صارت المركز الدائم الملكي منذ القرن الثامن. في ذلك الزمن كان يوجد هنا ("من" التجار أكثر مما يوجد من النجوم في السماء). وفتحوا أيضا سوقا لتجارة العبيد الذين كانوا أسرى حرب. كانت هذه الانطلاقة التجارية، الناجمة عن الانتصارات العسكرية، مؤقتة؛ وبدأ الانحطاط منذ توقفت الحملات المظفرة.

عدا التجار، كان يوجد شريحة استعبادية غنية ومتنفذة، مكونة من كهنة، من مدهنيين ومن موظفين محليين. وأصحاب الدور الأبرز هم الكهنة الذين يتلقون من الملك الأراضي الشاسعة، في آشوريا وفي البلدان الخاضعة. وكانت ملكية السادة العقارية تتضخم أيضا، وبخاصة عن طريق الهبات التي يمنحهم إياها السلطان مكافأة لخدماتهم. وتترافق أعمال المنح غالبا بوثائق تعفو الحقل من الضريبة والسيد من الخدمة العسكرية وأعمال البناء. وكما الأمر في أيام آشوريا الوسطى، كانت هذه الشريحة تستغل ليس العبيد فقط، إنما الحراث المستخدمين أيضا والسكان المنفيين من البلاد الملحقة. تمتاز آشوريا القرن الثامن بزيادة سريعة لعدد العبيد. فعشرات آلاف الأسرى الذين يسوقهم الملوك المنتصرون كانوا يسقطون في جحيم العبودية. أغلبهم يعمل لدى الملك والمعابد. ففي قصر سرغون على الأقل ٣-٤ آلاف عبد.

آلاف العبيد يخدمون في الجيش، يشقون الطرق ويمهدونها، يحفرون القنوات، يبنون

صروح نينيف العملاقة، إنها العاصمة الجديدة. وكثير من هذه الصروح يخص المعابد؛ وبعض الأفراد الأعيان أيضا يحظون بالدور الفخمة. يباع العبيد جماعات من ١٠-٢٠، وبعمامة، تباع الأسرة كلها. ومنتوج عملهم يتسع بشكل ملفت. بهذا الصدد، يدنو العبد الآشوري لتلك الحقبة من النموذج الإغريقي-الروماني. كان اتساع الاستعباد مؤقتا ليُلغى بسقوط الامبراطورية. لكن العبودية فعلت فعلها في هذه الكارثة.

أثارت الظواهر الواردة أعلاه انحطاط النظام المشاعي. تنقلص المشاعات، تنقصد استقلالها، تسقط تحت وزر الوكلاء الذين يسميهم الملك أو الحكام، ويبادل أعضاؤها بالضريبة غير المؤداة وعدم تنفيذ السخرة. مع ذلك استمرت وشائجهم في المشاعة بشكل رئيس للإفادة المشتركة من المياه.

كان العدد الإجمالي لأعضاء المشاعات الأحرار أقل بوضوح من عدد الحراثين المستخدمين والعبيد من مختلف الشرائح.

سقوط آشوريا

كان فتح مصر آخر نصر عسكري يحققه الآشوريون بقيادة أسارحدون. وفي أيام ابنه أصور بنبال (منتصف القرن السابع)، تصدع نفوذ الدولة بسرعة ثم انهارت كلها، وقد ألغمتها الأزمة الداخلية وانتفاضات الشعوب الملحقة.

إن اتساع العبودية لم يقلل من إثارة الصراع الطبقي. فعدم توفر إعلام مباشر عن عصيانات العبيد، لايلغى اطلاعنا على انتشار عادة تقييد العبيد المتمردين بالحديد. وكانت الشعوب الملحقة وأعضاء المشاعات الأصليون يتمردون أيضاً. وفي أيام أصور بنيبال، قادت عبدة انتفاضة أرامية. وليس من شك أن الفلاحين الآشوريين، الذين دمرهم التجنيد، والعمل الشاق والأتاوات، كانوا ينتفضون، هم أيضاً. وفي الوقت ذاته، ضعف السند العسكري للعاهل.. فتوقف الحملات العسكرية أوقف فيض الأسلاب، وتمردات الشعوب الملحقة المستمرة هددت زيادة الضرائب. فنضب باب الإنفاق على المتطوعين؛ ولم تعد القوات المؤلفة من آشوريين موثوقة.

في هذه الظروف، كان أول نزاع خارجي يمكن أن يكون نذير انهيار. أتت هذه الساعة في نهاية القرن السابع قبل الميلاد. آنذ، تأسست في إيران مملكة الميديين، على حدود الآشوريين. عقد ملك ميديا سياخار Cyaxare مع الأمير الكلداني نبوبولسار

الذي كان قد احتل بابل. واحتلت قواهما المتحالفة نينيف في العام ٦١٢ وأبادت فلول الجيش الآشوري في العام ٦٠٥ في كركمش. وانتقلت آشوريا إلى سلطة ملك الميديين، بينما تأسست أسرة نبوبولسار الكلداني في بابل.

الحضارة الآشورية

إن نواة الشعب الآشوري كونه من أصل أكادي، كانت كتابية، دين وأدب آشوريا تكرر أو اشتقاقا خفيفا من العناصر البابلية. والسمات الأصيلة لا تظهر إلا في الفنون التشكيلية، في أوج ازدهار الامبراطورية.

الآلهة هم أنفسهم آلهة بابل. لكن السمة النوعية لمجمع الارباب الآشوري هو تفوق الإله السابق لقبيلة آشور. كانت مهامه الأولية كآب وحامي القبيلة زراعية، ومن ثم يصير إله الحرب والنصر. وفي أثناء الحملة تحمل رايات لمثاله أو رسمه؛ أثنى نصيب من الغنائم تذهب إلى معابده. وكان الموظفون العسكريون أيضا ينسبون لعشتار، ربة الخصب، التي كانت عبادتها قديمة جدا وشعبية.

ويقوم الكهنة الآشوريون الطقوس المعروفة في بابل. آشور بانينبال يجمع في قصره بنينيف كل الأعمال الأدبية البابلية. منها قصيدة "المجد لله في العلى...، الأناشيد والنصوص السحرية البابلية. في العبادة، لاشيء خاص بالآشوريين إلا استئزال المطر وأناشيد آشور. كان فرع أدبي خاص، الحوليات الملكية وتطور جدا في آشوريا. والملوك المنتصرون يصرون على تأييد ذكرى انتصاراتهم بنقوش صخرية حيث دارت المعارك وتمت الغزوات، ويصفون مآثرهم على جدران وأبواب القصور وعلى الآثار التذكارية.

إن هذه النصوص المكتوبة بأسلوب فخم تمجيدي، بصيغ وعبارات مقدسة، هي بالنسبة لنا المصدر الرئيس لتاريخ الدولة العسكري الآشوري.

لقد بدأ ملوك القرنين التاسع والثامن بناء القصور المنيفة، التي عثر على أطلالها في أثناء الحفريات. إنها قصور كالاح ونينيف، وسرعون في دورشاروكين، إلى شمال نينيف بـ ٢٥ كم. لا يوجد منها اليوم سوى الخرائب التي تعطي مع ذلك فكرة عن عظمتها وروعها. والأعمال الفنية التي تزينها باقية أيضا. أبدعها تماثيل الملوك والثيران الضخمة المجنحة، عفاريت حراس الأبواب.

كشفوا أيضا منحوتات تمثل حياة السلاطين في زمن الحرب والسلام، مع حدائقهم

وغدرانهم، ونسائهم، وأقربائهم وعبيدهم. تشكل هذه النقوش والمنحوتات عنصرا أصيلا في الفن الآشوري. فالحيوانات هنا تضيح بها الحياة.

مملكة أورارتو

كانت القبائل الأورارتية تعيش في الطرف الشرقي من آسيا الصغرى، في منطقة بحيرة فان Van المالحة. طبيعة أورارتو شديدة التنوع. الهضبة العليا لأرمينيا مفصولة عن آسيا الوسطى بالفراة؛ في الشرق تمتد سلسلة جبال زاغروس، وفي الغرب التورس الأرمني. الأرض الخصبة والقابلة للزراعة غير متوفرة إلا في الوديان والسهول. كانت الجبال غنية بالحديد، النحاس وحجارة البناء؛ وغابات ومراع جبلية تغطي منحدراتها.

إنها شروط ملائمة بخاصة لتربية المواشي والطيور والصناعة. ولقد بلغوا في هذا المضمار شأوا بعيدا من الارتقاء، بخاصة صناعة الأدوات البرونزية والحديد. والزراعة، التي تحتم الري الاصطناعي، لم تتطور إلا بمقدار ما يهيء الأورارتيون شبكتهم المعقدة.

ذكرت قبائل أورارتو لأول مرة في نقوشات ملك آشوريا سلمانصر الأول، حوالي بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد؛ ثمة قضية اتحاد قبلي مسمى أورارتو ومكون من ثماني "بلدان" صغيرة. احتلها سلماناصر، دمر وأحرق محالها، أخذ الأسرى وحولهم إلى عبيد. وفرض على من بقي من الناس دفع ضريبة ثقيلة. وفي القرن الثاني عشر، اختفى ذكر أورارتو من المنقوشات، التي تتحدث مع ذلك عن عدة غزوات في بلدان نيري Nairi، واقعة حول بحيرة فان. كانت القبائل الملحقة تنتفض باستمرار، ويرد ملوك آشوريا بالنار والحديد.

في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، نشأت عدة دول -هوبوشيكيا، موساسير وغيرها- في منطقة بحيرة فان. إحداها أورارتو، عاصمتها ترووشبا واقعة على ضفاف البحيرة. تكال نضال هذه الدولة ضد آشوريا في القرن التاسع بتشكيل مملكة للأورارتيين وحدهم.

والاتحاد، البياديء بشاردورس الأول، ملك ترووشبا، أول من سمي "ملك الجماهير *roi des multitudes*" متلقيا الضربة من "كل الملوك"، انتهى بحفيده مينوا، الذي خلف لنا ١٠١ نقشا مسماريا ٣١٠ منها تحكي عن بناء قلاع على تخوم ترووشبا وفي الشمال، وكذلك القصور والمعابد و١٩ تخص حفر القنوات.

بسط ملوك أورارتو شيئا فشيئا حدودهم نحو الشرق والجنوب. وتغلغل الأورارتيون

في شرق القفقاس، في مناطق المجاري العليا لكورا وآراكس. وأقاموا حكاما يديرون البلاد المغزوة ويجنون منها الأتاوات.

بدأت أعمال ضخمة في المملكة. وبنيت حصون؛ وقد صار حصن أرجشكنيلي على جرف نهر آراكس، في أرمينيا الحالية، المبني في ملك أرجشتي، خليفة مينوا، صار المركز العسكري والإداري لملوك أورارتو في شرق القفقاس وميدانهم لفتوحات جديدة. كانت المدينة ذات أسوار منيعة من البازلت، مازال بقاياها بادية حتى اليوم.

بلغت أورارتو مجدها الأعظم في النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد، في ملك أرجشتي الأول (٧٨١-٧٦٠) وشارودوش الثاني (٧٦٠-٧٣٠). شن أرجشتي عدة حملات إلى الشرق، هزم آشوريا، وطد نفوذه في شرق القفقاس، في منطقة بحيرة سيفان *Se'van*. تطلعنا منحوتة ضخمة اسمها حوليات كحوركحور *Khorkhor*، على ضخرة فان *Van*، على كل حملاته. كان في أورارتو آنذ عدد غير من الأسرى الذين ألوا إلى العبودية.

اقتصاد ومجتمع أورارتو

إن الوثائق التي وصلتنا عن مجتمع أورارتو هي حوليات حرب أو منقوشات تتحدث عن الأعمال. والنصوص التي تميز النظام الداخلي لاتحوي أبدا معلومات حول العلاقات الاجتماعية والاقتصادية.

كما نعلم، كان مجتمع أورارتو عبوديا، على رأس الدولة الملك الذي يستند إلى نبلاء الدم. والأرستقراطية العسكرية، المغتنية بالحرب ومالكة أوسع الأملاك، كانت قوية جدا. وعلى أرض الملك، والمعابد والنبلاء، تحرث المروج وتغرس الكروم. ولسقايتها أقيم عدد كبير من البحيرات الاصطناعية وشبكة ضخمة من القنوات توفر الماء للحقول، للقرى وإلى حصون الجبل. كان تشييد هذه المنشآت ضرورة فرضها إقليم أورارتو الذي كان بالغ القحط.

كانت تربية المواشي والطيور متطورة جدا. ظهرت في هضبة أرمينيا منذ العصر الحجري الحديث، ولم تفقد دورها الهام في العصور التالية. كان شيوخ القبائل، ثم الملوك، المعابد والسادة يملكون قطعانا وقطعانا من الأبقار والمواشي الصغيرة ذات القرون والأحصنة. في الصيف، ترعى المواشي في الجبل، يحرسها الرعاة والجنود.

كان اقتصاد الملوك وأعيان الكهنوت والعلمانيين عبوديا. كان العبيد كثر، لأن كل

حملة ملكية تأتي بالآلاف الأسرى؛ هكذا، في أثناء حروب شرق القفقاس، أسر أرجشتي أكثر من ١٨٠٠٠ إنسان. كان شغل العبيد يقتصر في الأرجح على حراثة المراعي وغرس الكروم وحراسة القطعان. وكانوا يكلفونهم أيضا ببناء الحصون وحفر القنوات أحيانا. كانت رعايا الملك الريفية تعيش، حسب الأقاليم، من الزراعة وتربية الأنعام؛ وكانت قطعاً ملتزمة بالأتاوات والسخرة المعتادة في بلدان الشرق. المؤسف أن النقوش الأورارتية المكتشفة حتى الآن لا تعطي أية معلومة حول هذا الموضوع.

لم يكن ثمة أية مدينة بمعنى الكلمة الواسع، تكون مراكز تجارة وصناعة. وكانت المهن الريفية متطورة في الضواحي الواسعة. ورشات ضخمة تخدم الملك والمعابد. وإنتاجهم، بخاصة الآيات الفنية، تنتشر على طريق التجار، ليس فقط في أورارتو، بل في الخارج.

لقد عرفنا المواطن الأورارتية بفضل التنقيبات التي قام بها ب. بترفوسكي ليس بعيداً عن إيريفان، على هضبة كرمير-بلور حيث دفنت قلعة تشبايني. كانت مؤلفة من حصن يضم قصر الحاكم ومتطلباته العديدة، من الورشات والمخازن، وسواها. يحيطها جمع من المساكن الصغيرة لا يملك سكانها ماشية ولا استثمار زراعية: هم على الأرجح جنود أو صناعيون يتلقون معاشهم اليومي من أهراء الدولة.

سقوط أورارتو

لما كان سقوط آشوريا يتسع في أيام ملك تغلاش-فلاसार الثالث، في القرن الثامن قبل الميلاد، كانت أركان أورارتو ترتج بعنف. لكن الحروب الطويلة ضد آشوريا، انتهت في ٧٤٣ بهزيمة قوات شاردورس الثاني الذي اضطر أن يطوي رايته ويتراجع على أبواب نهر الفرات. وبعد موته، عمت الاضطرابات وانفصلت بعض المناطق الملحقة عن أورارتو. لكن الضربة القاصمة أتت في العام ٧١٤ من ملك آشوريا سرغون، الذي سحق الجيش الأورارتي. وتجدد أورارتو قواتها في بداية القرن السابع، عندما نجح الملك روزاس في عقد تحالف مع السومريين، الآتين من الشمال في القرن الثامن من شرق القفقاس والشرق الأدنى. ويشن الأورارتيون المتحالفون مع السومريين حرباً مظفرة في آسيا الصغرى. ويبدأ روزاس الثاني أيضاً أعمالاً ضخمة؛ ففي أيام ملكه بنيت، بخاصة، قلعة تشبايني. وكانت العلاقات مع آشوريا مسالمة: من المعروف أن روزاس الثاني وأشور نبال تبادلوا السفراء.

لم يعط التاريخ معطيات محدودة حول سقوط مملكة أورارتو. معروف فقط أنها تعرضت في بداية القرن السابع لهجوم عاصف من السيث *Seythes*: كشفت تنقيبات تشبيلني آثار دمارها على يد السيث في بداية القرن السادس. وفي القرن السادس أباد الميديون أورارتو. وبعد زوال مملكة أورارتو، انتقلت السيادة على أرضها لبعض الوقت إلى قبيلة أرمنية، وبالتالي أخذت البلاد كلها اسم أرمنيا. وشكل اختلاط سكان أورارتو الأصليين مع القبائل الآتية فيما بعد، في أثناء قرون، الجنسية الأرمنية. وهكذا في القرن الثاني قبل الميلاد ولدت المملكة الأرمنية.

الحضارة الأورارتية

إن ثقافة أورارتو أحد روافد الحضارة الآشورية. فمن هذه الأخيرة استقى الأورارتيون الكتابة المسمارية، بعد تبسيطها وإتقانها بعض الشيء. وأعمال الفن التشكيلي التي وصلتنا تشهد على قوة التأثير الآشوري حتى أن علماء الآثار كانوا ينسبون بداية لآشوريا منحوتات أورارتية أصلا. فالمواد البرونزية كانت تتم في الورشات الملكية حسب أسلوب أصيل، لكن الديكور يتم حسب النماذج الآشورية. ويبن أجود نماذج الفن الأورارتي، نذكر من عرش: قدم تحمل صورة إله مجنح، وثيران مجنحة وكان ثمة أيضا قناديل رائعة من البرونز. وكان الصحن مزدانا بصور نساء مجنحة؛ وكشفوا تماثيل للإلهات قاعدات. وتؤكد الأغراض الفخارية المعية تضاهي هذا. وتشهد أطلال القلاع الحجرية على مهارة البناء. والآثار الأروع معماريا هي حصون ضواحي إيريفان، المنتصبة فوق تلال كرمير-بلور وأرين-بيرد، وقلعة تورشبا.

كان على رأس آلهة دين الدولة الإله الأعظم هالديا، وإله الحرب تيشيبا وإله الشمس شيفيني. وتبدأ النقوش الكتابية بعامة بخطاب للإله هالديا، وكان الملوك يقدمون له حسابا عن انتصاراتهم العسكرية. كان هالديا بالتأكيد إله أورارتي الأصل، تعبد إحدى قبائل المملكة الأولى. وتيشيبا، الذي يشبه اسمه اسم تيشوب، إله الحثيين والكوريت، أقرب جوار أورارتو الغربيين، كان أيضا إله الصواعق والعواصف. وشيفيني هو الإله-الشمس التقليدي. عدا هؤلاء الآلهة الثلاثة الكبار، كان في البانتيون الرسمي قرابة عشرين غيرهم، أقل أهمية، ويعطى المقام الأول بينهم لآلهة شفعاء المشاعات. من المؤكد أن بعض الأساطير قدستهم، لكن العلم لم يعثر على أي منها. أما دين أورارتو الشعبي غير معروف جيدا. ثمة معطيات حول وجود عبادة للحيوانات والأشجار. فعبادة الشجرة المقدسة خاصة بالدين الرسمي: كثيرا مارسوا على الأختام الأورارتية شجرة ما وكان أحد هذه الأختام يمثل احتفالا بالشجرة.

كالديا أو امبراطورية بابل الجديدة

بعد ثلاثمائة عام من السيطرة الآشورية، استعادت بابل استقلالها في العام ٦٢٦ ق.م، في أيام ملك خالديا نبوبولسر. دامت الإمبراطورية التي أسسها حوالي ٩٠ عاماً، حتى احتلها الفرس في العام ٥٣٨.

القبائل الكالدية، وأصلها من الجزيرة العربية، تبدأ بالتغلغل في بابل في القرن ١٢ وتمتد في مشاعات عشيرية، يتحول بعضها إلى مشاعات جوار. لم ينجز هذا التطور في أثناء تأسيس الامبراطورية الكالدية، لأن وثائق زمن ملوك آشوريا أساحدون وأشور بنبال تثبت وجود هذين النوعين من المشاعات. وكان ممثلو النبلاء القبليون مؤتمنين في القصر وفي جيش الملوك الكالديين. ويلاحظ أيضاً في بابل، طيلة هذه الحقبة اختلاط بين عناصر مقيمة وأخرى راحلة، وهي سلالات القبائل المؤسسة على العشير.

كان الملوك يستندون إلى مشاعات الكالديين التي كانت لهم احتياطاً لقوات مسلحة وتشكل جمهرة المكلفين. وفي الوقت ذاته، كانوا يبحثون عن مساندة كهنة بابل الذين يتمتعون بنفوذ كبير بين سكان مدينة بابل. وقد وجدت سلاطين كالديا، غير الراضيين عن تجديد وتزيين المعابد التي كانت موجودة لدى قدامهم، جددوا عبادة كثير من الآلهة المنسيين. وساندتهم الكهنة، لأنهم مثل المرابين العلمانيين، كانوا واسعي الثروة في أيام الدولة العسكرية الآشورية، وكانوا يأملون، منذ سقوط آشوريا، أن يروا عودة دولة مماثلة في ظل الملوك الكالديين. كان "بيت" اجيبي آننذ، في طليعة ممثلي رأس المال المرابي؛ ولا بد من الاعتقاد أن "بيتاً كبيراً" آخر قد أسس آننذ للربى، هو بيت موراشو، في نيبور، الذي أرخت وثائقه المحفوظة حتى أيامنا في زمن لاحق. كان يدير العمليات المالية "البيت" رب الأسرة. وكما في الماضي، كانت العقود تهتم أولاً بالقمح. لكن المرابين كانوا يحوزون أيضاً أراض، حقولاً ومراعي مؤجرة للزراعة. وكانت أصابعهم الجشعة تعري أعضاء المشاعات وكذلك كان يفعل الجند. وكانوا يستخدمون كثيراً كمصدر للربح القنوات الملكية التي يستأجروها ويحملون تبعة تمتعهم بها في المحال المجاورة.

إن خصيصة العبودية في بابل، في العهد الكالدي، بقيت تقريباً كما هي في القرنين الثالث والثاني؛ كانت العبودية أساساً خدمية والاستعباد بسبب الديون كان عارضاً، والفرق الوحيد هو في أن مدتها الشرعية ثلاث سنوات لم تكن تحترم دوماً وتستمر عقوبة المدينين

المعسرين حتى عشر سنوات في خدمة دائنيهم. ولاتلحظ التبدلات إلا فيما يخص عدد العبيد وطريقة استغلالهم. فقد وسعت حروب الفتوح التي شنها الملوك الكالديون عدد العبيد كثيراً وبسرعة كما الأمر في آشوريا. كان العبيد، هنا أيضاً، يعملون في الأملاك الملكية، في تشييد القصور والمعابد. وفي الاقتصاد الفردي، وجد مبدأ جديد: سمح للسادة بتشغيل العبيد لمصلحتهم الخاصة (بعمالة في الصناعة والزراعة)، بشرط أن يدفعوا لهم كل سنة تعويضاً سمي "mandattou". إليكم إجراءات العمل في الصناعة: يعلم المراهبي عبده مهنة ما ويعينه في فتح ورشة، على أن يصرف له سنوياً "تعويضاً" نقدياً. وهكذا قد يغتني العبيد العائشون من هذا الأسلوب ويصيرون أحياناً مراهبين بدورهم ويحوزون إمكانية التحرر. يدعي مستشرقون بورجوازيون أن بابل حوت آنذاك "مشاريع صناعية" ضخمة كانت تستخدم عبيداً. لكن هذا حديث تحكيمي، لأن الوثائق لا تتحدث إلا عن المواد الأولية التي توزعها المعابد والمراهبون على النساجين العاملين في بيتهم.

كان نضال العبيد يشتد بنسبة ازدياد عددهم. وتكاثر الهرب "يطلب مالكو العبيد من البائعين ضماناً ضد تمرد وعدم طاعة" الذين اشتروهم.

أعظم ملك في الأسرة الكالدية هو خليفة نبوبولسر، نبختنصر الثاني (٦٠٤-٥٦٢). استعاد حروب الغزو، احتل سوريا، فلسطين وفينيقياء؛ لكن حملته إلى مصر فشلت. وبالأسلاب، الضرائب ومئات الأسرى تمكن من تجديد مركز بابل، الذي تضرر كثيراً في أيام سنحريب. فضلاً عن هذا، بني في الضاحية الشمالية قصر استراحة شامخا. كان الشريان الرئيس للمدينة، المسمى "الطريق المقدس للانبثاق"، الذي يصل القصر بالمعابد، كان مزديانا بجدار مبني من الآجر ونحت عليه أسد، وثور وحيوانات أخرى ورموز مقدسة. عاشت بابل بعد أفول الامبراطورية الكالدية، وانتشرت شهرتها كأعظم مدن العالم أبعد بكثير من شهرة ميزوبوتاميا.

كانت نهاية الامبراطورية الكالدية بعيد موت نبختنصر. وتشكلت مكانها امبراطورية قوية، هي إمبراطورية الفرس، في إيران في منتصف القرن الرابع. أخضع ملكها سسيروس Cyrus ميديا وآشوريا التي كان قد غزاها. ثم مشى إلى بابل. جابهه ملك بابل، نبونيد، بجيشه، لكنه دحر وانهزم. وبعد أن صارت ملكا فارسيا (٥٣٨) فقدت بابل استقلالها إلى الأبد.

الفصل السابع عشر

إيران

البلاد والسكان

تقع الأرض التي بنيت عليها أول دولة من القبائل الإيرانية في شرق ما بين النهرين - ميزوبوتاميا. وهضبة إيران الواسعة التي تشغل منها القسم الأكبر، تحدها من الغرب سلسلة جبال زاغروس، وشمالا البحر الكاسبيني *Caspienne*، وجنوبا الخليج العربي، وشرقا، تمتد حتى الهند. والجبال التي تحيط الهضبة من كل جهة، بأنهارها المندفعة، ووديانها الجميلة وغاباتها الغنية الوفرة، توفر أراض صالحة للزراعة و تربية المواشي والطيور، الأمر الذي حدد العبور المبكر إلى عالم حياة الاستقرار. لكن التقدم إلى عمق الهضبة، يبذل الشروط فجأة، تختفي مجاري المياه والبحيرات، ويصير المناخ قاريا. في فصل الشتاء الطقس بارد جدا، وفصل الصيف قائف، الأمطار نادرة، التربة جبداء تقريبا، والقدرة الإنبائية بائسة.

إيران غنية بالمعادن النافعة. في مناطقها الجبلية، يستخرج النحاس، الحديد، الرصاص، الذهب، الفضة، الرخام الأبيض والملون، الحجارة الدقيقة، بخاصة اللازورد. الغابات التي تغطي الجبال غنية بالصنوبر، بالسنديان والهور، أي المواد التي توفر خير خشب للبناء. كانت سفوح زاغروس مغروسة بالأشجار المثمرة: تفاح، إجااص، سفرجل، الكرز، الدراق، وغيرها. وعلى الأرض المروية، تنجح زراعة الحبوب: شعير، قمح، والذرة البيضاء.

لقد أخذت تربية الدواجن بعدا كبيرا. وفي البقاع الغربية، كان التدجين مستقرا؛ وفي الشرق راحلا. تربي القبائل حيوانات ضخمة وصغيرة ذات قرون، وخيولا وجمالا. والغابات والسهوب الغنية بالطرائد خولت السكان الأصليين الاهتمام بالقنص. في الأزمنة الغابرة، كانت هذه الأرض أهلة بقبائل من أصول مختلفة، تفكك نظامها

المشاعي البدائي. وكانت القبائل الشرقية تعيش من التدجين؛ وساكنو الشمال-الشرقي والغرب يحرقون الأرض. لم تكن الزراعة ممكنة إلا في حال تأمين نظام ري معقد. وكانت القبائل الرعوية الراحلة تهاجم غالبا الحرائث المقيمين. وبفعل حضارات الشرق الأدنى، تطورت القبائل الغربية تطورا مدهشا.

تدل التنقيبات التي جرت في جنوب شرق الهضبة الإيرانية في المدينة العيلامية سوز *Suse* وبرزبوليس (مدينة الفرس)، على تطور الحضارة المحلية منذ العصر الحجري الحديث. واستنادا إلى نصوص سومرية. تقول إن دولة عبودية تشكلت منذ الألف الثالثة قبل الميلاد في عيلام، في وديان قارون وقرقاج. وفي نهاية الألف الثالثة غزى العيلاميون مابين النهرين السفلى وأخضعوا شعبها. وليس سوى الملك البابلي حمورابي، موحد ما بين النهرين، تمكن من طردهم.

لقد عجل نمو القوى المنتجة -تقدم الزراعة، توسع صناعة النحاس والبرونز، انطلاق السيراميك والمهن الأخرى- عجل في الألفين الثالث والثاني التمايز الاجتماعي وأقرز أشكالا بدائية من العبودية، الأمر الذي نشط تفتح الحضارة. وفي الألف الثالثة، تظهر الكتابة السطرية، المشتقة من التصويرية. وتشهد آثار من الحضارة العيلامية أن الكتابة قد خضعت إلى نفوذ قوي سومري وأكادي.

. انتهازا للضعف البابلي، يحاول العيلاميون في نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى، إلحاق ميزوبوتاميا مجددا.

في القرنين الثامن والسابع، ق.م خاض الآشوريون ضد الإيرانيين صراعا مريرا؛ ولم تنهزم عيلام إلا في العام ٦٤٥، على يد آشوربنبال. لكن حتى بعد هذه الهزيمة، استمر شعبها يلعب دورا هاما في امبراطورية الفرس، كما تشهد حفريات حديثة لقصر ملكي في برزبوليس، حيث عثروا على عدة ألوف من الرقم العيلامية.

في آسيا الوسطى، على أرض خوارزم، سوجدان، باكريان ومرجيان (إقليم بينسير-داريا ومورغاب)، كان يعيش في الألفين الرابعة والثالثة قناصون وصيادون شبه-رحل، في مشاعات عشيرية. وقد كشفت تنقيبات الآثاريين السوفيات أن زراعة الأرض بالمنكاش، والتدجين وربما بداية التعدين يعود هنا إلى بداية الألف الثانية قبل الميلاد وأن حضارة هذه القبائل تمت إلى حضارة بعض قبائل كرخستان وسيبيريا وهضبة إيران.

في الألف الثانية، تعرضت هذه البلاد لتغلغل جماعات تتحدث بلغات إيرانية امتزجت على الأرجح بالرعايا الأصليين.

في بداية الألف الأولى، ولد نمو القوى المنتجة (ظهور تعدين الحديد، إدارة مناهج واسعة في الري، وإتقان السيراميك)، ولد الفرق الاجتماعي، العبودية وتشكل دول العبودية البدائية في خوارزم وبكتريان.

في نهاية الألف الثانية، تغلغلت قبائل تتحدث بلغات هندو-إيرانية في إيران (ربما أتت من آسيا الوسطى). ألحقت السكان الأصليين وفرضت عليهم ضريبة، وهي تمتزج بهم. كان هؤلاء القادمون الجدد يمارسون أساسا تربية الدواجن.

"أفستا Avesta"، الكتاب المقدس للإيرانيين القدماء، يعطينا فكرة عن نظامهم الاجتماعي. كان العشير الامومي آنئذ يتفكك، وكانت تتشكل أسرة تحت سيطرة الأب. والمشاعات المبنية على العشير تجمعت في قبائل، كونت بدورها اتحادات يرأسها شيخ منتخب. وفي هذه الحقبة يتميز انقسام المجتمع إلى طبقات. ويشغل نبلاء الدم والكهنة، مالكو القطعان الغنيرة، موقعا متميزا: يقود ممثلوهم المشاعات العائلية، العشير، القبائل والاتحادات القبلية. وكانت العبودية قد ظهرت، لكنها طيلة هذه الحقبة لم تكن متطورة ومن طبيعة أبوية.

مملكة ميديا

بدءا من القرن التاسع، تذكر الحوليات الآشورية غالبا أسماء مجموعتين من القبائل الإيرانية: الميديون والفرس. كان الأولون يسكنون شمال غرب هضبة إيران، في جنوب الغاسيان. والمعطيات الوجيزة في الوثائق الآشورية وأنباء هيرودوت تمنحنا الافتراض أن الميديين كانوا في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد في وضع تفكك نظام العشير. فكان الفرعان الرئيسان في الاقتصاد هما الزراعة والتدجين، بينما كانت الحرف تبدأ بالتطور. كان الميديون يجيدون العمل بالنحاس، البرونز، الذهب والالكتروم (خليطة من الذهب والفضة). والمنقوشات الكتابية الآشورية تتحدث عن حروب ضد الميديين وأسر العديد من المهنين، وتحويلهم إلى عبيد. وكان الميديون، الشهيرون بتربية الخيول، استخدموا منذ زمن غابر العربة ذات العجلة الدائرية.

تأخذ العبودية عندهم شيئا فشيئا دورا أوسع. وتقدمهم وتطورهم على القبائل الإيرانية

الأخرى، يرجع إلى اتصالهم بآشوريا وعلام والطريق التجاري الرحب الذي يصل ميزوبوتاميا بالهند عبر زاغروس.

التاريخ السياسي الميدي مكتوب مجدداً إلى حد ما استناداً إلى الأنباء شبه الخرافية التي دونها هيرودوت وإلى النصوص الآشورية. يقص هيرودوت أن دجوسيه *De'joe's* جمع في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد تحت سلطته القبائل الميديّة وأسس مملكة ميديا. هذه الصورة أيدتها جزئياً الحوليات الآشورية التي تذكر شخصاً اسمه دجاوكو. وفي أثناء القرنين الثامن والسابع، تعرضت ميديا لعدة غزوات على يد الآشوريين ووقعت في قبضتهم إلى هذا الحد أو ذاك. وأمام التصدع الآشوري في نهاية القرن السابع، خاض الميديون معهم عدة حملات. وهكذا في العام ٦٢٥، شن الملك فرأورتس، الذي جمع كل القبائل الميديّة في دولة واحدة، شن على الآشوريين حرباً انتهت بهزيمة وموت فأورتس، بسبب المساعدة التي تلقاها الآشوريون من قبائل السيث التي تدخلت فجأة.

رد ابن فرأورتس، سياخار (٦٢٥-٥٨٥) هجوم السيثيين ونظم جيشه. والميليشيا الميديّة التي تقاتل عشوائياً، صنعت حسب السلاح (قذيفة، سهم، مقلاع)، وأخذ كل سلاح حيزه المحدد في المعركة.

حالف سياخار ملك بابل نبختنصر، واعتبر عدوه الأول آشوريا. ومن ٦١٢-٦٠٥، وجهت القوات المتحالفة من الميديين والبابليين إلى آشوريا ضربة قاصمة. وبدمار نينيفيا أنجز انهيار الإمبراطورية الآشورية. ومن ثم احتل سياخار فارس، أورارتو وكبادوس. واصطدم هجوم الميديين اللاحق باتجاه الغرب، في آسيا الصغرى، بمقاومة ضارية من ملوك ليديا *Lydia*، الدولة القوية، الواقعة في غرب نهر حاليس *Halys*. وفي ٢٨ أيار ٥٨٥، توقف القتال بين الميديين والليديين بسبب كسوف الشمس الذي توقعه، كما يقول الإغريقون، الفيلسوف تالس *Thales*. وبعد أن كفت النزاعات، عقد سياخار صلحاً مع ملك ليديا أليأتس. واعتبر نهر حاليس حداً فاصلاً بين المملكتين.

تابع خليفة سياخار، أستياج *Astyage* (٥٨٥-٥٥٠)، سياسة التوسع. لم يستطع أن يحتل آسيا الصغرى، فبعث قواته لغزو ميزوبوتاميا وشمال سوريا. يترافق ملكه مع أوج مملكة الميديين، الذين تمتد أراضيهم الواسعة من أوسط هضبة إيران حتى ضفاف حاليس، إلى سوريا والخليج العربي.

أمبراطورية الفرس، غزو سيرس وقمبيز

أوقفت قبائل فارس توسع مملكة الميديين. فالحوليات الآشورية، كما أشرنا أعلاه، أشارت إلى الفرس منذ القرن التاسع قبل الميلاد. كانت هذه القبائل تقرب الميديين. وعلى الأرجح بعد سحق عيلام على يد الآشوريين، تقدمت من الشمال في المناطق التي تتاخم الخليج العربي. كان تطورهم أقل مستوى من الميديين. وفي ٥٥٨، اتحد الفرس ضد الميديين بقيادة سيرس الثاني (ذكر قائد القبائل الفارسية سيرس الأول في حوليات آشور نبال). فيكون سيرس مؤسس مملكة جديدة، تسجل ولادتها تحولا في تاريخ الشرق القديم.

وفي ٥٥٣ تمشي قوات سيرس إلى مسديا. يدوم الصراع ثلاث سنوات وينتهي في ٥٥٠ بنصر الفرس. ساهمت أurstقراطية جيش أستياج إلى حد بعيد بهذه الهزيمة، لأنها خانت ملكها وحتى سلمته لسيرس. احتل هذا الأخير عاصمة أستياج عقبتان *Ecboutana*، كما تقول حولية نبيد، استولوا على "الفضة، الذهب، وكل ثروة عقبتان. وصارت ميديا من الآن جزءاً من أمبراطورية الفرس. ولقد عجل انتصار سيرس باختفاء بقايا النظام المشاعي البدائي لدى القبائل الفارسية. واحتد انقسام المجتمع إلى طبقات. وحرص الغزو العبودية. وكان على رأس الدولة ملك خضعت له كل القبائل الإيرانية.

يجاهد سيرس وأurstقراطيته، المتلهفون للأسلاب والغنائم، لتوسيع حدود الأمبراطورية. ونتيجة الحملات بقيادة سيرس، ألحقت إيران، المتخلفة من وجهة نظر الاقتصاد والمأهولة أساسا بقبائل رعوية، ألحقت دولا أرقى حضارة منها لكنها تصدعت في نهاية القرن السابع وبداية القرن السادس جراء الحروب الخارجية والصراع الاجتماعي. فضلا عن هذا، كانت أوساط التجار والمرابين في بابل، آشوريا، فينيقيا وبلدان أخرى توى مصالحتها في أن لا يكون في الشرق الأدنى سوى امبراطورية واحدة، بحكومة قوية لكبح التمردات الشعبية، وتقوية الاقتصاد وتطوير التجارة الدولية. وكان تجديد وتنظيم جيش الفرس. ويحتل سيرس بسرعة أرمينيا وكبادوس؛ وفي ٥٤٦ اكتسح ليديا واستولى على ثروات لاتحصى من كريزوس *Cre'sus*، مكدة في ساردس *Sardes*، عاصمة هذه المملكة. بعيد هذا، أخضع سيرس كل آسيا الصغرى تقريبا، بما فيها المدن اليونانية في جنوب بحر إيجة. وألزم الكل بدفع الضريبة.

بعد أن حاصر ميزوبوتاميا في الشرق، في الشمال وفي الغرب وطوق كل الدروب

التجارية، تمكن سيرس أن يفكر بإلحاق عدوه الرئيس، بابل الكلدانية. وأنجزت المهمة بدون عقبات كداء. فالأرستقراطية، الكهنة، التجار والمرابون البابليون فتحوا الأبواب أمام الجيش الفارسي؛ كانوا يأملون في توسيع أعمالهم التجارية والمالية في إمبراطورية جديدة أوسع من إمبراطوريتهم. دخل سيرس بابل في العام ٥٣٨، أباد آخر فلول الأسرة المالكة وأعلن نفسه ملكاً على بابل. ونشر بهذه المناسبة بياناً وصلنا نصه المحفوظ حتى اليوم وفيه يعد بالحفاظ على النظام القائم في بابل، واحترام آلهتها، ودعم تطوير المدينة.

كان دور مصر قد أتى، مصر التي قد يخلق فتحها من سيرس سيد الشرق الأدنى كله. لكنه قبل أن يبدأ حملة ضد هذا البلد، مشى نحو الشمال الشرقي لكي يوطد هيمنة فارس السياسية. لكن قبائل الساسيين والماساجيت الذين يعيشون حياة ترحال في سهوب آسيا الوسطى قاوموه ببطولة. وقتل سيرس في إحدى المعارك في العام ٥٢٩.

تلاه ابنه قمبيز. ورغبة في إرضاء شهوات الأرستقراطية الفارسية، التي تلتقي مع رغبات الأوساط التجارية والمرابية في البلدان المغزوة، كَوّن هذا العاهل أهدافاً أوسع جسماً من سلفه: كان يبغى بسط سلطته على القسم الأعظم من حوض البحر المتوسط، حتى قرطاجة. دونت حربه ضد مصر بنصوص إغريقية ومصرية. وفي ٥٢٥، هزم قمبيز، المدعوم بجيش بري قوي، وأسطول وضعه تحت إمرته الفينيقيون، القبارصة والساميون هزم المصريين في بيلوز. وبعد أن احتل البلد وكبح بالحديد كل مقاومة مصرية دفاعاً عن حريتهم، أرسل قمبيز عدة حملات بهدف فتح قرطاجة وأثيوبيا، اللتين كانت ثرواتها خيالية. لكنه فشل هذه المرة. وفي أثناء إحدى هذه المعارك انتفضت مصر ضد السيطرة الفارسية. أباد قمبيز التمرد، وقضى على آخر فراعنة الأسرة السادسة والعشرين، بسامتيك الثالث في المنبحة. كانت الإمبراطورية الواسعة الناجمة عن فتوح سيرس وقمبيز غير مستقرة وعارضة، لأن القبائل والشعوب التي تشكل جزءاً منها كانت تعيش في عزلة، دون روابط اقتصادية متينة ولا لغة مشتركة.

تمرد الـ"مجوس" وفتوح داريوس الأول، ابن حستاسب.

كانت الحروب المستمرة التي تتطلب جهوداً جبارة من كل قوى البلاد، تغضب جماهير إيران ذاتها والمناطق المغزوة. أفاد بعض النبلاء والكهنة، المعادين لمركزه السلطة الملكية من هذا الوضع. وبينما كان قمبيز يقود حملاته باتجاه الجنوب، نشب تمرد قبائل

إيرانية في ميديا؛ امتد التمرد إلى كل البلدان التي احتلها الفرس وربما أدى هذا التمرد وغيره إلى تفكك الامبراطورية. وكان موجهو التمرد هم كهنة ميديين -الـ"مجوس"- وبعض عناصر نبلاء الدم. وعلى رأس الحركة، كان المجوسي غوماتا المدعي بأنه أمير بارديا، أخ قمبيز. لكن قمبيز، وهو يستعد للحرب، قتل هذا الأخ الأصغر خشية أن يحتل العرش في غيابه. كان الهدف الرئيس للتمرد كما يبدو إعادة السلطة إلى الميديين وإضعاف نفوذ الفرس.

وضع قمبيز في الصورة، فمشى إلى ميديا بغية تسوية الحساب مع المتمردين، لكنه مات في الطريق (٥٢٣). وبقيت ظروف موته غامضة.

اضطلع بالمهمة أحد أعضاء الأسرة المالكة الأشمنيد، داريوس الأول، ابن حيستاسب (٥٢١-٤٨٦). وبعد أن هزم المجوس في ميديا وأعدم برديا المدعي، اضطر لشن هجوم ضارٍ ضد حركات انفصالية وتحررية نشبت في كل أرجاء مورغاب في تركمانيا) ونشب في ٥٢٢ تمرد شرس يبدو أن كل الشعب اشترك فيه. أبيد بأمر من داريوس، بوخشية فريده، لأن طبيعته الوطنية جعلته في نظر الفرس أخطر من العصيانات الانفصالية. دون داريوس هذه الأحداث على صخرة شهيرة في بحستون *Be'histoun*.

باشر داريوس، والبالغ بدم المتمردين الانفصاليين والانفاضات الشعبية، إصلاحات هامة بغيتوطيد أركان الدولة، وسحق في البيضة التوجهات الانفصالية وساهم في تطوير الزراعة، والمهن والتجارة.

امبراطورية داريوس

قسم العاهل امبراطوريته إلى محافظات سميت سترابيس *Satrapios*، يختلف عددها حسب المناهل (٢٠ وأكثر). والأرض، المعتبرة ملكا للملك، كانت بتصرف المشاعات التي تعمل بها تضم المحافظة منطقة تشكلت عبر التاريخ وسكنتها جماعة عرقية محددة. على رأس المحافظة حاكم، يسميه الملك، يقبض على السلطين التنفيذية والقضائية، لكن كثيرا من المحافظات حافظت عل حاكمها الأصلي -ابن البلد- الذي يدير الشؤون الداخلية جزئيا ويقى مرتبطا بالحاكم. ويمسك داريوس بيديه عادة في المحافظات الأشكال المحلية الإدارية والقضائية، والعبادة، لأن لا يخضب الأهالي بالاعتداء على تقاليدهم. عدا الحاكم، يسمى في كل محافظة قائد حامية يرتبط مباشرة بالسلطات المركزية. كان هذا، من جهة، لتوطيد

رقابة الموظفين المكلفين بتقديم تقرير عن زملائهم ومن جهة أخرى، الحذر من أي تدبير انفصالي من قبل الحكام والقادة العسكريين الجشعين. وخلق داريس شبكة واسعة من الجواسيس يراقب عناصرها الحكام والرؤساء.

كانت المحافظات تدفع ضريبة نوعية أو طبيعية أو الاثنين. يبلغ الدخل السنوي الذي يجمعه داريس من المحافظات حوالي ١٤٥٦٠ تالان^١. تمون مصر فقط بالقمح ١٢٠٠٠٠ محارب فارسي.

ومن أجل تطوير التجارة وتمتين الوشائج بين المحافظات، وكذلك الأهداف الاستراتيجية، شرع ببناء طرق واسعة. كان أهمها "الطريق الملكي من أفيز حتى سوز، الذي يجتاز دجلة والفرات وطوله حوالي ٢٤٠ كم. وطريق آخر يصل بابل بالهند. كانت الطرقات موضع عناية وصيانة دائمة. كل ٢٠ كم، أقيمت محطة تبديل وبريد وخانات. ثمة نص منحوت لداريس يتحدث عن فتح قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر، حفرت بأمر من الملكة المصرية حاتشبسوت. ولقد أنجز داريوس إصلاحا نقديا بهدف استقرار المبادلات وتسوية الحياة الاقتصادية في الامبراطورية الفارسية. صكوا نقدا وحيدا، سموه "داريك *Darique*". يحق للملك وحده أن يصكها. ومن حق الحكام صك القطع الفضية والنحاسية، وأعطى هذا من الحق للولاة أبناء البلد. وتوجهات داريس في المركزة اتضحت تماما في إصلاحه العسكري. فقد حدد شخصا عدد القوات في كل محافظة وفي كل حامية، وكان هو يعين عناصر كل سلاح (رامي مقلع، سهام، خيال وسواه) في الحامية. في الجيوش والحاميات، كان الفرس يشكلون النواة فقط، بينما كانت القاعدة الواسعة من الجند الذين يجندون من ممثلي مختلف القبائل والرعايا. وبعمامة، كان الفرس يتمتعون بامتيازات في كل الامبراطورية. وكانت قبائلهم المهتمة أساسا، عدا الخدمة العسكرية، بالزراعة والتدجين، معفية من الضرائب والسخرة.

ولقد أفضت إصلاحات داريس الأول العسكرية والإدارية ووجود العديد من المراكز الاقتصادية الكبرى، أفضت إلى تطوير التجارة الداخلية، والخارجية العابرة، التي كانت مراكزها مدن الشرق الرئيسة، بخاصة بابل. حيث شكلوا رابطات سرقة الشعب

^١ - وحدة وزن في اليونان القديمة تساوي من ٢٠-٢٧ كغ، أو وزن تالان ذهب أو فضة.

المشروعة. تمول مصارفهم بفوائد باهظة الأوساط القائدة وحتى محافظات الامبراطورية الفارسية كلها. وكان التجار والمرابون، الذين يجنون مكاسب خيالية من استئجار المزارع والتجارة، يدعمون داريوس الأول في مشاريعه العدوانية الضخمة وإصلاحاته الداخلية.

انحطاط الامبراطورية الفارسية

وهو ينظم الحكم، كان داريوس يتابع توسيع إمبراطوريته. في الغرب، بإفريقيا، ضم سرينيد وبرقة؛ في الشرق، ثبت حدودا على طول الهند؛ في الشمال، غزا عدة أمصار من آسيا الوسطى: خوارزم، سوجديان، بكتريان وغيرها. وصارت محافظة بكتريان مركز الأملاك الشرقية للفرس. كان يحكمها بعامة أحد اقرباء السلطان. تقول أبحاث س.تولستوف أن دولة عبودية تشكلت بين القرنين الثامن والسادس في خوارزم، في جنوب بحر الأورال و، إلى الجنوب قليلا، مملكة سوجديان، تابعة للكولى؛ ولدت أيضا في بكتريان ومرجيان تشكيلات سياسية. والحاضرات الشاسعة ومنشآت الري الضخمة في خوارزم، التي كشفها المنقبون السوفييات، هي الشواهد الخرساء على العظمة الأقل لهذه الدولة. كان أساس اقتصادها آنذ، الزراعة المروية. ورغم أن الامبراطورية الفارسية كانت في ذروة مجدها، وشملت خوارزم، سوجديان، بكتريان ومرجيان، لم تكن علاقة خوارزم بها إلا إسمية، لأن ملوكها كانوا جزءا من الاتحاد العتيد بين القبائل الرحل من السيس والمسجيت. كان هذا الاتحاد على رأس القبائل الفارسية التي، لتأكيد نفوذها في آسيا الوسطى، شنوا الحرب على قبائل شواطئ الأورال. شرع سيرس في ٥٢٩ وداريس الأول في ٥١٧ حملات ضد الساس والمسجيت، التي انتهت إجمالا بالفشل، على أن داريوس، في منحوتته في بحستون، يتكلم عن أسر ملك الساس. وفي ٥١٣، أرسل داريوس حملة لشق طريق جديد نحو أمصاره في أنبيا الوسطى ويهاجم المسجيت من الغرب. لكن هذا كان فشلا ذريعا. وقد سعت القبائل السيئية وقد حصلت على حريتها إلى تكتيك حرب المقاومة: جذبت كواكب خيالتها الجيش الفارسي إلى سهب غير مسكون، مدمرة كل شيء في طريقها. وقد بث داريوس من ملاقلة العدو في معركة نظامية والمرض يفتك بقواته، ونقص التموين والصدمات، طوى لجام حصانه إلى آسيا الصغرى. وفيما بعد، نجح بالمقابل، بفتح تراس *Thrace*، مسدون وجزر في بحر إيجة.

وفي بداية القرن الخامس، يحاول الفرس إخضاع اليونان القارية. لكن دول اليونان

الصغرى واجهت المعتدين بمقاومة ضارية، وكبدتهم خسائر كبيرة وحافظت على استقلالها. وفي ٤٩٠ قبل الميلاد، انزلوا هزيمة منكرة بالفرس الذين أبحروا إلى المراتون. وبعد عشر من السنين، في ٤٨٠، لقي ابن داريوس، خرخش (٤٨٦-٤٦٥)، مصرعه قرب جزيرة سلامين. ولم يعد الفرس دولة لاتقهر. وقواته غير المتجانسة، مهما كانت جرارة، لن تستطيع القضاء على فصائل يونانية صغيرة تحدوها إرادة الدفاع عن أرض الوطن ضد الدخلاء. كانت جيوش سيرس وقمبيز قوية بوحدتها، بمصالحها المشتركة. لكن جيوش أحلافهم، المكونة بخاصة من ممثلي الشعوب الخاضعة، لم تكن مبالية بفتوحات الفرس، ولا بتوطيد دولتهم. في أيام حكم أرترخرس (٤٦٥-٤٢٥) وداريس الثاني (٤٢٠-٤٠٥) تفاقمت التناحرات بين الارستقراطية العسكرية والإدارة الفارسية وشعوب الأقاليم الملحقة. فالضرائب الباهظة، والسخرات الثقيلة، وتعسفات مستأجري المزارع العامة ألهبت الغل على الفرس، فضلا عن ضعف الجيش متعدد العناصر. وهكذا فككت مؤامرات القصر، والاضطرابات، وتمرد المحافظات الانفصالي وتعسفات الموظفين، فككت دولة الإشميد. تصدى أرترخرس الثاني (٤٠٤-٣٥٩) لبعض الوقت لموقف الفرس في حوض بحر إيجه بواسطة صلح سمى: أنتلسيدس" عقد في ٣٨٧ مع إسبارطة، لكنه اضطر في المناطق الأخرى من الامبراطورية إلى كبح العصيانات والإضرابات. وفي ٤٠٥، في بداية حكمه، تنفصل مصر عن الفرس وتدافع عن استقلالها خلال ٦٥ عاما (حتى العام ٣٤٠). وفي العام ٤٠١، تمرد أخ أرترخرس الثاني، سيرس الابن، حاكم فريجي وكبادوس الكبرى، تمرد ليحتل العرش. لكنه فشل وقتل في معركة كوناخا *Counaxa*.

ويتسارع تفكك الامبراطورية الفارسية. ارتخرخس الثالث (٣٥٩-٣٣٨) يكبح بصعوبة انتفاضة في مصر، في فينيقيا وفي قبرص؛ وفي أيام داريوس الثالث (٣٣٨-٣٣٠)، سقطت امبراطورية الأشمنيد تحت ضربات دولة جديدة عبودية، أسسها المقدونيون. سنبحث بالتفصيل ظروف هذا الانهيار في الفصول الآتية.

حضارة ودين إيران

كمصادر لدراسة دين شعوب آسيا الوسطى وإيران، لدينا الكتاب المقدس أفسنا *Avesta*، وكتابات هيرودوت وبلوتارك وبعض الكتابات المنقوشة عن أيام أشمنيد. كان الدين الإيراني يعكس عز الإنسان في صراعه مع الطبيعة. وكانت القبائل تعبد الحيوانات

المقدسة، مثلاً، الكلب، والثور. إن هذا النوع من العبادة التي يمارسها الإيرانيون والشعوب الأخرى هي بقايا من الطوطمية. أما الآلهة الرئيسيون، كانت تجسد قوى الطبيعة. وكانت العبادات الأكثر انتشاراً هي الأرض، السماء، الماء، النار، هذه الأخيرة مرتبطة بمتانة عبادة القبائل الإيرانية لأحورامازدا (أرموزد بالإغريقية).

دور هام يعود للنجوم، بخاصة الشمس، يجسدها الإله ميثرا *Mithra*. عبادة ميثرا مرتبطة بالزراعة وتربية الأنعام. وكرمز للقوى المنتجة في الطبيعة، تصوير ميثرا حامياً الموتى وإله الحرب. والدين الإيراني القديم يجهل المعابد. التعبّد -صلوات وأضاحي- كانت في الأمكنة المناسبة.

مؤخراً أولى اهتمام كبير لعبادة الدولة المبنية، حسب الخرافة، بأمر زرتوشترا (بالإغريقية زورواستر، ومنه اسم زورواستريم، المعطى للدين). كثير من العلماء يرون أن زورواستريم ولد في آسيا الوسطى، أو بالأصح في خوارزم. كان ذا طبيعة مزدوجة. تقول نظريته أن أحوارامازدا، إله النور والرزق، في صراع أبدي مع أحرمان، إله الظلمات والشر. الأول يعلم الناس الفضائل والنظام، الزراعة والمهن؛ ويذر الثاني في كل مكان الشر والاضطرابات والبلبلات. فكل مؤمن ملزم إذن بتوطيد قوانين أحورامازدا، أن يعيش في الرحمة، يطيع الملوك، يمارس بحماس الزراعة والتدجين، فيكافأ بعد نصر أحوارامازدا.

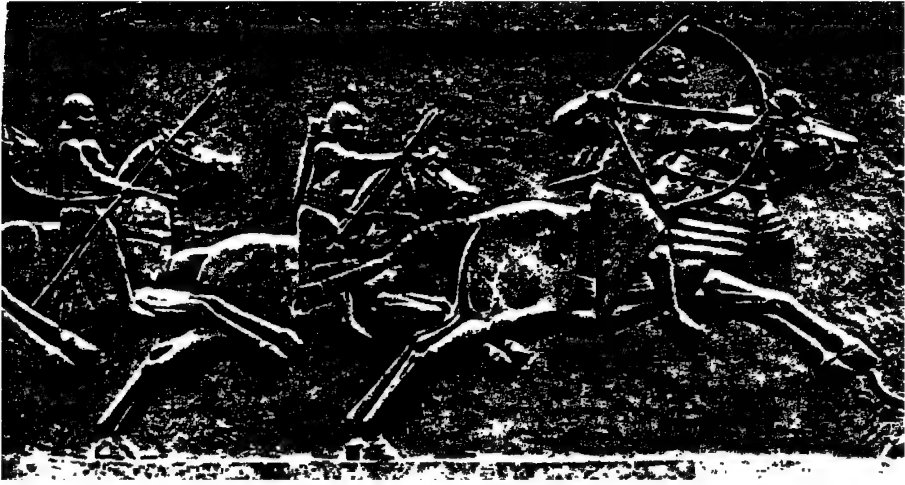
تعبّر هذه الثنائية بوضوح عن المنحى الاجتماعي والسياسي للأغنياء الذين يسعون أبداً إلى تشريع تفوقهم على جماهير الكادحين الفقيرة، بتقديم هذه المقولة كتجسيد لمبدأ "النور" والالتصاق والانسجام". لذا ينص الدين على الخضوع المطلق للسلطة الملكية والعمل المطيع كمصلحة الشرائع المهيمنة.

نستطيع أن نكون فكرة عن الفن الإيراني القديم استناداً إلى الآثار والنقوش والمتنحوتات. فنماذج العمارة الرائعة الواصلة إلينا، مثل أطلال القصر الملكي في سوز والقاعة ذات المائة عمود في قصر برسبوليس، تدل أن هذا الفن، مابقي قوميًا-وطنياً، كان يستلهم أعمال شعوب أرقى، غزاها الفرس. مثلاً فكرة القصر ذي المائة عمود مقتبسة من مصر، وطفن قناطر سوز-من آشوريا، وبناء قصر على أرض منبسطة وتزيينها بالنقوش والزخارف-من آسيا الصغرى. لكنه بمجمله، فن أصيل له شخصيته الخاصة ومحياه

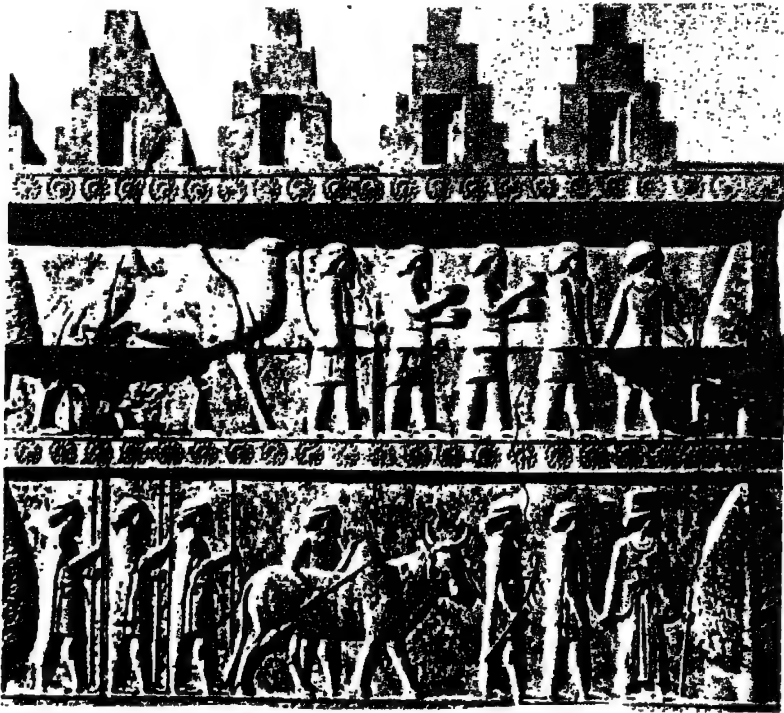
المتميز. ومدونات داريوس الأول-النحتية أو الكتابية تقص أنها بنيت بيد الأسرى الأيونيين، المصريين، البابليين، الليديين وسواهم. وفي صروحهم الشامخة، يعرض طغاة أسر الأشمنيد عظمة وغنى أمبراطوريتهم.

لم تترك لنا مصر القديمة أي أثر أدبي، سوى بعض المدونات المختصرة والوثائق على الرقم الفخارية أو الآجرية، فمن الصعب تصور ماذا كان الادب الإيراني. بل يمكن فقط الافتراض أنه تطور بتأثير النماذج التي أبدعتها شعوب آسيا الصغرى والشرق-الأدنى. فالكتابة المسمارية التي استعملها الأشمنيد على الأرجح منذ سيرس، تصدر من ميزوبوتاميا. وقد استخدمت أيضا بالمدونات الملكية الرسمية. أما أغلب نصوص عهد داريوس، فهي بالأرمنية. والتقويم الإيراني، الذي جدده كله تقريبا الباحثون، يشهد، هو الآخر، على التأثير البابلي.

والقليل المعروف من حضارة الأشمنيد، يثبت الانتقائية. تعلق هذ الطبيعة العسكرية للدولة ذاتها، التي تجني باللصوصية المنجزات الثقافية للشعوب الأخرى. لكن في الوقت ذاته، عملت أمبراطورية فارس على تقريب وتفاهم الحضارات الشرقية وحضارات العهود القديمة الكلاسيكية، التي اغتنت بهذه اللقاءات.



من مشاهد الصيد



جدارية على جدار أحد قصور الإمبراطورية الفارسية

الفصل الثامن عشر

الهند

البلد والشعب

بعكس مصر وما بين النهرين، تتميز الهند بتنوع وتعقد شروطها الطبيعية. تقع الهند في آسيا الجنوبية. تقسم إلى منطقتين واضحتين: الشمال والجنوب. تشغل الأولى شبه جزيرة ديكان (هندوستان)؛ وتقع الثانية في اليابسة. تنفصل الهند عن البلدان الأخرى بجبال منها هماليا، أعلى سلسلة في العالم، وبالبهار التي تعرقل اتصالها بالشعوب الأخرى.

ولما كان مناخ الهند حاراً، كانت العوامل الرئيسية في حياتها الاقتصادية قضية الماء. الصيف (تموز-أب) الفصل المطير، أمر يساعد الزراعة، لكن التبدلات المناخية غير متساوية أبداً: في الشمال الشرقي وفي الجنوب الهواطل غزيرة جداً، وفي الشمال الغربي وداخل البلاد تقل، وفي كثير من الأمكنة، لا تكفي للأعمال الزراعية، الأمر الذي يفرض الري بالآلة.

إن شبكة الهند النهرية كثيفة؛ لكن أغلب الأنهار تمتاز بصبيب غير منتظم، وبالتهور والاندماج في مجاري ضيقة؛ فقط نهرا الهندوس والغانج (وروافدهما) لهما عبر التاريخ أهمية اقتصادية. ولم تستخدم مجاري المياه الأخرى بالري ولا بالنقل. كانت الحواجز الطبيعية (الجبال والغابات الكثيفة) تحول دون اتصال شعوب الهند فيما بينها، فتتابع تطورها بإيقاع متنوع وبأشكال متباينة جداً. وحتى من الوجهة البدنية، تتفرد شعوب مختلف أقاليم الهند بشدة بعضها عن بعض. والألسنة مختلفة هي الأخرى، أغلبها من عائلتين لغويتين: أندو-أوربية وال دراويدية^١. يتكلم بلغات المجموعة الأولى شعوب الشمال أساساً،

^١ - نسبة إلى شعوب الدراويد الساكنة شمال الهند.

وينطق بلغات المجموعة الثانية شعوب الجنوب. ويرجع اقتراب لهجة شعوب شمال الهند من شعوب خارج الحدود إلى هجرة شعوب الهند التي تتكلم لغات أندو-أوربية. وشعوب شمال غرب الهند، المسماة بالـ"الآريين" معتبرون عادة دخلاء.

لكن العالم العلمي لم يحدد بعد حقبة دخولهم البلاد، أو أصلهم، ولا طبيعة دخولهم.

حضارة هارابا Harappa

الهند مأهولة منذ أبعد الأزمان. وهي واحدة من أقدم مواطيء الحضارة. فمنذ الألف الثالثة، ازدهرت حضارة عظيمة في شمال-غرب البلاد، في وادي نهر الهندوس. في هذه الحقبة تقريبا، مارس الهنود الزراعة والتدجين وبدأوا العمل بالمعادن. الأمر الذي خولهم استثمار الأرض على أبعد نطاق.

كان الناس يبدرون الحبوب (شعير، قمح)، والزراعات السبخة (البطيخ)، والأشجار المثمرة (البلح)؛ وكان الهنود أول من أنبت القطن. منذ الألف الرابعة أو الخامسة، كان مناخ وادي نهر الهندوس أكثر رطوبة بحيث تستطيع الحبوب النماء في أرض غير مروية. فضلا عن هذا، كانوا يستنبتون طبعاً تربة غرينية تروى في أيام الفيضان. ربما كانت السقاية موجودة، لكن ليس لدينا براهين لا تدحض. وكان تدجين الدواب (الخراف، الجاموس، الدرباني^٢، الخنزير، وغيرها) يلعب في الاقتصاد دوراً ثميناً.

في نهاية الألف الثالثة وبداية الألف الثانية قبل الميلاد (أي في أيام أوج انطلاقة حضارة الهارابا كما يبدو)، كان الهنود يعرفون صناعة البرونز؛ ومن هذا المعدن صنعوا أدوات عمل (مناجل، بلطات، أزامل، مناشير)، وأسلحة (خناجر، سهام وقذائف)، وأوعية منزلية (سكاكين، صحن، آلات حلاقة، ومرابا). وفروع أخرى صناعية (خيوط نسيج، صناعة القرميد، الفخار، الذهب والمجوهرات، إلخ) بلغت مستوى رفيعاً. وكمية كبيرة من الأوزان، الأختام وأغراض متنوعة مصنوعة من مواد أولية مستوردة، تشهد على علاقات تجارية مع مناطق أخرى من الهند، ومع الأجانب.

ولقد كشفوا أكثر من ٢٠٠٠ خاتم بأحرف هيروغليفية. المؤسف أن هذه الكتابة، رغم الجهود العلمية، لم تحل رموزها بعد.

^٢ - حيوان ضرعى ذو سنام من الفصيلة البقرية.

كانت المراكز الرئيسية لحضارة هارابا. كما عثروا على خرائب عشرات المدن التي عاشت وبادت في وادي نهر الهندوس منذ ٤٠٠٠ عام. كانت هارابا أشهر المدن (التي أعطت اسمها لما سمي حضارة) وكذلك موهندجو-دارو. كانت هذه الحضارات العظيمة التي يعد سكانها عشرات الألوف ، كانت تمتد على ضفاف الأنهار وتسود الإقليم المحيط. كانت شوارعها مستقيمة وعمودية على بعضها البعض. وكانت بيوتها ذات الطابق الواحد أو الطابقين مبنية بالقرميد المشوي وتقدم من الخارج منظرا متواضعا ورتيبا، إنما لا تنقصه الراحة: وكان ثمة محلات خاصة بالغسل والوضوء، وتمديدات مياه بسيطة، تشكل جزءا من شبكة المدينة، رائعة بالنسبة لعصرها. وبعيدا عن مركز المدن، أقاموا حصونا تتضمن هياكل التعبد والإدارة، وأهرامات الحبوب، والطواحين وحتى مساكن للعمال.

تمكننا المعطيات التي بين يدينا من افتراض وجود، في وادي نهر الهندوس، منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، المجتمع العبودي الذي، من حيث مستوى ثقافته، لم يكن يتخلف في شيء عن مجتمعات ذلك العهد فيما بين النهرين ومصر.

حول منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، بدأت هذه الحضارة تتراجع؛ وغادر السكان مدينتي هارابا وموهندجو-دارو. وباختصار، دمرت حضارة هارابا دمرت بأيدي معتدين أندو-أروبيين، الآريين، الذين دخلوا الهند من الشمال الغربي. لكن البراهمين غير كافية حتى الآن لتأكيد هذا الرأي. على هذا، لم تدمر حضارة هارابا دمارا تاما، وهي ما تزال مرتبطة بقوة بحضارة المحطات التالية.

الهند في منتصف الألف الثانية حتى منتصف الألف الأولى قبل الميلاد

لدراسة الحقبة الماضية لم يكن لدينا إلا آثار مادية، لكننا نملك الآن مدونات: إنها بخاصة نصوص استلهم ديني (الفيدا) وقصائد ملحمية (ماهابها راتا ورامايانا). إنما لا نلمس أي رابط مباشر بين هذين العهدين التاريخيين. على هذا، تخص معطيات المناهل الأدبية مناطق أخرى: وادي الغانج الأعلى وملتقيات هملايا.

في هذا العصر انتقلت الهند إلى عهد الحديد. باستخدام أدوات من حديد متينة ومريحة، يمكن التوجه بجرأة إلى استصلاح الغابات والأدغال وحرثة التربة الأقسى؛ وفي ذات الوقت، تسهل أعمال الري والتجفيف كثيرا، وأيضا تطور المهن. واستثمر بسعة وادي الغانج، وأراضي الهند الوسطى. وهنا أيضا ولدت مدن وحضارة راقية.

عندما تحدثنا عن عهد هارابا توقعنا افتراضاً فقط وجود مجتمع عبودي. لكننا الآن نقول بثقة أكبر أن ذلك المجتمع وجد فعلاً في تلك الحقبة. فأقدم فيدا، ريح-فيدا، تشير إلى عدد من العبيد. كان هؤلاء قد عرفوا باسم "داسيا" *dasya*، الذي يعني أصلاً "العدو"، "الدخيل"؛ وهذا برهان أن أول العبيد كانوا أسرى حرب. وينضم إليهم بالتالي العبيد الذين كانوا سابقاً رجالاً أحراراً سقطوا في البؤس، وكانوا قد باعوا حريتهم وحرية أبنائهم. وخضع أبناء النساء العبدات إلى نير العبودية.

كان العبيد ملكية مطلقة لساكنيهم. يمكن بيعهم إهداؤهم أو تقديمهم مهراً. ويمكن أن يخدموا في أي عمل. ومضى وقت قبل أن يبدل المجتمع البنية بعد ظهور العبودية، لكن عندما يبدأ هذا التطور، يبقى مع ذلك بقايا قوية من النظام المشاعي البدائي، خاصة، النظام نفسه يستمر ويتشبث.

وتظهر الدولة عندما ينقسم المجتمع إلى طبقات. وتستلم الأرستقراطية زمام الحكومة القبلية وتستخدمها للحفاظ على طاعة العبيد وأعضاء المشاعات الأكثر فقراً. وبصير شيخ *radjah* - نوعاً من الملك. لكن هذه الدول العبودية تبقى لمدة طويلة محافظة على أشكالها القبلية القديمة وعناصر ديموقراطية بدائية، خاصة بالنظام المشاعي.

مع تشكل الطبقات، يتجلى الظلم الاجتماعي أكثر فأكثر، وتتكون شريحة هرمية تؤيد هذا النظام. ينقسم الشعب إلى أربع فئات. وتشكل أرستقراطية الدم والقبيلة فئتين - البراهمان والكشترين *les brahmanes & les khatryas*. إلى الفئة الأولى تنسب ذريات الكهنة، وإلى الثانية ينتسب النبلاء العسكريون. والجماهير الحريضة لأعضاء المشاعات الأحرار تشكل فئة فيسياس *Vaicyas*. والأجانب الأحرار الذين لا يملكون شيئاً في المشاعة ولا يحق لهم الاشتراك باتخاذ قرارات القبيلة، ولا باحتفالات العبادة، إلخ. يشكلون الفئة الأخيرة: الكودرا *les coudras*. ولما كان هؤلاء الأخيرون "غير مطلعين على الأسرار"، ينظر إليهم كأناس "يولدون مرة واحدة"، بعكس "الولادة مرتين"، أي ولادة الفئة الأعلى (طقس المسارح^٣ يخلد هذه الولادة الثانية). ولما كان الانتساب إلى إحدى الفئات قد حدد بالولادة، فليس لأحد بشكل عام أن ينتقل من فئة إلى أخرى، والتزواج بين أعضاء فئات متباينة كلن

^٣ - احتفالات تقام لإيقاف عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة والجمعيات السرية الحديثة.

عادة ممنوعا. لا تتمتع الفئات بنفس الحقوق أمام القانون؛ والجرائم التي يرتكبها أعضاء الفئات الدنيا عقوبتها أقسى بكثير من عقوبة الفئات العليا لنفس الظروف.

كانت البراهمية دين أول مجتمع هندي عبودي، كانت المعتقدات الدينية في زمن نظام المشاعة البدائي (التي وصلتنا جزئيا عبر الفارسة) تستند إلى عبادة قوى الطبيعة والإحيائية؛ انسجمت هذه العوامل مع حاجات المجتمع الجديد. وصارت الآلهة حماة الملك والنبلاء. واستخدم الكهنة فكرة التقمص لدعم أن انتقال الروح إلى جسد إنسان يتمتع بوضع اجتماعي رفيع إلى هذا الحد أو ذاك يتعلق بسلوك الدفين. كان العامل نفسه إذن مسؤولا عن النير الذي يلحقه وعن الشروط السيئة في حياته. وبنت البراهمية الدولة على التعاليم المقدسة، وسمو شخصية الملك، وأبدية الظلم الاجتماعي (نظام الفئات *varnas*)، إلخ. وشيئا فشيئا ولد طقس معقد، وكان إتمام مختلف مستحقات العبادة يتطلب إعدادا نوعيا.

أمام تقطيع أو تقسيم الدولة وعدد القبائل الكبير لم يكن لدى البراهمية إله أعلى بل عدة هرميات من الآلهة. كان الإله الأعظم سيفا *Civa* تارة، مجسدا قوى الطبيعة (يرتبط هذا الإله أيضا بعبادات قديمة جدا للخصب)، وحينما فيشنو *VichnouK*، حارس كل الموجودات وواحدا من أقدم تشخيصات الشمس. وحاول الكهنوت أيضا أن يضع في رأس البانتيون براهما، خالق العالم، لكن يبدو أن عبادته لم تدم.

الهند في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد

لقد رسم النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد بحروب مستمرة بين دول الهند. كما بدد تطور القوى المنتجة وعلاقات العبودية بالتدريج بقايا نظام العشير وصارت الدول ذات طبيعة استبدادية. وفي أواسط الألف الأولى كان في شمال الهند عدد الدول الكبرى المستقلة قليلا نسبيا، وتتابع هذا التقلص، وشيئا فشيئا ابتلعت الكيبرات الصغيرات.

انتهى صراع مرير بين الدول الأعتى -كوسالا وماغادا- بظفر الأخيرة. وفي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، امتدت سلطة ملوك ماغادا على كل وادي الغانج وقسم من الهند الوسطى؛ وصارت ماغادا الدولة الرئيسة في الهند.

وفي أواسط الألف الأولى قبل الميلاد، ضاعفت الهند علاقاتها مع البلدان الأخرى. وفي نهاية القرن السادس احتل ملك الفرس دارس الأول قسما من وادي الهندوس. وانضمت محافظة هندية إلى إمبراطورية الأشمنيد.

وراح يزداد زوار الهند الأجانب من البحارة والتجار. وبعد رحلات طويلة في الأقاليم الجبلية، والصحارى التي تلهبها الشمس أو اتساع البحار، بدت البلاد بنظرهم أغنى وأكثر خرافة مما هي . وحدث أن ابتكروا في هذا الموضوع قصصاً ليزيدوا دهشة السامعين. وهكذا بدأوا ، في العام ٢٠٠ ق.م يتصورون الهند كـ"بلد العجائب"، وكان هذا التخيل قوياً بحيث حفظ جزئياً حتى أيامنا.

بهذا التقويم المفرط لثروة الهند التي، إضافة إلى عوامل أخرى، حرضت المقدونيين واليونان على غزوها في العام ٣٢٧ قبل الميلاد، بعد أن حطموا إمبراطورية الفرس. ولم يكن شمال غرب الهند يؤمئذ يمثل أي انسجام سياسي. ونجح إسكندر المقدوني أن يقيم حلفاً مع بعض ملوك الهند المتنازعين مع بعضهم البعض. وحرر بورس، أحبد أقوى ملوك البنجاب، الذي رفض الخضوع، حرر في معركة ضارية. وكان الإسكندر ينوي استمرار الزحف نحو الشرق، واحتلال وادي الغانج. لكن أمام مقاومة الهنود الشرسة، رفض الجيش المقدوني، الذي أصنفته المعارك، رفض الخضوع لقائده. واضطر الإسكندر أن يقاتل متراجعاً وغادر الهند. بعيد هذا، بدأ التنازع بين القادة المقدونيين والملوك الخاضعين؛ وتمرد السكان الأصليون على الأجانب. ومنذ العام ٣١٧ قبل الميلاد، لم يبق في الهند أي حامية مقدونية.

البوذية

في منتصف الألف الأولى قبل الميلاد بينما كان نظام العبودية متطوراً في الهند انبعثت عدة دول هنا، ولم تعد البارهمية ترضي مالكي العبيد.

فانبثق دين جديد، البوذية مشتق من بوذا: الـ"ملهم"، لقب المبشر الذي كان ينسب إليه، في الخرافات، مبدع الشريعة الأساسية للدين الجديد)، انبثق في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد؛ كان رصيد النزاعات المتفاقمة أكثر فأكثر في أحشاء المجتمع، التي يستدعيها تطور العبودية، وتشكل دول الاستبداد المؤسسة على استثمار العبيد، واشتداد حدة الظلم الاجتماعي. وفي الدين البوذي، ليس للكادحين سوى أفق واحد هو روحهم، والتخلي عن كل محاولة لتبديل العلاقات الاجتماعية.

وتبنت البوذية موضوعات التقمص. وهنا، الحياة شر كلها، أن تعيش يعني المعاناة. يجب إذن الجهاد لوقف تطور انبعاثات النفس المتتابة، المفضية إلى النرفانا، أي كبح

النفوس. يتم بعث النفس حسب الأفعال التي جرت في أثناء الحياة السابقة، وسلوك الإنسان هو نفسه نتيجة لرغباته. إذن، بالعزوف عن الرغبات نصل إلى النرفانا. وأولئك الراغبون في "نجاتهم"، يجب أن يهربوا من مبادئ الدنيا ويصيروا كهنة.

لا ترى البوذية أن الآلهة تحمي الناس ولا التضحية لهم؛ لا جدوى من الكهنة، فكل منا بوسعنا أن ننفذ نفسه من البعث بوسائله الخاصة. والأصل الرفيع، الانتساب إلى هذه الجماعة أو تلك، أو أن تكون عضواً في فئة أو شريحة، لا تلعب أي دور في ولوج النرفانا. العبد فقط محروم منها، لأنه، حتى ولو بالرغبات، يبقى غير حر بأفعاله.

كانت البوذية تنتشر السلبيّة، والقبول المذعن للواقع، وتجريد المضطهدين أخلاقياً من سلاحهم في نضالهم ضد مضطهديهم، وليس فقط لم تتعرض للحرمان والمعاناة (ليس ثمة إلا بين الكهنة)، بل صارت منذ القرن الخامس قبل الميلاد دعامة للنبلاء العبوديين، بينما كانت رابطات الكهنة تتلقى عطايا وهبات أكثر فأكثر كرماء. في هذه الحقبة، لم تعد الولادة السامية، ولا الانتساب الواقعي إلى هذه القبيلة أو تلك، دوراً أساسياً. المهم الثروة، امتلاك العبيد. لهذا، قدمت البوذية، التي كانت أرقى من العبادات القبلية، أساساً أيديولوجياً جديداً للدول العبودية الكبرى التي تتشكل. فضلاً عن هذا، راح الكهنة، المنظمين جيداً والانضباطيين، يخدمون بفاعلية السلطة، الأمر لم يتيسر للكهنة البراهميين الموزعين والمنقسمين أبداً.

إمبراطورية المورياس Mouryas

كان على رأس الانتفاضة ضد المقدونيين، التي شبت في شمال غرب الهند، أحد كبار رجال الدولة الذين لم تعرفهم الهند: تشانداغوبتا. رغم أن شخصيته ونشاطه ترك أثراً عميقاً على معاصريه وعلى الأجيال التالية، لا نملك سوى القليل من المعلومات لكي نفيه حقاً. كان ينتسب إلى شريحة الكودرا، أي الرابعة، حثالة المجتمع، وكان يعمل في كنف ملك ماغادها، لكنه لم ينسجم معه، هرب إلى البنجاب، حيث نظم عصياناً ضد المقدونيين. ولما تكلم العصيان بالنجاح (وحتى قبل)، قاد حملة ضد ماغادها. يذكر الباحثون عدة تواريخ مقاربة للعام ٣٢٠ قبل الميلاد)، ثم أزاح الأسرة المالكة الهانداس Handas واحتل العرش. كان اسم أسرة تشاندر اغوبتا هو موريا، لذا سميت الإمبراطورية والأسرة اللتان أسسهما: موريا. ثم قدر أن يخضع الشمال كله (وربما قسماً من الجنوب) وأرسي دعائم الدولة الأوسع في الهند القديمة.

أخذت إمبراطورية المورياس أوج اتساعها في أيام أسوكا (٢٧٣-٢٣٧) حفيد تشاندرأغوبتا. إذ ضمت الإمبراطورية الهند كلها (عدا منطقة تقع في جنوب شبه الجزيرة) وأفغانستان الحالية.

في هذا العهد، أنجز الشعب الهندي إنجازات ضخمة في تطوير القوى المنتجة. يدحر الحديد المستخدم نهائياً المعادن الأخرى في صناعة أدوات العمل. وتصير حراثة التربة قاعدة الحياة الاقتصادية؛ ولم تعد تربية الدواجن سوى رافد للزراعة؛ ويفقد الصيد والقنص أهميتها أيضاً. ويتطور الري ويتقن. وجنى الصناعيون العاملون في المعادن، وناسجو القطن، معمرو السفن النهرية والبحرية خير النتائج. وراجت التجارة الداخلية والخارجية: التجارة البحرية مع مصر، ميزوبوتاميا، سيلان وبلدان جنوب شرق آسيا؛ وتجارة برية مع إيران وبلدان آسيا الوسطى. وتدخل في التداول نقود نحاسية وفضية. وتتسع المدن، أي مراكز حضارة الهند العبودية. ويشير اليونان الموجودون آنذاك في الهند، في كتاباتهم إلى عددها الكبير وغناها وامتداد باتالپوترا *patalipoutra*، عاصمة ماغادا.

لم تكن الهند العبودية، حتى في أيام ملك مورياس (القرن الرابع - الثاني قبل الميلاد)، متطورة مثل بلدان العصر القديم الكلاسيكية. فليس فيها مزارع كبيرة ولا ورشات واسعة توظف جمهرة من العبيد. على ذلك، كان العبيد كثيراً. كانوا يعملون في أملاك الملك، النبلاء وفي الإقطاعات الصغيرة، بل بخاصة في الاقتصاد الخدمي، حيث لا يختلف شرطهم في شيء في الغالب عن شرط الخدم، وعدم كفاية الإنتاج البضائعي وقوة بقايا نظام المشاعية البدائية أعطت العبودية خصيصة الأبوية.

وما كبح بعنف تطور علاقات العبودية هو ثبات المشاعية، الناجم عن طبيعة الإنتاج: إن أعمالاً مثل تجفيف أو إرواء مساحات واسعة، وضرورة حماية حقول القمح من العصفافير والدواب الأليفة، من الكواسر، واستصلاح الأدغال، إلخ، كانت تتطلب جهوداً تعاونية جيدة التنظيم، وخاصة إذا أخذنا بالاعتبار المستوى لتلك الحقبة. كل هذا أوقف فرق الثروة والشرط وصان ملكية الأراضي الجماعية. فضلاً عن هذا، كانت المشاعة منظمة مستقلة إلى نقطة معينة: اقتصادياً، كانت قليلة الاتصال بالمدينة. والتجارة، التي كانت تتطور في الداخل، لم تكن تخصصها أبداً. كان لها إدارتها الخاصة، الانتخابية أو الوراثية. وأتوات الدولة كانت تقع على المشاعة كلها وليس على كل فرد على حدة.

كانت إمبراطورية المورياس مؤلفة من قبائل وجماعات أثنية متباينة جداً من حيث التطور والرقى. وبحسب مانعرف، لم يكن عندهم نظام إداري وحيد. فالقبائل والدول الخاضعة كانت تبقى مستقلة ويتوجب عليها دفع الضريبة فقط وتجهز السرايا العسكرية. ولمراقبة الملوك الملحقين، أقيمت حكومات في مختلف البقاع.

كان العاهل يستند إلى الجيش. يقول الكتاب الإغريق أن تشاندرابوتا يقدر، في حالة الحرب، أن يجهز جيش من ٦٠٠ ألف رجل مشاة، ٣٠ ألف خيال و ٩٠٠٠ فيل. فكانت صيانة الجهاز الحكومي والعسكري تكلف غالباً. وللنهوض بهذه الأعباء كان الملك يفرض الضرائب مستغلاً المشاعات (كان المبلغ المطلوب بـ ٦/١ الموسم) ويعين مكوساً على التجار. وكان العاهل يزيد الضرائب على الأراضي الملحقة ويقبض من عائدات أملاكه الشخصية. فضلاً عن هذا، كان الناس الأحرار ملزمين بأعمال السخرة.

وتصير العبودية القاعدة الايديولوجية في إمبراطورية المورياس في أيام ملك أسوكا. ويهتدي هذا إلى البوذية ويعمل لنشرها في الهند وغيرها؛ وقدّر أن يدعم المنظمة الدينية. ومعلومات هامة تاريخية عن هذا العهد موجودة في مدونات أسوكا، محفورة بالصخر وعلى الأعمدة، حيث يمكن قراءة أوامره فيما يخص مراقبة مبادئ البوذية الأخلاقية (خضوع للسلطات، الاحترام، الالتزام بطهارة ونقاء الفكر وتجنب العار، إلخ).

رغم جهوده، لم يستطع أسوكا أن يؤسس دولة متينة وموحدة. وما أن مات، حتى سقطت الإمبراطورية في هاوية الانحطاط. وفي حوالي العام ١٨٧، أزيح عن العرش أخو ممثلي الأسرة وقتل بيد القائد العسكري الذي أرسى أسرة جديدة، هي سونغا *Counga*.

ليست الأسباب الداخلية وحدها جلبت انحطاط إمبراطورية المورياس. بل الهزائم في السياسة الخارجية أفضت إلى هذا أيضاً. وفي بداية القرن الثاني قبل الميلاد، توغل يونان بكتريان في الهند واستقروا في البنجاب. وفي نهاية القرن الثاني قهرهم المساجيت *Massagets*، إحدى رعايا آسيا الوسطى، ودعوا في الهند الساكاس *les Sakas*. أخضعت هذه القبائل شمال غرب البلاد وربما حتى بعض أراضي الهند الوسطى.

إمبراطورية الكوشان وإمبراطورية غوبتا

بدءاً بالقرن الأول بعد الميلاد، سادت إحدى قبائل الساكاس. استقرت على أرض طاجاكستان الحالية، وعرفت في التاريخ باسم كوشان. وفي منتصف القرن الأول بعد

الميلاد، شرع الكوشان بفتح الهند، أخضعوا الدول الصغيرة في شمال البلد، حكموا بملوك البارث أو الإغريق. وفي بداية القرن الثاني، تملك إمبراطورية الكوشان كانشكا (٧٨-١٢٣) مساحة شاسعة من آسيا الوسطى، من سن-كيانغ، من إيران الشرقية ومن الهند ذاتها، حتى نهر نربودا في الجنوب، وحتى مدينة بيناريس في الشرق. كانت العاصمة بوروشابرا (اليوم بيشاور)، الواقعة على درب الكبير الذي يصل هند الكوشان بأقاليم آسيا الوسطى.

كانت هذه الدولة، عديدة القوميات، مركز تبادل ثقافي واسع النشاط والمدى. فقد أفاء الهنود من حضارة شعوب آسيا الوسطى (في فن العمارة والفنون التشكيلية)، ومن جهتها مارست الهند تأثيراً واسعاً على الشعوب الأخرى. ماثل الكوشان بسرعة الحضارة الهندية. وصار للبوذية أنصار بينهم. كان كانيشكا رائداً متحمساً. بنى عدة أديرة، وأمر بتشيد المعابد، شجع نشاط المبشرين؛ ومن مجمع بوذي، تلقى هذا الدين صيغة جديدة: الماهايانا. ومنذئذ، انتشرت البوذية في آسيا الوسطى والصين.

لم يتيسر لإمبراطورية الكوشان، المؤلفة من أعراق عدة، أن تعيش طويلاً. تصدّعت بعد موت كانيشكا وحوالي العام ٢٣٠ صار أولها أكيداً.

في منتصف القرن الرابع، ظهرت إمبراطورية غوبتا: وكانت آخر دولة كبيرة عبودية في الهند. بقي المركز في ماغادا، وكما في أيام أسرة المورياس، العاصمة هي باتالپورا. ومؤسس أسرة غوبتا عاقل من المرتبة الثانية، ملك في ماغادا: تشاندرا غوبتا الأول (٣٢٠-٣٣٠). نجح في بسط نفوذه على ماغادا كلها. وقد سير ابنه، سامودرا غوبتا (٣٣٠-٣٣٨) عدة حملات مظفرة وأخضع عدة ممالك من وادي الغانج الأعلى والهند الوسطى. نهب الكثير من الهند الجنوبية، ودمرها حوالي منتصف القرن الرابع.

بلغت إمبراطورية غوبتا أوج مجدها في أيام ملك تشاندراغوبتا الثاني (٣٨٠-٤١٤) الذي احتل قسماً كبيراً من البنجاب وبقاعاً من الهند الغربية؛ امتدت دولته من خليج البنغال حتى الخليج العربي.

في منتصف القرن الخامس، تعرض شمال الهند لغزو هانس هفتاليت أت من آسيا الوسطى، تنفق إلى إمبراطورية غوبتا وغيرها. تتابع العدوان طيلة أعوام، وبجاح متباين. لكن إمبراطورية غوبتا، التي بدأت العهد الإقطاعي، لم تكن قادرة على مواجهة حروب طويلة. وفي نهاية القرن الخامس، اقتصرت سيطرة إمبراطورية أسرة غوبتا على ماغادا وبقاع في شرق وجنوب هذه الدولة. ومنذئذ، انقطعت المعلومات الخليفة بالحديث عن هذه الإمبراطورية.

أزمة العبودية وولادة الإقطاع

تجسد القرون الأولى بعد الميلاد رواجاً اقتصادياً واسعاً في الهند. في هذه الحقبة تبدأ المنطقة الجنوبية بالتطور السريع، بينما كان تطورها حتى الآن أبطأ من تطور الشمال. إذ يباشر الهنود المناوبة الزراعية، واستخدام الأسمدة، وضم أراض جديدة من الأدغال المستصلحة؛ وتطور الري. تشهد أنصاب وأعمدة من الفولاذ والبرونز، محفوظة حتى الآن، تشهد بوضوح على المستوى الرفيع لتقنية هذا العهد. تتحت المعابد في الصخر، الأمر الذي يتطلب يداً عاملة غفيرة، وحسابات معقدة وعملاً ماهراً بالحجر. كانت تجارة الهند واسعة، بحرية وبرية؛ تتاجر مع كيار بلدان العالم المتمدن، تصدر النسيج، الخزاف، الجواهر، العطور، وتستورد معادن غير مطرقة، معادن ثمينة، أحصنة، عبيداً. كان الهنود بارعين بصنع النقود الذهبية.

لكن أزمة النظام العبودي ذرت قرنهما، وانبثقت علاقات اقتصادية جديدة. إذ بدأ عمل العبيد الموظفين في الإنتاج. وعثر الكثير منهم على استخدام في القصور الملكية والنبلاء والأغنياء. وفي تلك الحقبة، يتبدى ميل لاستخدام الناس الأحرار، أعضاء المشاعات: إنه الإقطاع. وعزفت الدولة أكثر فأكثر عن أداء ديونها عيناً أو نقداً، بل استلم النبلاء أصحاب العبيد، والكهنة وكبار الموظفين أسهماً من الأرض؛ والضرائب المفروضة على المشاعات لم تعد تعطى للدولة، بل للأشخاص الذين تخلت لهم الدولة عن حقوقها. وشيئاً فشيئاً امتلك هؤلاء الأشخاص الأرض نهائياً واستعبدوا الفلاحين الأحرار؛ الأمر سهل فكل الوظائف الممنوحة تصير وراثية. وكثير من القبائل التي كانت متخلفة (بخاصة في الهند الوسطى والجنوبية) بدأت تجني عند انهيار الممالك العبودية من خيرات الحضارة وتدخل أبوابها، أي تنتقل إلى محطة جديدة هي الإقطاع دون أن تعرف النظام العبودي؛ في هذه الحالة كانت طبقة الإقطاعية تصدر من الأرستقراطية القبلية.

لدى دراسة التشكيلية الإقطاعية، ليس لنا أن نهمل دور المعابد والصوامع البوذية الذين كانوا يتلقون هبةً أملاكاً واسعة مع المشاعات التي كانت تعيش فيها. فيتحول الكهنوت البوذي رويداً رويداً إلى إقطاعيين، ويشكل أعضاء المشاعات التابعة لهم طبقة من الألقان. يقدر استعباد الفلاحين الأحرار، يتبدل وضعهم الاجتماعي: كانوا سابقاً من الشرائح الوسطى فصاروا من الدنيا.

تنبثق تبدلات هامة في المذهب البوذي. فقد تبين أن محاولات جعل البوذية دين الدولة أمر غير مجد، لأن الدول الكبرى العبودية، التي تخدم إيدلوجيتها، بدت هي ذاتها

غير وطيدة. وكان مكان انتشار البوذية بخاصة، في المدن؛ وبقي الريف أميناً للعبادات القديمة. إن اضطرار البوذية على العيش مدة طويلة بجوار هذه التقاليد، فرض عليها التحول التدريجي. ففي ماهايانا، البوذي، الرجل الذي يتبع طريق الخلاص، يضحى إلهاً كلي-العظمة تبني له معابد رائعة؛ ويسعى إلى مفاهيم جديدة: الجنة والنار، وتمارس طقوس فخمة، إلخ... وينتهي الامتداد الأعظم للبوذية مع مرحلة الكوشان. ويتقلص دورها في أيام ملك غوبتا. تتبدى مقاومة الإقطاعي أكثر فأكثر؛ وتأتي هذه العبادات لتستبعد البوذية. إن هذه العبادات هي نفسها التي ولدت هذا الحشد من المعتقدات الدينية التي تسمى عادة هندويزم، الدين الأكثر انتشاراً في الهند.

الشرائح المغلقة

في أثناء القرون الأولى بعد الميلاد يتشكل تدريجياً نظام الشرائح المغلقة. إنها الشرائح المغلقة بشكل مطلق، التي تشغل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية موقعاً متميزاً بالعرف والقانون؛ كان الانتساب إلى إحدى هذه الشرائح بالولادة. وبينما ولدت الفئات أو *Varnas* على أثر تفاقم الظلم الاجتماعي، صدرت الشرائح المغلقة عن تقسيم العمل.

فالتقسيم الاجتماعي للعمل حتى بشكله البدائي، أفرز فئات مختلفة من الناس، يركن كل منها إلى دائرة نشاطه. طالما استمرت المشاعة الريفية وعاشت بقايا قوية من إيديولوجيا القبيلة، لن يتيسر لهذه الفئات أن توطد أقدامها إلا بالإفادة من تنظيم وإيدولوجيا المشاعة. يقرأ هذا في الاسم الذي تحمله هذه الفئات الاجتماعية: "جاتي *Jati*" التي تعني ذرية، قبيلة أصل، ويبدو أن كلمة *Caste* البرتغالية هي الترجمة الأكثر دقة.

ليس لأحد أن يتزوج من شريحته المغلقة؛ مبدئياً تمارس كل شريحة مهنة محددة ولا يجوز الانتقال إلى أخرى؛ ولها إدارتها الداخلية الخاصة بها؛ التضامن المتبادل متوجب على الأعضاء، الذين يقومون جماعة بالتعبد الديني، ويسيروا دورة العمل، ويراقبون قواعد العلاقات القائمة بين الأعضاء مختلف الشرائح، إلخ... كانت الشرائح تولد في إطار الظلم الاجتماعي، بينما الفئات موجودة قبلاً. فليس لها إلا أن تشغل وضعاً اجتماعياً متناظراً. عادة، تتشكل الشرائح بداية في أحشاء الفئات التي تضم الشعب الكادح: الوسط والعامة؛ بين البراهميين، لا تتطور الشرائح مطلقاً. تشمل الفئات الوسطى شرائح يحترث أعضاؤها أرض الدولة ونبلاء العبودية ويخدمونهم كعمال مستقلين أو مختصين مهرة: مزارعين، تجار، صناعيين مرتاحين، إلخ. والشرائح التي كانت بخدمة الشرائح الزراعية (أي الرعي، حرف قروية، إلخ)، وتلك التي تمارس في المدن مهناً أقل امتيازاً (حدادين،

فخارين، نساجين، إلخ.) كانوا من الفئات الدنيا، العوام.

القبائل المتخلفة والمنتشرة في مناطق قليلة الإنتاج من وجهة الاقتصاد، تفتقد إمكانية الانتقال إلى مرحلة أرقى اقتصاديا. كانت مكتفية بالعيش من الصيد، القنص، اقتصاد الغابة، إلخ. وإن رحلت إلى المدن أو القرى واستقرت تعمل الأعمال الأقل تخصصا، الأقل أجواء، والأكثر امتهانا (مياوم، كناس شوارع، جامع قمامة، حفار قبر، جلد، إلخ.). شكلت هذه التل الاجتماعية شرائح عديدة "المنبوذون" لا يجوز لأعضاء الشرائح "النقية" أن تتعامل معها؛ وإلى هؤلاء "المنبوذين" ربما انضم العبيد السابقون، الذين كان يقيمهم السادة على أراضيهم. والطبقات المستغلة، المهتمة كثيرا بعزل العمال، كانوا يشجعون ويدعمون مختلف الشرائح المغلقة، بخاصة أولئك الذين لم يرثوا شيئا، الأكثر استثماراً: المنبوذون".

حضارة الهند القديمة

إننا مدينون لشعوب الهند مساهمتهم الجلية في الحضارة العالمية. فقد أعطى علماء الرياضيات العالم نهج كتابة أعداد مقبولة بعامة حتى اليوم (نهج أو قيمة الرقم فسي العدد تتعلق بمكانه)، كذلك بعض الأرقام (بخاصة الصفر) التي اقتبسوها من شعوب الشرق الأدنى والمعروفة في أوربا بصيغة لا تتغير وباسم "أرقام عربية". وكان الهنود القدماء يعرفون استخراج الجذور المربعة والمكعبة، ويحسبون بشكل دقيق العدد ٣٣، وكانوا يدركون القوانين الجذرية لعلم حساب المثلثات. واقتبست الشعوب الأوربية للقرن الوسيط عناصر الجبر من العرب، لكن هؤلاء يعترفون أنهم تعلموا هذا من الهنود.

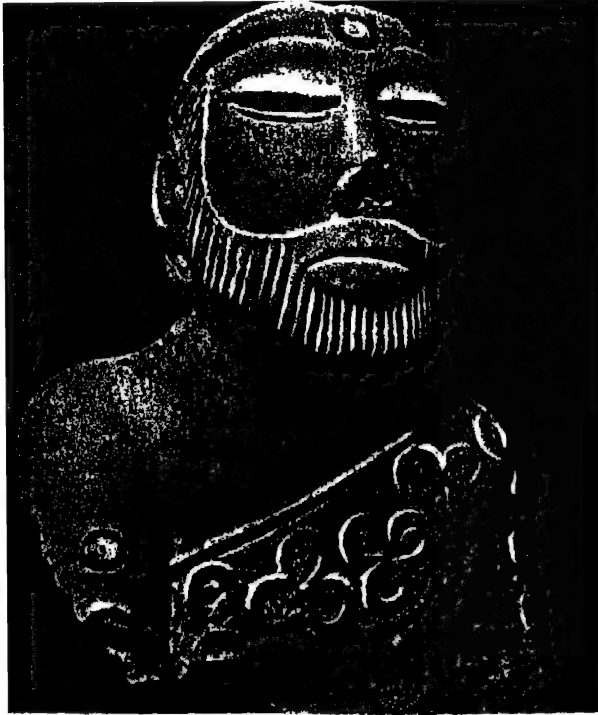
لقد ابتكر سكان الهند القدماء الكتابة التي تشكل الأساس للشكل الخطي لدى أكثر شعوب الهند الحاليين. ومنذ القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وضع عالم النحو والصرف البانييني أسس علم اللغة، المجال الذي قدم فيه الهنود نتائج ضخمة.

كما مهر هنود العصر القديم في الفنون التشكيلية: الحفر والجداريات. وثمة رسوم رائعة من القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن السابع بعد الميلاد محفوظة في معبد أجانتسا المحفور في الصخر (دولة حيدر أباد).

أدب الهند القديمة غني ومتنوع. وفي القرن الأول بعد الميلاد كتبوا بالسنسكريتية، لغة أدب الهند متعددة الشعوب مهاراتا وراماياتا، قصائد ملحمية تقص مآثر الأبطال وتتضمن العديد من الخرافات القديمة جدا، تستلهم شعراء وفناني الأجيال السابقة. ومنذ زمن قديم أو بعدئذ، ربما، أدركوا ودبجوا لأول مرة قوانين، أشهرها ذلك المسمى "قانون مانو" *Lais de Manou*، نسبها كاتبها لسلف خيالي؛ مقولات في مختلف فروع العلم تعيش حتى اليوم؛

اللغة الشاحبة المستخدمة في كتابة الأعمال الأساسية للأدب البوذي. ولقد تفتح الأدب السنسكريتي في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد، يوم أزهرت موهبة كوكبة من ألمع الكتاب، أشهرهم الشاعر والمسرحي كالدازا

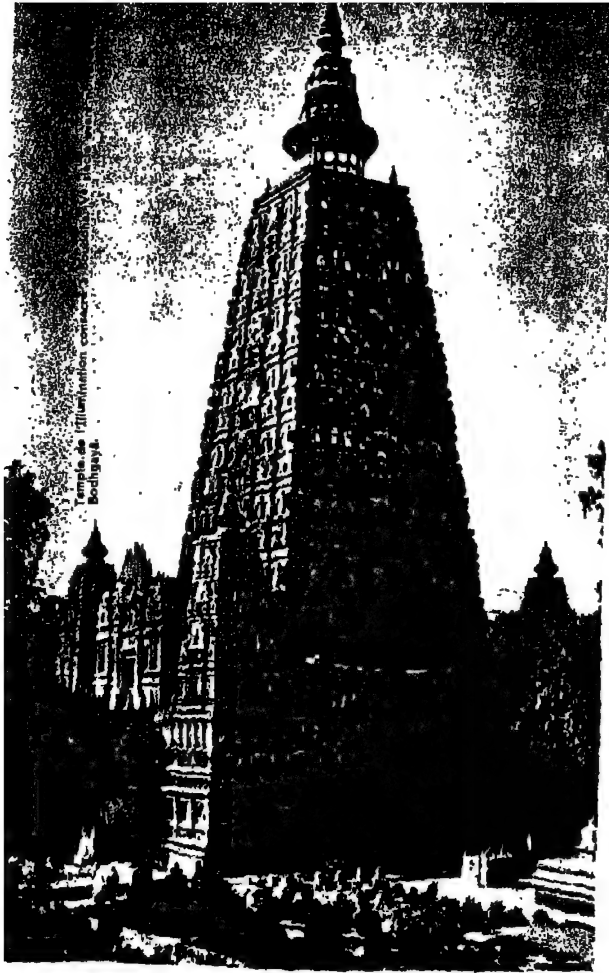
منذ زمن سحيق -ربما منذ النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد)، ولدت فسي الهند فلسفة مادية ترفض اللاهوت والمثالية. كان روادها يؤكدون واقعية العالم المعاش و يرون في وعي الحواس المصدر الوحيد للمعرفة والوسيلة الوحيدة للإثبات والبرهنة. وينكرون خلود النفس أو الروح، التقمص والآخر، ويهزؤون من الطقوس والأضاحي. كما نقل عدد كبير من المهاجرين المستقرين في جنوب-شرق آسيا (سيلان، الهند الصينية، وأندونيسيا) إلى أبناء البلد إنجازات الحضارة الهندية. وقد أفادت شعوب آسيا الوسطى والشرق الأدنى من الروائع التي خلقتها الهند، بلد الثقافة القديمة المتألقة.



كاهن هندي



تمثال بوذا



معبد بوذا

الفصل التاسع عشر

الصين

المناهل

إن دراسة التطور الاجتماعي والاقتصادي للصين القديمة صعب بطبيعة الكتابات التي وصلتنا. كثير من النصوص ضاع نهائياً، أو تعرض لكثير من التحوير أو التحريف، بل التفسير، إلخ.، انسجاماً مع مصالح الشرائع الحاكمة، ويستحيل غالباً تجديد الأصل. غير أن أسفاراً هامة لتاريخ الصين القديم مثل "كتاب الأشعار"، "كتاب الحوليات"، و"حوليات ملكة لو"، المنسوبة تقليدياً لكونفوشيوس، ثلاث كما يبدو النماذج الأولى السابقة. مثل "شي-كنج"، المجموعة التي تتضمن أكثر من ٣٠٠ أغنية شعبية ودينية، أبدعت بين القرنين ١١-٧ قبل الميلاد. هي منعكس كدح، أفراح وأتراح فلاحين، أعضاء مشاعات، احتجاج على الموظفين الكواسر، أضمومة من الدوافع الوطنية، مشاهد حياة يومية لبسطاء الناس ونبلائهم.

السفر الأول في تاريخ الصين العام حبره قلم أكبر علماء العصور القديمة سوما-تسيو (بين سنتي ١٤٥-٩٠ قبل الميلاد). وهو ابن أحد فلكيي القصر، رحل كثيراً عبر البلاد، مسجلاً بعناية بالغة التقاليد، جامعا الوثائق وكل ما يمكن أن يجلو له أعراف وعادات سكان الصين والبلدان المجاورة. كانت "مذكرات تاريخية" عمل حياته كلها. عمل عن حقبة تبدأ من الإمبراطور الخرافي هوانغ-تي حتى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد؛ يتضمن السفر ٣٠ مجلداً مقسمة إلى خمسة أبواب: حياة الأباطرة، علم الأنساب وعلم تسلسل الأحداث تاريخياً، معلومات مختلفة حول الطقوس، العبادة، الري، النقد، الأسعار، التجارة، استغلال الأرض، حياة الأمراء، وحياة الأشخاص العظام. في هذا السفر يوضح سوماتسيو شجبه للنظام القائم. ونقرأ في هذا العمل أنباء تصدر من أسانيد غير موجودة لدى أحد. وقصة آل هان Han الذين سبقوا (تسيتان-هان-شو) التي كانت، بشكل ما، تنمة

لـ"مذكرات تاريخية"، كانت قد كتبها في القرن الأول بعد الميلاد أسرة بان *Pan*، حسب سوما-نسيان، المستخدمة نموذجا لكل التواريخ الرسمية؛ يتضمن هذا العمل ١٢٠ مجلدا. وفي القرن الخامس بعد الميلاد نشر فان إي *Fanye* تاريخ الـ"هان" اللاحقين، في ١٢٠ مجلدا أيضا.

نجد معلومات تلخيصية ثمينة في العديد من الأعمال الفلسفية مثل مانسيوس، هانفي-تسو أو في أعمال رجال السياسة مثل كوانج، ولدى المؤلفين المختصين بدراسة الأعمال الأدبية للعصر القديم، وأخيرا، في الأعمال الفلسفية.

إن معطيات علم الآثار والنقوش ذات أهمية كبرى بدراسة تاريخ الصين. وأرض الصين لم تسبر حتى الآن سبرا كافيا لكشف الآثار؛ فتنقصنا معطيات لكي نطرح منهاجيا تاريخ المجتمع السابق على ظهور الطبقات الاجتماعية. ومحطات يانغ-شاو وتانغ-تسي-إي التي تؤرخ لمرحلة وسيطة بين العصرين الحجريين الوسيط والحديث واكتشفت حوالي العام ١٩٢٠، تقدم فائدة فريدة. يفترض أنها تعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد. وفخاريات مطلية وجدت في يونغ شاو تمثل عدة تشابهات مع التي اكتشفت في أنو (تركمانيا) وتريبوليه؛ يثبت هذا أن مستوى التطور الاجتماعي والاقتصادي لهذه الشعوب كان متمثلا تقريبا.

بشان تاريخ حقبة آل شانغ (يين) تزودنا حفريات مدينة شان (قرب المدينة الحالية أنيان) بمعطيات هامة عديدة؛ فقد عثر، بين خرائب الورشات، على قصور، معابد ومساكن خاصة، وكثير من أغراض الاستعمال الخفيف، وكتابات مرسومة على العاج، على القواقع وعلى مشربيات البرونز. وقد فكت رموز هذه النصوص. كما أكدت دراية النقوش الموجودة في أرشيف أنيان في كثير من النقاط ما نقصه علينا الأعمال الأدبية. تأتينا التتقيات المتتابعة في الصين بعد ظفر الثورة الشعبية كل عام، خدمة للعلم، بالعديد من المعلومات حول تاريخ البلاد القديم.

شروط طبيعية. سكان بدائيون

إن الأرض التي رأت ولادة حضارة الدولة الصينية تمتد على طول وادي هوانغ-هو في مجراه الأوسط والأدنى. فمنذ ٤٠٠٠ عام، كان سهلا وحيد الشكل، محدودا من الجنوب بالجبال ومن الشمال الغربي بهضبة أوردوس *Ordos*؛ كانت تربته الغرينية الغنية بالطمي

شديدة الخصوبة. كثيرة المستنقعات، تشقها الأنهار وتغطيها الغابات الكثيفة-العذراء. في الشمال وفي الشمال الغربي كانت تتبسط سهوب منغوليا القاحلة؛ وفي الجنوب، خلف وادي يانغ-تسو-كيانغ، تبدأ المنطقة الجبلية والحراجية للصين الجنوبية. نتيجة هذا، بقي الصينيون القدماء آلاف السنين معزولين عن مواطن الحضارة القديمة. كانت غزارة المياه تفرض الري، تصريف المياه، ومصارعة الفيضانات. لذا كان الصينيون ينسبون لبطل أساطيرهم البدائية مآثر تتعلق بترويض الأنهار، بناء السدود وحفر الأقبية.

والأرض الصينية مسكونة منذ أقدم العصور. وفي مغارة شو-كو-تيان (قرب بكين)، اكتشفت بقايا إنسان الصين الذي شكله الخارجي، يشبه إنسان جاوا. لكن إنسان الصين كان قد عرف النار، وكان يصنع أدوات ضخمة من الحجارة ويقتنص الحيوانات الضخمة.

في الطبقات العليا لهذا الكهف ذاته، عثر بي-أوان-تشونغ على بقايا إنسان يشبهنا بدينيا وكان يعيش بين الألف ٢٥ و ٥٠ قبل الميلاد.

أخيراً، كان بناء ثقافة العصر الحجري الحديث في يانغ-شاو بدون شك جدد الصينيين. وحضارة أولئك الذين اكتشفت بقاياهم في طبقات كهف شو-كو-تيان تعود إلى العصر الحجري الأعلى. وأدوات الكوارتز، والقواقع المجموعة في شو-كو-تيان تكشف وجود شكل بدائي من التبادل. بهذا الصدد، دور القواقع هو الذي يوجز أو يحدد، لأن تعبير "قوقعة" موجودة في الهيروغليفية وتشير إلى مقولات "نقد"، "تجارة"، "ثروة"، إلخ. والعصور الحجري الحديث والحقبة الوسيطة بين هذا الأخير والحجري الوسيط معكوسة في الصين في حضارة يانغ-شاو متميزة بخزفيات عديدة الألوان، وحيدة الصنع. وكان يانغ-شاو، المجتمعون في تعاونيات عائلية، يعيشون في كهوف محفورة في الأرض ويحفرون الأرض بالمنكاش (ويبذرون الذرة البيضاء والصفراء)؛ يصطادون، يربون الكلاب، الخنازير، الأحصنة ويأسرون حيوانات وحشية. وفي محطات يانغ-شاو الأحدث (الألف الثانية قبل الميلاد) تظهر أسلحة برونزية: سيوف، خناجر.

كانت القرى مبنية على التلال ويحيطها سور ترابي ليحميها من هجوم الأعداء. ومن الملفات العثور غالباً على تعبير "تلة" في الهيروغليفية التي تشير إلى أسماء المدن القديمة.

إمبراطورية آل شانغ أو آل يين

إن انتشار استخدام الأدوات النحاسية والبرونزية، وظهور زراعة الأرز، والقزازة (تربية شرانق الحرير الخام) أفضت إلى تفكك نظام العشير، إلى تشكل الطبقات الاجتماعية وإلى ولادة دولة العبودية القديمة في أيام حكم آل شانغ (آل يين) (١٧٦٦-١١٢٢). كانت هذه المملكة تشغل وادي السريير الأوسط لهوان-هو من حيث ينعطف النهر ويتجه نحو الشرق.

ثمة عدة مصادر تخولنا تمييز النظام الاجتماعي والاقتصادي. في أساس الاقتصاد كان يوجد، كما يبدو، نكش الأرض بالمنكاش. والتربة الغرينية، الناعمة والخصبة، المشغولة بأدوات بدائية من الخشب والحجر، تعطي أيضاً موسماً وفيراً. فضلاً عن الزراعة، استمروا بممارسة الصيد والقتل. وتشير آنيان الإلهية أن القناصين أثناء الاحتفال على الطرائد لحشدها في مكان ما (فخ أو كمين، مثلاً)، كانوا يقتصون مئات الحيوانات من مختلف الأحجام: أيائل، خنازير، إلخ.

كان التدجين يلعب دوراً هاماً في الاقتصاد. وكان الناس يربون الكبير والصغير من الدواب ذات القرون، والخنازير، والكلاب والطيور. والنقوش التي يمكن أن نقرأها حول المواد المقدمة كضحية، تشهد على توفر الدواب. يقص أحد هذه النصوص قصة مذبح من ٣٠٠ بقرة و ١٠٠ خروف.

كانت المهن قد بلغت إتقاناً واسعاً. فالبرونز يستخدم في صناعة الأسلحة، وأوان شعائرية، وبعض القطع للعربات. وأكواب وجرار وأوعية أخرى مصنوعة على طريقة صنع الفخار، والغضار الأبيض من كمية استثنائية، كانت تشوى بعدئذ وتطلى، تشهد على تطور الخزف. والخيوط الحريرية المجتناة من الشرانق كانت تستخدم في النسيج. والإتقان الذي يميز كثيراً من مواد تلك الحقبة، يتطلب تدريباً صعباً وطويلاً، الأمر الذي يبرهن على انفصال المهن عن الزراعة. وفي العاصمة، كان ثمة أحياء يسكنها الصناعيون فقط: فخارون، سباكون، نحائون، غزالون، نساجون، وسواهم.

المصادر التي لدينا تشير إلى وجود، في إمبراطورية شانغ، مختلف عينات العبيد. وكانت الحروب هي التي تمكن من توفرهم.

وتطور القوى المنتجة، تكديس الثروات وظهور العبودية ولدت في أحشاء العشير قلة

من الأسر المتميزة، التي تشكل الطبقة المتنفذة، المعارضة لجمهرة أعضاء المشاعة. وشيخ قبيلة أوانغ صار رئيسا وراثيا للدولة. وتدل دراسة مقبرة آنيان على وجود في مجتمع الشانغ فارق واضح في الثروة. وبين كثرة القبور الموضوعة رمس متواضع، اكتشفت صوامع تنغلق على أسلحة ومشربيات من البرونز الرائع، وأغراض من حجر اليشب. والعبيد مدفونون إلى جانب أصحابهم. فهنا أيضا اكتشفت لحود للأوانغ، مغلقة على كنوز خيالية. والمساكن المكتشفة تشهد أيضا أن الناس كانوا منقسمين إلى طبقات اجتماعية مختلفة في الملك.

كان في رأس المنتجين في مجتمع الشانغ الفلاحون المجتمعون في مشاعات جوار تحافظ على بقايا ثابتة من نظام العشير. وما تزال طريقة استغلال أفراد المشاعات غامضة حتى الآن.

في رأس الدولة كان الأوانغ (الامبراطور) الذي يجمع وظيفتي شيخ القبيلة وكاهنها- الأكبر. ورويدا رويدا، يحتل سمات الطاغية الشرقي، العاهل المطلق، مالك الأرض كلها، ممثل السماء لدى الناس. حول الأوانغ يلتئم وجوه الأرستقراطية، أفراد الأسرة الإمبريالية وأسر أخرى نبيلة من البلاد. من بينهم يعين موظفو الحكومة، والجنرالات، وغيرهم.

والملاحظات الأولى الفلكية، الضرورية لتقويم الأعمال الزراعية، وضعت في عهد الشانغ. وأحد أهم الاستحقاقات في هذه الحضارة هو ابتكار الكتابة الهيروغليفية، المنسوبة للإمبراطور الخرافي فو-هي Fou-Hi؛ والتي اشتقت منها الكتابة الصينية الحديثة.

مفاهيم الامبراطور الدينية للشانغ تصدر من الإحيائية، المرتبطة حميما بعبادة الأسلاف. فالجدود، بخاصة جدود الأوانغ، كانوا غالبا ما يمثلون بشكل حيواني، وهذا من بقايا الطوطمية. مثلا فو-هي كان بجسد أفعى، بينما كان رأس مبتكر الزراعة شن-هونغ، رأس ثور. وكثيرا ما يسعون إلى السحر، ويعطون بخاصة كل أنواع التفاسير لشقوق ظهر السلحفاة المرمية في النار.

إمبراطورية آل تشو

في غرب دولة نهر وي Wei، المتفرع من هوانغ-هو، كانت تعيش قبائل التشو التي من حيث الخصائص الأكتية واللغوية، كانت تشبه، كما يبدو، آل الشانغ. في اقتصاد تشو، كانت الزراعة تلعب دورا واسعا، بينما كان الصيد والقتل أقل قيمة. وكثيرا ما كان

أباطرة الشانغ يستدعون قوات التشو العسكرية لتقاتل قبائل الشمال-الغربي الرحل. في النصف الثاني من القرن الثاني عشر قبل الميلاد خارت إمبراطورية الشانغ. تتحدث المعطيات النادرة التي بين يدينا حول هذا الموضوع عن غضب الشعب المرهق بالضرائب، ضحية الاضطهاد الفظيع والنقبات المجنونة لبناء القصور، واحتفالات الأباطرة وحاشيتهم.

وفي العام ١١٢٢ قبل الميلاد، غزا قائد التشو أو-أوانغ بجيوشه إمبراطورية الشانغ أو، في معركة طاحنة في سهب موإي (شمال-غرب هو-نان) انهزمت قوات آخر عاهل من الأسرة. واستنادا إلى الرواية الموروثة، كانت المذبحة أشبه بالمطارق الخشبية التي تسحق الذرة البيضاء السابحة في مستنقعات الدم. وبعد مقاومة قصيرة خائرة، ألحقت أرض الشانغ بدولة التشو، وسقط رهط وفير من رعاياها في أتون العبودية. ونهبت عاصمة الشانغ.

وهكذا تأسست، في نهاية القرن الثاني عشر وبداية الحادي عشر قبل الميلاد، إمبراطورية واسعة في الشرق الأقصى تشغل تقريبا وادي هوانغ-هو، أو بالضبط سريره الأوسط والأدنى، وحوض هان والسرير الأوسط والأدنى ليانغ-تسو لغتهم وتآلفت القبائل القاطنة هذه البقاع تدريجيا مع الصينيين وقبلت حضارتهم.

من القبائل الرعوية العديدة التي كانت تعيش راحلة في شمال وشمال-غرب إمبراطورية توطدت قبيلة الهوان بخاصة في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، وتوحدت مع رحل آخرين، وغزت عدة مرات صين التشو. لكن القبائل المستقرة في جنوب يانغ-تسو وسوتشوان حافظت على استقلالها. ومنعهم أسلوب حياتهم الفريد والفوارق اللغوية من الذوبان في الشعب الصيني.

على ذلك، لم تبق دولة التشو المستبدة بعيدة مدة طويلة عن التشقق. إذ كان أباطرتها يوزعون بسعة العبيد والأملاك على ذويهم وأسرهم، بل سلطوهم على مشاعات الناس الأحرار. وسرعان ما فتحت الإمبراطورية إلى أكثر من ١٥٠٠ دولة صغيرة خاضعة نظرياً فقط للإمبراطور. أممها، بدءاً من القرن السابع قبل الميلاد، شان-تونغ، شان-سي، تشو، هو-نان وهو-بي. كانت هذه الدول تتحارب باستمرار لكسب العبيد، وضم الأراضي وتأمين السيطرة.

مختلف مراحل تاريخ الصين القديمة

حسب مؤرخي الصين الإقطاعية، انقسم تاريخ الصين القديمة بعد زوال إمبراطورية شانغ إلى ثلاث حقب، مؤسسة على تعاقب الأسر: تشو (١١٢٢-٢٤٧ قبل الميلاد)، تسين (٢٤٦-٢٠٧ قبل الميلاد)، وهان (٢٠٦ قبل الميلاد حتى ٢٢٠ بعد الميلاد. وعلى غرار مؤرخي الصين للعصر الوسيط، الذين سعوا إلى تفسير أحداث قديمة جدا بروح عصرهم، رأى المؤرخون البورجوازيون أن عهد تشو-هان كان عهدا إقطاعيا. يتمثل هذا الموضوع بوضوح في كتاب المؤرخ الكبير المختص بشؤون الصين، هنري ماسبارو (الصين القديمة). يجب أن لا يغيب عن ذهننا أن ماسبارو، المؤرخ المثالي البورجوازي، لا يرى الإقطاع أبدا تشكيلة اجتماعية واقتصادية ذات قوى منتجة محددة وعلاقات إنتاجية ملائمة. إنما كان يفهم الإقطاع علاقات حقوقية تحدد الروابط بين سادة وأتباع وتجم ومن تجزئة البلاد التي، كانت موحدة سابقا لكنها تفككت إلى إقطاعات عديدة تعيش نهجا هرميا متماسكا إلى هذا الحد أو ذاك، تحت سلطة الإمبراطورية الشكلية إلى هذا الحد أو ذاك. إن أعمال ماسبارو، بوتتييه، فرانك، وباحثين بورجوازيين آخرين، الثمينة جدا من حيث توثيق ودقة بعض الملاحظات، تجعلنا نفهم أن ليس ثمة تطور اجتماعي في الصين وأن الإقطاع موجود في الصين على مدى تاريخها. على هذا الأساس ولدت فرضيات رجعية، تفرز العرقية، تقول إن الصينيين غير جديرين بالتقدم وهم مدينون للأجنبي بارتقاء حضارتهم. إنما بفعل أعمال الباحثين الماركسيين الصينيين والسوفييات، رفضت تراثات النظام الإقطاعي القديم في الصين. فاستقر، دونما جدل، أن المجتمع الصيني تطور من النظام المشاعي البدائي إلى الإقطاعية، عبر شكل إنتاج مبني على استغلال العبيد. صحيح أن حالة العلم الراهنة لم تسمح بعد بتاريخ العهود تأريخا دقيقا وصحيحا. وكثير من العلماء الصينيين يلحون حول الطبيعة الإقطاعية لمجتمع الهان وحتى تشو. مع ذلك ثمة أسباب للتفكير أن عهدي تشو وتسن يقع في قمة نظام العبودية، بينما يسجل عهد هان تفككه وولادة الإقطاع.

النظام الاجتماعي والاقتصادي لإمبراطورية التشو

يتميز عهد التشو بتطور سريع للقوى المنتجة. فحوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد يكتشف الصينيون الحديد، رغم تأخر استخدامه على مدها إلى حقبة أحدث، بين القرنين

السادس والرابع. وفي الحقول يذر غالبا الرز. والانتقال إلى حرت الرز "المائي" يتطلب وسائل ري أكثر إتقاناً. إنها زراعة معقدة جدا تتطلب الكثير من العمل والمهارة. وتبدأ الزراعة باستعمال محراث خشبي بدائي؛ وتظهر حدائق ومروج، وتتسع زراعة التوت، مع تربية دودة الحرير التي تتغذى بها.

التقنيات التي حققها بحاثة جمهورية الصين الشعبية على أرض إمارة تشو القديمة، دلت أن استخدام البرونز اتسع في الحياة العادية وفي الإنتاج. والمشرييات البرونزية، بصناعتها الحلوة، مزدانة غالبا بنقوش دينية أو توثيقية. وصكت النقود. وأتقن نسج الحرير، النجارة-الموييليا، والفخار ومهن أخرى. وفصلت، في أيام التشو، الصناعة نهائيا عن الزراعة. وعلى أثر تقسيم العمل، تتطور التجارة والمبادلات النقدية، وتتضخم المدن مثل هو *Hu* (قرب المدينة الحالية سي-آن)، ولوبي (حاليا لو-يانغ)، إلخ.

في أيام ملك التشو استمر تشكل طبقات المجتمع العبودي. ولما غزا التشو إمبراطورية الشانغ، أهدى أو-أوانغ عائلته عبيدا من أبناء البلد. وتحدثنا نقوش على أواني برونزية عن تطور دولة العبودية. "أهيك، نقرأ في أحد هذه النصوص للقرن الحادي عشر قبل الميلاد، من هذه الضواحي، ٦٥٩ عبدا، غلمان اصطبلات، حراثا وندماء. أمنحك قادة وشيوخا من البرير، أكثر من ١٠٥٠ عبدا".

كانت الحروب بين الولايات تزود البلاد بالعبيد. واستنادا إلى سوما-تسيان، عشرات ألوف الرجال اقتيدوا عبيدا في أثناء هذه النزاعات. وتطور التجارة، والنقد وظهور الربا. وطدت كلها في البلاد العبودية كديون. وكانت إدانة الناس الأحرار بتهمة انتهاك القوانين مصدرا آخر للعبيد. كان المدان يصير عبدا مؤقتا أو إلى الممات؛ وفي ظروف معينة كانت العبودية تطال ذرية المحكوم كلها. فعندما تكون التهمة ارتكاب جريمة، لا يكفي بعبودية الفلاح وحده، بل كل أسرته، وكضمانة أكيدة، جيرانه أيضا.

يما أن الزراعة الصينية تتطلب من الفلاح معرفة واسعة وكثيرا من الممارسة، كان عمل العبد هنا ضيقا. فكانوا يفضلون استخدامه في بناء السدود، في حفر الأكنية، في تشييد القلاع، وتربية الدواجن، وفي المناجم. وحسب بعض المعلومات، كان العبيد يعملون نداء. فسعة المعنى لكلمة "عبد" تعكس، كما يبدو، ليس فقط تنوع أصولهم بل أيضا تنوع الأعمال التي يكلفونه بها.

كان اقتصاد المجتمع الصيني في أيام التشو يستند إلى مشاعة الجوار، المستثمرة من الدولة والأسر الأرستقراطية. وكتابات مانشيوس (القرن الرابع قبل الميلاد) هي التي أطلعتنا على هذه المشاعة. يقول، إن الأرض تقسم إلى تسعة أسهم متساوية، وهي إجمالاً، تشبه هيروغليفية "تسينغ" التي تعني "بئر" لذا كل نهج تسينغ-تيان يعني "حقول الآبار". ثماني عائلات تستلم بالقرعة كل الأسهم. تستثمر كل أسرة السهم الذي استلمته، وكلهم، يستثمرون السهم التاسع الـ"كونغ-تيان" الحقل المشترك). كان هذا الأخير يحرث قبل غيره، ويخص موسمه الدولة.

في كتابات مانشيوس، إلى جانب السمة الطوباوية نقرأ مضمونا واقعيا يعكس أسلوب الاستثمار البدائي لأعضاء المشاعات. مع ذلك، ومنذ بداية عصر التشو، كما تشهد أغاني شي-كينغ، خلقت حقول واسعة تخص الإمبراطور ووجوه الموظفين حرثها وبزرها وحصدوها فلاحو المشاعات المستعدون وكذلك العبيد. وشيئا فشيئا ترك وأهمل نهج تسينغ-تيان، وفي أثناء الحقبة الممتدة من القرن السادس حتى الرابع قبل الميلاد، اختفت "الحقول المشتركة" من كل المناطق؛ وأسس بدلا عنها محاصصة عينية تصل إلى الثلث وحتى إلى نصف منتج الحصاد. واصطدم هذا التدبير بمقاومة المشاعات الذين ضاقوا ذرعا بنير مستغليهم الغليظ. وتعكس أغنية لشي-كينغ، من قصيدة رائعة، غل الفلاحين تجاه المستغلين، والموظفين الذين يهرولون كالجرذان إلى المواسم.

"أيتها الجرذان، أيتها الجرذان، لا تقضي قمحنا

نعيش تحت شريعتكم منذ ثلاث سنين

وأنتم لاتقدمون لنا أي خير

سنترككم بعيدا.

سنذهب إلى بقعة سعيدة

إلى بقعة سعيدة، سعيدة

وسنجد العدالة...."

كان طاغوت المستعبدون يثيرون غالبا تمرد الجماهير الشعبية.

تصدر لطبقة المهيمنة في صين التشو من المحيط المباشر للإمبراطورية (أسرته)، وكذلك طغاة كبار وصغار ونبلاء الدم. فوشائج القربى كانت تلعب دورا واسعا لتحديد

درجة النبالة. انعكس هذا في الأدب، وفضلا عن الألقاب التي تعين وظيفة ("هو": رامسي السهم)، ثمة أيضا الكثير مما يشير إلى درجة القرابة ("تسو": ابن)، بوو "Pouo": خال أو عم، إلخ). وكان ممثلو السلطة الحاكمة يرتدون البسة فخمة، ولهم حاشية وحرس شخصي. ويتلقون من الإمبراطور أو من قائدهم المحلي أرضا يستطيعون أن يستغلوها وتفرض عليهم الضرائب العينية. هذا إذا لم تقع الهبة على الأرض والفلاح.

وشينا فشيئا يحرق الأرض وينميها جماعة من الناس الجدد: هم التجار والمرابون؛ قانونا، ليس لهم على الفلاح سوى حق الحراثة، اما اقتصاديا كانوا أصحاب نفوذ واسع. الصراع بينهم وبين الأرستقراطية، إحدى شرائح الطبقة المسيطرة، وشم كل تاريخ الصين القديم.

كان نظام إمبراطورية التشو السياسي استبداديا من النمط الشرقي، بمبدأ ملكية الدولة للأرض واستغلال المشاعات. "إن المشاعات القديمة، يكتب انجلز، حيثما حلت، تشكل منذ آلاف السنين أساس شكل الدولة الأكثر تخلفا وفضاظة، الاستبداد الشرقي... وكانت الدولة التي تشكلت بعد تمزيق الصين في بداية الألف الأول قبل الميلاد، موضوعة تحت وصاية الطغاة الذين، يعون جيوشهم وإدارة عريضة، كانوا يمارسون سلطة الطبقة السائدة على المشاعات وعلى العبيد. وكانت دول الصين القديمة، كدول الشرق القديم الأخرى تغطي، حسب تعبير ماركس، ثلاث وظائف: نهب الرعايا المحلية، نهب الشعوب المجاورة وإدارة الري، التي بدونها لا وجود لأي منتج.

صراع من أجل السيطرة. تنامي نفوذ مملكة تسين

في أثناء الحروب التي لا حصر لها، تناقصت الدول كثيرا، وحوالي نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. لم يكن قد بقي منها سوى عدد ضئيل. كانت خمس دول الأوسع والأعتى تتصارع على السلطة باستمرار. وخلال هذا الصراع، برزت سلطة دولتين: دولة التسين ودولة التشو. كانت مملكة التسين تشغل تقريبا أرض إقليم شان-سي الحالية. كانت دولة غنية، لأن تجارتها كانت رائجة مع القبائل، تشتري منهم العبيد، الدواب، الجلود وتبيعهم الحديد، الحرير، الملح والمنتجات الحرفية. ولقد قويت التسين بخاصة بعد

⁴ - ف. انجلز، انتي-دهرينغ، ص ٢١٢.

ممارسة إصلاحات شانغ إيان، أحد رجال السياسة الأعظم في المملكة، إصلاحات أمكن تنفيذها بتطور المبادلات التجارية والنقدية وباندفاع الاقتصاد. أهم هذه التدابير إلغاء نهج "تسينغ-تيان" (٣٥٠ قبل الميلاد)، ووضع ضريبة عينية وإجازة بيع وشراء الأرض بحرية. وهكذا دفع شانغ إيانغ إلى الأعلى قوة التجار والمرابين (النبلاء "الجدد")، وأمكن إحياء أراض كانت عذراء.

لقد أفضى إلغاء نهج "تسينغ-تيان" إلى تكديس الأرض بين يدي النبالة "الجديدة" وخراب الناس الأحرار في المشاعات. وبعد نهبهم، صار هؤلاء عبيداً. صارع شانغ إيانغ ضد امتيازات أرستقراطية الدم القديمة وسن قانوناً، يقول إن الألقاب لا يجوز أن تعطى لأحد حسب أصوله بل حسب قيمة خدماته في الحرب. وهكذا حمى شانغ إيانغ المهاجرين الآتين من البقاع المجاورة، الأمر الذي أدى إلى نمو وبحبوحة شعبية.

لتفتيت المشاعات وإضعاف أرستقراطية الدم، اتخذ شانغ إيانغ تدابير هامة، مثلاً تدويب العائلات الأبوية وتنفيذ قسمة جديدة في الإدارة الأمر الذي قلب أراض العشائر والقبائل القديمة. وفي هذا العهد، جندت مملكة التسين العديد من الأتباع المتطوعين من بين القبائل الرحل. وسحبت من الناس الأسلحة البرونزية واستبدلت بأسلحة حديدية.

واتساع قاعدة طرق الاستعباد في الإنتاج، وانطلاقة الاقتصاد وتقوية الطبقة الحاكمة حول التسين العبور بجرأة إلى سياسة الفتح؛ من ثم، خلق أول سلطة ملكية متركزة في الصين. قامت مملكة تشو على المجرى الأوسط لنهر إيانغ تسو. اعترضت هذه الدولة الواسعة والكثيفة السكان، التي تمتلك جيشاً جراراً، اعترضت تدابير تسينغ التوحيدية، خصمها. في هذه الحالة، كانت حاجات ضاغطة تفرض التوحيد. إذ كان الصراع في أوساط الطبقة الحاكمة يمزق البلاد ويدمر قواها المنتجة؛ فلجأ الفلاحون، وقد حرموا من مصادر العيش، لجؤوا إلى الجبال والغابات وشكلوا فصائل مسلحة بذرت الرعب بين أصحاب العبيد والتجار.

فتكفلت مملكة التسين بتوحيد البلاد. وابتلعت بالتدريج الدول الأخرى. كانت الحروب تدور بقسوة غريبة. مثلاً عندما خضعت إمبراطورية التشو للتسين، أبيد جيشها المؤلف من ٤٠٠ ألف عنصر. ونجح الحكام وذووهم. وفي العام ٢٢١ قبل الميلاد، أعلن حاكم دولة تسين إمبراطوراً على الصين وسمي (إمبراطور تسين الأول). وتوحدت البلاد.

إمبراطورية تسين (٢٤٦-٢٠٧ قبل الميلاد).

وطد شي هوانغ-تي الملكية المركزية وخلق التيارات الانفصالية لدى نبلاء الدم الذين فقدوا دورهم منذ توحيد البلاد. قسم الإمبراطورية إلى ٣٦ ولاية ومنع ذكر اسم الممالك القديمة. وطبقت قوانين شانغ إيانغ في كل الإمبراطورية. وأدخل شي هوانغ-تي نهجا واحدا للمقاييس والأوزان لكل البلاد ووجد النقد. وألغيت الألقاب وصنف الناس الأحرار في عينتين: النبلاء والعوام. وإلى الولايات، يرسل المفتشون من قبل الإمبراطور مباشرة لرعاية وتنفيذ إرادته وتدابيره. وجمعت كل الأسلحة ليخلقوا منها أنصابا بارتفاع ١٥م لتزين القصر الامبريالي. وتوحدت الكتابة الهيروغليفية (قبل هذا، كان لكل مملكة كتابتها الخاصة).

لقد مكن توحيد البلاد شي هوانغ-تي من تنشيط سياسته الخارجية. عبرت جيوش تسين نهر يونغ-تسو وانتشرت في أرض الجنوب الشاسعة. حتى فيتنام اعترفت بسيادة تشسين المطلقة. ولمقاومة القبائل الرحل وتقوية العلاقات القائمة معهم، شيد أعظم صرح في الحضارة القديمة: إنه سور الصين العظيم، الذي يمتد من خليج تشي-لي حتى الحدود الحالية لولاية كان-سو. وشرعوا بأعمال هامة في عاصمة تسين، هيان يونغ (قرب سي-آن).

على هذا، كانت إمبراطورية تسين سريعة الزوال. كانت الأعمال الواسعة المنفذة بأوامر شي هوانغ-تي تتطلب مدا عاملة غفيرة. وحسب الخرافة، إن لم نذكر سوى سور الصين العظيم، ٢ مليون عبد وفلاح ملزمون بالسخرة، كانوا يعملون تحت رقابة ٣٠٠ ألف جندي. إن هذا العمل الشاق، والفقر بالأرض، والتعرض لخطر العبودية، والابتزاز والاعتصاب، أفضى كل هذا إلى تمرد الفلاحين، الأمر الذي كان متوقعا في حياة شي هوانغ-تي. كانت النبالة القديمة، هي الأخرى، غير راضية، لأنها استعبدت من السلطة السياسية، دون أن تفقد نفوذها الاقتصادي وتأثيرها. وكانت رعايا الممالك القديمة يعانون الكثير من المضايقات. وبعد وفاة شي هوانغ-تي (٢٠٩ قبل الميلاد)، انهارت مملكة تسين، بعد أن أنهكتها انتفاضات الفلاحين والعبيد، وكذلك تمردات أصحاب العبيد والأرستقراطية. أكان موت شي هوانغ-تي إمارة العصيان العام. مشى العبيد والفلاحون إلى القتال.

وفي العام ٢٠٩، قاد فلاح فقير، تشانغ شانغ، من الولاية الحالية هونان، ثلاثة من ٩٠٠ فلاح كانوا أرسلوا لدعم وترميم الحدود الشمالية، من ثم، عمت تمردات الفلاحين على

الأرض كلها. وأمام هذا، امتشق ممثلو الطبقة السائدة السلاح لاستلام السلطة. كان أقواهم هيانغ يو يعتمد على أراض في الجنوب الشرقي، وموظف صغير اسمه ليو-بانغ. في أثناء الصراع، عقد هيانغ-هو وليو-بانغ اتفاقاً مؤقتاً. وبعد إخضاع الطامعين بالسلطة الأخيرة وإيادة حاشية تسين بمؤازرة الفلاحين، خنقت ثورة الفلاحين. وقتل تشانغ شانغ. لكن انتفاضة الفلاحين سقطت بسبب عدم توفر الانضباط والتنظيم. كان القادة ينتحلون الألقاب، ينفصلون عن الجماهير، وكثير منهم حاول الاعتراف بطبقة السلطة والانضمام إليهم. على ذلك، نجم من ثورة تشانغ شانغ إبعاد الحاشية المستبدة في إمبراطورية تسين وشيء من تحسن حياة العمال. وكانت هذه واحدة من أهم الانتفاضات الشعبية في تاريخ الصين.

إمبراطورية الهان Han السابقة (٢٠٦ قبل الميلاد حتى العام ٢٤ بعد الميلاد)

قمعت ثورة الفلاحين، وتنازع ليو-بانغ وحيانغ-يو السلطة. في هذا الصراع كان هيانغ-يو يدافع عن مصالح الأرستقراطية القديمة وعن كبار ملاكي العبيد. بينما كانت سياسة ليونانغ أمرن. ألغت تشريع تسين الصارم، الذي لأقل جنحة يهدد الفلاح الحر بالعبودية. ويمارس جيشه انضباطاً أعمى. وهكذا عرف كيف يكسب شرائح عريضة من الناس وينزل بخصمه هزيمة ساحقة (٢٠٢ قبل الميلاد). ثم أعلن نفسه إمبراطوراً. وسميت الأسرة التي أنشأها أسرة الهان^٥.

استهلكت إمبراطورية الهان عمل شي هوانغ-تي: توحيد الصين. وسمحت الحياة المديدة لدولة وحيدة تحت حكم الهان باختلاط العناصر الأثنية من أصول عديدة، كانت تتمر البلاد؛ وساهم التوحيد أيضاً بصهر اللهجات والألفاظ المحلية بلغة واحدة وحيدة. وفي أيام إمبراطورية الهان أرخت الجنسية الصينية.

كان دور الهان في الصين كبيراً بحيث سماهم الصينيون فيما بينهم: رجال الهان. كانت سياسة أوائل أباطرة الهان تهدف دعم جهاز الدولة الملكي، توسيع أملاك الإمبراطورية وإحياء الاقتصاد الذي تأزم بشدة في أواخر أيام التشو والتسين.

^٥ - تتضمن ملكية الهان عهدين: عهد الهان الأول (٢٠٦ ق.م حتى العام ٢٤ بعد الميلاد، حتى ثورة الأهداب الحمراء وعهد الهان الثاني (٢٥-٢٢٠ للميلاد).

كانت الحكومة تشجع بناء منشآت للري، استصلاح الأراضي البائرة أو المهلة النلاجم عن إنهاك الشعب. فتقلص الضريبة سيساهم في دفع الفلاح إلى تحسين حراثة الأرض وتجهيزها. وفي أثناء حكم الهان، ينتشر الحرث بمحراث تجره دواب. وتحسن نهج البذر بالمسكبة. وتتمتع شرائح عريضة من الناس بتحسن نسبي، ناتج عن استبعاد العديد من ممثلي الطبقة المسيطرة.

كما جاهدت حكومة الهان السابقين لتنظيم نشاط التجار والمرابين. جعلتهم يدفعون ثمن تمتعهم بالثروة، بحرمان ذريتهم من استلام وظائف إدارية. لكن هذا التحريم لم يرع دوما. فقد حققت التجارة والحرف تقدما واسعا. "الأصباغ والريش بمختلف الألوان يأتي من ولايات لو Lou وشو، الجلود المدبوغة والأمتعة العظمية والعاجية من تسين ويان Yen، خشب الأرز والصندل والخيزران من تسيان-نان السمك، الملح، السجاد والجلود من يان وتسي، الخيوط الملونة، النسيج الرقيق وألبسة القنب من يان ويو You". هذا الكلام الموثق (من معاصر) يشهد على انطلاقا التقسيم الإقليمي للعمل.

والمبادلات التجارية والنقدية تتطور بسرعة وحسب قول سوما-تسيان، كان الأغنياء يتاجرون في أرجاء الإمبراطورية كلها ويؤمنون أي بضاعة يشاؤون.

لم يخولنا الوضع الراهن لمعارفنا من إيضاح كل القضايا التي يطرحها النظام الاجتماعي والاقتصادي في إمبراطورية الهان. فهي دولة عبودية طيلة وجودها. الوثائق التي وصلتنا تتحدث عن أغنياء أصحاب مئات بل آلاف العبيد وكما في السابق، كانوا يشغلون العبيد في بناء الصروح، والمهن الصناعية والأعمال الزراعية. وكانت تجارة العبيد مع الخارج مركزة في أسواق دائمة. وتشير النصوص دوما إلى تمردات العبيد.

تبدأ ظاهرات جديدة تبرز في حياة الإمبراطورية الاجتماعية والاقتصادية. إذ راح السلاطين يوزعون على ذويهم وأسره وحاشيتهم أراضي مع فلاحها ليستغلوا. ويخضع الملاك العقاريون أراضيهم للمزارعة -أي التأجير بحصة-. وعل الأرض البائرة وفي مناطق الحدود يوطنون فلاحين الدولة الأتقان. وتظهر "بيوت متنفذة" في شخص كبار ملاك الأراضي الذين يملكون ما لا يحصى من الفلاحين، ولهم جيشهم الخاص، القادر على سحق أي مقاومة فلاحية وحتى الوصول إلى السلطة المركزية. تشير هذه الوقائع إلى تطور الإقطاع في المجتمع الصيني منذ أيام الهان.

وتسجل ملكية الإمبراطور يو-ني (١٤٠-٨٦ قبل الميلاد) قمة إمبراطورية الهان. فبعد قمع الأسر الأرستقراطية، عرف يو-ني كيف يوطد التجار أو الصناعيين بالسهر على تنفيذ التدابير الهادفة لدعم قدرة البلاد الاقتصادية، مثل تأسيس احتكار الدولة لاستخراج الملح ومعادن الحديد ومنع الأفراد من صك النقود.

منح رواج الاقتصاد الصين في القرن الثاني قبل الميلاد الانتقال إلى سياسة خارجية نشطة. فأخضع جيش الهان فيات-نام، فتح يان-نان وجنوب منشوريا. وكانت العلاقات مع الهون *Huns* بين أهم قضايا السياسة الخارجية. فغزواتهم المستمرة، التهديد بحلف قوي بأمرتهم وبقيادة شن يومي تي، حرض حكومة الهان للتفتيش عن حلفاء. ولهذا الغرض أرسل في العام ١٣٨ قبل الميلاد إلى الغرب سياسي قدير، الجنرال تشونغ-كيان. بمهمة إقامة صلات مع جيران الهون الغربيين، *les Massagètes*.

وبعد ترحال طويل وبقائه عشر سنين سجيناً لدى الهون، وصل تشانغ-كيان إلى آسيا الوسطى حيث زار خوارزم، بخارى ومدنا أخرى.

أيقظت المعلومات التي جلبها حول هذه البلاد الغربية في الصين اهتماماً واسعاً. ورغم أن مهمته الرئيسية: عقد حلف مع الميساجت، لم تتم، كشفت تقاريره لرجال الدولة عن وجود حضارة عظيمة تزدهر على أرض واسعة ليس لديهم عنها أي فكرة حتى آنذ. واستناداً إلى اتصالات تشانغ-كيان جهزت حملة نحو الغرب. وهكذا كانت رحلته نقطة انطلاق محادثات بين الصين ومواطن حضارية أخرى.

وبعد عدة معارك ضارية، نجح الصينيون بدحر الهون نحو الشمال و، في العام ١٠٤ قبل الميلاد، وبعد اجتياز صحراء تكلا-ماكان وجبال تيان شان، تغلغلوا في وادي فرغانا. هو ذا الأصل لأحد الطرق الرئيسية الكبرى في تجارة العهد القديم المعروف تحت اسم طريق الحرير العظيم الذي كان يصل الصين بالإمبراطورية الرومانية، بمملكة البارث *Parthes* وبالهند. على هذا الطريق صدرت الصين حريرها، حديدتها، منتوجاتها المهيبة واستوردت مواداً هامة، الأحصنة بخاصة.

أزمة إمبراطورية الهان. إصلاحات يانغ-مانغ. عصيان "الأهداب الحمراء"

إن إطلاق اليد ببيع وشراء الأرض، وزيادة الضرائب، المتولد عن بذخ القصر المفرط واتساع السياسة الخارجية، أفضى إلى خراب الفلاحين. ورغم أن الضريبة كانت

٣٠/١ أو ١٥/١ من المحصول مبدئياً، فقد كانت، بالواقع، وبشهادة تسيان هان شو، تتجاوز النصف. وكانت تفرض ضريبة أخرى على كل رجل يرغب في الإعفاء من الخدمة العسكرية. نثبت هنا كيف يصف تسيان هان شو وضع الفلاحة في الصين في القرون الأولى قبل الميلاد: "كان المتنفذون يمسحون أراضيهم بآلاف الموانع، بينما لا يملك الفقراء" مرقعة عنزة". الآباء، الأبناء، الأزواج والزوجات يعملون بالأرض طيلة العام وثروة عملهم لا تكفي غذاء لهم، بينما يفرض على الفقراء أن يكتفوا بالنخالة".

لقد مكنت زعزعة الإمبراطورية القبائل الرحل احتلال طريق الحرير العظيم ودمر تجارة الصين الخارجية.

وتفاقمتم التمردات أكثر فأكثر (في نهاية القرن الأول قبل الميلاد)، وشارك بها العبيد والناس الأحرار الذين حرموا ملكيتهم، فبرزت الإمارات الأولى لأزمة قاصمة كانت تعد للإمبراطورية الهان.

حاولت الحكومة تجنب انفجار الغضب الشعبي بإصلاحات جزئية، بوضع، مثلاً، معيار يحدد الأرزاق العقارية (٥٠٠٠ مو) وملكية العبيد (٢٠٠). لكن هذه التدابير ذهبت هباء.

فكر المحاوله أحد أفراد العائلة المالكة، يانغ-مانغ، بمساعدة متآمرين، بالتصدي للأزمة بسبل أكثر جذرية. وبعد إزاحة الإمبراطور، نشر قراراً (في العام ١٠ قبل الميلاد) بتحويل الأرض كلها. ومننذ، صار العبيد يعتبرون أملاكاً خاصة. كان يانغ-مانغ يهدف بهذا التدبير استبدال عمل العبيد بأساليب استثمار إقطاعية. وكان يطالب أيضاً بتوزيع الأرض على كل الذين حرموا منها آنئذ. وبهذا اعتبر يانغ-مانغ تدابير كعودة لنظام "تسين-تيان".

حاول أيضاً تنظيم أسعار السوق وتنظيم رصيد للدولة بـ ١٠% في العام. فاصطدمت تدابيرها بمقاومة ضارية من الطبقة الحاكمة. فاضطر بالقوة إلى التخلي عنها.

أثار فشل هذه الإصلاحات تمرداً ضاعطاً عرض الإمبراطور للخطر. ونشبت ثورة فلاحية في عامي ١٧ و ١٨ بعد الميلاد في ولايات هو-نان، هو-بي وشان-تونغ. كان الثوار منظمين بفصائل لكل منها اسم وقائد. كانت أقواها فصائل "الأهداب الحمراء"، في

ولاية شان-تونغ، التي تدعى هكذا لأنها كانت تلون أديابها. حاول يانغ-مانغ كبسح هذه الانتفاضة بقوة السلاح. وفي العام ٢٣، استولى الثوار على عاصمة إمبراطورية تشانغ-نغان وقتلوا يانغ-مانغ. واشترك بالتمرد أعضاء من بيت الهان الإمبريالي، كانوا مبعدين عن السلطة. وأعلن أحدهم إمبراطوراً. ثم تحولت قوات أنصاره ضد المتمردين وأغرقوا العصيان بالدم.

إمبراطورية الهان الأخيرة (٢٥-٢٠ بعد الميلاد)

رغم أن الثورة قمعت، اضطرت الطبقة الحاكمة لبعض التنازلات. حرر الأولاد الذين بيعوا كعبيد، وأعفي عن بعض الثوار. وجزء من الأراضي القابلة للزراعة التي كانت تخص المالكين الكبار انتقلت إلى يد الفلاحين. وقلص الإمبراطور الضريبة. وصارت العبودية أقل قسوة، وتحسنت أساليب الاستثمار، فكانت، إزاء كل هذا، انطلاقة اقتصادية جديدة. رمم نظام الري واتسع، فنمت الأرض القابلة للزراعة. واتسع استخراج معدن الحديد، وكذلك الفوننت. وراج الاقتصاد. وعادت الصين في نهاية القرن الأول للميلاد إلى امتلاك طريق الحرير العظيم.

وفي العام ٩١ بعد الميلاد. احتل جنرال كبير ورجل سياسة صيني، بان-تشاو، إقليم سين-كيانغ وشن حملة إلى آسيا الوسطى، التي اضطرت إلى قبول سيادة الصين. ولاقى الهون هزيمة كاملة واضطر قسم منهم إلى دفع الضريبة للصين، واکره الآخرون على النزوح إلى الغرب.

لكن ما أن توطدت أوضاعهم، حتى عزفت الطبقة الحاكمة عن التنازلات التي أعطيت للفلاحين. وأخذ تطور تكديس الأرض إيقاعاً غير معروف. فامتلكت "البيوت النافذة" مئات ألوف الهكتارات التي حرثها الفلاحون المستبدون. ودمرت من جديد منشآت الري. وتصدعت أركان الدولة.

أثار خراب الفلاحة وتفكك جهاز الدولة حركة فلاحية واسعة، عرفت في التاريخ باسم عصيان "القبعات الصفراء". لم تكن هذه الثورة الناشئة في العام ١٨٤، في ولاية شون-كونغ تشبه أبداً ثورة "الأهداب الحمراء". فقد انبثقت بعد أن علل قاداتها أهدافهم للشعب. كانوا قد خلقوا مسبقاً عشرات السرايا وحددوا يوم الهجوم. كانت الحركة مستوحاة من كتاب تاو-توكينغ.

أعلن المبشر التاوي تشانغ كيو، قائد الثورة الإلغاء الكامل للنظام القائم (سماه

الـ"سماء الغبراء") ومجيء نظام جديد، عادل (سماه اسماً خيالياً "مملكة السماء الصفراء")؛ يأتي هذا النظام عندما يتحقق (مبدأ السلم الأشمل). استلم مخطط الثورة أحد الخونة، فاستعجل الهجوم. كسب التمرد الإمبراطورية كلها بسرعة، حرر الثوار العبيد وقتلوا الموظفين المحقوقين، واقتسموا فيما بينهم السلع الثمينة التي سيطروا عليها. دامت ثورة "القبعات الصفراء" قرابة ربع قرن وأبديت بصعوبة كبرى. وفي لهيب المعارك، انهارت إمبراطورية الهان التي احتفظت بشكل من الاستغلال البالي، الساقط، أي العبودية وتركت مكانها للنظام الإقطاعي.

حضارة الصين القديمة

إن ضرورات من النمط العملي حرضت على ابتكار الكتابة الصينية إلى أقدم القدم. وفي النصوص المرسومة على العظام (في الألف الثانية قبل الميلاد)، عد البحاثة أكثر من ٢٠٠ هيروغليفية، هذا يعني أن الكتابة كانت قد ولدت قبل هذا التاريخ بكثير.

يمكن مقارنة تطور النهج الهيروغليفي الصيني بالنهج المصري. وقد حفظت رسومات نقشية بدائية باعتبارها تساوي كلمات. مثل الهيروغليفيات "رجل"، "ابن"، "امرأة"، "شجرة"، "علو"، "أسفل"، إلخ. وترتيب السهروغليفيات البسيطة سمح أن تشكل منها هروغليفيات أخرى، هروغليفيات من كلمة "شجرة" تعني "شابة".

وفيما بعد (في نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى قبل الميلاد)، يستمر الصينيون بإتقان كتابتهم بإضافة إلى الشارة المفتاح، التي تشير إلى أي صنف من الظاهرات يعود المفهوم المعبر عنه، شارة أخرى، ذات خصيصة صوتية، ليدلوا إلى اللفظة.

وفي أيام تسين، أول ملكية مركزية، توحدت الكتابة؛ وفي عهد آل هان، أخذت تقريبا شكلها الحالي بفضل استخدام مادة جديدة: الحرير، ثم الورق (قبل هذا، استخدموا الرقائيق الخشبية). وإن كان الصينيون يكتبون حتى الآن بشكل عمودي، ذلك لأنهم كانوا يكتبون على شطائر ضيقة.

كان وضع تقويم زراعي يتطلب مراقبة الأفلاك؛ وقد دل الصينيون على مهارة مدهشة بهذا المجال. هكذا، قبل هيبارك بـ ٢٠٠ عام؛ وضع علماء الصين مبادرة الاعتدالين أي تبديل نقطة اعتدال الربيع حسب دائرة البروج. وفي أيام أسرة تسين وضع أول تقويم شمسي في العالم. صحيح أنه لم يستخدم عمليا لأن الصينيين كانوا يتبعون التقويم القمري. وكان قداماؤهم يعرفون دورية الكسوفات الشمسية.

إلى الصين يعود شرف ابتكار الفرجار. وكان لديهم أسس ثابتة في علم الرياضيات، بخاصة مبادئ الجذور المربعة والمكعبة. وقد وصلتنا أبحاث عديدة في علم وهندسة الزراعة، تمثل بيانا واضحا في معارف التقنية الزراعية لذلك الزمن، تعطي طرقا في الحراثة والتعديل والتسميد. وحول العديد من النباتات، وتصلح للمزارعين. قد تألق الحرفيون الصناعيون بنسج المنسوجات الفنية، مواد من البرونز، من الحديد، من العاج، من الراتنج ومن الحجارة الدقيقة.

وفي مجال الفنون التشكيلية، قدم الفنانون الصينيون روائع نادرة. فمنحوتات القبور، النصب، والآثار المعمارية، التي للأسف لم يصلنا منها سوى القليل، تشير إلى مواهب فائقة. خلقت أخطاء النظام الاجتماعي، الحروب، وتفاقم الصراع الطبقي في نهاية أيام آل تشو، خلقت كلها مناهج فلسفية ونظريات دينية طبعت بطابعها كل الإيديولوجيات الصينية. ولقد عكست نظرية كونفشيوس مصالح أرستقراطية الدم. نحن نعرف الاسم اللاتيني لهذا المفكر الكبير الصيني القديم، لأن اسمه الصيني هو كونغ-تسو، فقد ولد حوالي ٥٥٠ ومات حوالي ٤٨٠ قبل الميلاد؛ وضع نظرية مثالية تخطط السياسة بالأخلاق وأعلنت في بحوث فلسفية، لخصها رواده. وانطلاقا من مبدأ "إنساني"، أعد كونفشيوس منهاجا للعلاقات بين الناس، يركز إلى احترام الكبار والإتمام الدقيق لواجبات الإنسان بهذا الشرط أو ذاك تجاه المجتمع. "ليكن الأب أباً، الابن ابنا والعامل عاملا"، يقول. ومع إقراره بالخضوع المطلق للأسمى سمح كونفشيوس بإبعاد أحد المتنفذين، إن دل أنه غير جدير بالإضطلاع بمهمته. وقد أفضى ربط أخلاق كونفشيوس بالنقد الصارم لعبادة الأسلاف إلى طبع هذه النظرية بالطابع الديني.

وكتاب تاو-توكينغ (في القرن السادس قبل الميلاد) المنسوب للو-تسو ينسجم مع بعض التطلعات الفلاحية الأبوية وصغار الملاكين العقاريين. يصيغ هذا الكتاب التأوية. ورغم أنه يتضمن عناصر من الرؤيا المادية للعالم (نفي الإله الخالق) وجدلا عفويا، ينشر العودة إلى عهد سابق، معروف بالعصر الذهبي حيث يعيش الجميع حياة هادئة. ومع نقده اللاذع والحاسم لنظام المعاش، نظام "يجعل الناس يجوعون نتيجة الابتزاز والاعتصاب والضرائب"، يوصي تاو-توكينغ بالعودة إلى عهود طوباوية حيث "لا يتكالب الناس على اقتناء الكنوز". وكانت مصالح النبالة الجديدة والتجار محمية من قبل رواد مدرسة العادلين، كثير منهم رجال دولة تسين. كان المعلمون في هذه المدرسة، تشانغ يانغ، هان في-تسو

وغيرهم يطالبون بخلق دولة موحدة، بالغة المركزية، تمسك عقوباتها الصارمة الناس من حافة الإجرام وتعيدهم إلى الطبيعة البشرية-الإنسانية. وكثيرا ما تبدى الصراع بين كونفشيوس والعاقلين شرسا. ناهض الكونفوشيون ملكية هوانغ-تي و، في العام ٢١٣ قبل الميلاد، عذب الكثير منهم وأحرقت كتبهم. وفي بداية القرن الأول للميلاد، عاش فيلسوف كبير صيني مادي، يانغ تشونغ، كان يؤكد فكرة العالم المادي وينكر خلود الروح.

لقد حافظت الأعمال الأدبية التي وصلتنا على نصاعتها. ففي نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث قبل الميلاد، عاش شاعر الصين العظيم، كيو-ايوان، وكان رجل دولة شهيرا. كان العدو الأزرق للأساليب البربرية والوحشية التي مارسها تسين من أجل السيطرة؛ وكان كيو-ايوان نصيرا لوحدة البلاد العفوية، الأمر الذي كلفه النفي والإبعاد.

ولقد تحدث في كتبه حول وطنه، وحول رحمة وتسامح الناس في أيام الكره والظلم. كما قدر هذا السيد، هذا الأرستقراطي، عاليا التواصل العميق مع تقاليد القصيدة الشعبية، ووثق بعمق بقوى الشعب. وفي تعميماته المترعة بالتهكم اللاذع والحزن العميق تتجلى مع ذلك رنة متفائلة.

وحافظ نثر سوما-تسين والمؤرخ بان-كيو، خلال آلاف السنين، على قيم النماذج الخالدة. تتضمن كتاباتهم خرافات وطنية، عددا كبيرا من الأمثال، من الحكم، والأغاني الشعبية. إن السيرة الشخصية الرسمية لكبار رجال الصين تأخذ غالبا في أعمالهم شكل القصص المقتبسة من الدرامية، التي تدهش الملح والنوادر وقيمتها الوثائقية، التي تشبه الحوارات المبتكرة لصحة التسلسل التاريخي للأحداث؛ وكانت تعتبر من خلال هدفها التعليمي. والموسيقى أيضا، لعبت دورا رائعا في حياة شيوخ الصين. والرقص، الغناء المتكامل مع آلات موسيقية متنوعة، يتمتعان بشعبية عميقة.

إن دور الحضارة الصينية عند شعوب آسيا يشبه دور الحضارة الإغريقية عند شعوب أوروبا. فالتقنية، الفن، الأدب والفلسفة في الصين كانت النموذج في اليابان، في كوريا، في فيتنام، وفي منغوليا. وكانت الكتابة الصينية مستخدمة حتى أمد قريب في الأعمال العلمية، في النصوص الدبلوماسية والأدب في آسيا الشرقية.

الفصل العشرون

اليونان

مدخل. مصادر معلومات وتاريخ

لقد لعبت دراسة تاريخ اليونان القديمة، وخاصة تراثها الثقافي، دوراً كبيراً في تطور علم التاريخ الحديث. ماركس وأنجلز، مؤسسا هذا العلم، أفاداً جداً من تاريخ العهود القديمة. كانا أول من قدم المجتمع القديم كمجتمع عبودي، وهما بيرزان دوره التقدمي في التاريخ العالمي. إليكم ماهي، بالتالي، القضايا الأساسية في التاريخ القديم: تطور القوى المنتجة، على أساس الاستغلال العبودي، في الحرف، وبخاصة، في الزراعة؛ الطبيعة الاستغلالية في مختلف مراحل تطور المجتمع؛ ظهور الدولة وخصوها؛ الأسباب الفاعلة في تطور الحضارة القديمة؛ مراحل تاريخ المجتمع القديم بعامة والمجتمع اليوناني والروماني بخاصة.

تخص هذه القضايا أيضاً النقاط الرئيسية في دراسة تاريخ اليونان القديم. فالمكتشفات الحديثة تضيف قبساً آخر على تاريخ القبائل والشعوب التي كانت تقطن أرض اليونان القديمة، على الجو الذي ولدت فيه الحضارة اليونانية (الكريتية والمسينية). ثم تأتي الحقبة المتصلة مباشرة بتطور اليونان والمسماة "العهد الهومييري" - مرحلة تفكك المجتمع العبودي والدولة، والبناء الحضاري (من القرن الثامن حتى السادس قبل الميلاد)، الذي كان الاستعمار أحد مراحلها الهامة، ككل هذه المرحلة من التاريخ.

كانت المرحلة "الكلاسيكية" (القرن ٥-٤ قبل الميلاد)، يوم وصل المجتمع العبودي والحضارة اليونانية إلى أوج تطورها ويوم احتدت واشتدت تناحرات هذا المجتمع، كانت في أحشاء تاريخ اليونان القديم. أخيراً، المرحلة الأهم التي ينمو دورها في علم التاريخ، هي المرحلة الهلينية، مرحلة انصهار التاريخ اليوناني جزئياً بتاريخ الشرق، ومرحلة بلوغ مجتمع الرقيق أوجه (القرن ٣-٢ قبل الميلاد).

مؤرخو اليونان

لقد ظهرت الرغبة في معرفة ماضي اليونان في القرن السادس قبل الميلاد في عمل مؤرخي العهد الإيوني من آسيا الصغرى. فقد عرض هؤلاء، بروح أدبية، الأساطير والخرافات التي تعكس بطريقة أو بأخرى أولى عصور الهلاد *Hellade*^١ هكذا، كتب ميليه حكايته (حوالي ٥٠٠ قبل الميلاد) أصوله، سنير "الأبطال" (هكذا يسمي اليونان أسلافهم الأسطوريين المنحدرين من الآلهة وكانوا معروفين بمآثرهم).

لقد ولد "أبو التاريخ"، هيرودوت (حوالي ٤٨٤-٤٢٥)، في هلكرناس *Halicarnasse*. آنذ، صارت أثينا، المنتصرة على الفرس، المركز الاقتصادي، السياسي والثقافي للكيان البحري العظيم الذي يسيطر على شرق البحر الأبيض المتوسط. وهنا ازدهر نظام ديموقراطية العبودية التي كان هيرودوت، المقيم في أثينا (يسمىها وطنه الثاني)، منظرها الورع. يتضمن عمل هيرودوت تسعة كتب. تخص الثلاثة الأولى تاريخ شعوب آسيا الوسطى، الفرس، آشوريا، مصر والبلدان المجاورة؛ يصف الكتاب الرابع سيثيا *Scythie*^٢. يعطي كل هذا معلومات قيمة عن الهيلاد. وخصصت الكتب الباقية (٥-٩) للحروب الميدية. غالباً ماتكون كتابات هيرودوت ساذجة؛ يؤمن بتدخل الآلهة في شؤون الناس ويقدم لنا الأساطير والخرافات كأحداث تاريخية. لكنه من جهة أخرى يسعى إلى تحليل هذه الأحداث وأعمال البشر بعقل معقولة وطبيعية. فضلاً عن هذا، يطرح أحياناً قضايا نظرية عامة حول ارتفاع الدولة والمجتمع، الأمر الذي يثبت صلته المتينة بالنضال الإيدلوجي والسياسي العنيف الدائر آنذ في أثينا. وكتابه منهل هام في دراسة الحياة السياسية والثقافية لليونان في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد.

ويطلعنا توسيديت الأثيني (حوالي ٤٦٠-٣٩٩)، في "تاريخ حرب البلوبونيز"، المؤلف من ثمانية كتب والذي لم يصلنا كله، على فهم أعمق للتطور التاريخي؛ ولايفتقر كتابه للفكر الناقد. كان الهدف من كتاب توسيديت تقديم عرض لحرب البلوبونيز، الصراع الضاري بين جزئي الهلاد: أثينا، الدولة البحرية، والمجمع البلوبونيني، وعلى رأسه إسبارطة. يدل

١ - الأقاليم الوسطى في اليونان القديمة.

٢ - في الجغرافيا القديمة، وبالمعنى الضيق، من الدانوب حتى الدون.

المؤرخ على اتساع هذه الحرب الاستثنائي، وإلى دورها في التاريخ: لم يخض الصراع فقط سكان الأرض الهيلينية من البحر المتوسط، بل اشترك الفرس فيه. ومدخل الكتاب الأول (فصول ١-٢١)، المسمى أثاري، حيث يعطي المؤلف، عدا الملاحظات المنهجية، معلومات هامة حول تاريخ اليونان، كتاب في غاية الأهمية. باعترافه، عمل توسيديت في تقديم الأحداث التاريخية بطريقة يجعل كتابه لا يفقد قيمته. كونه مؤرخاً تحريراً، اهتم في الوقت ذاته بكشف أسباب الأحداث ووصف الصراع السياسي الداخلي. كتب هذا الصراع بشكل خطب تخاطب قادة المعسكرين؛ ويشير المؤلف أن هذه الخطابات ألغيت فعلاً، ويقدمها، إن لم تكن كلمة فكلمة، منسجمة مع مايمكن أن يقوله هذا الخطيب أو ذاك في مثل هذه الظروف وانطلاقاً من آرائه. ولوحات الصراع الطبقي رسمتها ريشة معلم، بخاصة وصف الحرب الأهلية في كورسير التي ساهم فيها العبيد بفاعلية. والأكثر تأثيراً لوحة التدمير الناجم عن الصراع الداخلي (كتاب ٣، فصل ٨٢-٨٤). ويقدم لنا المؤلف وصفاً بارعاً للحقد الطبقي في مجتمع الرق، الحقد البالغ ذروته أثناء الحرب الأهلية.

وبعد توسيديت، يستمر العلم التاريخي في اليونان (كباقي العلوم الاجتماعية بشكل عام) بالتطور. صحيح أن دقة التحليل العلمي التي تميز توسيديت لم يستطع أحد أن يقدمها، إلا ماندر، من المؤرخين اللاحقين؛ إنما بالمقابل، ازداد عدد المؤلفات بشكل ملحوظ. ففي أغلب مدن هيلاد ولو كانت قليلة الأهمية (وكان منها المئات، التي ظهرت، في أثناء القرون التالية، لكثير من المؤرخين الذين تصدوا لدراسة مدنهم أو بلدانهم. للأسف، لم يصلنا أغلب هذه الكتابات؛ فالزمن لم يصن إلا النثرات، وأحياناً العناوين أو أسماء الكتب فقط. لكن لهذا أيضاً أهمية كبرى؛ شواهد مختصرات أثيدس *Athides* التي وضعها كتاب أثينيون درسوا ماضي الأتيك *Attique*، وبخاصة، التقليد التاريخي.

لكن أهمية المؤلفات التاريخية اليونانية تبقى كبيرة في أي حال وصلتنا. مثل "الهيلينيون" بقلم خنوفون، الذي ظهر بعد تاريخ توسيديت وانطلاقاً من الفترة التي توقف عندها هذا المؤرخ الكبير (العام ٤١١ قبل الميلاد). ينجز خنوفون وصف حرب البلبونيز ويتابع تاريخ هيلاد حتى العام ٣٦٢. رغم أنه اتبع نهج توسيديت، فعرض الأحداث كمن اشترك فيها، لكن خنوفون كمؤرخ كان أكثر سطحية وأضيق أفقاً. كان خنوفون مواطناً أثينياً؛ لكنه، كونه يكره الديمقراطية الأثينية، كتب كصديق ومعجب بالفسبارطيين

الأرستقراط. وفي "الهليونيون" يهمل الوقائع الأساسية في تاريخ أثينا الديمقراطية مثلاً، الفيدرالية الثانية البحرية لأثينا؛ وبالعكس، يبرز الأمور الثانوية، والتي تقدم وتنفع السبارطيين. على ذلك، "الهليونيون" هو العمل الوحيد الذي يعرض بطريقة منسجمة ومنسقة ومنهاجية الحياة في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد. وإذا ما درس بذهن ناقذ، يمكن لهذا الكتاب أن يؤازر بدراسة هذه الحقبة.

كما أننا مدينون لخوفون بكمية من الكتابات الهامة التي تميز مختلف وجوه الحياة في هيلاد في القرن الرابع قبل الميلاد؛ مثل "أناباس"، المتعلقة بغزوة الـ ١٠ آلاف وتراجعهم أو انسحابهم. وباعتباره اشتراك شخصياً بالحملة. يصف خوفون القبائل والشعوب التي كانت تقطن في شرق القفقاس. لهذه المعلومات أهمية كبيرة في دراسة أرمينيا وجيورجيا في الزمن الغابر؛ وأعمال أخرى هامة لخوفون هي "جمهورية إسبارطة"، "المداخيل" (مسألة الأموال في دولة العبودية). أي ما عرف بـ "مذكرات سقراط" وغيرها.

وعلى إحدى قطع البردي الموجودة في مصر (في الأقصر) وصف لتاريخ اليونان في بداية القرن الرابع قبل الميلاد. بين العلماء المعاصرين، يفترض البعض أن هذا النص ملخص للتاريخ الهيليني لتيوبومب، المؤرخ اليوناني للنصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد. عدا "دستور أثينا" لأرسطو، الذي سنحكي عنه، المكتشف، هو الآخر، على بردي مصري، لم تصلنا الأعمال الأخرى لمؤرخي القرن الرابع.

وفي القرن الرابع، نشر إيفور عملاً ذا أهمية عالمية، كثيراً ما رجع إليه مؤرخو اليونان. لكن لم يبق منه سوى قبسات.

وأحد أشهر مؤرخي العهد القديم، بوليب (حوالي ٢٠٥-١٢٥ قبل الميلاد)، عاش في حقبة فتوحات الجمهورية الرومانية وتحولها إلى دولة بحرية جبارة. وقد كتب في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد "التاريخ العام" يعرض فيه أحداثاً كان هو نفسه شاهداً. كان بوليب مكلفاً بالإشارة إلى الأسباب التي أسقطت كل بلدان العالم تحت النير الروماني. إنه محق تماماً بعنوانه كتابه "التاريخ العام" لأنه يشتمل على الأحداث التي جرت في العالم المتحضر كله. ومثل توسيديت، لم يكتف بوليب بتقديم نتيجة الوقائع وأسبابها؛ إنما يسعى إلى كشف القوى المحركة العامة للتطور التاريخي. وجوهر هذا التطور، برأي الكاتب، في الانتقال الأكيد من نظام الدولة إلى نظام آخر، الانتقال الذي يتم حسب قوانين محددة. يقول

كل جسم، كل دولة وكل مشروع، تنتقل كلها حسب قوانين الطبيعة، بمراحل متنامية، ثم متفتحة، وأخيراً، منحدره. رغم سذاجتها الظاهرة، كانت نظرية بوليب إنجازاً كبيراً. إذ يثبت عمله أن بلاد اليونان، وهي تخسر استقلالها السياسي، كانت تحافظ على مستوى ثقافي رفيع. ولسوء الحظ، من كتب بوليب الأربعين لم يصلنا سوى خمسة؛ وماتبقى لايزيد عن مقاطع متناثرة. على ذلك، فقد أغنى "تاريخه العام" بشكل ملموس معارفنا حول يونان القرنين الثالث والثاني.

وبعد بوليب، وفي القرن الأول قبل الميلاد، وحتى القرن الأول بعد الميلاد، تعطي اليونان، وقد صارت أحد أقاليم الامبراطورية الرومانية، تعطي العالم عدداً من أشهر المؤرخين. مثل ديودور سيسيلىا، "مكتبته التاريخية" ذات الأربعين مجلداً التي لم يصلنا منها سوى النذر اليسير. عاش ديودور في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد. رحل كثيراً وقرأ كثيراً. وفي "مكتبته التاريخية" كان يعمل على بحث تاريخ البشرية منذ أزمنة الخرافات حتى أيامه... نقرأ في هذا السفر كثيراً من المعلومات الهامة حول تاريخ اليونان. ويجهد ومجهود ديودور الذي أفاد من وثائق عديدة مشتقة فيما بعد، يتيسر لنا أن نتقح ونتعمق "الهليونون" لخنوفون، وأن نجمع معطيات ثمينة حول حركات ثورية ضخمة في يونان القرن الرابع قبل الميلاد، وغير ذلك. لكن "المكتبة التاريخية" لديودور هي تجميع لأعمال مؤرخين سابقين أكثر منها عمل علمي برأسه. وفيما بعد، في القرن الثاني بعد الميلاد، كتب الكاتب والمؤرخ اليوناني أريان، حول حملات الاسكندر الكبير، السفر الأصح الذي وصلنا. وكمعاصر لأريان، كتب المؤرخ والجغرافي بوزانياس عملاً هاماً عنوانه بـ "بيانات وتعليقات حول اليونان"، أطلعنا على مختلف المناطق، والآثار المعمارية، والشوارع، والميادين، والنقوش اليونانية كما كانت منذ ١٨٠٠ سنة. وخلف استرابون، الجغرافي الكبير، الهليني، الذي كتب في حوالي بداية الميلاد، خلف معلومات تاريخية ذات أهمية قصوى. وعمله "الجغرافيا" وهو في ١٧ مجلداً يتحدث عن بلدان حوض البحر المتوسط، أفريقيا، إيران، الهند، الجزيرة العربية، مابين النهرين، أوربا الغربية وجنوب البحر الأسود. وينحو المؤلف أحياناً نحو استطراد طويل فيتحدث عن تاريخ هذا البلد أو ذاك. فنطلع، مثلاً، على كثير من المعطيات القيمة حول ماضي مدن آسيا الوسطى ومختلف مناطق ميلاد.

كان بلوتارك، كاتب سير الشخصيات السياسية الرومانية واليونانية، معاصراً لآريان وبوزانياس. وكتابات ذات أهمية كبرى في علم التاريخ، لأنه استخدم عدداً من الوثائق التي لم يصلنا منها شيء مطلقاً. وصف حياة ليكورغ، سولون، ثمستوكل، سيمون، أرسيتيد، بيكلس، ألسبياد، دموستين، ملوك إسبارطا أجيس وكليومين (القرن الثالث قبل الميلاد) وكثير غيرهم من كبار رجالات العهود الغابرة. حفظت ٥٠ من هذه السير حتى اليوم. يبدو فيها مؤلفوها كمؤرخين، وحياة أبطالها على صلة وثيقة بالوسط التاريخي؛ لكن مهمتها الرئيسة من طبيعة تعليمية، الأمر الذي يجعلها أحياناً جزئية ضيقة المدى فالسير التي كتبها بلوتارك التي تشمل قرابة ألف عام من التاريخ القديم، هي مع ذلك ذات قيمة توثيقية كبرى. يتثير أعمال فلاسفة اليونان أيضاً الحياة الاجتماعية والسياسية لبلادهم. وهكذا أوقفت "جمهورية" أفلاطون على بناء نظام سياسي رآه مثالياً. والمسائل الاجتماعية والسياسية، كمسائل التاريخ، تشغل الجزء الأعظم من عمل أرسطو. نثبت هنا اثنتين من كتبه: "السياسة" و"بناء أثينا". "السياسة" بحث واسع حول أصول الدولة، جوهرها، أشكالها، إلخ. وهي ذات أهمية كبرى لدراسة تاريخ اليونان. ويقدم مؤلف "بناء أثينا" تاريخ النظام السياسي لأثينا منذ تشكلها من أتيك *Attique* حتى نهاية حرب البلوبونير، أي حتى ٤٠٤-٤٠٣ قبل الميلاد. لم يكتشف هذا المؤلف حتى العام ١٨٩٠. ومننذ، تعمقت معارفنا حول الدولة الأثينية، بخاصة أن أرسطو يقدم لنا في الجزء الثاني من الكتاب، عرضاً مفصلاً عن النظام الذي كان قائماً في أثينا في حياته.

وفي كتابه "بناء أثينا" استخدم أرسطو عدداً من الوثائق، كانت المدونات والأعمال الأدبية ذات طبيعة تاريخية: الأثيد *Les Athies*، "تاريخ" هيرودوت وكمية من الحوايات المحلية. وعندما ندرس عمل أرسطو هذا، يجب أن لاننسى أنه ما كان أبداً من أنصار الديمقراطية الأثينية، وهذا واضح في نصوصه. و"بناء أثينا" ليس سوى جزء من عمل ضخم ضاع، بشير "سياسته". لقد كتب أرسطو وتلاميذه إجمالاً ١٥٨ "سياسته"، وبحث حول تاريخ نظام العديد من الدول المذكورة.

مصادر أدبية:

الإلياذة والأوديسة، قصيدتان أبدتان عن العهد القديم الهليني بقلم هوميروس، ترسمان لوحة بليغة عن حياة الشعب اليوناني منذ فجر تاريخه من القرن ١٢-٨ قبل الميلاد (سننتكلم

عن هذا بالتفصيل في الفصل ٢٣، فقرة ٣). وفي نهاية القرن الثامن والسابع نبع عدد من الشعراء اليونان، شهروا بأعمالهم واقعات تاريخية. نثبث هنا بداية هيزيود، قارض قصائد تعليمية (حوالي العام ٧٠٠) حول حياة الكدح في القرى، والشعراء الغنائيين للقرنين السابع والسادس: أرشوك، ألسي، تيرتي، سولون، تيونيس، وغيرهم، تتحدث أشعارهم عن الصراع الاجتماعي والسياسي لزمانهم وهي، في الوقت عينه، ذات قيمة تاريخية. أشيل، الكاتب التراجيدي الكبير في بداية القرن الخامس، يرسم في قصيدته "الفرس" معركة سالامين التي اشترك فيها وأتم هكذا قصة هرودوت. فالكوميديات اليونانية القديمة، بخاصة كوميديات أرسطوفان، معاصر ثوسديد، كوميديات عبقرية، مقتبسة من الهجاء السياسي القاسي، ولها أيضاً قيمة كبرى باعتبارها مصادر تاريخية.

يفضل المؤرخون اليونان أن يكتبوا عن تاريخ بلادهم السياسي. وأعمال الخطباء ورجال السياسة تخولنا كشف الحياة الاجتماعية والنضال الطبقي. وخطابات العديد من الخطباء، مثل أندوسيد، ليزياس، إيزاكرا، دموستين، إشين، هيريد (القرنين ٥-٤ قبل الميلاد)، محفوظة حتى اليوم. إنها تقودنا إلى خفايا الحياة البشرية؛ والخطباء مثل ليزيلس، يكشفون أعماق الحياة الخاصة لخصومهم. وغيرهم، مثل الذين يتدخلون في الحلقات الشعبية أو ينشرون مقالات عن الشعب، يختارون موضوعاً لهم قضايا ذات راهنية اجتماعية وسياسية؛ مثل ازوكرات ودموستين اللذين عالجا القضية الدقيقة للعلاقة بين ماسدون واليونان في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.

وثائق، آثار مادية

إن المنحوتات (وأكثرها على الحجارة) هي المصادر الأكثر دقة. ك منحوتة تقدم واقعة محددة من الحياة السياسية، الاجتماعية أو الخاصة بالعصر. ولقد عرف الآن عشرات الآلاف من هذه المدونات المنحوتة القديمة؛ ضم أغلبها في 'منحوتات يونانية' بـ ١٥ مجلداً (في طريقها للنشر، بعد التنقيح والتصحيح). بعضها أفعال دولة، مثل، قوانين الشرع الأثيني دراكون، القوانين القديمة لكريت، وتقارير، كشوف عن خزينة الدولة، وسواها. وغيرها شواهد قبور، يتحدث بعضها عن الحياة الخاصة. ولقد أثار اهتماماً فريداً المنقوشات المكتشفة على الأرض الروسية، بخاصة على ضفاف البحر الأسود. وهكذا اكتشف نص اليمين المدني لشرشوزون (قرب سيباستبول الحالية)، الذي يثبت

المستوى الرفيع للحياة الاقتصادية والسياسية لهذه المدينة القديمة أيام القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد؛ ويشهد على هذا قرار مجلس الشعب على شرف المواطن بروتوجين، الذي وجد وجمع في أنقاض أولبيا القديمة (ليس بعيداً عن نيكولايف). ولقد جمع الباحث الروسي ف.لاتشيف في "مدوناته المنحوتة"، التي نشرت بثلاثة مجلدات في أعوام ١٨٨٥-١٩١٦، مدونات عن اليونان القديمة وجدت على الساحل الشمالي للبحر الأسود.

والآن، تحرر من الأنقاض المصرية نصوص كتبت على ورق البردي، أي وثائق تاريخية من نوع آخر، عثر عليها في مصر أثناء التنقيب. إنها، أولاً، حسابات لاحتصانها، ومخالصات، وغيرها، مثلاً المراسلة الواسعة لأبولونيس، الموظف الكبير والمالك العقاري واسع الثراء، مع وكيله زينون). وإنها أيضاً رسائل، وتمازين طلاب، وأوامر، وسواها. كتب عليها نصوص قضائية تميز المحاكم والعلاقات بين مختلف فئات الناس. وتتضمن بعض أوراق البردي أعمالاً أدبية عن اليونان القديمة، لم تكن سليمة، بل فقرات مشتتة. هكذا نص "بناء أثينا" لأرسطو، ما كان قد وجد في العام ١٨٩٠ على ظهر ورقة بردي (ترجع إلى العام ٧٨ قبل الميلاد) تتضمن تقريراً لمدير الملكية. وعلى أوراق البردي هذه وجدت بعض النصوص الأدبية الهلينية (كوميديات ميناز، مثلاً).

على ذلك، هي ذي مواد علم الآثار، بقايا المدن، والصروح المبعثرة ومنشآت أخرى، وأيضاً مواد الاستهلاك الأهلي، هي خير من يطلعنا على اليونان القديمة. وكل أرض البلقان تقريباً، والعديد من جزر بحر إيجه، وشواطئ آسيا الصغرى، وسواحل البحر الأسود، ويسيلى وجنوب إيطاليا هي نوع من متحف واسع في الهواء الطلق. يحقق فيه علماء الآثار من مختلف البلدان تنقيباتهم منذ زمن بعيد. لكن أعمال التنقيب لم تأخذ مداها إلا في النصف الثاني من القرن ١٩.

تمكننا الحفريات الأثرية من إعادة تركيب مقبرة دلف الشهيرة، بمعابدها، ونزلها، وشارعها، وطريقها السري، وكنوزها العديدة، التي بنتها الدول اليونانية لحماية الهبات. ولقد رفع الركاب عن مدن بكاملها بشوارعها، ميادينها، قاعاتها، مسارحها، مدارسها، معابدها ومسكنها. وكانت المؤسسات التعليمية تضم أيضاً لوائح الطلاب، بأسمائهم ومنافعهم التي يدونها المعلمون. وأيضاً، في الجهة الصحراوية اليوم من آسيا الصغرى، حررت مدينة بريان priene الصغرى، ومدينة أولينث olynthe وغيرها، عادت كلها إلى النور مرة أخرى.

لقد عثر علماء الآثار السوفيات: ب. فارمكسفي، ف. بلانفسكي، ف. غيدوكفتش، ت. كنيوفتش وغيرهم على الساحل الشمالي للبحر الأحمر شوارع، أسوار وأبراج مدن اليونان القديمة الكبرى، مثل أولبيا، شرزونيذ وغيرها. وتمت مكتشفات هامة على يد البحاثة السوفيات في شرق القفقاس (أرمينيا وجورجيا) وفي آسيا الصغرى. وقد حرر الأستاذ تولستوف، مثلاً، في خوارزم أنقاض ميادين منيعة، وحقولاً مغطاة بثمار الخزف، ووثائق من كل نوع مطبوعة على الجلد ومحفورة على الخشب يسمح حل رموزها بكشف سر هذه الحضارة المنسية التي كانت، كما هو معروف اليوم، مرتبطة ارتباطاً متيناً بحضارة اليونان.

والنقود القديمة والصور المحفورة عليها، ووزنها وكمية المعدن فيها، إلخ. يتم كل هذا معرفتنا بتاريخ اليونان القديم. وعلم المسكوكات، أثمن مساعد للتاريخ، قدم منذ عشرات السنين إنجازات هامة في الاتحاد السوفياتي، في مجال دراسة النقود *Historiographie*.

نتاج المؤرخين

منذ عصر النهضة، أي يوم شكلت البورجوازية طبقة، يتحقق هدف إعادة إحياء تاريخ اليونان القديم، الذي حاولت البورجوازية احتكار تراثه الثقافي الثر. فمنذ هل القرن التاسع عشر بدأ بوضوح الاهتمام الكبير بتاريخ اليونان القديم؛ وقد دفع النضال من أجل الديمقراطية البورجوازية الساسة، القضاة، المؤرخين ونقاد الأدب إلى دراسة النظام الديمقراطي في دول يونان العبودية، بخاصة في أثينا. وهكذا، رأى ج. غروت، المؤرخ الانكليزي المعروف في النصف الأول من القرن ١٩، الذي تحدث في "تاريخ اليونان" الذي في ١٢ مجلداً (١٨٤٦-١٨٥٦) عن نظام أثينا، رأى أن هذا النظام يمكن أن يكون نموذجاً لكل ديموقراطية بورجوازية. وفي "التاريخ الهليني" بثلاث مجلدات، للعالم الألماني درويزن، والذي سبق "تاريخ اليونان"، يصور مقدونيا القديمة نموذجاً أول لبروسيا. مع أن هذه التشبيهات للتاريخ القديم تفقر كثيراً المنتج التاريخي البورجوازي للقرن ١٩، لم يتوان أحد عن دراسة المناهل الأولى، وتطوير النقد، وعلى هذه القاعدة شيد تاريخ اليونان.

كانت قضايا الحياة الساسية والثقافية في اليونان القديمة هي التي تشد الاهتمام قبل كل شيء. أما في روسيا، كان علم العهود القديمة، حتى في فجر وجوده، أكثر تقدمة مما في الغرب، لأنها كانت تطرح مسائل أعم؛ وكان النتاج التاريخي الروسي أول من تصدى لما

يخص الحياة والنضال الاجتماعي في اليونان القديم. مؤلفات م. كوتورغا، الأستاذ في جامعة بطرسبورغ (١٨٠٩-١٨٨٦)، اشتهرت حوالي ١٨٤٠-١٨٥٠. حدد كوتورغا الواقعات الرئيسة في نظام أثينا السياسي ووضع لوحة عريضة للحياة الشعبية في اليونان. وفي كتابه "وضع العبيد والمحربين في الجمهورية الأثينية، كان أول باحث في العالم نهض لهذه الموضوعة وعمقتها. وأبرز أيضاً العلاقة بين تطور الثقافة الروسية وحضارة اليونان القديمة. وفي العام ١٨٦٩، يظهر مؤلف هام لـ ف. فاسيلفسكي "الإصلاح السياسي والحركة الاجتماعية في اليونان القديمة في زمن الانحطاط" الذي لم يفقد قيمته حتى يومنا هذا.

وفي النصف الثاني من القرن ١٩ تشب ثورة حقيقية في دراسة تاريخ اليونان، وفي علم التاريخ بشكل عام، انبثقت بسبب نشر الأعمال العبقريّة لكارل ماركس وفريدريك أنجلز، بخاصة "رأس المال" (ظهر الكتاب الأول في ١٨٦٧)، وكتاب فريدريك أنجلز "أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة"، المنشور في العام ١٨٨٤. ولقد أوقف الفصلان الرابع والخامس من هذا الكتاب على ("العشيرة اليونانية") و"انبعاث دولة أثينا" اللذان يتحدثان عن القضايا الجذرية في تاريخ اليونان.

في هذه البحوث الهامة، يؤسس مؤسس الماركسية القوانين الرئيسة لتطور المجتمع ويضعان حجر الزاوية للتاريخ باعتباره علماً قائماً برأسه. وكان ماركس وأنجلز أول من مزق النقاب عن صورة العبودية للإنتاج اليوناني، وبالتالي، الخصيصة العبودية للمجتمع اليوناني وثقافته. لكن هذا لم يمنعهما عن تقويم عالياً أهمية هذه الحضارة. "لكن الصعوبات ليست في وعي أن الفن اليوناني والملحمة مرتبطان ببعض أشكال التطور الاجتماعي. إنما تكمن الصعوبة في أنهما يقدمان لنا متعة وجمالية وهما لنا، من بعض الوجوه، قيمة المعايير والنماذج العسية.^١

وحوالي نهاية القرن التاسع عشر، يشد التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لليونان أكثر فأكثر اهتمام المؤرخين الغربيين. وقد ظهرت نشرات جديدة لمنحوتات يونانية تسمح بتعميق التغلغل في اقتصاد الهلاد. (نشر هذه المدونات والنقوشات لأول مرة جزئياً أوغست

١-ك. ماركس. "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"، ص ١٧٥.

بوك الذي كان قد بدأ هذه المهمة في بداية القرن التاسع عشر).

وليس قليلاً ماكتب حول التطور التاريخي لمختلف فروع الاقتصاد في اليونان القديمة: الزراعة ، المهن ، التجارة وغيرها. وتشغل هذه المسائل ، ومسائل النضال الاجتماعي والعلاقات الطبقيّة، من الآن فصاعداً حيزاً واسعاً في المؤلفات حول تاريخ اليونان. وفي أثناء انتقال الرأسمالية إلى محطتها الأعلى، الامبريالية، ظهر من جديد انعطاف لتحديث التاريخ القديم. هكذا، كتب الباحثة الألماني إد. ماير "تاريخ العصور القديمة به مجلدات (كانت النشرة الأولى في العام ١٨٨٤)، حيث يرسم لوحة مزمنة لتاريخ الشرق، اليونان وروما من الأصول حتى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. وهو يحل ويدرس المجتمع والاقتصاد في اليونان، يرى المؤلف فيها "علاقات اقطاعية" في محطتها الأولى وحتى "الرأسمالية" في المرحلة التالية، مع الـ"معامل"، الـ"مصانع"، الـ"مصارف"، وغيرها، كمؤسسات تبعثها الرأسمالية ليس إلا. فضلاً عن هذا، يقدم النظرية الدورية القائلة إن البشرية، في مختلف الأزمنة والأمكنة، تعبر المراحل ذاتها من ارتقائها، المفضية إلى الرأسمالية؛ ويرى أن التقدم يقف هنا، وليس له سوى العودة على عقبه، الالتفاف إلى علاقات أكثر بدائية. إن النظرية الدورية، بدون نقاش، سلاح أيديولوجي للبورجوازية الإمبريالية في نضالها ضد الثورة البروليتارية والاشتراكية. وروبير بوهلمن، كاتب "تاريخ الشيوعية والاشتراكية القديمتين"، هو الآخر من أنصار هذه الرجعية؛ فهو "يكشف" في العالم القديم، ليس فقط، هذه الحرمات المعاصرة، بل يجهد للبرهنة أنها بالضبط سببت انحطاط الحضارة القديمة العظيمة. و"التاريخ اليوناني"، العمل الضخم للمؤرخ الألماني ج. بلوش (ظهرت الطبعة الثالثة بأربعة مجلدات في العام ١٩١٢ و ١٩٢٧) رغم طبيعته المعتدلة لا يقل عن غيره حداثة. ومثل ماير وبوهلمن، ينكر بلوش الطبيعة الرقبة للاقتصاد اليوناني؛ بل يحجم عدد العبيد في اليونان طيلة حقبة الازدهار، ويبالغ بدور الإجارة. لكن العالم الفرنسي غلوتز ينطلق من مفهومات مغايرة تماماً، وأكثر صحة. بعيداً عن نصرة الماركسية، اتبع في مؤلفاته مبادئ فوستل دي كولانج، وهو يشير إلى دور المشاعية والتنظيم الوثني في تاريخ اليونان. وبوضوح يتعاطف في كتاباته مع الشعب الكادح. كان الـ"علم" التاريخي الفاشي في ألمانيا يسعى إلى مثالية إسبارطة بنظامها العسكري والعبودي، وتمجيد الغزاة "الكبار" أمثال إسكندر المقدوني. ويرى مؤرخ ألماني أن انهيار

الحضارة الكريتية ناجم عن تحرير النساء. إجمالاً، يهمل المؤرخون البورجوازيون الحديثون المسائل الاجتماعية والاقتصادية والقضايا العامة في تاريخ اليونان. إن المؤلفات حول تاريخ اليونان ذات طبيعة وثائقية أكثر منها بنائية. وحتى العمل الضخم بأربعة مجلدات - لأرثر إيفانس "قصر منيوس"، الذي ظهر في لندن بين عامي ١٩٢١-١٩٢٣، يزودنا بواقعات ثمينة، دون أن يحدد العلاقات الاجتماعية في كريت، وكذلك "تاريخ كمبريدج القديم" المؤلف التعاوني لمؤرخين إنكليز (الطبعة الثانية ١٩٢٣)، الذي خصصت كتبه ٢-٧ لتاريخ اليونان. و"تاريخ اليونان" لبجستون يغرق في نفس العيوب. تثبت هنا النجاح الضخم الذي حققه في هذه الأيام العلماء الأجانب في مجال علم الآثار والكتابة النقشية. مثلاً، كان المؤلف ذو الأربعة مجلدات لميريت، وود-جيرري وماكغروغر "اللوائح الأثينية لأتاة الأحلاف (كمبريدج، ١٩٣٩-١٩٥٠) كان ذا قيمة كبرى، لأنه يطلعنا جيداً على تاريخ أثينا والقسم الأعظم من هيلاد في القرن الخامس. وكان لحل رمز الكتابة B ميسنين على يد العالمين الإنكليزيين فانتيرس وشادفيك أهمية ضخمة جداً: فقد ألقى قبساً على التاريخ اليوناني من الحقبة الميسيني، التي لم تكن معروفة إلا من البقايا الأثرية.

لقد قدم العلم الروسي من نهاية القرن ١٩ حتى بداية القرن ٢٠ عدداً من العلماء الكبار، الأخصائيين بالعصور القديمة وخاصة اليونان. فقد نشروا عدة مؤلفات كان بعضها ذا طبيعة عامة وعالج بعضها مسائل نوعية. وأتت المساهمة الكبرى على يد الأكاديمي ف.لاتشيف، مؤلف الأعمال المؤسسة على دراسة النقوش القديمة المكتشفة على الساحل الشمالي للبحر الأسود (انظروا ما ورد أعلاه)، مثل "دراسة في تاريخ أولبيا القديمة ونظامها السياسي (١٨٨٧) ومقالات حول تاريخ مملكة البونت ١ pont (١٩٠٩). وله أيضاً نحن مدينون بـ"بحث في عهود اليونان القديمة في مجلدين (١٨٨٠-١٨٨٩). تفيد الطبعة الثالثة من هذا الكتاب (١٨٩٧-١٨٩٩) اليوم أيضاً كدليل بين يدي المهتمين بدراسة تاريخ اليونان القديم. ومهمة جداً أيضاً مؤلفات س.جبليف "أثينا في ٢٢٩-٣١ قبل الميلاد" صدر

١ - مملكة في شمال-شرق آسيا الصغرى، على جسر أوخز، أعلن استقلالها عن الفرس في العام ٣٠١ قبل الميلاد. كانت منيعة جداً في أيام مثيريات السادس، عرفت بصراعها ضد الرومان، الذين احتلوها في العام ٦٣ بعد الميلاد.

في العام (١٨٩٨) وأكاي *Achaie* (١٩٠٣) بقلم م. كفوستوف "التجارة الشرقية بين مصر واليونان والرومان" (١٩٠٧)، وف. يوسسكول "بيركلس" (١٨٨٩).

العلم السوفياتي استوعب بفكر ناقد التراث الغني للمنتوج التاريخي الروسي قبل الثورة، خلق على أساس الماركسية-اللينينية أسلوباً جديداً، علمياً حقاً لكشف التاريخ القديم، بخاصة تاريخ اليونان. هذا الأسلوب هو أساس الدراسات الشاملة لتاريخ اليونان، مثل: س. كوفاليف، "تاريخ المجتمع القديم". "اليونان" (الطبعة الثانية ١٩٣٧)، و"تاريخ العهود القديمة" (١٩٣٧)؛ س. لوريه، "تاريخ اليونان" (١٩٤٠)؛ ف. سرغيف، "تاريخ اليونان القديم" (الطبعة اثنائية ١٩٤٨). يتضمن هذا الكتاب الأخير جملة من التراجم الشخصية لكل حقب تاريخ اليونان القديم.

وفي الأعوام التي تلت الحرب ظهر "اليونان القديمة" (١٩٥٦)، سفر لمجموعة من من الباحثين السوفيات، و"بحوث في تاريخ اليونان القديم" (١٩٥٨)، بقلم ك. كولويوف ول. غلوسكين. وعشرات المؤلفات الأخرى.

الفصل الواحد والعشرون

طبيعة اليونان

كانت اليونان القديمة تشغل متسعاً من الأرض يبلغ (٦٤٥٠٠ كم ٢ فقط) لكنه شديد التنوع من الزاوية الجغرافية. كانت تضم: (١) جنوب شبه جزيرة البلقان؛ (٢) الجزر الإيجية والأيونية؛ (٣) الأضلاع الغربية من آسيا الصغرى. وكانت تشغل اليونان القارية (البلقانية ربع اليونان كلها ولم تكن سوى شبه جزيرة مقسمة بين خلجان وسلاسل جبلية إلى ثلاثة أقاليم متميزة: الشمال، الوسط والجنوب أو بلبونيز. ويتألف اليونان الشمالي نفسه من منطقتين: إيبيريا وتساليا. والبقعة الأهم من اليونان الأوسط من الزاوية السياسية هي الأتيك وبيوتيا، وهما في الشرق. وكانت أهم مناطق البلبونيز الأرغوليد، لاكونيا، مسينا، إيليد وأركوديا.

تعلل هذه القسمة المتميزة لليونان القاري بأن الجبال تشرخها في كل اتجاه، بخاصة السلاسل الأعلى من ٢٠٠٠م المتجة من الشمال إلى الجنوب. وتقسّم اليونان إلى قسمين: الغربي والشرقي؛ في شمال اليونان، تقع سلسلة البند *Pinde*؛ وفي الجنوب (بلبونيز)، وكتلة أشاي العريضة وأركاديا تتفرع في الجنوب إلى سلسلتين: في الشرق، البارنون، في الغرب، التايجت. من هذه السلسلة الرئيسة، تتطلق نحو الشرق عدة ملتقيات متوازية. وهكذا، في شمال اليونان، بين مقدونيا وتساليا تنتصب عدة قمم أعلاها الأولمب، ٣٠٠٠م. تحجز الجبال فيما بينها الوديان التي يتبع أغلبها مصبات الأنهار. تشكل السهول إجمالاً أقل من ١/٥ اليونان القارية. وفي الشرق مضائق ومعابر (وادي تامبي في الشمال، وتوفر ترموبيل إمكانية واسعة لتواصل وتنشيط بالتالي التطور الاقتصادي والاجتماعي.

وبينما تعزل الجبال المناطق والدول، يعزز البحر المواصلات الخارجية بين المشاعات اليونانية. تفضي الشواطئ المتعرجة إلى تطوير مبكر بالإبحار. من هذه الزاوية تصادف الشروط الجغرافية الأكثر مواءمة في شرق شبه الجزيرة وفي غرب آسيا

الصغرى، ذات الشواطئ المقطعة والتي تقدم عدداً كبيراً من الخلجان الصغيرة التي تسكنها رياح الجبال. في اليونان الوسطى والجنوبية لا يوجد أرض تبعد عن الشاطئ بأكثر من ٥٠ كم. ومن كل قمة عالية يشاهد البحر. فضلاً عن هذا، تشكل جزر بحر إيجه الكثيرة (الأرخبيل) سلاسل مستمرة، من شبه جزيرة البلقان حتى شواطئ آسيا الصغرى، حتى أن البحارة القدماء الذين يتبعون خط السير هذا، لا يفقدون رؤية الأرض.

الجزر الإيجية مقسمة إلى مجموعات. في الغرب جزيرة أوبي الكبرى، التي تمتد بالتوازي على الشط الشرقي لليونان الوسطى. غنية بخاصة بالقمح، كانت تمون به حتى الأتيك. وإلى الشمال، على طول شواطئ تراس، تتابع جزر ثاسوس، ساموتراس، ليمنوس، إيمبروس وتندوس؛ وفي الشرق، بعض الجزر الواسعة تمتد أمام شاطئ آسيا الصغرى: لسبوس، شيووساموس.

في القديم، كانت جزر بحر إيجه تقسم إلى مجموعتين: السيكلاد والسبوراد. في السيكلاد تتكوكب ٢٤ جزيرة كبيرة و ٢٠٠ صغيرة، نصفها يحيط بديلوس. كانت هذه الجزيرة الضيقة الأبعاد مركزاً لتجارة نشطة ولعبادة أبولون-الدلفي، إله البحار. من كل هذه الجزر التي تحيط بديلوس، كانت الأهم هي باروس، حيث صناعة الرخام الأبيض، وناخوس، أندروس وغيرها. وبعدها، باتجاه آسيا الصغرى، تتدرج جزر سبوراد وأكبرها رودس.

في جنوب غرب بحر إيجه، توجد جزر سيثير وإجين. في الجنوب، تصل هذه الكثرة من الجزر إلى كريت، أكبرها وأخصبها، والتي كانت موطن حضارة قديمة جداً. وفي شرق كريت، ليس بعيداً عن الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى وسوريا، في البحر المتوسط، تقع جزيرة قبرص، الغنية بمعدن النحاس؛ بالغابات، بالكروم والزيتون.

في أشهر الصيف الهادئة، يفيد البحارة أيضاً من انتظام الريح والتيارات البحرية التي تتجه من البحر الأسود إلى أتيك وبلبونيز. يسر كل هذا إقامة تواصل بين اليونان والشرق الأدنى بلغت درجة متقدمة بالتطور وأفادت اليونان أكثر من الدول الأوربية الأخرى بكنوز حضارتها.

في البحر الأيوني، بين اليونان وإيطاليا ويسييليا، ثمة قليل من الجزر: فقط كورسير، لوكاد، سفالينا وإيتيك، قرب شواطئ اليونان الغربية. لذا كانت المواصلات بين هيلاد

وإيطاليا صعبة جداً. لكن اليونان مضطرة إلى استيراد القمح من هذا البلد ذي التربة الأخصب.

يدينو مناخ الشاطئ اليوناني، المعتدل والحر، من المناخ الاستوائي. وفي المناطق الجبلية فقط، وبخاصة في إبييريا، يلاحظ الجليد والعراصف الثلجية. إنه المناخ الذي حدد أسلوب حياة اليونان، سكنهم وملابسهم. في البيوت، تلعب الباحة الداخلية، المزنة بالإفاريذ التي تحملها الأعمدة وتقي الناس من حر الشمس، تلعب دوراً رئيسياً وكانت الصروح العامة والمعابد محاطة بالأروقة والأعمدة. والقمصان الصوفية أو الكتانية ألبسة لليونان، لكنهم عندما يخرجون يلبسون فوقها معطفاً صوفياً بدون أكمام. وينتعلون الأحفان، المبطنة بالفرو في الشتاء. وكجميع سكان الأبيض المتوسط، كان قدماء اليونان تنوعين بطعامهم. يتكون غذاؤهم أساساً من منتجات الطحين، البقول، الزيتون، الجبن، التين اليابس، السمك المملح، المستورد بكميات كبيرة من مملكة البونت *Pont*.

لا تتمتع اليونان بمساحات واسعة لبذر الحبوب (شعير، ذرة، دخن). أوسع السهول موجودة في تساليا، بيوثيا، لاكونيا ومسنا. والقيظ (تبلغ الحرارة ٤٠°) وجفاف الأنهار، لقلة المطر، تشكل عقبة أخرى في وجه الزراعة. ثم، في أغلب أقسام اليونان، أخذت زراعة الكرنب والزيتون، التي تتطلب عناية واسعة وإعداد أرض على سفوح الهضاب، والري، أخذت الاهتمام الملحوظ. إجمالاً، ووفرت أفضل الشروط الطبيعية مناطق شرق اليونان القاري، المغطى بالأحراج، بالشوح، بالسنديان والكستناء؛ في الوديان ينمو السور، الغار الجبلي الذي لا يلائم سوى تربية الدواجن.

وتربة اليونان غير خصبة، لكنها غنية بمواد البناء ومختلف المعادن. كانت لاكونيا غنية بمعادن الحديد؛ أوبي (منطقة شاليسيس) وقبرص بمعادن النحاس؛ في الأتيك، تستخرج شرائح الفضة؛ وفي تراس (وادي سترمون) يستخرج الذهب. وتحتضن أتيك، كورنثيا، أوبي وبيوثيا، الفخار بكميات ضخمة، موزعة في صنع الأواني الفاخرة. ليس بعيداً من الأتيك، في جزيرة سيوس، كان يوجد أكسيد الرصاص لطلي الفخار. ولقد أفضى كل هذا إلى تطور مبكر بالحرف التي، كما الزيت والخمر، لم تكن تستخدم في البلد، بل تصدر وتبدل بالقمح وباقي المواد الغذائية الهامة (لحم مملح، سمك، إلخ).

هكذا، رغم ضيق أبعادها ومناهلها الطبيعية، تمتلك اليونان كل الشروط الضرورية

لتطورها التاريخي: وضع وسيط بين آسيا الصغرى وشبه الجزيرة الإيطالية، بحر يوائم العلاقات مع شرق وجنوب البلدان المتحضرة وكل ما يبعث على تطوير المهن والتبادل.

الفصل الثاني والعشرون

الحضارة الإيجية

الاكتشافات الأثرية في القرنين ١٩ و ٢٠

لا يعرف اليونان القدماء الشيء الكثير عن الماضي البعيد لبلدهم. يفترض توسيديد وطنه مسكوناً بشعوب غريبة يسميها "بيلاسج"، "كارمن" و"ليجير". ونسب لهم منشآت حجرية ضخمة، سميت "العملاقة" (أي التي بناها العملاقة). تتحدث الخرافات عن دولة عظمى بحرية لملك كريت مينوس وقصره الواسع، اللابريث، وملك مسينا أغامنون الذي شن حرب طروادة.

الم يكن العلماء الأربيون أبداً أحسن معرفة حتى الربع الأخير من القرن ١٩. إنما في العام ١٨٧٠ و ١٨٨٠، تمت اكتشافات هامة فيما يخص العهود القديمة الكلاسيكية: فقد نشو عالم الآثار الألماني المعروف هنري شلمان في العام ١٨٧٤ كتاباً بعنوان "عهد طروادة القديمة وفي العام ١٨٧٨ و ١٨٨٦، ظهرت عدة كتب أخرى: مسينا، إيليون، طروادة وتيرانث. ولقد قال هذا العصامي والكاشف الجلود للكنوز التي كانوا يسخرون منه بشأنها، قال إنه كشف طروادة هوميروس، مقابر ومواد ثمينة في مسينا، تعود أصلاً إلى زمن أبطال الإلياذة والأوديسة.

لكن تبين حالاً أن هذا العالم لم يحترم جيداً مكتشفاته. فعالم الآثار دوربفلد، الذي كان أكثر الناس شكاً بعمل شلمان، قرر أن ينهض لمساعدته في بداية ثمانينات القرن الماضي. ودل فيما بعد (١٩٠٢)، أن شلمان كان قد خدع في تقويماته التاريخية وأن لقاء تعود إلى عصر أقدم بكثير، لا يعرف عنه العلم شيئاً حتى آنئذ. إذ أثبتت مكتشفات شلمان وجود، في الألفين ٢٠٣ قبل الميلاد، في جنوب شرق أوربا، حضارة تشبه بألقها وعظمتها حضارات الشرق الأدنى.

ولقد ظهر أن مااستخلصه دوربفلد غير قابل للنقاش، عندما دل في بداية القرن ٢٠

عالم الآثار الانكليزي آرثر إيفانس بتنقيباته في جزيرة كريت أن شلمان ودوريفلد لم يعطيا شيئاً عن المواطن الرئيسية لهذه الحضارة، التي كانت عالية القيمة في كريت ذاتها، وأنها أعظم وتتجاوز حتى حضارات ميزوبوتاميا والنيل. وفي مؤلفه ذي الأربعة مجلدات "قصر مينوس"، يعرض إيفانس نتائج ثلاثين سنة من التنقيب. وبمتابعة التنقيب، يتحدد في التاريخ الإنساني دور هذه الحضارة قبل-الهيلينية، المسماة "إيجية".

على ذلك نشير أن هذه المعطيات الحديثة لم يستوعبها العلم التاريخي أبداً. ولم يوضع بعد تأريخ مقبول بشكل عام. والتأريخ الأشهر هو الذي يقترحه إيفانس. إنه يميز ثلاث حقبة مينوون (نسبة إلى اسم الملك الخرافي مينوس) تتناسب تقريباً، في الزمن، مع الإمبراطوريات الثلاث التي مرت على مصر: (١) منوين القديم (٣٠٠-١٠٠ قبل الميلاد)، (٢) منوين الوسطى (٢١٠٠-١٥٨٠)، (٣) منوين الحديثة (١٥٨٠-١٢٠٠). لكن أغلب الأخصائيين، وقد قبلوا هذا التقسيم فيما يخص كريت التي كانت على اتصال مع مصر، يستخدمون باقي مناطق الحضارة الإيجية دورية خاصة، توازي الأولى. هكذا، لليونان القاري، ثبتت القسمة الهلادية القديمة، الوسطى والحديثة (أو مسينا). فحضارة اليونان الجزيرية -نسبة إلى جزيرة- تسمى حضارة العملاقة.

المرحلة الأولى من الحضارة الإيجية في اليونان *Le chacolitique en Grece*

لدراسة التاريخ البدائي لبلدان حوض إيجة، نطرق باب علم الآثار المعتاد (النقش على الحجر، عصر البرونز، عصر الحديد الأول). فالنقش على الحجر (٣٠٠-٢١٠٠ قبل الميلاد) هو المرحلة الأولى للحضارة الإيجية. ومركزها في أرخبيل الجزر العملاقة التي تشكل نوعاً من الجسر عبر بحر إيجة. لكن أرضها أوسع بكثير: ويكتشف أيضاً فيكريست (طبقات منوين سفلى)، في بلوبونيز (هيلاد القديمة) في اليونان الوسطى، على الشواطئ الغربية لآسيا الوسطى (طبقات سفلى من طروادة، تسمى "طروادة الأولى"، "طروادة الثانية"، ضيعة ثرمي في جزيرة لسبوس). كانت هذه الحضارة نتيجة الثقافات عالية التطور في العصر الحجري الأعلى التي عاشت طويلاً في حوض بحر إيجة. ففي تلك الحقبة الزمنية كانت الأدوات الحجرية هي المسيطرة، إجمالاً. لكن صناعتها اتقنت إلى أعلى درجة: صنع بعضها من حجر نادر، السيج^١، وتبدو كنصل حاد. لم تصادف طبقات السبج

^١ - حجر زجاجي أسود.

إلا في جزيرة ميلوس، إحدى جزر العماقة. وجد هنا سابقاً مزرعة صغيرة (فيلاكوبي *Phylakopie*)، كان سكانها يستخرجون السبج، يصنعونه وينشرون هذه الأدوات، الثمينة جداً في تلك الحقبة.

عدا الحجر، يبدأ استخدام المعدن، أولاً النحاس، ثم البرونز البدائي (المتضمن تقريباً ٩% من القصدير). مع أن البرونز والنحاس مايزالان نادرين لايفيان إلا لصنع بعض الأسلحة (بلاطات بدائية، بدون ثقوب، خناجر) وبعض الحلي (دبابيس شعر). وللتزين، يستخدم أيضاً الذهب: وفي إحدى الطبقات القديمة لطروادة (طروادة الثانية)، اكتشف سلمان كنزاً من ثمانية آلاف مادة ذهبية (سميت تحكماً "كنز بريام"، نسبة إلى ملك طروادة الوارد في الإلياذة). باختصار، كنا مائز في عصر النقش: على النحاس والحجر، حيث كان استخدام المعادن في بداياته وتهيمن فيه الأدوات الحجرية.

تثبت لنا التقنية وجود نظام اقتصادي واجتماعي في بداية تطوره.؟ والاهتمام الأساس، استناداً إلى علم الآثار، الصيد، التججين الضيق، حرث الأرض بالمنكاش والمقايسة البدائية المترافقة باللصوصية والقرصنة. (من هنا أتى تكديس الثروات مثل "كنز بريام". والأواني المنزلية الضخمة الفخارية وغير المتقنة تصنع باليد، بدون تدوير، والمشربيات كانت بأشكال غريبة من الجرار والأباريق -منقار الطير- وأبراش بوجوه بشرية ("إجانات جيبية")، أكواب مزدوجة، إلخ. لم يكن طلي الفخاريات قد عرف بعد، بل رسوم هندسية فقط.

كان الناس يعيشون عامة في بيوت دائرية أو بيضوية، بقية واضحة من الخوص لكن هذه المساكن كانت واسعة جداً (حتى ٢٣٠٠م)، فيها عشرة محال وتؤوي عدة تعاونيات، حتماً بمن نفس العشير. وكانت القبور أيضاً جماعية: "نواويس" العماقة، قبور حجرية بشكل صندوق، وكانت الأقبية الدائرية العملاقة الكريتية تضم أحياناً حتى ١٠٠ هيكل عظمي.

لكن يجب أن نعرف أن نظام العشير كان يتفكك. كانت فيلا كوبي *PHYLAKOPIE*، في جزيرة ميلوس، مدينة حقيقية بشوارع مستقيمة، وأعمال الاستحكام والمناعة. تظهر الطبقات السفلى في طروادة (طروادة الأولى والثانية) عن وجود مساكن محصنة جداً، تمتاز عن المجموع بثرأماً. أضخمها صروح طروادة الثانية. إنها تكتن أو قلعة مخيفة ذات أسوار عملاقة، مبنية على متراس من آجر الفيضانات. مسلح بالخشب. والأسوار مجهزة

ببواب منيع بمهارة. ويمكن الباب السري المدافعين من أن يباغتوا المهاجمين من الخلف. في وسط الثكنة أو الحصن، ينهض بيت القائد المدعم، بباحته المبلطة. يفضي دهليز طويل إلى قاعة واسعة، في وسطها موقد دائري. إلى جانبه مسكن أضيق، خصص على الأرجح للنساء. والقائد المقيم في مدينة كهذه ليس شيئاً بسيطاً، بل مستغل رعاياه، غير القادرين على النضال ضد هذه التحصينات التي بنوها بأيديهم.

في أيامنا هذه، لا يمكن للأسف أن نعرف شيئاً محدداً عن أصل هذه الرعايا التي عاشت على ساحل بحر إيجه. فالليونان، كما أشرنا، يتحدثون عن الرعايا المتأصلة على ضفاف آسيا الصغرى - كاريان، بلاسج وليليج - الذين سكنوا قبلهم بحر إيجه كله. وقد تأكد أن السكان الإيجيين من عصر النقش على الحجر كانوا قد أتوا من آسيا الصغرى، بدلالة طبيعية المواد الأثرية والمعطيات الواقعية^١ (أسماء الجبال، الأنهار والبقاع القائمة حتى الآن في كثير من مناطق اليونان، مثل: بارناس، سفيز، لاريسا، كورنث، إلخ). مع ذلك، تبقى القضية معلقة.

عصر البرونز

لقد وسمت المرحلة الثانية من الحضارة الإيجية بتفتح عصر البرونز في جنوب-شرق أوروبا، يقابل ازدهاراً مماثلاً في مصر (الامبراطوريتان الوسطى والحديثة) وحضارة ميزوبوتامي. إن هذه الحقبة الواقعة بين ٢١٠٠-١٤٠٠ قبل الميلاد، هي أوج الثقافة الكريتية (مينويين الأوسط والنصف الأول من مينويين الحديث، حسب إيفان).

كانت كريت آنذاك صلة وصل بين البلدان المتحضرة في العهود القديمة. وضعها الجغرافي الموائم متمايز بأرسطو في "سياسته". ويصوغ هومير ذات الفكرة في هذه العبارات البينة، البليغة:

ثمة في وسط البحر الواسع

جزيرة اسمها كريت

رائعة وخصبة، معطاء، وغاصة بالسكان،

تلتحق بها ٩٠ مدينة جميلة

سكانها لا يتكلمون اللهجة ذاتها

(أوديسة، أغنية ١٩، ١٧٢ وما بعد)

^١ - دراسة لغوية أو تاريخية لأصل أسماء المواقع الجغرافية.

وفي الحقبة ذاتها، يجب أن نشير إلى سبب آخر لانطلاقة كريت: كانت لكل الحضارات الشرقية للعهد البرونزي مركزاً وسيطاً بتجارة القصدير. يأتي القسم الأكبر من هذا المعدن الضروري لصناعة البرونز من الغرب، من شبه الجزيرة الإيبيرية، وكريت التي تراقب النقل، فتمسك هكذا مفتاح الصناعة الأساس في الشرق - الأدنى. تحتجز منه ماتشاء وتصنع البرونز نفسه (كان النحاس يستورد من قبرص. فلم تكن كريت إن تلعب دور الوسيط فقط، بل دور المنتج أيضاً.

وبلغت نقديتها واقتصادها مستوى استثنائياً. احتل التعدين المقام الأول: صنعوا من البرونز بلطات متقنة مزدوجة، خناجر، سيوفاً طولها متر، دقيقة، صقيلة، حادة، وحلي النصل بالذهب حسب الفن الدمشقي. وتحلي كؤوس وقطع ذهبية وفضية وتزين المنحوتات بدقة لاقرين لها. ولقد اكتشفوا السبيل لصنع أسلاك معدنية، نتيجة هذا صارت الحلزنة الدافع المفضل للتزيينات الكريتيّة.

. وكانت الصناعة الهامة الأخرى هي السيراميك، استخدمت بسعة دولا ب الخزاف والفرن المتقن. بأناقة الأشكال والرسوم التزيينية، لم يحتضن الشرق الأدنى كله مشربية أجمل من المشربيات الكريتيّة؛ والتي تصدر أيضاً إلى مصر، سوريا وأبعد نحو الشرق. وكان النسيج متطوراً جداً هو الآخر، بدلالة ثياب النساء المعقدة الملونة والمحلاة بالرسوم. ولابد من الإشارة إلى رسوم الأختام. والخواتم التي تزين أصابع الأرسقراطيين، والأطواق المعلقة التي تنقل أعناقهم، أذرعهم، أرجلهم وصناديقهم.

. تطور الزراعة ثابت بالخوابي الضخمة العارمة بالقمح، بالخمير وزيت الزيتون. وبقايا المرافئ والورشات وأحواض السفن، وكثير من صور المراكب تشهد على إبحار متطور وتجارة عابرة نشطة. وبصدد النقود، كانوا يستخدمون سبائك نحاسية بشكل جلد الثور أو بلطة مزدوجة، بأبعاد وأوزان مختلفة. وكانت كريت تتاجر مع بلدان بعيدة جداً.

:وكانت العمليات الاقتصادية والتبادلات التجارية مدونة بدقة بكتابة متطورة. كانوا يكتبون على صفائح من الفخار، بحروف هيروغليفيّة. وفيما بعد (حوالي العام ١٧٠٠) ظهرت الكتابة السطرية A، التي تحولت بعدئذ إلى الكتابة B. لكن ولا واحدة من الاثنتين حلت رموزها تماماً. فأنترك وشادويك لم ينجحاً، في العام ١٠٥٣، إلا بحل رموز B، الأحداث، ولم نعرف تماماً معاني النصوص الكريتيّة القديمة التي نمتلكها اليوم.

والنظام الاجتماعي، في هذا العهد، تطور جداً على أثر تطور حاد بالقوى المنتجة.



كتابة هيروغليفية كريتية من الخط A و B

يتضح هذا بجلاء في تعاون العشير في المنشآت والمدافن. البيوت صغيرة، مستطيلة، مخصصة لأسرة واحدة. والمدافن، القبور المفردة أو أقبية الأسرة، لها الصفة الفردية. يظهر كل هذا تفكك نظام العشير واقتسام المجتمع إلى طبقات. وثمة الكثير من إمارات عدم المساواة بالثروة. وفي المدن (غورينا، بالايوكاستور، بسيرا، وغيرها)، يتألف الوسط من بيوت جميلة ذات طابق واحد ونصفية، حيث يسكن النبلاء، ثم تأتي شوارع محاطة بمساكن أكثر تواضعاً، وفي القرى الكثير من الأكواخ، أو المساكن المتداعية. وكان استغلال الفقراء واضحاً جداً ويترجم على الأغلب بعبودية ناتجة عن عدم وفاء الدين، كما في بابل ومصر. في الرسوم، نرى صوراً غريبة للخدم الذين صاروا عبيداً. ومن الممكن أيضاً العثور على معلومات تخص العبيد في بعض النقوش الكريتية.

وتعد تشكيلة الطبقات الاجتماعية في كريت الانتقال إلى دولة مركزية. بداية، كان هناك عدة ممالك صغيرة تتحد بالتدريج بامبراطورية عظيمة وعاصمتها كنوسس، في شمال

الجزيرة. وكانت الامبراطوريات الكريتية تمتلك أيضاً أراضي في جزر بحر إيجة وفي جنوب شبه جزيرة البلقان. يديرها حكام يفرضون عليها الضرائب.

وعلى رأس الدولة الكريتية، ملوك كهنه حملتهم الأرستقراطية إلى السلطة. ولقد حفظ لنا الموروث التاريخي اليوناني اسم مينوس، أحد أعنى أباطرة كريت. بل يفترض أنه ليس اسماً شخصياً، بل لقب الملوك الكريتيين. وفي أيامنا، رفعت الأنقاض من قصر كنوسس العظيم ونظف ليصير مقراً لهم. إنه لصرح واسع، ذو طابقين، يشغل مساحة من الأرض تبلغ ٢ هكتار تقريباً. فيه عدة مئات من المحال -قاعات فخمة، غرف وملحقاتها- نضدت بمهارة حول باحة واسعة. من غرف الأبهة، لم تُصن إلا اثنتان: قاعة العرش وقاعة الحوض-الحمام؛ واختفى الباقي مع الطوابق المهذمة. لكن الطابق الأرضي، المكاتب وغرف الخزينة مازالت بأحسن حال، و١٨ بيت مؤونة تختزن الخوابي، الورشات الملكية والسجون. وعثر أيضاً على مدرج مسرح مخصص لـ ٥٠٠ مشاهد. وكان في القصر تمديدات ماء، وأقنية، تؤمن الراحة والأبهة النادرة. وتعطي جداريات أروقه مجموعهات فخمة وتكشف مشاهد من مصارعة الثيران التي كانت تأخذ حيزاً في قصر لابرانث عن البعد الحقيقي لخرافات اليونانية في فن عمارة ديدال (DEDALE) والبطل ثيزيه، والأميرة أريان والهريب مينوتور^٢.

كانت الامبراطورية الكريتية تعيش وفق نهج بيروقراطي متطور يشبه نظام مصر. ينقسم الموظفون إلى قادة، مراقبين، أمين خزينة وملاحظين، يضعون على أكتافهم رموزاً (قدماً، باباً، عيناً، إلخ). وكانوا موزعين إلى مديريات: مسلحة، بحرية، تموين، إلخ. ويشكل العسكريون ميليشيات مصنفة حسب السلاح. ويحتل الدور الهام محاربون يحملون سلاحاً ثقيلًا ويركبون العربات؛ وكان عندهم للتنقل شبكة طرق مبلطة. وكان الدين هو الوسيلة الأخرى لتأمين طاعة الناس. كانوا يقنعون الشعب بضرورة تكريم الإلهة-الأم، خالقة الجنس البشري، ملكة الرجال، والحيوانات والنباتات وزوجها أو ابنها العظيم الذي (يصور

١ - معماري يوناني باني قصر لابرانث في كريت حيث وضع مينوتور. وحبس نفسه بناء على أمر مينوس لكنه هرب بصنع لنفسه جناحين من ريش وشمع.

٢ - وحش نصفه إنسان ونصفه ثور، ابن بازيفاي.

غالباً بشكل ثور). كان الملوك يمثلها على الأرض، الأمر الذي يعطيهم القداسة والعظمة. إنما في كريت كما في مصر، لم يستطع الموظفون، ولا الجيش، ولا الكهنة أن يسحقوا مقاومة الشعب المستعبد. فمن حين إلى آخر، كانت تنشب التمردات والبهيجانات. انبعثت إحداهما، حسب إيفانس وبعض المختصين الآخرين، وفي مصر، في وقت واحد، في كريت، في نهاية الامبراطورية الوسطى، حوالي ١٧٥٠ قبل الميلاد. واحتل المتمردون القصور الملكية في كنوسس، وفوستوس وغيرها ودمروها، وردت الحكومة على هذه الأحداث بطبيعة أكثر ديموقراطية. لكن هذا لم يدم طويلاً، فلم تتأخر الأرستقراطية في استعادة موقعها وإعادة البناء بأبهة وعظمة أكثر. وحسب فرضية أخرى، انهارت القصور الكريتيّة في العام ١٧٠٠ على أثر هزة أرضية عاتية، آثارها بادية في مختلف نقاط الحوض الإيجي.

إن الطبيعة المنغلقة، المعادية للشعب وللحضارة الكريتيّة كانت السبيل الأساسي لدمارها، في أنها لغمت مقاومتها للمعتدين الدخلاء. هكذا، تثبتت المعطيات الأثرية أن هجرات القبائل الرعوية، منذ الألف الثالثة، وجدت على المجري الأسفل لنهر الدانوب في ثراس وفي اليونان الشمالي، ذات مستوى ثقافي رفيع (في العصر الحجري الجديد الأعلى مع إتقان تعدين النحاس). وفي أواسط الألف الثالثة احتلوا تساليا وأقاموا فيها منشآت حصينة (دميني مثلاً *DIMINI*)، الأمر الذي يثبت انتقالهم إلى أسلوب حياة أكثر استقراراً إذ اتسع دور الزراعة في اقتصادهم. وربما كان هؤلاء هم أسلاف اليونان القدماء.

وانطلاقاً من العام ٢٠٠٠، تتقدم القبائل اليونانية، التي كان بعضها من الآشوريين، الأيونيين، من تساليا نحو وسط اليونان وبلبونيّز، كما تشير الطبقة الكثيفة من الرماد وبقايا المحال المنهوبة ووجود على هذه الأرض عدد كبير من مزارعهم، المعروفة بخزفها الأصيل، المزدان بالشرطان. وقد أفضى غزو الآشيين في حوالي العام ١٧٠٠ إلى انتزاع الأراضي الكريتيّة القارية وولادة، في هذه البقاع، مزارع أشية كان سكانها ملتزمين في قبائل وعشائر تقدم ثقافتهم خليطاً من الحضارة الآشية والكريتيّة. سماها العلم، اتفاقاً، "الحضارة المسنية (١٧٠٠-١١٠٠) نسبة إلى حاضرتها مسينا في أرغوليد *ARGOLIDE*، واعتبارها بنفس الوقت المرحلة الأخيرة من الثقافة الإيجية والمرحلة الأولى من الثقافة اليونانية.

الفصل الثالث والعشرون

أخلاق اليونان القديمة ونظامها الاجتماعي

الأخلاق، النظام الاجتماعي

كان الآشيون، في أيام استقرارهم، يعيشون النظام المشاعي البدائي. وكانت القبيلة تنقسم إلى بطون تشكل قاعدة التنظيم الاجتماعي: يضم كل بطن عدة أفخاذ. بداية، كان الفخذ تعاونية اقتصادية تدير العمل في الأرض ومنها الدولاب؛ وفي الوقت ذاته، كان يمثل منظمة عسكرية بأعضائه الذكور. وفي الحياة العائلية، تستمر بعض بقايا الأمومة، تشهد على هذا الأساطير؛ ويظهر هذا في بعض العادات القديمة التي عاشت حتى العهود اللاحقة: هكذا، صانت العلاقات الأسرية في إسبارطا في العهد الكلاسيكي بقايا الزواج الجماعي. وكانت اتحادات البطون تسمى قبيلة؛ كان سكان آتيك وآثينا موزعين على أربع قبائل والسبارطيون ثلاث قبائل؛ أما عدد البطون، حسب الكتاب اليونان الذين يقولون إن في إسبارطة ٢٧ بطناً وفي آتيك ١٢ بطناً، معلومات مشكوك بها. فالعدد على الأرجح أكثر من هذا بكثير. وعلى رأس كل بطن، زعيم منتخب.

الحضارة الميسينية MYCENIENNE

في اليونان الوسطى وبلوبونيز، اصطدم الآشيون برعايا أصليين أقدم بكثير، قبل - الهلينية، كانوا قد خضعوا لنفوذ الثقافة الإيجية الواسعة، وأقاموا في الحاضرات الموجودة: في مسينا، في تيرانت (أرغوليد)، في آثينا وبعض قصبات آتيك، في بيلوس، في آتيب وغيرها. أباد الآشيون جزئياً أبناء البلد أصحاب الحضارة الأسمى وانصهروا مع من بقي منهم واقتبسوا منهم أشكالاً اقتصادية أرقى: انتشار البرونز لصنع الأسلحة والأواني المنزلية، وطرقاً جديدة في البناء، وزراعة متقنة (بذر القمح، الشعير، الفول، العدس والزيتون). ومهن مثل صنع الفخار، السباكة، الحدادة وصناعة الذهب التي أخذت بُدأً بعيداً؛ انفصلت الصنعة عن الزراعة وصارت فرعاً مستقلاً في مجال الإنتاج. وبدأ نظام

المشاعية البدائي لدى الآشيين بتفكك: صارت نبالة الدم، الممكتبة والوطيدة، حوالي القرن ١٦ قبل الميلاد، صارت تدريجياً الطبقة المسيطرة. ومن القرن ١٦-١٤ قبل الميلاد، بنى في مسينا، وتيرانت، ورشوفين قصوراً فخمة محاطة بجدران منيعة تسمى "العملاقة"؛ وفي تيرانت، مثلاً، يبلغ سمك هذه الجدران، المبنية بالصخور الضخمة، ٢٠م. واشتهر "باب ليون" في مسينا، في العهود القديمة. وكانت قصور مسينا أضيق من قصور كريت. ولا تشبه عمارتها عمارة كريت، لأن قسمها الرئيسي هو "MEGAROM"، مسكن واسع فيه موقد، غير موجود في كريت. ومن جهة أخرى، تكشف الجداريات والأعمال الفنية الأخرى أن قصور مسينا رافدة للحضارة الكريتية. ومقابر نبلاء مسينا (والأقنية العميقة) والقاعات الضخمة القائمة على الصخور، أصيلة جداً. فقد عثر، على الهياكل العظمية، كمية من الأغراض الذهبية: أقنعة، أكاليل، زناجير وحلي؛ والأروع، هو السيف البرونزي ذات المقبض الذهبي الدقيق الصنع. إن القصور المنيعة والمقابر البهية تشهد على اقتسام طبقي للمجتمع المسيني. وامتلاك النبالة العسكرية عدداً من العبيد الذين أسروا في الحروب والذين يكلفون ببناء الصروح "العملاقة".

وكان بسطاء الناس، أعضاء المشاعات، سكان الضيع الفقيرة، يفقدون تدريجياً حصتهم بالأرض، يسقطون في تبعية النبلاء أو يتحولون إلى محاربين لصالحهم يجوبون على ظهر السفن الجزء الشرقي من البحر المتوسط. وقد أفاد البحارة المسينيون من خبرة الكريتيين.

اختار الآشيون الكتابة الكريتية. وفي العام ١٩٣٩، وفي الخمسينيات، لدى تنقيب بيلوس في مسينيا، جمعت المئات من الرقم الفخارية المغطاة بالكتابة الكريتية B؛ وثمة علماء سوفيات وأجانب يعملون على حلها (انظر) صفحتي ٢٩٧، ٣٠٧). تتضمن هذه النصوص معطيات حول العلاقات الاقتصادية والاجتماعية (بخاصة فيما يتعلق بالعبيد واستخدامهم في العمل بالقصور). وفي الخمسينات عثر على صفائح تشبه صفائح مسينا.

وحوالي العام ١٤٥٠ قبل الميلاد، احتل الآشيون جزيرة كريت ودمروا قصور ملوك كنوسس، وبعيد هذا، قطن الآشيون والقبائل تمت لهم بالقرب في بعض الجزر رودس، قسم من قبرص) والساحل الشمالي-الغربي من آسيا الصغرى. ولقد استوحيت هذه الأحداث طبعاً من أسطورة حرب طروادة (حوالي العام ١١٨٠ قبل الميلاد)، الواردة بعقريّة في

إلياذة هوميروس. هكذا، تذكر، قبائل، قادة وأبطال من قصائد هومروس: مثلاً، "أكياوا"-
أشيون، "أكاغامونا"-ربما كان أغاممنون.

اجتياح الداريين. العصر الهوميري. بداية عصر الحديد

نقرأ في وثائق شرقية من القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى جانب الآشيين أسماء جماعات أخرى قبلية يونانية، مثل الـ"جافان" *JAVANS*: الأيونيون. وحوالي ١١٠٠، تحرك اتحاد قبلي كبير من الداريين الآتين من شمال غرب شبه جزيرة البلقان، تحرك باتجاه الجنوب. تغلغل هذا الحشد المقاتل الأقل حضارة من الآشيين، في القرن ١١ قبل الميلاد في اليونان الأوسط ولبونيز. اقتحم الداريون أرغوليد واستولوا على مسينا والمراكز الأخرى. اختلطوا بالرعيا المحليين واستبعدوا قسماً منهم. دمرت مسينا وفقدت إلى الأبد أهميتها السياسية والثقافية. واجتاح داريون آخرون لاكونيا، لكن بعد صراع طويل وضرر. وهنا، في وادي أورانتس، ولدت فيما بعد، في القرن التاسع، دولة إسبارطة وقسم من الآشيين الباقين، التحفوا الجبال صعبة المسالك في شمال ووسط البلبونيز، أي المناطق المسماة فيما بعد أركاديا وأشايا *ARCADIA ET ACHAIE*.

لم يعان قسم من أرض اليونان القارية والجزيرية، بخاصة آتيك، موطن الأيونيين وعدد كبير من الجزر الإيجية، من الاحتلال الداريني. ومرحلة الأيونيين في شبه جزيرة البلقان غير محدودة.

إذن في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، تشكلت الجنسية اليونانية القديمة. وانقسمت إلى مجموعات قبلية: أيونية، دارية، أشية وأبولية، التي تتكلم كل منها لهجتها الخاصة وتمتاز بتطورها الاقتصادي، الثقافي والخلقي.

نجم عن غزوة الداريين إلى حد ما انخفاض المستوى الثقافي: توقف بناء القصور، وسقطت التجارة والصناعة والفن في هاوية الانحطاط. وانحسرت العلاقات الاجتماعية. توطد العشير من جديد، وتراجع استخدام عمل العبيد. نجم هذا بسهولة، لأن مراكز الحضارة الميسينية كانت محاطة بالقبائل التي تعيش عهد الأبوة. وفي ذات الوقت، تعلم اليونان استخدام السلاح الحديدي (السيوف، والقدائف -الحراب- السهام وأدوات حديدية أخرى؛ وبدأت صناعة الحديد، المقتبسة من آسيا الصغرى بالتطور. واستعاد إيقاع نمو القوى المنتجة تسارعه.

إلى هذه الحقبة من الزمن تنسب روائع الفن الشعبي في اليونان القديمة: الإلياذة والأوديسة، القصائد الملحمية المنسوبة إلى هومروس، الشاعر الأعمى الخرافي. تعكس هذه القصائد مشاهد من الحياة الثقافية والاجتماعية في الحقب المسيانية وبعده المسيانية (من القرن ١٢-٨ قبل الميلاد).

تشغل الإلياذة والأوديسة أحد أهم الأمكنة في الأدب العالمي؛ فمن الطبيعي أن مسألة معرفة متى، أين وكيف ظهرت هاتان الملحمتان، تهم الحضارة الإنسانية. ففي القرن الثالث قبل الميلاد، كان بعض علماء اليونان يشك بوجود هوميروس. وبعد ألفي عام، في نهاية القرن ١٨ وبداية ١٩، طرح العالم الألماني فريدريك أوغست وولف من جديد، بكل حدة، مسألة هوميروس باعتباره ناظم الإلياذة والأوديسة. وفي كتابه معلومات تمهيدية عن هوميروس (١٧٩٥) يؤكد وولف أن هذه القصائد ولدت عفواً من أغان شعبية ملحمية. لكن "الموحدين"، خصوم وولف (منهم شيللر وغوته) يشيرون إلى أن الوحدة الفنية في أشعار هوميروس تفترض شاعراً عبقرياً. واليوم، يرى أغلب الاختصاصيين أن القصيدتين كتبتا فعلاً، إجمالاً، بقلم كاتب نابغة (هومروس؟) في نهاية القرن ٩ أو بداية القرن ٨ قبل الميلاد؛ لكنه لم يفعل أكثر من أنه جمع بمهارة وأرابة في كتاب واحد أعمالاً فولكلورية (ملاحم مغناة خلال عصور بحناجر شعراء "منشدين").

تعكس أشعار هوميروس عدة قرون من حياة اليونان القديمة. نقرأ فيها (بخاصة الإلياذة) قصص أحداث، نماذج ومشاهد من أيام ازدهار المسيانيين، الذين سبقوا الاجتياح الدوري. ويعود موضوع الإلياذة نفسه إلى أوج المسيانيين وأسبقيتهم في أثناء الحملة ضد طروادة التي شنّها الآشيون المتحالفون تحت قيادة آغاممنون، ملك المسيانيين "الغني بالذهب" (في حوالي العام ١١٨٠ قبل الميلاد. تستدعي هذه القصيدة حرب طروادة، أو بالضبط أحد فصولها الأخيرة: الهزيمة الساحقة التي ألحقها الآشيون بالمدافعين عن "طروادة العظيمة". لكن المضمون الأساس للإلياذة يميز اليونان بعد الاجتياح الداري وحتى بداية القرن الثامن قبل الميلاد يونان "عصر هوميروس". هكذا، ذكر فيها السلاح الحديدي كثيراً ولم يكد يذكو السلاح البرونزي لندرته. فنستخلص أن الحديد كان قد عرف وانتشر، لكن الشاعر يصف الزمن الذي كان فيه هذا المعدن زماً غريباً. وتشير الأوديسة إلى عودة أبطال طروادة، وإلى الحياة اليومية لزمن السلم. هنا، يكرر الحديد ثلاث مرات أكثر مما في الإلياذة، إنما

نصادف هنا النحاس والبرونز أكثر أربع مرات من الحديد. أخيراً، نتحدث بعض المقاطع، عن تشكيلة المجتمع العبودي، المنقسم إلى طبقات، أي أنها تخص مرحلة لاحقة.

عاش المجتمع "الهومييري" من القرن ١١-٩ على قاعدة الاقتصاد الطبيعي، أي أن سكان كل ضيعة ينتجون كل مايستهلكونه. أساس الاقتصاد التدجين: الدابة هي وحدة القيمة. مثلاً رجل ضخم من النحاس يساوي ١٢ ثوراً، شابة عبدة-أربع ثيران. وللزراعة، ففي الشعر، المقام الثاني: وكأنهم لا يملكون سوى المحراث الخشبي الذي لا يعمل إلا في الأرض الطرية، والوديان الغرينية؛ إذن الزراعة في حالة متطورة: يبذرون الحنطة الرومية، الشعير، ويزرعون البقول والبساتين المثمرة. والصناعيون، الطبقة الوسيطة التي تميز الحراث ومنتجي المواد المباعة في السوق، غير موجودين بعد. يشار إلى مهنيين يعملون بناء على طلب، عمال الفخار، صنّاع الجلود، الحدادون، البنّاون، وصناع الذهب، الشعراء المنشدون، نذيرو الحرب، يشغلون جميعاً وضعاً كريماً ويسمون "من يعمل من أجل الشعب" (الصناع). والإله هيفا ستوس الذي يعمل في محل حدادة وفرن له، بسندان، ومطارقه، يبدو الممثل الرئيس لمهنة الحدادين.

العلاقات المتبعة والتجارة والنقود غير موجودة. إنما عدا وصف هذه الحياة المنعزلة عن العالم الخارجي، تحكي الأشعار قصصاً عن البحار البعيدة؛ والأوديسة نفسها تسرد تجوال وتطواف أبطالها. وأوليس نتحدث هنا عن سفرها إلى مصر؛ وثمة حكايا أخرى عن رحلات بحرية، على رأسها الأعمال التجارية. في اليونان-هوميروس، لم تكن المدينة، بصفتها مركز صناعة وتجارة، قد وجدت بعد؛ فالأشعار لا تصفها أبداً، سوى مقطع واحد في الأوديسة حيث، مملكة *PHEACIENS* "المغرمين بالمجذاف"، نرى مرفأً تجارياً فعلياً. هي ذي الحقبة الأخيرة من العهد الهومييري التي وصفت في هذه الأغنية الأوديسية.

والمجتمع الهومييري مؤسس على العشير لكن هذا يتفكك، لأن الأرزاق المنقولة وحتى البيوت ملكية خاصة؛ فقط استمرت الأرض ملكاً للمشاعة، المنقسمة إلى أسهم يتمتع به من تلقاه مدى الحياة. لذا لوحظ فرق واضح في الثروة. شيوخ العشير يحوزون عدة أسهم، واسمهم يعني "من يتصرفه كثير من الأرض".

والنبالة الغنية والمتنفذة تشغل، بعامة، وضعاً متميزاً. إنها تمتلك عقارات منتزعة من عقارات المشايخين يسميها هوميروس "*TEMANAS*". وتشهر أشعاره فقط الحياة الهائلة

والواقعات المسلمة لهذه النبالة. في أيام السلم، يعيش الأرستقراطيون بأسر كبيرة في أملاكهم، يخدمهم العبيد. فعلاً، لم يكن عدد العبيد كبيراً، ولا يمكن وصفهم بـ"ملكية حية" كما قال أرسطو فيما بعد. نبلاء هوميروس يقاسمون عبيدهم حياتهم. هكذا، *NAUSICAA* "ذات الذراعين الأبيضين"، ابنة النبيل *ALCINOUS*، تغسل الغسيل على البحر مع عبيدها؛ و *EUMEE*، عبد-راعي الخنازير، هو رجل ثقة لدى *ULYSSE*، إلخ. لكن العبيد في المجتمع الهومييري يمثلون الشريحة الخادمة في هذا المجتمع، جنين الطبقة العبدية القادمة. وتفكك مجتمع العشير ثابت أيضاً بالفرق الواضح في قلب المشاعة. فأشعار هوميروس تصف الوضع الحزين للأعضاء الذين فقدوا عقاراتهم ويخدمون النبلاء؛ وثمة أيضاً مسألة المهاجرين واللصوص المسلوبين النار والمكان، بل كل الحقوق.

لم يكن المجتمع قد انقسم إلى طبقات فليس ثمة دولة؛ ولم تفقد التنظيمات الإدارية والقضائية بعد صلاتها المباشرة مع الشرائح الشعبية ولا تعتبر فوقها. السلطة الوليدة تتركز شيئاً فشيئاً في يد الملاك المنحدرين من نبلاء الدم؛ "ومجالس الشيوخ"، المجتمع حول الملاك، يتكون من ممثلي الأرستقراطية. لكن جمهرة الناس البسطاء، أعضاء المشاعات، يحفظون حقوقهم. والنبلاء (بخاصة في أيام الحرب) يهتمون بالناس، ويقيمون وزناً لإرادة الجنود البسطاء وهم مضطرون للاجتماع من أجل اتخاذ القرارات الهامة. يسمى ماركس وانجلز هذا النظام "الديموقراطية الحربية". فالديموقراطية العسكرية هي إذن التي تميز العلاقات السياسية والمرحلة الانتقالية بين المجتمع البدائي ومجتمع الرق المنقسم إلى طبقات، الذي تلاه.

انبثاق دين الآلهة الأولمبيين

ظهرت الإيدولوجيا الدينية في الحقبة الهومييرية. وخلق الفن الشعبي ليس فقط أغاني ملحمية، بل أيضاً "أساطير"، خرافات تتعلق بالآله، بأنصاف-الآلهة وبالأبطال. وتعتبر الأساطير عن عدة مفهومات في قوى الطبيعة وفي موقف الناس من هذه القوى في مختلف العصور من حياتهم الاقتصادية والاجتماعية. إجمالاً، الأساطير من مصدر ديني.

نصادف غالباً، في الأساطير اليونانية آلهة بأشكال حيوانية. يؤكد هذا أن هذه المعتقدات تعود إلى حقبة مختلفة عن المجتمع الطبقي، إلى الإيدولوجيا الطوطمية للأزمنة الغابرة. هكذا، كانت عبادة الأفاعي التي تمثل القوى الشيطانية (لذا سميت هذه العبادات

"CHTONIENS" من الكلمة اليونانية *CHTOM*، الأرض)، كانت منتشرة جداً منذ أقدم العصور. يمثل "ERECHTEE"، بطل ونصف-إله لآتيك، بصورة تتيّن ضخّم يسكن الكهوف الصخرية في الأكروبول التي كان يحميها. وفي أثينا، عاشت طويلاً عادة تقديم القرابين على منحدرات الأكروبول لهذا التّين المحسن. وبني باسمه وعلى مجده، في وسط الأكروبول، الهيكل أو المعبد المسمى "ERECHTEION".

وكان أبولون "المشرق" أو فويس، إله الشمس، كان أيضاً مرتبطاً بصميمياً بعبادة ثعبان ضخّم، يقيم في كهف عميق من برناس قرب ديليف. ومن هنا لقب "بتيان" المعطى لأبولون ولقب بيتس المعطى لآلهات المعبد، التي تأتي العجائب. وبعد أن قتل بيتيون بضربة سهم، بنى أبولون معبده في هذا المكان؛ وهو نفسه، وقد أخذ شكل دلفين، يسبح في البحر. ويظهر لبحارة كريت، ويطلب أن ينوا له قرب هذا الهيكل معبداً. لذا سمي هذا المكان "دلف" وهو نفسه "دلفيني". عدا دلف يوجد في اليونان محال كثيرة ترتبط بعبادة أبولون-دلفيان.

وتمجيد الذئب ترك هو الآخر آثاراً عديدة، وأمكنة عبادة عدد كبير من الآلهة الأحدث تحمل اسم *Lycee* (مثل ليسي أثينا). الآلهة المعبودة هنا تسمى "الذئب" (مثلاً، زيوس ليسيان، أبولون ليسيان) كورثة أو أخلاف للعبادات التي تركوها. واليوم كانت تعتبر في أثينا طائراً مقدساً؛ وفيما بعد صار وصف أثينا "بعيون بومة"، الإلهة التي تحمي أثينا. وعبادة النباتات انتشرت واسعة في اليونان القديمة. وفي دودان بابيرييا كان يوجد وسيط للوحي^١ شهير؛ كان يوجد هنا سديانة ضخمة، عمرها مئات السنين حتى اعتقدوا أن زيوس يسكن فيها. "يتنبأ"، الكهنة بالمستقبل حسب حفيف أوراقها.

وآثار الإحيائية، البارزة جداً في ذروة نظام العشير، تضاف إلى هذا الأساس الأقدم. وبالنسبة لليونان، تتجسد الطبيعة بكائنات نصف-بشر ونصف حيوان: بشر يأفخاذ تيس، أو مقدمة حصان ومؤخرة بشر، وحوريات البحر بذيل سمكة. وأرواح الغابات كانت حوريات الغابات، وأرواح البحار كانت آلهة أمواج سمكية الشكل، إلخ. كان الناس يعتقدون أن العلاقات الجيدة فقط مع هذه "الأبالسة" يمكن أن تؤمن للإنسان حياة سعيدة وأمنية (فلسفة

١ - كاهن أو كاهنة عند الإغريق يعتقد أن الإله يجيب بواسطته عن سؤال حول أمر من أمور الغيب.

السعادة (EUEDEMANISME) والموقد البيتي يعتبر مقدساً، لأنه كان مرتبطاً بعبادة الأسلاف. ويزين هذا الموقد بالأزهار، وتعامل شرارته بعناية، وترمى فيه أعشاب عطوة. الخطيبان، وحديثو الولادة، يقدمون له، والمنفيون يلجؤون إليه. وتمجيد الأسلاف، المرتبط صميمياً بعبادة الموقد المنزلي، كان واسع الانتشار في اليونان، حتى في الزمن التاريخي. والوثائق التي وصلتنا تزودنا بشواهد كثيرة.

وتقدّس ديمتر DEMETER، الأرض الموضع، أخذ مدى واسعاً. ففي ايلوزيس (البقعة الأخصب في جزيرة أكيلا)، صارت واحداً من أهم مراكز هذه العبادة، ظهرت أسطورة خطف ابنة ديمتر، كوري CORE (تجسيد تجديد الربيع)، من قبل قوى الظلام العائشة في أعماق الأرض. كانوا يعتقدون أن الطقوس المعقدة والغامضة وحدها (الأسرار، الطلاسم) تستطيع إقناع ديمتر، الحزين والهائج، أن لا يحرم الأرض من طاقتها المنتجة. مع تفكك نظام المشاعية وتوطيد أرسقراطية الدم العسكرية، يظهر دين جديد ومعقد، دين آلهة الأولمب، سادة السماوات، "سكان الأعالي" و"ملوك العالم"، الذين يفترض أنهم يقيمون فوق جبل الأولمب. كانوا أعضاء "عشير إلهي"، يشبهون نبلاء الأرض، وكانوا قد اقتسموا الكون؛ ونضيف أن الأرض تبقى ملكهم المشترك. الآلهة الكبار هم ثلاثة أخوة: زيوس إله الرعد، إله الغيوم؛ بوزيدون، إله البحر، وادينوس، إمبراطور جهنم.

المظفر بوزيدون يجيب:

نحن ثلاثة أخوة، أبناء كرونوس وريا:

زيوس، أنا، أدينوس، الثالث الذي يحكم جهنم.

قسم العالم إلى ثلاثة أقسام، لكل إمبراطوريته.

حصتي، عندما أجرينا القسمة،

أن أسكن أبداً البحر المزيد؛

ولأدينوس مملكة الظلمات؛

ولزيوس، السماء الواسعة في الأثير وبين الغيوم؛

لكن الأرض تبقى للجميع، وكذلك

الأولمب العالي."

(الإلياذة، النشيد ١٥، ١٨٦ وبعده).

ثم يأتي الجيل الأصغر من الآلهة، أبناء زيوس. كان هفاستس، ابن زيوس وهيرا، إله النار، والحداثة وحامي فنون صناعة المعدن. الـ"مشرق" أبولون أو فويس، إله الشمس، يجوب السماء على مركبته النارية، وأرتمس، إله القمر، ملكة الغابات والحيوانات المتوحشة، القناصة التي لا تتعب، كانوا أبناء زيوس والإلهة ليتو. وهرمس، ابن زيوس والحورية مايا *MAIA*، كان الرحالة الأبدى، بشير زيوس، سيد السواح وقائد أرواح الموتى لدى إله الجحيم. بعد هذا، إله الحرب الدامية، أثينا، الإلهة الذكية، حامية المدن، وأفروديت، ابنة زيوس وديونس، إلهة الحب والجمال، مع ابنها إيروس، الخبيث والمتمرد، يشكلون أيضاً جزءاً من الآلهة الأولمبيين. ولقد اقتبس كثير من هؤلاء الآلهة من معتقدات الرعايا قبل الهلينية، مثل، أرتمس، لإلهة الحيوانات، وأفروديت ذات "الشعر الذهبي" التي حسب بعض الأساطير، ولدت بأعجوبة من زبد البحر كانت ممجدة بخاصة في جزيرتي قبرص وسيثير، اللتين خضعتا لتأثير قوي مينيوي وشرقي. وقد خلقت اليونان نفسها باقي الآلهة. وأعطاهم الشعراء المنشدون شكلاً يلائم ذوق وروح النبلاء القريبين منهم. لذا كان آلهة الأولمب ليس فقط إنساني الشكل، بل يمتازون بهيئة "أرستقراطية". يعيشون حياة البطالة والبذخ في قصورهم الذهبية، كما تستقر الأرستقراطية السماوية- تنغمس بالحريق والكوتر الإلهين اللذين يعطيان الخلود، ويصغون إلى الأغاني العذبة من الحوريات. على ذلك، المنازعات والمشاجرات تكثر بينهم كما هي عند نبلاء الأرض. وإن أتى الآلهة من حين إلى آخر لمساعدة الملوك، الذين هم شفاعوهم، كما حدث مع أوليس، يتأملون بالـ"رصانة الألمبية" آلام الناس البسطاء. في يوم آخر قرر زيوس إغراق كل الناس؛ لكن اثنين فقط أنقذهما بروميته، ومن هذين الاثنين تتجدد البشرية. التي خرجت من حياة اليأس والحيوانية بفعل النار التي سرقها من السماء بروميته نفسه. عاقب زيوس بقسوة التيتان المتمرد، بربطه إلى صخرة قفقاسية وإرسال نسر له كل يوم، طيره المفضل، لينهش الكبد الجريح. استناداً إلى هذه الأسطورة نرى "ديناً أولمبياً" جديداً أو "دين ويوس" يتوطد في اليونان جزاء نضال حاد. وخرافات عديدة عن "تيتان" عن "عمالقة" وأبطال مقدسين تعطي فكرة واضحة عن هذا الصراع. كان البطل المفضل لدى الشعب هو هرقل الذي عاش حياته بخدمة أورستيه، الملك الفظ والجبان؛ بشراسته الغريبة، كان هذا الشجاع المقدم بجسد قوة الطبقات الشعبية، التي ترهب النبلاء. ينفذ ١٢ عملاً صعباً. وفيما بعد، يباع عبداً، يخدم

ملكة ليديا أو مفال التي تلبسه ثياب امرأة ليقوم بأعمال نسائية. كانت صورة هرقل، رمز الكادح التعس، عزيزة غالية لدى عامة الناس.

أسطورة أنيته ANTEE، ابن الأرض، الجبار الموهوب يستمد بأساً فريداً من ملامسة الأرض، هي الأخرى إبداع فن شعبي. تعكس هذه الخرافة وعي المزارعين ببأسهم ودورهم. وتعبيراً، على الأرجح، عن نزعة أرسقراطية، تقص هذه الأسطورة معركة فريدة بين أنيته وهرقل، الذي يخنق خصمه برفعه ليعزله عن أمه (الأرض).

هكذا تجد مختلف مراحل تطور النظام الاجتماعي القديم وأشكال النضال الايدولوجي البسيط، تجد منعكسها في أساطير ومعتقدات اليونان. وفيما بعد، في زمن المجتمع العبودي المتطور، يتحول آلهة الأولمب إلى مدافعين عن مختلف عناصر الحياة السياسية. أبولون، مثلاً، صار حامياً للكهنة والمقدسات؛ بوزيدون-حامي البحارة، هرمس-حامي التجار. وعلى نطاق واسع تداول الدين رجال الأدب والفن في اليونان القديمة ليدعموا ويوطدوا أيديولوجيا الرق والعبودية.

الفصل الرابع والعشرون

بحث الطبقات الاجتماعية والدولة في اليونان (القرن ٨-٧ قبل الميلاد)

المجتمع اليوناني وفق هزيود^١

يتميز عصر ما بعد هوميروس بتبدلات عميقة في اقتصاد اليونان ونظامها السياسي. إذ تسارع تفكك النظام المشاعي البدائي بعد تحول، في بعض المناطق، الأرزاق والأسهم العقارية إلى ملكية خاصة أسرية. وبدأت الأسر المرتاحة تتفصل أكثر فأكثر، واستغلاً لتمييزها الاقتصادي، راحت تحتكر وسائل الإنتاج الأساسية في المشاعة العشيرية: الأرض، الحيوانات والعييد. وشرع المزارعون الأحرار يسقطون شيئاً فشيئاً في أتون التبعية للنبلاء، وراح يزداد عدد المضطرين للتخلي عن أرضهم والتسبب عبر الوطن بحثاً عن عمل.

يرسم الشاعر هزيود لوحة معبرة عن تحكم نبلاء الدم بجمهرة المنتجين (نهاية القرن الثامن - بداية القرن السابع قبل الميلاد). كانت بيوتيا، بلد الشاعر، منطقة تضم عدداً كبيراً من الاقطاعات الفلاحية الصغيرة. مجد هزيود، المالك الصغير، العمل الفلاحي. "العمل، أياً كان، لا يعيب الإنسان: العار والشنار في التبطل".

وفي قصائده "الأعمال والأيام"، يرسم متعاطفاً شرط حراث فقير، سقط بين يدي غني مالك عقاري ومرابي. كانت بيوتيا تعيش في هيمنة ثلاثين نبيلاً عقارياً يصفهم هزيود "أكلة الهدايا"، "الشريحة الظالمة"، أغنياء بالأرض، بالحيوان والعييد. وفي قصيدة "الباز والعندليب" يثير اضطهاد الناس المساكين. يأخذ البازُ العندليبَ بين مخالبه، ويخاطبه:

١ - شاعر يوناني، ولد في أسكرا حوالي أواسط القرن الثامن قبل الميلاد، ناظم أشعار تعليمية: الأعمار والأيام، ونسب الآلهة.

أيها البائس، لم تصرخ؟ أنت من فصيلة
أقوى منك. ستذهب حيث أخذك،
كونك مغنياً ماهراً مخملياً
ومك، حسب رغبتني، سأجعل وجبة أو أطلقك
حراً

مجنون من يقاوم من أقوى منه:
لن يظفر وإلى الخجل يضيف
المعاناة (شعر ٢٠٥-٢١٠)

كان هزيبود بعيداً عن التفكير بنضال سياسي من الطبقات الفقيرة، وليس له سوى أن
يهدد "الملوك أكلة الهدايا". يقول: إن العقوبة الإلهية ستضرب المستبدين والقضاة الجائرين،
على ذلك، يرى أن الظلم منتصر حتى في السماء. وفي قصيدة أخرى، "نسب الآلهة"، يقدم
زيوس كطاغية سماوي، ينزل بالجبار بروميته، صديق الناس، أفدح الأوصاب.
هكذا تدل أشعار هزيبود إلى المرحلة التي تلت عهد هوميروس، بخاصة تفكك المجتمع
الأبوي وولادة تشكيلة العبودية؛ مجتمع منقسم إلى طرفين متعادين: طرف المسيطرين، أي
الملاك الكبار أصحاب العبيد، المرابين، "والبسطاء غير الخالدين" المستغلين من قبل
الآخرين؛ البؤساء، المحرومين من أي حق، الذين يعيشون أشبه بالعبيد. كما تبدو الحياة
لهزيبود قاسية وظالمة؛ يقول إن الأرض "متربة بالمتاعب والآلام، وكذلك البحر.
هي ذي العلاقات الطبقيّة التي توطدت في القرنين ٨ و٧ قبل الميلاد ليس فقط في
بيوتيا، بل أيضاً في كل مناطق اليونان.

أولى الحضارات اليونانية

في هذا العهد ولدت الحضارات، المدن-الدول العبودية التي تجمع حولها وتضم
الأرياف المحيطة. كانت هذه الحضارات نموذجية من أجل تطور اليونان اجتماعياً. سمي
هذا التطور الانصهاري ("تجمعاً").

ترافق تشكل الحضارات مع رواج التجارة والحرفة التي انفصلت عن الزراعة. بنيت
أغلب هذه الحضارات، التي عرفت في القرن الثامن، على الشاطئ. هكذا كانت مدن إيونيـا
مثل ميليه، ومدن الجزر المحاذية لآسيا الوسطى: ميتيلين، سامس، ثم إيـجن في خليج

سرونيك، أثينا، كورنث، ميغار، شلس وغيرها. وكانت المدن العبودية الأكثر نموذجية تمتد على طول الطرق البحرية الرئيسية، من الشرق إلى الغرب، الأمر الذي يشير إلى الصلة بين تطور العبودية ورواج التجارة والمواصلات البحرية. يكتب ك.ماركس: "في العالم القديم، أفضى العمل التجاري وتطور رأس المال البضاعي دوماً إلى اقتصاد الرق؛ حيث، حسب وجهة انطلاقه، يمكن أن يفضي إلى تحول بسيط في نهج الرق الأبوي المتوجه نحو إنتاج فضل القيمة.

وظهر في الوقت ذاته الشكل القديم للملكية العقارية: فقط، مواطن الحاضرة يقدر أن يمتلك أرضاً داخل الحاضرة.

كانت الحاضرة مركز استغلال عم العبيد والفقراء. فنبلاء الدم حولوا كل ما فيها من مؤسسات أبوية إلى أدوات لسلطتها. استبعدت رؤساء أو شيوخ العشير لتقيم الـ"أولغارشية" مكانهم، أي سيطرة بعض الأسر النبيلة. أما دور المجالس الشعبية فقد تراجع إلى العدم. بل هو من الآن لعبة يقدم الأرستقراطية.

هكذا استبدلت المشاعة الأبوية إلى مجتمع متناحر، منقسم إلى طبقات؛ والسلطة التي كانت سابقاً وظيفة إدارية بحتاً، تتجاوب ومصالح الكل، صارت أداة سطوة السلطات العشيرية القديمة. لكن الملاك العقاريين النبلاء حافظوا على بعض الأشكال الأبوية (عشائر، بطون، قبائل) كوسائل بين يدي المضطهدين "وبالتالي، استخلص أرسطو واصفاً النظام الأرستقراطي في أثينا في القرن السابع والسادس قبل الميلاد، ... العبودية هي التشكيلة الأكثر معاناة واضطهاداً للناس البسطاء.

الفصل الخامس والعشرون

الاستعمار اليوناني في القرن الثامن حتى السادس قبل الميلاد

أسباب حركة التوسع وخصائصه العامة

أثار استعمار شواطئ البحر المتوسط، البريونتيدي وبونت - أوكسن (بحر مرمرة والبحر الأسود) تبدلات ضخمة في بنية الدولة، والعلاقات الاجتماعية، والأعراف والعادات في اليونان. إن تأسيس مستعمرات هيلينية على أرض واسعة كهذه ذو أسباب اقتصادية، اجتماعية وسياسية. وغزو الأراضي على يد نبلاء الدم، انتزاع ملكية صغار الفلاحين، نمو الشرائح المهنية والتجارة التي تختلف مصالحها مع مصالح أرستقراطية السلطة-، كل هذا بعث صراعا اجتماعيا شرسا. والشرائح الاجتماعية المعتمدة أو المقهورة في هذا الصراع كانت مكرهة على ترك الوطن وترحل لتغامر في المستعمرات. والعنصر الهام الآخر هو أن كثيرا من أقاليم اليونان القاحلة كانت بحاجة لاستيراد القمح، الأمر الذي أفضى، منذ القدم، إلى أن تقيم مدن كورنثيا، ميغار، إيجن، شالسس علاقات مع المناطق الغنية بالقمح خارج الأرض اليونانية البحث. وفي بداية الاستعمار، توافد المهاجرون إلى المستعمرات، وأعطوا هذه الحركة صفة زراعية. ثم تطلب ازدياد المهن ورواج التجارة أسواقا جديدة لتصريف المنتجات المتنامية أبدا التي تنتجها الحرف والعبيد البربر الذين صاروا اليد العاملة الرئيسية في الإنتاج اليوناني المتوسع. وقد أسست المستعمرات حيث كان السكان الأصليون أنفسهم قد خلقوا مراكز تداول بين القبائل.

كانت هذه المستعمرات (يسمىها اليونان أبويكيا: بعيدا عن البيوت) مستقلة عن المتروبول^١ (المدينة-الأم) وشكلت دولة خاصة بها. ولم تكن المستعمرات والمتروبول

^١ - أي الدولة بالنسبة لمستعمراتها.

متصلين سوى بالآلهة والتقويم المشترك، غالباً بتسمية الموظفين، التقسيم إلى قبائل، وأيضاً بعض إمارات الاحترام: "كما يحترم الأبناء الآباء كذلك تحترم المستعمرات المتروبول، كتب دنيس هلكارناس (منتصف القرن الثالث). طبعاً صارت المستعمرات شيئاً فشيئاً أسواقاً رائعة ومراكز آمنة لتجارة المتروبولات، خاصة إذا كانت هذه الأخيرة قد اشتركت بتأسيسها. في هذه الحالة، يعين المتروبول مسؤولاً لتنظيم المستعمرة. كان مكلفاً بإعادة توزيع حصص الأرض بين المعمرين؛ وهو أيضاً الذي يرسي النهج الحكومي، إلخ. كان الاستعمار يمتد بثلاثة اتجاهات: غرباً، جنوباً وشمالاً شرقاً. كان يصدر من مختلف مدن شبه جزيرة البلقان، من يونان آسيا الصغرى ومن جزر الأرخيبيل. وكانت المتروبولات الأهم هي: ميليت، كورنثيا، ميغار، شاليس في أوبيا.

المستعمرات الغربية

حسب الرواية، بعد حرب طروادة شرع اليونان باستعمار الجزء الغربي من البحر المتوسط. لكن المصادر الموثوقة تشير إلى تغلغل اليونان في إيطاليا وسيسيليا، لم يبدأ إلا في القرن الثامن. كان عدد المستعمرات اليونانية في جنوب إيطاليا كبيراً، بحيث عمد القدماء هذه المنطقة باسم اليونان الكبرى. كان اليونان قد انشدوا إليها للطف مناخها، خصوبة أرضها، غنى مراعيها، كثافة الغابات التي تقدم الخشب لبناء البواخر. كانت أقدم مستعمرة على الشاطئ الغربي هي كومس، أسسها شلسزينيواوبيا. اتسعت كومس واغتنت بسرعة. وخلقت بنورها مستعمرات عديدة، أهمها نابولي.

في نهاية القرن الثامن، على الشاطئ الغربي لخليج تارانتو، ولدت سيباري *Sybaris*. جعلها خصب التربة النادر وطرق المواصلات الملائمة تزدهر وتعمر بالسكان. اشتهر أهلها ببذخهم وكياستهم. وصارت كلمة "سيباري" اسماً مشتركاً يعني: الشهوانيون. وفي نفس الحقبة ظهرت كروتون، مزاحمة وخصمة سيباري، لتمتعها بمرفأ رائع وشروط ليست أقل ملائمة للزراعة. حافظت على أسبقيتها حتى ظهرت تارنتو، التي أسسها حسب الخرافة السبارطيون، أيضاً في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. كان الترانتيون يزاولون التدجين، الزراعة وصيد السمك، ويتاجرون بالصوف، اللحم المقدد والسمك.

كانت سراكوز أهم مستعمرة يونانية أسست في سيسيليا على يد الكورنثيين فسي بقعة غنية بالقمح، قرب أفضل مرسى على الساحل الشرقي. اتحدت مع العديد من المستعمرات:

ليونتين، كاتان، توروم، مسينا، إلخ. وعلى ساحل سيسيليا الجنوبي انبعثت أخرجانت، الشهيرة بزيتونها. أقام الكورنثيون في جزيرة كورسير، التي قدمت مرفأً هبوطاً إلى الطريق الغربي. اغتنت كورسير بسرعة واضحة، وبعد بعض الوقت، امتلكت أسطولا تجاريا يحسب حسابه.

في نهاية القرن الثامن تغلغل يونان فوسيا (مدينة من آسيا الصغرى) في ثغر روما، حيث أسست مسيليا (اليوم مرسيليا). من هنا، مد الفونسيون نفوذهم التجاري على كل ساحل ميديا الفرنسية وشرق إسبانيا؛ وظهرت هنا عدة جزر يونانية. واحتكر المسيليون ملاحية السواحل وأقاموا علاقات مباشرة مع بريطانيا البعيدة التي جلبوا منها القصدير.

على ذلك، فقد اصطدم الاستعمار الغربي بمقاومة الفينيقيين. لم يستعمر اليونان سوى الساحل الشرقي والجنوبي من سيسيليا، بينما كان الغرب بين يدي فينيقي قرطاجة الذين كانت مستعمراتهم في مالطا، سردينيا وغيرها. وفي العام ٥٣٥ قبل الميلاد، بعد معركة وحشية في ألاليا، قرب شواطئ كورسيكا، أوقف القرطاجيون حلفاء الأوترومك تقدم اليونان نحو الغرب.

بينما كان الاستعمار الغربي حتى القرن السادس ذا صفة مسالمة، عارضت الدول القديمة في جنوب شرق البحر المتوسط، بشعبها الواسع الفقير والمتمدن، واجهت اليونان بمقاومة ضارية. مع ذلك، تأسست مستعمرتان على الساحل الشمال-إفريقي: نوكراس في مصر وسيرين في ليبيا. كان اليونان يستوردون من مصر القمح، الملح، المرمر، الخزف، البردي، العطور، الأدوية، البهارات، العاج، الأبنوس وكثيرا من الزيوت. كانت سيرين غنية بالحبوب: شوفان وشعير. ويطلعنا نقش اكتشف حديثا، يعود إلى عشرينات القرن الرابع قبل الميلاد، أن سيرين صدرت خلال ثلاث سنوات قرابة ٢٩ ألف طن. عدا القمح، صدرت السلفيوم، النبات الطبي الذي كانت الدولة تحتكر بيعه. وشينا فشيئا، ظهرت مدن صغيرة حول سيرين، مشكلة بلدا برأسه.

مستعمرات سواحل ثراس، برويونند وبونت-أوكسن

كان الاستعمار اليوناني المتجه إلى الشمال والشمال الشرقي يمتد على سواحل الدردنيل، بحر مرمرا والبحر الأسود. في بداية القرنين الثامن والسابع، شخص العديد من المستعمرات في شبه جزيرة

شلسديك، التي كان أبناء شلسيس قد بنوا أكثرها (ومن هنا أتى اسم هذه المنطقة. وتبع الكورنثيون الشالسديان وأسسوا بوتيديا. وفي بداية الطرق التجارية التي تقود إلى داخل ثراس، إلى مضائق البلقان والدانوب، ولدت أبدير ومارونية.

لكي لا تترك الأفضلية التجارية لليديا، أمن المليونان مواقع لهم في مؤخرة دولة الليديين، سكنوا على الساحل الشمالي الغربي من آسيا الصغرى وتقدموا شيئا فشيئا نحو الشمال، من جهة هلسبونت وبروبونتيد. أقاموا سيزيك، مرفأ على الساحل الجنوبي لبحر مرمرا الذي كا محاطا بمستعمرات ميليزية. والساحل الشمالي لبروبونتيد كان محتلا من المغاريين الذين، بتأسيس سلسدون في مدخل بوسفور ثراس، استلموا مفتاح بونت-أوكسن. وعلى الساحل المقابل، عند مخرج هلسبونت، أرسوا بيزانسيا (في منتصف القرن السابع).

كانت ميليه هي التي لعبت الدور الأول في إحياء شواطئ البحر الأسود. والقرنان السابع والسادس، عهد تغلغل المليونين في المناطق اليونانية، كانا قد وسما بازدهار ميليه التجاري والصناعي. وكثير من المليونين مخروا البحر الأسود. وفي النصف الأول من القرن السابع، بنى المليونون على ساحله الجنوبي مدينتين تجاريتين هامتين: سينوب وترايزونت. صارت سينوب بسرعة من أهم مدن البحر الأسود. كان مرفأ تحت تصرفها وكانت تتاجر بالخشب، زيت الزيتون والسمك، وبسرعة أيضا بنت لنفسها عدة مستعمرات (كوتيور، كرازونت وغيرها). وحازت هرقليا، التي بناها الميغار في منتصف الطريق بين بيزانس وسنوب، أهمية كبرى.

في النصف الأول من القرن السادس، شخضت مستعمرات أستريا وتومس وأبولونيا على الشاطئ الغربي، في جنوب الدانوب. وخلال ١٥٠ عاما (من القرنين السابع والخامس) ظهرت ثلاثة مواطن أساسية للاستعمار الهليني على الساحل الشمالي للبحر الأسود: الأول أولبيا، يقع على الشط الأيمن من هباني. وفي القرن السادس قبل الميلاد، بنى تيراس على الشاطئ الأيمن من ليما دنستر، ومدن مملكة البوسفور المقبلة، بانتكابي ومنغوريا من جهتي مضيق كيريت. وفي القرن الخامس، ظهرت شرسنير في الطرف الجنوبي لشبه جزيرة توريد. كانت هذه المدن قد بنيت على الساحل أو جواره. وكانت طرق المواصلات التي شقت فيما بعد تمتد على ضفاف الأنهر الكبرى: دانوب، ونستر، بوج، دنيبر. وكانت آخر نقطة من الشمال الشرقي تقع على نهر الدون الذي حملت اسمه.

وفي شرق البحر الأسود، في كولشد، وجدت عدة مستعمرات: فازيس، ديوسكوريا وغيرها.

ببناء مستعمراتهم في شمال البحر الأسود، كان اليونان يتابعون أهدافا تجارية. فنشأت هذه البلاد الطبيعية، في رأسها القمح، السمك، ثم المواشي، العسل، الشمع، والملح، كانت تشد المعمرين إليها. وقد لعب ساحل البحر الأسود دورا كبيرا كسوق للعبيد يمون اليونان القارية والأرخبيل. أخيرا، خلق تصدير السمك الراج مراكز للصناعة السمكية، مثل سنوب وبانتكابييه؛ فليس صدف أن تحمل بعض نقود بونت-أوكسن صور السمك وأن تكون أقدم نقود أولبيا سمكية الشكل. وبالمقابل، كانت اليونان تصدر إلى المستعمرات الخمر وزيت الزيتون، ينقلونه بقوارير خاصة ضيقة الأسفل، والنسيج، والحلي، والأسلحة، والخزف وسواها. على ذلك، لم تتأخر هذه المدن عن صنع، بمساعدة السكان الأصليين، مختلف المواد لكي لا تستوردها من المتيروبول.

النتائج الاجتماعية والاقتصادية للاستعمار

لقد ساهم الاستعمار إلى حد بعيد بتطور اليونان اجتماعيا وسياسيا. فالمدن اليونانية، وقد صارت مراكز البلاد الاقتصادية، كانت تحاط بضواحي تجارية ومهنية. وقد تسارعت عزلة الحرفة عن الزراعة. هرعت الحرف إلى المدن، وتطورت الصناعات بوتيرة عالية، بخاصة التعدين، الخزف والنسيج. وتشكلت شريحة من التجار وصانعي الأسلحة، ثم من المزارعين. ومنذ القرن السابع، كان لدى اليونان نقود معدنية. ضربت إيجن ومدن أخرى الدراخما الفضية وأبول ١ النحاس على السندان: سلخفاة لإيجن، سمكة مجنحة لكورنثيا، ويومة لأثينا. تخسب المبالغ الضخمة على الطريقة الشرقية: ١٠٠ دراخما تساوي مين، ٦٠ مين تسمى تالان، رغم أن هذه الوحدات النقدية غير متداولة في اليونان. فظهرت شريحة تجارية جديدة، تجمع الفضة أو النقد. وتطور الإنتاج الحرفي في عدة مدن مثل ميليا، رودس، سامس إيجن، ميغار كورنثيا وأثينا، وكانت هذه السلع معدة للتصدير.

صارت مراكز التجارة والمهن أيضا مراكز للرفيق. ولما كان مردود العمل منخفضا جدا والتقنية بدائية، أخذ عمل العبيد أهمية قصوى. وكان الرفيق ينهل ليس فقط من دمار

^١ - وحدة وزن ونقد في اليونان القديمة.

وفقر الشعب اليوناني بحصر الكلمة (استخدام لقاء الديون)، بل من الحروب، ومن اللصوصية واستيراد العبيد الأجانب. في هذا العهد، لم يكن التاجر يختلف عن القرصان، وغالبًا ماتت هي الصفقة بتعرية أسر المشتريين السذج، ثم يباعون عبيداً. وصار استغلال الأجانب الأسرى الشكل المهيمن في عملية النخاسة في المدن الهلنسية.

لقد لاءمت العلاقات الاقتصادية والتجارية الممارسة عبر كل مناطق البحر المتوسط ودفعت تطور الحضارة اليونانية. وكان مستوى الحياة المادي والثقافي غالباً أعلى في المستعمرات منه في اليونان بحصر الكلمة. كما أفادت اليونان القارية من مدن آسيا الصغرى، وخاصة مدن أيونيا التي كانت على اتصال مباشر مع الشرق، فيما يتعلق بالثقافة المصرية، البابلية والآشورية. ويكفي أن نذكر أن الأبجدية الأيونية، المستقاة من الشرقيين (من الفينيقيين على الأرجح) التي أتقنها الأيونيون فقط، استخدمت في العالم اليوناني كله. كما أن الشرق علم اليونان صب التماثيل من المعادن، الأمر الذي ساهم بتطوير فنونهم التشكيلية. وفي أيونيا نظمت انطلاقاً من الأغاني القديمة القصائد الـ"هوميرية" التي انتقلت فيما بعد إلى المتروبول وانتشرت في المستعمرات الغربية. وشهدت أيونيا وإيوليا ولادة القصيدة الغنائية، وعوامل العلم والفلسفة اليونانية (انظر الفصل ٣٣).

كان أسلوب حياة البذخ التي سيعيشها المعمرون يلائم عمارة مدنهم، المبنية بمخطط متناسق، بشوارع عريضة ومستقيمة تتقاطع بزوايا قائمة (مثلاً، أغرجانت، سلنانت، شرسونيز). وفي المستعمرات أنشئت أعظم صروح العصر، مثل معبد بوزديون الرائع في بوستوم.

الصراع الاجتماعي في اليونان في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد.
الاستبداد.

لقد أفضت الانطلاقة القوية لقوى الإنتاج في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، في الحاضرات المتطورة، إلى العديد من التبدلات الثورية التي وضعت نهاية لنظام العشير وشرعت مجتمع العبودية المنقسم إلى طبقات.

ففي كورنثيا، ميغار، سسيون، أرغوس، ميليت، وفي جزر لسبوس وسامس، والجزر الإيطالية والسيلية، كان يدور صراع ضارٍ بين مختلف شرائح المجتمع، نجمت عنه عدة انقلابات. يعود الدور الأهم بهذه الحركات الثورية إلى الشرائح الجديدة، الحرفية

التجارية، من سكان المدن، لكن القوة الرئيسة كانت في كل مكان شريحة الفلاحين، التي كانت تعاني الأمرين من نير النبلاء. فطرد شرائح كاملة من السكان مصادرة الأرزاق وإعدام قادة الأحزاب المنهزمة صار أمرا عاديا في عدة مدن، بخاصة في أيونيا. في إحدى مراته، يقارن الشاعر الميغاري ثيونيس، نصير الأرستقراطية، المدان بالنفي، يقارن مدينته -مسقط رأسه- بسفينة تغرق: "التافهون الحقيرون هم الذي يحكمون، الخبثاء يبعدون الطيبين. إني أخشى على المركب من الغرق." وكان يدعو إلى سحق المتمردين بدون رحمة: "اسحق جمهرة الشعب البائس بعقب حذائك، اجعله يحس بوخز الدبوس، أو لسعة السوط، وقيده إلى نير ثقيل".

هناك، حيث كان الحزب الشعبي ينتصر ويقلب الأرستقراطية، كانت تنتقل السلطة إلى يدي قائد هذا الحزب الذي، في هذه الحال، كان يصير، حسب تعبير اليونان، مستبدا. المستبدون يكبحون النبلاء، يوزعون أرضهم على الفقراء، يساندون انطلاقا المدن والتجارة، يساهمون بازدهار اقتصاد العبودية باستيراد جماهير العبيد الأجانب.

كان مستبدو المضيق (سسيون، كورنثيا وميغار) ومستبد سامس، بولكرات، الأشهر بين الطغاة. وفي سسيون، كان المستبد أوثاغوراس، الطباخ السابق، كما نقرأ فيالمن، قد أسسوا أسرة أرثغوريدس التي حكمت ١٠٠ عام (من ٦٧٠-٥٧٠). اضطهدت هذه الأسرة نبلاء سسيون؛ استبدلت الأسماء الرسمية لثلاث قبائل أرستقراطية بألقاب ساخرة (قبائل الخنازير، الحمير والخنوص القنر)، ألغوا عبادة البطل الأرستقراطي أدراس وأقاموا مكانها الإله الريفي ديونسوس ودافعوا حتى عن الأناشيد التي تشطب أشعار هو ميروس التي تمجد النبلاء. واتبع الطاغية الكورنثي سبيلوس وابنه برياندر (٦٥٧-٥٨٥) سياسة أجرا. قلبا سيطرة الأولغارشية الأرستقراطية، وعلى رأسها أسرة بكشيادس، وصاندروا أملاك النبلاء الواسعة ليوزعوها على الفقراء المدقعين الذين تحرروا من الاستعباد. وجهاز براندر كورنثيا بأسطول قوي ومرافئ رائعة؛ وحاول حفر قناة في برزخ كورنثيا، لكي تمر التجارة بين بحر إيجه والبحر الأيوني في مدينته. وبلغت صناعة المعادن والسمارميك الكورنثية مستوى عاليا جدا. وفي دلفيا، عرضوا، لمدة طويلة، كشيء غريب، "علبة سبيلوس" قدمها أبناؤه وهي عبارة عن نموذج رائع من عمل الحرفيين الكورنثيين. وفي هذه الحقبة احتلت كورنثيا كورسير، الجزيرة التي يعبرها الطريق إلى إيطاليا، وأسست عدة

مستعمرات، إحداها بوتيديا، على شبه جزيرة سلسديك. وفي ميغار، ثياجين قباد (حوالي العام ٦٣٠ قبل الميلاد) تمردا شعبيا نجم عنه مذبحه مواشي تخص النبلاء ووزع ما بقى حيا. ولما صار دكتاتورا لميغار، ثياجين سعى لإثارة صراع آخر في مدن أخرى (في أثينا مثلا).

لكن المستبد الأكثر شهرة كان بولكرات دي سامس. يذكره هيرودوت كمتنرد .. احتل سامس على رأس عصيان، ضد الأرستقراطية (٣٩٠، ١٢٠). وفي أثناء حكومته في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، وضع حدا لسيطرة كبار الملاك العقاريين في سامس وألغى بدون رحمة كل محاولاتهم لاستعادة السلطة. يقول هيرودوت أن بولكرات "كان بالفعل اليوناني الأول.. الذي فكر وحلم بإمبراطورية البحار" (٣، ١٢٢). ولهذا الهدف، خلق أسطولاً من ١٠٠ مركب وجيشاً متطوعاً؛ احتل كثيراً من الجزر وكثيراً من مدن القارة، وعقد حلفاً مع فرعون مصر أمسيس *Amasis*. ولقد ظفر بولكرات بأعمال كبيرة: وأمر ببناء رصيف كبير وحفر قناة من أجلها فتح نفقا من سبع مراحل (أكثر من اكم، عبر الجبل، وشيد معبدا "الأعم بين المعابد" (٣، ٦٠). ودعا إلى قصره الشاعر أنكوريون والطبيب ديموسيد من كريتون، لكنه نفى من سامس فيتاغورس، لسان-حال النبلاء.

رغم التقدم الاقتصادي والثقافي، المشروط إلى حد كبير بالاستعمار، ثمة فروق واضحة في تطور مختلف أقاليم اليونان: فضلا عن المناطق والحاضرات المتقدمة التي ساهمت بسعة بالحياة الاقتصادية الجديدة وتبذل العلاقات الاجتماعية، ثمة أجزاء أخرى من اليونان، مثل لاكونيا، تساليا، وكريت، حافظت على الأخلاق شبه الأبوية. ففي القرنين السابع والسادس، كانت أثيك، وعاصمتها أثينا، نموذج البلدان المتطورة، بينما كانت إسبارطة تمثل الأقطار المتخلفة.

الفصل السادس والعشرون

إِسْبَارْطَة

الأصول

الدولة الإِسْبَارْطِيَّة واحدة من أقدم دول اليونان القديم. تأسست في القرن التاسع، فلم تعرف سوى القليل من تطور القوى المنتجة وتفكك نظام العشير والاجتياح الدوري للمجتمع الآشيني البلبونيّزي. فقد أشرنا آنفاً أن قبائل الدوريين اجتاحت في العام ١١٠٠ قبل الميلاد إيبيريا في أرغوليد وفي لاكونيا عن طريق بيوتيا ومضيق كورنثيا.

لم تجد هذه الأحداث انعكاسها إلا في الخرافات التي تناولها بعض الكتاب اليونان وأثبتتها البحوث الأثرية الراهنة. والمصادر المتعلقة بالحياة اللاحقة لإِسْبَارْطَة فقيرة هي الأخرى: نجد بعض المعلومات لدى تيرتي *Tyrtée*، الشاعر الغنائي في القرن السابع قبل الميلاد، ثم لدى ثوسديد (الكتاب الأول، ١٠١-١٠٣، ١٢٨، ١٣٤؛ الكتاب الرابع، ٨)، بخاصة في بحث خوفون "جمهورية إسبارطة ولدى بلوتارك: في سيرة ليكورغ، ليذاندر وأجزلاس. يجب أن نعامل عمل خوفون بحذر، لأنه مؤلف رجعي يمجّد نظام إسبارطة الأولغارشي. أما حياة ليكورغ، التي كتبها بلوتارك، فهي خرافية وغاصة بالخيال المجنح. تمتد لاكونيا، الوادي الخصب، التي يزورها أوارتس، بين تابجت وبارنون وتتطاول على جزء من مصب هذا الأخير. اتصالها بالبحر سيء، لأن الساحل محروم من المراسي الملائمة.

قبل الغزو الدوريني، كان سكان لاكونيا يعيشون الحياة الواردة في شعر هوميروس. فهنا نجد المدينة القديمة أمليكا، أحد مراكز الحضارة الميسينية. ولقد عثر علماء الآثار حديثاً على المقام الغني الخاص بقائد نبلاء الآخيين المحليين. عاش هذا المسكن حتى نهاية العهد الميسنس وازاله الدوريون في نهاية القرن الحادي عشر. كانت درجة الرقي الاجتماعي للرعاة الدوريين أخفض من درجة الآخرين، لكنهم كانوا يمتلكون منظمة

عسكرية ضاربة، فرضت وجودها حياة القبائل الرحل وكثرة الغزوات، التي سهلت لهم لتح لاكونيا. أعلن الدوريون ملكية مشتركة للأرض المحتلة والفلاحين الذين يعمرونها وقسموها إلى أسهم متساوية حسب عدد الأسر: كان السكان حوالي ١٠٠٠٠ وقرابة ٢٠ هكتارا لكل منهم. وشكل الغزاة الشريحة السيدة، محافظين على النظام المشاعي ليؤمنوا سيطرتهم على الرعية المغزوة. وفي القرن التاسع أنشأوا في النقطة الأوسع من الوادي مركزهم العسكري، المسمى إسبارطة أو لاسدمونيا، وسما إسبارطيين. كانت إسبارطة تضم خمس مزارع غير محصنة؛ فهي مخيم قتال دائم، ومن هنا تمكن السبارطيون أن يحكموا فلاحين، أكثر عددا بكثير من الفاتحين.

بعد أن وطدوا وجودهم في لاكونيا، بدأ السبارطيون في النصف الثاني من القرن الثامن غزو مسينا، البقعة الخصبة والكثيفة السكان، الواقعة في غرب سلسلة تايجت. ونتيجة حربين طاحنتين، لا تعرف عنها سوى الخرافات، اجتاحت الاسبارطيون في القرن السابع قبل الميلاد مسينا^١ وحولوا سكانها إلى أرقاء. ادخر الأرقاء المسينيون للغزاة حقدا أزرق ووضعهم في موقف الخائف دوما من العصيان. نشب أمم عصيان في العام ٤٦٤ قبل الميلاد. استغل الأرقاء زلزالا كنس إسبارطة كلها تقريبا وهجموا على الإسبارطيين الذين لم يتيسر لهم سحق مقاومة العصاة المنتشرين في جبال إيثوم عصابة المسالك. تسمى انتفاضة الأرقاء هذه "الحرب المسينية الثالثة".

النظام الاجتماعي والأخلاق

لقد تشكلت الدولة الإسبارطية نهائيا في آخر القرن السابع، بعد أن اجتاحت الداريون لاكونيا ومسينا. يصف العلم الحديث نظامها الاجتماعي بالـ"رقيق" ليشير إلى الفرق بين استغلال الأرقاء واستغلال العبيد، الفرق الناجم عن عمق مخلفات المشاعية البدائية، ومع هذا، إلى الطبيعة القاسية لعلاقات العبودية.

كان سكان إسبارطة منقسمين بوضوح إلى ثلاث فئات اجتماعية: إسبارطيون، بريك وأرقاء. تعيش كل واحدة، على بقعة منعزلة عن غيرها، الأمر الذي يميز جدا الطبيعة البدائية للدولة.

^١ - في اليونان جزيرتان متشابهتا الاسم: Mycenie و Messenie.

الإسبارطيون هم الطبقة السيدة التي لا تمارس سيادتها على الأرقاء إلا كتعاونية فوق تعاونية أخرى. رغم أن كل سهم يحرقه الأرقاء يخص أسرة إسبارطية، فهذه الأسرة تسكن في إسبارطة وليس على ملكها؛ (الإقطاعي يسكن في دمشق وملكه في أقصى الغوطة)؛ رأس الأسرة لا يدير أبدا اقتصاده، لا يوجه الأرقاء؛ ليس له أن يعتبرهم ملكه ولا يستطيع أن يطردهم، أو يبيعهم أو يقتلهم. هذه هي الدولة -الإسبارطيون منظمون ليحكموا- هم من يسود. وليس للإسبارطيين أن يحرقوا الأرض، ولا أن يمارسوا التجارة أو الحرفة. كل ما يتعلق بالأرض محرم عليهم. هم موقوفون للفن العسكري. على ذلك، تجني الأسرة الإسبارطية حصة من موسم السهم (على الأرجح النصف). ملكية السهم ومن يحرقه وراثية: لا يمكن بيعه، ولا أن يوصى به ولا تركه أو التخلي عنه لأي كان، عدا ابن رأس الأسرة.

البرياك هم أحفاد آشبي لاكونيا المحتلة وهم (حوالي ٣٠ ألف إنسان. وهم الناس الأحرار الذين يملكون عقارا ومالا منقولا. لكنهم محرومون من الحقوق السياسية ولا يتزوجون من السبارطيين. يسكنون أرضا خاصة بهم، وحدها. أساسا في منحدرات الجبل والساحل الشرقي والجنوبي، حيث يوجد الكثير من الضيع. يتمتع البرياك باستقلال يراقبه السبارطي. يمارس حراثة الأرض، والحرفة والتجارة ويدفع ضريبة للسبارطيين. البرياك ملزمون بخدمة الجيش، لكنهم يشكلون فيه وحدات قائمة برأسها. والخدمة العسكرية تبهظهم أكثر فأكثر، أي بمقدار نقص عدد السبارطيين المتمتعين بالحقوق المدنية. وهذا أحد أسباب غضبيهم المتنامي.

يشكل الأرقاء جمهرة الناس المغلوبين والمستخدمين، وهم حوالي ٢٠٠ ألف أبقاهم المنتصر على الأرض التي صارت تخص الدولة.. تزرع كل سهم عدة أسر من الأرقاء الذين، بعملهم، يغنون المالك وأسرتة. وأهم ما يميز الرقيق عن العبد في الدول اليونانية الأخرى، هو أنه ملك الدولة، "عبد عام"، كما يسميه المؤلفون القدماء؛ فضلا عن هذا، ورغم ارتباطهم أساسا بوسيلة الإنتاج -الأرض- يحتفظون بنوع من الاستقلال الاقتصادي فيشبهون الأبقان. يزرعون أرض المالك السبارطي بأدواتهم ويعطونه نصيبا معنا عينييا: قمح، خمر، جبن، وزيت. وبعد أن يأخذ المالك حصته (النصف)، لا يكفي ما يتبقى قوت الفلاحين الضروري، ناهيك عن الضائقة في المواسم الماحلة. وبعكس عبيد الدول الأخرى، يشن الأرقاء هنا حربا بصفتهم حراسا، مرافقين، حمالين وخدم. دعا شظف حياتهم الشاعر

السبارطي تيرتي *Tyrtee* (القرن السابع) أن يشبههم بالحمير الحاملة فوق طاقتها *surcharges*.

وتجنباً لنشوب التمردات والزيادة الخطرة في عدد الأرقاء، يتخذ السبارطيون تدابير قاسية (*les cryptios*) في كل عام يلجؤون إلى اضطهاد وقمع بل إبادة أبرز المتمردين، أجراً الأظناء. تجوب الفصائل السرية، المؤلفة من شباب السبارطيين، المكلفة بمهمة خاصة، تجوب البلد لمراقبة وإرهاب الناس. في النهار، تكمن هذه الفصائل قرب القرى، وفي الليل تذبج الأرقاء. لم تبد أية دولة قديمة هذا التوحش مع العبيد. يظهر هذا الواقع سعار التناحر والصراع الطبقي في إسبارطة.

من جراء هذا، ارتدت الأخلاق السبارطية طبيعة فريدة. كل الرجال البالغين ملتزمون بالجيش الدائم، فظ الانضباطية المستعد أبدا للهجوم. وكل إسبارطي من العشرين إلى الستين يذهب كل يوم إلى التكنات ويشترك بالتمارين القتالية. كل أبناء المدن المتمتعين بالحقوق المدنية يشكلون روابط تمتلك كل منها مكانا يجتمع فيه أعضاؤها ويتناولون وجبة مشتركة؛ لا يغادرون هذا المكان، بل ينامون غالبا في المهاجع نفسها ويأتون مسلحين. وحسب هذه الروابط يعبأ الناس في وحدات محاربة. فهم ملزمون أن يكونوا أعضاء في الرابطة. والتعيين الشهري للوجبة المشتركة يتألف من كمية معينة من طحين الشعير، الخمر، الجبن، والتين.

تتدخل السلطات السبارطية أوسع تدخل في حياة الناس الخاصة: تهتم بالزيجات، بتربية الشباب. تفرض خضوع الأفراد خضوعا مطلقا لمصالح الطبقة. على الأزواج أن يربوا أولادهم، الذين سيكونون الدعامة الأكيدة لاسبارطة العبودية، تربية صحية وجادة. يبقى الأولاد عند ذويهم حتى الربيع السادس عشر. بعدها تتكفل به الدولة وتعبئه في فصائل خاصة تحت مراقبة مدرسين تتعهدهم الدولة.

في التربية والتعليم، يعود المكان الأول للتمارين الرياضية: قتال، ركض، رمي القرص والرمح أو الحربة، إلخ. للمساهمة بالتطور البدني للأبناء. ليخششوا، يلزمونهم بالمشي الحافي والجسم العاري تقريبا في كل الفصول؛ بحيث يكفلون استقامتهم، براعتهم وخضوعهم.

التعليم الابتدائي قصير إلى أنى حد. يحضر الفتيان عادة الوجبة المشتركة واجتماعات يتحدثون فيها عن الشؤون والمآثر. يألفون الحديث عن أفكارهم وأمانهم كجنود. وتربية

السبارطيين الأخلاقية منسجمة مع الفن العسكري. وفي أثناء التمارين الرياضية، والوجبات المشتركة والمعارك الحربية ينشدون أناشيد ظفر الوطن والمواطنين الأمجاد. وفي ربيعهم الرابع عشر، يتبع المراهقون المحاربين الراشدين عبر البلاد، ليعتادوا حياة الخيام والحرمان. وفي ربيعهم العشرين، ينخرطون في العمل العسكري التام وينتسبون إلى الروابط. وتستمر خدمتهم حتى الشيخوخة.

وتربية البنات تنسجم أيضا مع مهام الدولة الهادفة الإعداد الجيد لأمهات المستقبل لجيل سليم. في الملاعب والمعاهد الرياضية، تخضع البنات كالصبيان للتمارين الرياضية فضلا عن الرقص، الموسيقى والغناء. في الدول اليونانية الأخرى تعيش النساء منعزلات، بينما في إسبارطة يبرزين كتربية الرجال، حيث يتمتعن بقسط وافر من الحرية واحترام مواطنيهم. يشهد هذا الوضع على مخلفات عهد الأمومة المعروف.

النظام السياسي

كان النظام السياسي في إسبارطة مغرقا في البدائية. وحسب الخرافة، كان قد أقره روح دلف الأعجوبي ووضعه بين يدي المشرع ليكورغ الأسطوري.

كان يقود الدولة ملكان بالوراثة. كان لهما الدور الأعظم، لكن أثرهما في السياسة ضئيل. وفي زمن السلم، تقتصر سلطتهما على التسوية الشرعية للميراث، الاشتراك بمجلس الشيوخ وممارسة مهام كهنة زيوس. وفي زمن الحرب، يقودون الجيش، وخلف حدود البلاد، يتوليان سلطة غير محدودة.

يشكل الملكان جزءا من مجلس الشيوخ المؤلف من ٣٠ شيخا، انتخبوا حتى الممات من الأرستقراطيين الذين بلغوا الستين من العمر. ومجلس الشعب المكون من السبارطيين الذين أتموا الثلاثين ربيعا، يصدق قرارات مجلس الشيوخ الرئيسة، بخاصة المتعلقة بالحرب والسلم أو يرفضها، دون حق بالمناقشة.

وتتور الانتخابات وتتخذ القرارات في مجلس الشعب، حسب تعبير أرسطو بصورة "تافهة": بدون اقتراع، بالصياح الذي يكشف عنه الموقف السلبي أو الإيجابي من هذا الترشيح أو القرار أو ذلك. وإن كان الصخب والصياح غير معبر، ينقسم الحضور إلى طرفين.

لكل من مزارع إسبارطة الخمس مراقب، ذو سلطة مطلقة، عين على الأرجح في بداية القرن الثامن قبل الميلاد، بهدف انقضاء أو خنق تمردات الأرقاء. وهذه وظيفة سنوية. وكمحصلة لحكم القلة المبتزة، ينتخب المراقبون من الأوساط الأرستقراطية الأكثر تحفظا.

تطال مراقبتهم الملك وأعضاء مجلس الشيوخ. إنهم هم الذين يقودون بالفعل سياسة الدولة. يعلنون منذ وصولهم الحرب على الأرقاء وحتى لهم الحق بمحاكمة وإدانة بالموت الملوك المتهمين بالرغبة في تغيير النظام القائم. يأتي المراقب إذن ليتوج حكم الأقلية السبارطية، ودكتاتورية الطبقة المتوحشة ودعامة الأرستقراطية في اليونان.

في هذه الشروط، كان محالا أي تبدل متطور إلى هذا الحد أو ذاك: التجارة بالغة البدائية، وكنقد يتداولون بارات من الحديد، كان دخول الاجانب إلى البلد ممنوعا. لهذا السبب، حسب قول بلوتارك، لم تكن البواخر الغربية تدخل موانئ اسبارطة. تنفق الدولة من الضرائب المضروبة على البرياك - الطبقة الثانية - ومن المناهل الاستثنائية وأسلا ب الحرب، كانت الخزينة فقيرة، لأن المداخل تدفع غالبا عينا.

كانت المؤسسة العسكرية في إسبارطة هي القوة الضاربة في اليونان كلها. كل إسبارطي محارب مقدم في تمام الجاهزية. جنود المشاة المسلحين حتى أضراسهم يعتمدون خوذة، يرتدون درعا، يحملون رمحا أو حربة وترسا دائريا صغيرا، هم أقوى سلاح في الجيش مدعوون للتمسك بمواقعهم حتى آخر لحظة. في أثناء المعارك الحربية، يمشي الجيش إلى العدو بهدوء وبطء، بصفوف متراسة، وعلى صدح الموسيقى. وسلاح المشاة السبارطي لايقاوم، وندرة أولئك الذين نجحوا في تدارك هجماتهم، لكنهم ضعيفو الخبرة بالحصار ولا يعرفون الاستيلاء على المدن بختة. وبحرية إسبارطة قليلة الشأن.

في نهاية القرن السادس، سقطت بلوبونيز كلها تحت هيمنة اسبارطة. وفي حوالي العام ٥٣٠ تشكلت الجامعة البلوبونيزية التي ضمت أيضا كورنثيا، سيسيون، ميغار وجزيرة إيغن. وكان أرغو، صاحب الدور الأبرز في بلوبونيز، ومشاعات أشي Achaie، في الشمال، القوة الوحيدة التي لم تنضم إلى هذه الجامعة. ورغم أن القضايا العامة نجمت عن لقاء الحلفاء، المنعقد في إسبارطة، كانت حكومة إسبارطة بالفعل هي التي سوت القضايا المتعلقة بالجامعة.

لقد اقتبس النظام الرجعي الإسبارطي الاقتصاد، الحياة السياسية والاجتماعية من بلوبونيز ومن اليونان كلها، وكبح تطورها. وخوفا من التبدلات، دعمت اسبارطة دوما العوامل الرجعية والأشكال البالية من العلاقات الاجتماعية في دول اليونان الأخرى. ولئلا تفقد تفوقها القتالي، كانت تعارض بكل السبل الوحدة مع الدول الأخرى، إذن التطور اليونان السياسي.

الفصل السابع والعشرون

أنيكيا في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد

سيطرة أرستقراطية الدم

بعكس إسبارطة، قدمت أنيكيا للقرنين السادس والخامس مثال الدولة اليونانية العبودية المتطورة. يخولنا تاريخها متابعة تشكل حاضرة العبودية، سقوط أرستقراطية الدم، تجاوز مخلفات نظام العشير وظهور الشكل الأرقى لدولة العبودية: جمهورية العبودية الديموقراطية.

بين يدينا مناهل ثرة لدراسة تاريخ أنيكيا القديم. ملاحظات متفرقة تصادف لدى هيرودوت وثوسيديد، لكن المعلومات الأوفى يزودنا بها "بناء أثينا" لأرسطو و"حياة ثيزي" و"حياة سولون" بقلم بلوتارك. أخيراً، أمكن جمع وثائق غنية في أثناء تنقيبات أثرية، بخاصة في مقبرة ديبيلون وسراميك، وعلى أغورا أثينا.

أنيكيا شبه جزيرة صخرية ممتدة في البحر مساحتها ٢٥٠٠ كم^٢. مغطاة بالجبال الكلسية؛ محرومة من الماء والنبات في كثير من البقاع. يدعى شمالها للشرقي العالي، وغير القابل للزراعة، الهضبة. وساحلها (الإقليم البحري) ليس خصبا أبداً، لكنه ملائم جداً لأعمال البحر. خير أقسام أنيكيا السهل المركزي، بيديون. واقعة على طول المجرى المائي الهام والوحيد، لنهر سفيز، الذي ينضب هو الآخر في الصيف، والسهل المركزي محاط بالجبال من ثلاث جهات ويغمره البحر في الجهة الرابعة-الجنوب الغربي. في هذا السهل، على ٧ كم من خليج سرونيك، توجد أثينا. كانت ثروة أنيكيا الطبيعية الفضة في لوريون، الرخام في بانتليك وهميت، وكذلك أجود الآجر التشكيلي، المستخدم كثيراً في صناعة الفخار.

في البداية، كان الشعب يعيش عشيرا في مزارع محصنة، حفظت أسماؤها بالتتابع: أشارن، ايلوزيس، كولونيا، فالير، ماراتون، إلخ. كان بعضها مراكز للبطون أو الأفخاذ. وبحسب تطور العلاقات والمبادلات، تغلب المبدأ الإقليمي وشيئا فشيئا تصير أتيكيا بلدا واحدا مركزها أكبر معقل: أكروبول أثينا. هنا يوجد قصر باسيليس، الذي حرره علماء الآثار، والمقابر الهامة: أرشتيون والباريتون. غير بعيد من هنا، على تلة آريس، كان يقوم مجلس الشيوخ، وعلى سفوح تلة أخرى، بينكس، كان يجتمع مجلس الشعب. تنسب الرواية دور التوحيد للملك ثيزي: "ألغى المجالس والمحاكم وجمع كل المواطنين في المدينة الحالية، وأقام مجلسا واحدا ومسكنا واحدا للقضاة"، يكتب ثوسيدس (المجلد الثاني، ٢١٥).

وفي الوقت ذاته، كما يقول بلوتارك (ثيزي، ٢٥)، انقسم الناس إلى ثلاث شرائح: نبلاء، مزارعون صغار، وصناع. كان النبلاء أرستقراطيين أغنياء بالأرض والماشية، تشكل الشريحتان الأخريتان الشعب الأكثر فأكثر استرقا. وعدا السكان الأصليين، كان يوجد كثير من العبيد والأجانب المقيمين في أثينا، أحرار شخصيا، لكنهم محرومون من الحقوق المدنية.

بقدر تطور التبادل وصيرورة المنتج بضائع، يتسع دور حراثة الأرض من قبل الأفراد وتوطد الملكية العقارية الخاصة. يحتكر النبلاء أخصب أراضي البيديون ويحولون أراضيهم الواسعة إلى إقطاعات. بالقرصنة وقطع الطرق يأسرون العبيد للعمل في الأرض ويستخدمون بالربى المزارعين وبلادهم. على أثر هذا التطور، "صارت كل الأرض بتصرف عدد ضئيل من الناس"، يكتب أرسطو، وكل الشعب يخدم الأغنياء: "...كان الفقراء، بنسائهم وأبنائهم عبيدا للأغنياء. كانوا يسمون "زبائن" و"سداسيون" أي يحصلون على ٦/١ منتج الأرض" (بناء روما، المجلد الثاني).

كان السداسيون على الأرجح الملاك الصغار المدنيين الذين رهنوا أرضهم لدى كبار الملاك، لذا وضعوا على أرضهم حدودا تدل إلى مبلغ الدين. وكفائدة يدفعون ٦/٥ المخطول. وهكذا صارت مدينة أثينا والأكروبول، معقلها، مركز تجمع النبلاء الذين يحكمون كل رعية أتيكيا.

لقد وقتت مبادئ النظام العشيري القديم حجر عثرة في وجه اغتناء ملاك العبيد وتشكيل الدولة. وفي القرنين الثامن والسابع، حددت السلطة الملكية في أتيكيا ثم استبدلت

بتسعة حكام أوليين (أرشونت) منتخبين من الأرستقراطية ويمثلون السلطة التنفيذية العليا. وفي منتصف القرن الثامن، كانت مدة الأرشوننتية عشرة أعوام. وبدءاً من العام ٦٨٣، صارت عاماً واحداً. يرأس الجميع الأرشونت الذي يعطي اسمه لسنة حكومته؛ يراقب الشؤون الداخلية، يحل الخصومات العائلية، يهتم بوصاية الأرامل واليتامى. الأرشوننت الثاني، هو القيصر، يمارس الوظائف الدينية التي كانت للملك سابقاً. الثالث، هو قائد الجيش، يشرف ويدبر الشؤون العسكرية. والأرشوننتية الستة الأعضاء الآخرون، الذين يحملون اسم الأرشوننت المشرع، يسهرون على تنفيذ القوانين ويقاضون مواطنيهم. ويعقل مجلس الشيوخ، المؤلف من الأرشوننت السابقين، السلطة التشريعية؛ وكذلك الجهاز الأعلى للقضاء والمراقبة. السلطة إذن بين يدي النبلاء الذين يفيدون منها من أجل استقرار سيطرتهم السياسية، بينما الشعب، حسب تعبير أرسطو، لا يملك أي حق" (بناء أثينا، المجلد الثاني، ٢).

أولى حركات شعب أثينا. تمرد سيلون. قوانين دراكون

إن تطور المهن والتجارة في أتيكيا، وكذلك في الحاضرات اليونانية الأخرى، أفرز فئات شعبية جديدة، مكونة من تجار وصناعيين، لا يتلاءم وضعهم السياسي مع دورهم الاقتصادي. وقد صارت أثينا، وباقي مدن اليونان الكبرى، ليس فقط مركزاً للأسر الاستقراطية المتنفذة، بل أيضاً مركزاً للتجار، وصغار الصناعيين، والحائوتين والأجانب الأحرار شخصياً *meteque* (سيراميك، ميليت، وغيرها)، التي حازت أهمية جعلتها في القرن السابع حصوناً. كان صناع الفخار الأثينيون قد ابتكروا طلاء أسود وبدأت مشوبياتهم المزخرفة تزاحم مشربيات كورنثيا. وبدأ استثمار طبقات الفضة في لوريان، وكان مرفأ أثينا في فالير قد صار مرس بالغ الحيوية.

كانت أرستقراطية نبلاء روما تحتقر هذه الجماعة التي تعيش من التجارة والمهن المتنوعة. مع ذلك، كان النبلاء قد تحولوا إلى حلقة من كبار الملاك الذين أغناهم الريى. وقد مارس البعض منهم القرصنة. بينما انخرط آخرون، مثل أسرة الكميونيد ونسل أسرة الكودريد الملكية، وسولون، في التجارة. لكن الغالبية أفادوا من دورهم المهيمن في المنظمات الاجتماعية السابقة، بطون وأفخاذ، من أجل احتلال أراضي المشاعات التي لم تقسم بعد، واحتكرت أسهم أعضاء العشير الآخرين، واستخدمت أكثر فأكثر المسادين

المدنيين جاعلة منهم عبيداً أو خدماً. "كان عامة الناس خدماً لدى القلة...، وكان النير الأثقل يحمله العبيد"، يكتب أرسطو (بناء أثينا، المجلد الثاني، ٢) بصدد العلاقات الاجتماعية في أتيكا الريفية في القرن السابع.

لقد كبح هذا الشكل البدائي جداً من العبودية بشأن الدين، كبح تطور القوى المنتجة. وترتب على سكان الريف، عوض من أن يزداد التناقص على أثر بيع المدنيين المملّكين وأبنائهم للأجانب بيعاً جماعياً، الأمر الذي أثار حزن ورثاء بعض المعاصرين، مثل سولون. وبدأ الشعب يحتل أكثر فأكثر مكان الطليعة في مقاومة الفلاحين غير المنظمة، الناشئة بين "النبلاء والعامة" حسب تعبير أرسطو (بناء أثينا، المجلد الثاني، ١)، كان شعب المدينة يبغى التحرر من الملاكين العقاريين الكبار ويجهد في تبديل شكل الاستثمار البدائي الذي تمارسه النبالة فيحول أحرار أثينا إلى عبيد، إلى ناظم أرقى: استغلال العبيد المستورد من الخارج. فأخذ استخدام العبيد الأجانب دوراً هاماً في النشاط الاقتصادي لسكان المدن، في ورشات الحرف والمشاريع التجارية.

تطلعنا الرواية على شكل أولي لهذا الصراع في أتيكا: محاولة الأثيني سيلون قلب سلطة النبلاء وتنصيب مستبد في أثينا (في حوالي العام ٦٣٠). كان سيلون من أصل نيبيل ومعروف كنجم في الألعاب الأولمبية. اعتمد في حركته على ابن حميه المستبد ميغار ثياجين. وفي أثناء الاحتفال بأحد الأعياد، احتل فجأة الأكروبول بمعونة ثلة من تلامذته. لكنه سرعان ما طوق بالنبلاء الذين كتلوا "جمهرة الحقول" المرتبطة بهم. نجح سيلون بالهرب، ولجأ أنصاره إلى معبد أثينا. وبعد أن أضناهم الحصار والجوع، قبلوا الاستسلام بشرط أن يكسبوا حياتهم. لكنهم ما أن خرجوا من مأواهم حتى ذهبوا. واعتبرت مسؤولية عن هذه المذبحة أسرة الألشمونيد الشرسة. إن أنصار سيلون، الذين انضموا بالصدفة إلى أعداء الألشمونيد واتهموا بحنث اليمين وارتكاب المحرمات. فنقوهم وعظام موتاهم نبشت ورميت خلف الحدود.

رغم التفاصيل الخرافية لهذه القصة التي رواها ثوسيديد (المجلد الأول، ١٢٦)، فإن مؤامرة حيكّت لاحتلال السلطة المستبدة في أثينا في تلك الحقبة. ولقد فشل سيلون لأنه لم يؤمن دعم ومساندة جماهير الريف التي آزرت الملاكين الكبار على خنق التمرد الذي لم يعده سكان المدن إعداداً جيداً.

تعتبر هذه المحاولة المهيضة في أتيكيا بداية حقبة طويلة من الاضطراب. كان النبلاء يثيرون هذه الاضطرابات لأنهم فسروا لصالحهم عادات العشير، غير المذكورة في أي مصدر ولم تنقل إلا شفاهاً. إن أول المطالب التي طرحها الشعب في نضاله من النبلاء هي إذن سن قانون مكتوب ملزم للجميع، يحكم العلاقات القضائية في المجتمع العبودي الوليد.

وخوفاً من تحول غضب الشعب إلى تمرد، اضطرت الأرستقراطية أخيراً إلى التسليم وتكليف الأرشونت دراكون (العام ٦٢١) الاهتمام بسن هذه القوانين. اشتهرت "قوانين دراكون" بقسوتها، لأنها أساساً مجموعة من عادات العشير البدائية. أي خرق بما فيها سرقة فاكهة أو يقول كان يعاقب بالموت. يقول ديكاد (خطيب أثيني في القرن الرابع) إن دراكون كتب شريعته "ليس بالحبر، بل بالدم". على ذلك، كانت تقدمية، لأن وضع قانون ملزم للجميع يحد إلى حد ما تحكم النبلاء. كانت الشريعة المنقوشة على قطع حجرية معروضة في الأغوراء، على مرأى الجميع، الأمر الذي يضع المحاكمة تحت مراقبة العامة.

اصلاحات سولون

لم تسو شريعة دراكون أبداً وضع الشعب الريفي وصغار الفلاحين المستخدمين. بل كانت تأزيماً وتأريثاً للصراع وإفساح المجال لانتفاضة فعلية. كان الصراع قاسياً "وتواجه الطرفان (الشعب والنبلاء) مدة طويلة"، يقول أرسطو بناءً أثينا، المجلد الخامس، ٢). يجب إذن إصلاح النظام السياسي والاجتماعي في أثينا لوضع حد للشقاق والنزاع. كان يواجه الحركة الشعبية حزب التجار المعتدلين، الذين نجحوا بتسمية الشاعر الشهير سولون حكماً عاماً. وأمام الطبيعة المهددة لوضع الجماهير الثائرة، كلف سولون، في العام ٥٩٤، بإجراء اصلاحات اجتماعية وسياسية.

سولون سليل أسرة نبيلة مفكرة. اضطرت للعمل بالتجارة منذ فتوته، الأمر الذي قربه من شعب المدينة. ومراثيه، التي أدانت الجشع والغلظة الأرستقراطية، قربت منه الناس. وبناءً على إلحاحه ومساهمته فتحت جزيرة سلامين التي تخص ميفار وأغلق المرفأ الأثينيين في فالير.

بصفته أرشونت -حاكماً أول- يقول سولون "...فتح سلسلة مايسمى ثورات سياسية، وهذا يكون بإلغاء الملكية". بدأ نشاطه بـ"تخفيف الحمل": رفع من الحقول حدود الرهن،

١ - ف. أنجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، ص ١٠٧.

ألغى الديون، الرهونات، وحرر كل المدنيين المحولين إلى العبودية. واشترى على نفقة الدولة كل الناس المباعين للغريب كعبيد. وللمستقبل، يحرم الدائن من كل حق شخصي على المدين أو، كما يقول أرسطو، "حرر سولون الشعب في الحاضر والمستقبل بمنع الإقراض بارتهاش الأشخاص". (بناء أثينا، الكتاب الرابع، ١). ولتحسين وضع المدنيين، قام بإصلاح نقدي استبدل النظام النقدي الإيجيبي بالنظام الأوبي: ١٠٠ دراخما جديدة، بسعر الفضة، لاتساوي إلا ٧٣ دراخما قديمة، الأمر الذي قلص الديون ٢٧%. ثم نظمت حرية الوصية وتمليك أرزاق الناس الذين لم ينجبوا أولادا، التي كانت تعرقلها حتى آنئذ حقوق ملكية العشير والأسرة. كانت كل هذه التدابير موجهة ضد النبلاء وتهدف تحرير الفلاحين.

في واحدة من قصائده، يتحدث سولون عن إصلاحه. لا أخشى أن تلومني على هذا الإصلاح أم الأولمبيين المقدسة، الأرض السوداء، التي انتزعت منه الحدود المنتشرة في كل مكان؛ عبدة سابقا، حرة الآن. أعدت إلى أثينا، إلى الوطن الذي أسسته الآلهة، أناسا بيعوا ظلما إلى هذا الحد أو ذاك، منهم من نفي بسبب الضرورة الرهيبة... وغيرهم كانوا هنا يرسفون بقيود سانتهم الرهيبة، لقد حررت كل هؤلاء". (أرسطو. "بناء أثينا"، الكتاب ٢، ١٢).

لقد عززت تدابير سولون الاقتصادية اللاحقة تطوير التجارة والمهن. منع تصدير المواد الغذائية (عدا الخمر وزيت الزيتون). وأوضح استبدال النقد الإيجيبي بالنقد الأوبي أيضا توجه السياسة التجارية والاستعمارية لأثينا، أي نحو يونيا والمضائق الموصلة إلى البحر الأسود. وبشهادة بلوتارك، شجع سولون بكل الوسائل المهن وجذب إلى أتيكا الحرفيين الأجانب. وسن القانون الذي يخول الابن عدم طاعة أبيه إن هو لم يعلمه مهنة. وقوانين أخرى تمنع التقتير، وتحظر الترف المفرط والنفقات غير المنتجة التي يبذرها النبلاء في أثناء الزواج والمآتم، وسواها.

كان الإصلاح السياسي أهم تدابير سولون، إذ يقضي على حصر السلطة بنبلاء الدم وسن مبدأ دافع الضريبة^١ أو "timocracie"، حسب تعبير القدماء: لا يتعلق اشتراك المواطن بالحياة السياسية بأصله، إنما بملكه، بمدخوله وبالشريحة التي تصنفه فيها ثروته. إذن صنف المجتمع حسب دافع الضريبة بأربع شرائح: تضم الأولى الناس الأغنى،

^١ - نظام سياسي يقضي بأن يكون المواطن دفع ضريبة ليحق له الاقتراع.

أولئك الذين يجنون من أرضهم على الأقل ٥٠٠ عبوة من المنتوجات الزراعية (العبوة= ٥٢،٣ لتر؛ عبوة الشعير=دراخما واحدة). ويدعون (ملاك الـ٥٠٠ عبوة). لهؤلاء فقط الحق بأن يشغلوا المناصب الأهم (أن يكون حاكما أول=archantes)، وبالتالي دخول مجلس الشيوخ. الشريحة الثانية مؤلفة من أبناء المدن الذين يساوي دخلهم السنوي ٣٠٠-٥٠٠ عبوة، يحملون لقب فارس، لأنهم يقدرّون أن يؤدوا الخدمة العسكرية على حصان. يستطيع الفارس أن يمارس وظيفة ثانوية (مفتش أسواق، مفوض شرطة) وغيرها. والمواطنون الذين يتراوح دخلهم يمكنهم من اقتناء زوج ثيران. عليهم أن يذهبوا إلى الحرب بأثقل الأسلحة. وهم الجهرة الأساسية من المزارعين الصغار. وكمثلي الشريحتين الأوليين، يحق للشريحة الثالثة دخول مجلس الـ٤٠٠ الذي تشكل في أيام سولون وإلى محكمة الجنايات. وبقية الرعية (مياومون وفلاحون فقراء)، تشكل الطبقة الرابعة. لا يحق لهم دخول مجلس الشعب ومحكمة الجنايات وأن يقترعوا، لا أن يقترعوا.

وبالتالي خضعت المنظمة الحكومية إلى تبدلات جوهرية. صحيح أن الأرثوونت كان منتخبا من بين أغنى الناس ودوما من القبائل التي يقدم كل منها عشر مرشحين؛ فمن ٤٠ رجلا يختار بالقرعة تسع حكام. لكن الأمر الهام بخاصة، هو إعادة مجلس الشعب إلى الوجود، يشترك فيه كل مواطني أتيكيا، وينتخب كل موظفي الدولة الآثينية.

ليس أقل أهمية التجديد في حقل القضاء. ولكي يتمكن الشعب من التدخل بالقضاء يجب أن يختار قضاة للمحاكم لتتبر شؤون الحق المدني والحق الشخصي. هكذا صار مجلس الشعب، مجلس الـ٤٠٠ ومحكمة الجنايات الجهاز الجديد في بناء أثينا.

هكذا نرى أن النظام الذي أسسه سولون لعب دورا كبيرا تقدما: "هنا إذن دخل عنصر جديد تماما في البناء: الملكية الفردية. فحقوق وواجبات مواطني الدولة تقاس حسب سعة ملكيتهم العقارية، وبقدر زيادة نفوذ الطبقات المالكة، كان يستبعد الجهاز القديم القائم على قرابة الدم^١".

فضلا عن هذا، فقد فتح إلغاء الشكل البدائي للاستعباد الناتج عن عدم القدرة على وفاء الدين، بابا واسعا لشكل أرقى من استثمار عمل العبيد: استثمار الأسرى المجلوبين من

^١ - ف. انجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة.

الخارج. "عوضاً عن استغلال مواطنيهم بطريقة فظة، استغلوا بخاصة العبيد والزبائن اللاتنيين"، يكتب انجلز. بهذا الصدد: ١

لكن سولون، النبيل الأصل والمنتسب من حيث وضعه الاقتصادي إلى أوساط أغنياء المدينة، ولمصلحتهم أنزل ضربة قاصمة بنبلاء الدم، لم يلغ كل مخلفات نظام العشير. أبقي، مثلاً، المسند الرئيس للنبلاء: أملاكهم العقارية الواسعة، وترك لهم النفوذ السياسي على الأفخاذ والبطون القديمة حيث كان النبلاء يلعبون دور المهيمن. وفي الوقت ذاته قَلّوم بصلابة مطالب الجماهير التي ألحت على إصلاحات جذرية، بخاصة إعادة التوزيع العام للأرض.

طفيان يزسترات *pisistrate*

كان قدر سولون كقدر رجال السياسة غير الحذرين الذين يبحثون عن تجنب التدابير لناعزة والوقوف منها تماماً في الوسط: لم يسو حسابه مع أغنياء الأرض ولم يرض تماماً رغبات الفئات الدنيا من المواطنين. "ظن الحزب الديمقراطي أنه واصل إلى قسمة جديدة عامة، وتصور النبلاء أنه سيتترك ذات المنظمة تعيش أو يبدل فيها بعض الشيء. لكنه عارض الطرفين". (بناء أثينا، الكتاب ١١، ٢).

لقد ألزم الغضب الشعبي سولون على الدفاع عن نفسه من كل الجهات، حتى ليتهتاج كغضب بين رهط من الكلاب"، كما يقول عن نفسه. طبعاً، سرعان ما نشب الصراع، أقوى مما سبق. وبعد أربع سنوات، لم يستطع الآثينيون أن ينتخبوا الأرثوون الأول، وتكرر الأمر بعد أربع سنوات. وفي العام ٥٨١، حاول الأرثوون داما زياس عبثاً أن يحتل السلطة.

لكن خبرة الأعوام السابقة كانت قد جعلت الصراع أكثر منهجية. وفي تلك الحقبة، يروي أرسطو في كتابه "بناء أثينا أن ثلاثة أحزاب ولدت. البديون *les pediens*، حزب أرستقراطي يقوده ليكورغ، يضم سكان سهل بديون الخصب حيث أملاك الأغنياء؛ كان يدافع عن مصالح أغني المالكين ويعمل لعودة النظام القديم. الحزب الثاني، الباراليون *les paraliens* (منطقة بحرية)، كان قادته الالسمونيد *les Alcmonides*، واحدة من أعنى

١ - نفس المصدر.

أسر أثينا، كان قد قبل النظام الجديد ومثل مصالح الأوساط التجارية والصناعية في الساحل. كان قائد هؤلاء ميغاكلس *Megacles*، أحد أعضاء هذه الأسرة. حزب معتدل إجمالاً، لكنه لا يبتعد عن الإطار الذي أرساه سولون. والحزب الأوسع كان حزب الدياكريين *Diakriens* (الجبليين) الذين يسكنون شمال-شرق هضبة دياكر من أتيكيا، على تربة قاحلة، ضم الفلاحين سيئي النصيب من الأرض، الغاضبين مما لم يحدث لدى توزيع الأرض، مثل الفلاحين، الرعاة، المياومين، بل كل الشعب الكادح. وكان الحزب الأكثر ديموقراطية، الذي يتمنى انقلاباً كاملاً. كان على رأسه بيزسترات الذي، رغم أنه من عليّة النبلاء، كان قد قطع صلته بالارستقراطية وسعى إلى مساندة الشعب ودعمه.

ليست معروفة بشكل دقيق طريقة نجاح الدياكريين في العام ٥٦٠ في تحقيق النصر ولا كيف صار بيزسترات حاكماً مستبدّاً، ورئيساً للدولة الآثينية. القصص التي وصلتنا ذات صبغة طريفة ولا بد أن تكون صادرة عن خصوم بيزسترات. استناداً على هيرودوت 'جرح [بيزسترات] نفسه وجرح بغاله، ثم رمى نير هذه البغال في الساحة، وهرب من خصومه الذين أرادوا قتله بينما كان يتنزه في الحقول، ووجه نداء إلى الشعب ليحميه..'. كان مجلس الشعب واثقاً بكلامه وسمح له بأن يحيط نفسه برجال مسلحين". على ذلك، كما يقال، زاد عدد حراسه بشكل كبير، واحتل في ٥٦٠ الأكروبول وصار مستبدّاً طاغياً.

أياً كان الأمر، فقد اصطدم ظفر الحزب الديموقراطي في مجيء بيزسترات بمقاومة ضارية من قبل الأحزاب المعادية التي اتحدت ضده وطردته بعد جولتين من المعارك. استمر إبعاده الثاني عشر سنين. نفي بعد السقوط الأول لكنه بقي على اتصال مع رواده من دياكريا وجمع أسباب الصراع، مستغلاً مناجم الذهب من تلة بانجيه، في ثراس، وتحالف في الوقت ذاته مع الدول المعادية لأثينا، بخاصة إرتريا واويي. وبعد أن اطمأن للقوى العسكرية ودعم الفلاحين، أبحر بيزسترات في العام ٥٤١ إلى خليج ماراتون، وتحدى أعداءه في معركة بالين، واحتل أثينا تقريباً بدون قتال وبقي سيدها حتى مماته (٥٢٧).

اتسمت حكومة قائد الدياكريين بهزيمة ارستقراطية الدم بشكل ناجز. نفي الكثير من النبلاء، وقتل من بقي، وصودرت أراضيهم. هدفت تدابير بيزسترات إلى تقوية اقتصاد الفلاحين بخاصة ودعم الميلشيا المسلحة، الركن الرئيس لسلطته. دون أن يحقق إعادة اقتسام الأرض الذي طلبه الفلاحون، وزع مع ذلك على العناصر الفقيرة عدداً كبيراً من

الأمالك التي صادرها من النبلاء، وادخل نظام رصيد الدولة لصالح الفلاحين في حياتهم وخفف العبء الضريبي على الفئات الأفقر، على حساب الشرائح المرتاحة، واضعا ضريبة ١٠% على الدخل. كان أحد التدابير الأهم تعيين قضاة متنقلين ومحاكم من المشاعات الريفية -demes- التي تحل الخصومات الدقيقة. لكنه، ممثلا لمناطق أخرى، لم يستطع أن يعتمد كليا على دعم الدياكرين، فسعى للتحالف مع الباليان: لا بل تزوج ابنة قائدهم ميخاكلس. وإرضاء للتجار والصناع، جهز أسطولا عظيما للحرب والتجارة، لتروج التجارة العابرة مع الخارج. وفي أيام بزسترات، جهد الآثينيون لطرد الميليزيين من منطقة البونت *pont*، مصدر القمح الرئيس الذي تحتاجه أتيكيا. وأسس لهذه الغاية نقطة تركز على مضائق الدردنيل، بعد أن استولى على مدينة سيجي *Sigee*. وفي نفس الوقت، تمتت العلاقات بين الآثينيين ومصر. وهكذا نرى بزسترات، وهو يطور التجارة الخارجية، توجه نحو مستقبل سياسة أثينا الاستعمارية وشيد قواعد الانطلاق البحري لدولة أثينا.

وصدر أيضا إلى أعمال البناء الواسعة. بنى هيكلًا "طوله مائة قدم" في أثينا، على صخرة الأكروبول؛ وشرع بتمديد الماء والخزانات الضرورية لهذه المدينة التي تفتقر للماء. وأحييت أعمال هامة عامة (نظمها مستبدون آخرون مثل بولكرات دي اسمس) العديد من الصناعيين والعمال. وفي أيام بزسترات، صارت أثينا مركزا للثقافة الإغريقية. فقد عرف الحاكم المستبد كيف يشد إليه كبار الشعراء، مثل أناكريون *Anacreon*. وكلف ثلثة من الباحثين بجمع شتات الإلياذة والأوديسة ووضع نص واحد. وإرضاء للشعب، كان يقيم كل عام احتفالين تمجيدا للإله الريفي ديونرس. وفي أثناء هذه الاحتفالات تقام في أثينا أعظم التمثيليات المسرحية.

حوّل نشاط بزسترات هذا أثينا إلى مركز ثقافي هام ومنحها المقام الأول بين الدول اليونانية. وحازت المدينة شهرة دولية. إذ ساهمت الشروط المناسبة لتطور التجارة والمال بارتقاء العبودية، النظام التقدمي في ذلك العصر. "التجارة، الصناعة، والمهن الفنية، الممارسة على نطاق يزداد اتساعا بعمل العبيد، صارت فروع نشاط بارزاً"

لكن توفر القمح المستورد بسعر مناسب وجلت مجموعات من العبيد الأجانب لم يتأخر حتى انعكس انعكاسا محبطا على الاقتصاد الفلاحي.

١ - ف.انجلز. أصل الأسرة، الملكية الفردية والدولة.

سقوط البزستراتيين. اصلاحات كلستين Clisthene

مات بزسترات عن عمر مديد في العام ٥٢٧، تاركا السلطة إلى أبنائه الثلاثة: هيبباس، هيبارك، وتسالوس الذين اضطروا لمواجهة صعوبات كأداء داخلية وخارجية. وبعكس أبيهم الذي كان بسيطاً جداً في علاقاته مع الشعب، دلوا أنهم فوقيون وأجلاف. ولتأمين بذخ بلاطهم، كانوا يفرضون الضرائب على كل شيء في المدينة: طوابق المنازل، على الزوايا البارزة خارج البناء، وسوى ذلك.

كانت أوضاعهم بالغة القفلة بسبب تعثر العلاقات الخارجية. كان الفرس قد أخضعوا شواطئ آسيا الصغرى، أعدموا حاكم سامس بولكرات Polycrate، حليف أثينا، اجتاحت مصر وأخذوا المضائق المؤدية إلى مملكة بونت Pont (٥١٣). وهكذا عزلت أثينا عن شط البحر. ومن جهة أخرى، كانت تعاني من ضغط إسبارطة المتزايد، التي تحمي بحيرة الأرستقراطية في صراعها مع حكم الاستبداد وألجأت النبلاء المبهدين عن أتيكيا.

فندرك تماماً، في هذه الظروف، رغبة نبلاء الأرض في التمرد ضد حكام أثينا. إذ حاكت مؤامرة بقيادة أرستقراطيين، هارموديس وأرستوجتون. كانا، كما يبدو، خصمين شخصيين لأحد أبناء بزسترات، هيبارك، الذي أهان أخت هارموديس. حدثت المحاولة في أثناء الاحتفاء بعيد بناته العظام، لأن المتأمرين اعتمدوا على مساندة الجمهور. مع ذلك لم يقتلوا سوى هيبارك. نفق هارموديس في ساح المعركة، أوقف أرستوجتون وأعدم فيما بعد. وبعد هذا أقيم لهما نصبان في أثينا وظفرا بلقب "شهداء الاستبداد".

وبعد أربعة أعوام من موت هيبارك، نفى هيبباس لعلاقته باجتياح إسبارطة المسلح (٥١٠). نجح السبارطيون باحتلال أثينا وأعانوا إليها الأولغارشية الأرستقراطية، وأقاموا عليها إزغورس، قائد المهاجرين. وخلال سنتين (٥١٠-٥٠٨) احتلت الحامية الإسبارطية الأكروبول وانتشر الإرهاب في أثينا. لكن رجوع الأولغارشية لم يعمر طويلاً: فانتفاضة شعبية مخيفة جمعت الدياكريين إلى الباراليين بقيادة كلستين زعيم الباراليين أحد الأسميونيد. طرد السبارطيون، ووزعت أراضي أوبي والأرستقراطيين على المعمرين الأثينيين.

انتخب كليستين أرشون أول، وشرع في ٥٠٦ بنشر الديموقراطية في النظام الأثيني، أخذاً بالاعتبار الدور المتنامي للجماهير في حياة البلاد الداخلية.

كان هذا الإصلاح يرتبط صميمياً بتنظيم جديد، وحدات مستقلة، مؤلفة من قرية أو

قريتين أو ضيعة من أتيكيا. كان كل حي من أثينا يشكل وحدة، وللوحدات مجالسها، موظفوها، أراضيها وحتى أعيادها، على رأسها حاكم، منتخب لعام واحد، يحكم الشؤون المحلية ويأخذ لائحة برعيته. يسجل الشباب الذين بلغوا الثامنة عشرة على لوائح ويمنحون الحقوق المدنية. يعين المجلس العام نسبة أعضاء الوحدة الإدارية للمواطنة الأثينية وينفذ المعلومات المعطاة بشأنهم. ولقد صارت هذه الوحدات منظمات في غاية النشاط الإداري المحلي، حيث يمارس كل الأثينيون تدريبهم المهني.

الإصلاح الهام الآخر لكلاستين هو النهج الانتخابي، النابع من التقسيم الجديد لمواطني أثينا إلى قبائل. القبائل الأربع من العشير الموجود منذ القدم وأحصاء سولون وصانه، تلغى باعتبارها دوائر وتبدل بعشر قبائل إقليمية، ضمت كل منها في البداية عشر وحدات. لكن هذه القبائل لا تشكل أقاليم كاملة: ولكي تمثل كل منها المناطق الرئيسة الثلاث من أتيكيا، تضم عدة وحدات إدارية من المركز، من الساحل ومن الجبال. تتكون كل قبيلة إذن من ثلاثة أقسام تسمى ترتي أي (ثلاث) ليكون العدد الإجمالي ثلاثين. فنرى أن كل قبيلة مؤلفة من مواطنين من مختلف المهن والشروط؛ أما الأسر النبيلة الكبرى التي كانت قد انتسبت كلها إلى قبيلة معينة ولعبت فيها دورا مهيما، في الانتخابات، كانت قد تفتتت. فتقلصت إلى العدم القوة الرئيسية لأرستقراطية الدم ولغمت تقسيم المواطنين السابق إلى ثلاثة مراتب، تألفت حسب مناطق أتيكيا الثلاث. فحازت القبائل فضلا عن الطبيعة الإقليمية، وحدة البنية.

جدد كلاستان أيضا تنظيم المؤسسات المركزية في الدولة، بوضعها على سلم كل المجتمع العبودي. فمجلس الأربعمئة لسولون، صار المجلس الأعلى للدولة الأثينية، بعد أن أضيفت إليه مائة عضو. تنتخب القبيلة ٥٠ عضوا، ولكل وحدة إدارية في عدد من المقاعد يتناسب مع كبرها. وكان مجلس الخمسمئة المنظمة الإدارية الرئيسية لأثينا. يجتمع باستمرار، يناقش خمسون من أعضائه بالدور القضايا العاجلة، طيلة ١٠/١ السنة؛ يحمل مندوبون عن هذه القبيلة أو تلك، خلال هذه المدة لقب حاكم.

كان مجلس الشعب، المؤلف من كل الأثينيين المتمتعين بالحقوق المدنية، السلطة الفعلية العليا للدولة، التنظيم الديموقراطي العبودي الأعلى. يجتمع المجلس ثلاث أو أربع مرات بالشهر، برئاسة أحد الحكام، المتغير باستمرار. ومجلس الشعب يراقب ويوجه نشاط مجلس الخمسمئة؛ فكان في أساس سيادة أثينا التعاونية. أما سلطة مجلس الشيوخ والأرشوننت،

كانت محدودة. لم يعد الأرشون الأول يقوم الخزينة، بل عشرة خازنين يختارون كل عام، واحد لكل قبيلة. ينهض بالشؤون الحربية مجمع الاستراتيجيين، الذي ينتخب أعضائه العشرة، كما انتخب عشرة خازنين للخزينة. يقودون محاربي قبائلهم. ولا يحتفظ قائد الجيش بسوى بامتياز تشريفي هو رئاسة مجلس الاستراتيجيين واحد من أهم مؤسسات الديموقراطية الأثينية.

أخيرا، ولاستبعاد أي احتمال لقلب النظام القائم، بإصلاح الاستبدادية *les tyramie*، مثلا، أو تجديدها، أدخل كلستان *l'ostracisme*، أي نفي المواطنين "الخطرين"، أي أظناء التخطيط المدمر. مورس هذا التدبير بالشكل التالي: في بداية العام، يضع مجلس الخمسمائة بين يدي مجلس الأمة مسألة معرفة إمكانية تطبيق الـ *ostracisme* = نفي الخطرين. فإن أعطت غالبية الأعضاء جوابا بالإيجاب، تعقد جلسة أخرى، فيستطيع الحاضرون أن يسجلوا على قوقعة أو كسرة خرف الاسم الذي يراه خطرا على الدولة. ويقبل الاقتراح إن صوتت غالبية الستمائة لنفي المتهم. وبعد ١٠ سنوات، يعود المبعد إلى البلاد ويمارس حقوقه.

لم ينشر كلستان، ممثل التجار الأغنياء ومالكي العبيد، أي قانون لمصلحة الفقراء. إنما كانت مواقفه كلها تخص العلاقات السياسية وبنية الدولة. وكان العبيد الذين يشكلون الشريحة الأوسع من رعايا أتيكيا، والذين يؤسس عملهم الحياة الاقتصادية للمجتمع الأثيني، والمحرومين من أي حق، كانوا في طليعة ضحايا هذا الجهاز الذي دبجته ديموقراطية العبودية. كما حرم من الحقوق السياسية النساء والعناصر الخدمية والمضطهدة في المجتمع أنهت إصلاحات كلستان في أتيكيا مرحلة التحولات الاجتماعية والسياسية، التي دامت قرابة مائة عام لتفضي إلى تشكيل الطبقات الاجتماعية والدولة. والتبدلات المقصودة، التي نجمت في أثينا في القرنين السابع والسادس، لا تعود حصرا إلى كلستان ومن سبقه، سولون وبزسترات. فقد وقف عند خلق رويدا رويدا نهج ذكي من مؤسسات العبودية وتشريع محصلات الحركات الاجتماعية، التي وضعت حدا لمخلفات نظام العشير. ولقد كانت القوة المحركة هي الطبقة الأخيرة في الهرم الاجتماعي، بخاصة الفلاحين الشريحة التي تصارع نبلاء الدم الذين يهدفون استخدامهم. لكن الفلاحين عرفوا كيف يدافعون عن شرطهم الدقيق ليصيروا منتجين أحرارا وينخرطون في المجتمع المستعبد.

حدثت تطورات مشابهة في باقي حواضر اليونان المتطورة، لكنها لم تدرس بالتفصيل، لعدم توفر الوثائق.

الفصل الثامن والعشرون

الحروب الميديّة وتشكل الاتحاد البحري الآثيني

بواعث الحروب الميديّة وأهدافها

في القرن الخامس قبل الميلاد بلغت اليونان أوجها بفضل النتيجة المظفرة للحروب الميديّة التي تتابعت خلال النصف الأول من القرن كله. خلق هذا النصر شروطا لانطلاق الحضارة والاقتصاد اليونانيين.

ليس لدينا الكثير من المصادر حول هذا العصر. والشاعر أخيل *Eschyle* الذي، كما هو معروف، اشترك هو نفسه في معركة سالامين، لا يقدم في تراجيديته "الفرس *les perses*"، سوى مقاطع من هذه الحرب. وإلى هذه المصادر، يجب أن نضيف بعض صفحات تاريخ هيكتيه لميليه وكثيرا من النقوش (بخاصة نقش حاكم سراكوز جيلون بمناسبة مجد ظفّره في هيمير، ومسلة نقش عليها اسم كل الدول التي اشتركت بالدفاع).

لكن المجموعة الرئيسيّة من المعلومات حول الحروب الميديّة هي "قصص" هيرودوت التي تروي أحداث ٥٠-٦٠ سنة بعد انتهاء القتال. هدف هذا المؤلف، حسب قول هيرودوت، هو: ".صيانة أعمال الناس والبربر من النسيان، وبعبدا عن كل هذه الأمور، تطوير البواعث التي دفعتهم إلى شن الحرب". لكن هيرودوت لم يكن بعيدا عن الذاتية، بل هدف (من الكتاب نصرة الآثينيين كمنفذ *Hellade*، اليونان القديم).

ثمة مصادر أخرى عامة لدراسة هذه الحقبة من الزمن هي "المكتبة التاريخيّة" لديودور سيسيليا وسيرة ثمستوكل، أرسنيد، سيمون وبركليس، التي كتبها بلوتارك. لكنها، وقد ظهرت طبعا بعد الأحداث المدروسة، تستمد قيمتها من توثيق الأعمال التاريخيّة السالفة، التي لم تصلنا أبدا. وبالتالي، معلوماتنا في موضوع نصف القرن هذا ناقصة بشكل ملحوظ. أملا في أن توسع معارفنا أرشيفات برسبولس، عاصمة سلاطين الفرس، المكتشفة حديثا، وتزودنا بمعلومات جديدة.

كان سبب الحرب التوسع المستمر والمنهجي للإمبراطورية الفارسية نحو الغرب. فقد ضمت في أيام داريوس الأول أراض شاسعة تمتد من الهند إلى بحر إيجه ومن القفقاس إلى مصر. كانت هذه الإمبراطورية مجموعة من الشعوب المتنافرة وحدها الغزو، عديمة الوشائج، متباينة في مستوى ثقافتها ومصالحها واهتماماتها. وكان الذهب الآتي من المناطق والأقاليم المحتلة، بشكل ضرائب، لا يتحول فقط إلى نقد، بل يكس في المشربيات الفخارية التي تبقى عشرات السنين في أقبية القصور الملكية.

كانت الأرستقراطية الفارسية تجهد في إخضاع واستغلال الشعوب المجاورة، وإلحاق الأراضي والعبيد. وكان المستشارون الملكيون، القادة العسكريون ومئات الموظفين الذي يديرون الأقطار الملحقة يصيرون شريحة اجتماعية حاكمة، مستفيدين مباشرة من هذه السياسة.

وكان التوسع مدعوماً من طرف أرستقراطية العبودية وتجار النخاسة لرق البحر المتوسط، بخاصة في فينيقيا. وكانت بعض الأوساط التجارية والصناعية من المدن اليونانية في آسيا الصغرى، المنذهلين بهتاسب الأسواق الشرقية، يتعاطفون مع الفرس. واجتياح فينيقيا، ليديا وسلسلة من حواضر آسيا الصغرى، جعل من الفرس دولة ضاربة عاتية بحرية، مدعومة بحلف هجومى مع جمهورية قرطاجة. فإن مشى الفرس إلى الغرب، توجب على الأسطول القرطاجي أن يهاجم سيسيليا لمنعها من مؤازرة يونان البلقان.

بدأ غزو الفرس لأوروبا في العام ٥١٣، يوم هاجم داريوس الأول السيثيين^١، ليخضع الساحل الشمالي من البحر الأسود. لكنه لم يستطع أن يقهرهم. وبعد عدة معارك فوق أرض مولداڤيا الحالية، انسحب السيثيون، جارين وراءهم في السهب الصحراوي الواسع جيش العدو الجرار (٧٠ ألف رجل، إذا صدقنا الشهود). فلم يستطع الفرس أن يقاوموا هؤلاء الفرسان المهرة الذين يهاجمون فجأة ويضربون في الحال وينسحبون، مدمرين في دربهم الآبار، مناهل المياه والنبات. أنهكت هذه الاشتباكات المستمرة جيش داريوس، الذي لم ير نهاية لهذه الورطة القاضية في الصحراء، فرغب في مفاوضة السيثيين. لكن محاولته باءت بالفشل. فتراجعت القوات الفارسية، المتعبة، خائبة.

^١ - شعب من أصل إيراني، شكل دولة في سيثيا، لكنها تفككت في النصف الثاني من القرن الأول ق.م.

رغم الفشل في سيثيا، احتل الفرس شاطئ هلسيونت، المناطق القريبة من ثراس، بيزانسا، وشالسوان، الأمر الذي فتح لهم دربا إلى مملكة البونت^١. فانقطعت أية صلة بين اليونان والساحل الشمالي للبحر الأسود، وانتقلت التجارة مع هذه المنطقة من أيدي الأثينيين، الميغاريين ومدن من آسيا الصغرى إلى أيدي التجار الفينيقيين. واحتل الفرس عدة جزر شاطئية من آسيا الصغرى (شيو، ساموس، إلخ). وأخضعوا لسبوس، وقطعوا، في نفس الوقت، العلاقات التجارية بين مدن آسيا الصغرى واليونان البلقانية.

وفي العام ٥٠٠، بدأ الفرس تقدمهم نحو اليونان القارية. حاولوا احتلال أكبر جزيرة في سيكلاد، ناكسوس الغنية والخصبة. كان موجه هذه الحملة حاكم ميليت، أرسطاغوراس، الذي اشتراه العدو. لكن الأسطول الفارسي لم ينجح في انتزاع ناكسوس، الأمر الذي دفع أرسطاغوراس، حسب رأي هيرودوت، إلى خيانة ملك الفرس وإثارة ضده في العام ٤٩٩ المدن الإيونية التي كان نير المحتل قد أبهظ كاهلها: ففي حملة داريوس على السيثيين، حاول البحارة الأيونيون تدمير الجسر الذي أقامته قواته على الدانوب وإهلاك جيشه. لكن المنتفضين، غير القادرين، حسب رأيهم، على النصر بوسائلهم الخاصة، استجدوا بدول اليونان القارية. وهكذا نشبت الحرب الميدية.

وضح ضعف اليونان وتشتتها منذ البداية. إسبارطة، المشغولة بإعداد الحرب ضد أرغوس وغير المتعاطفة أبدا مع أيونيا، الأرقى منها، رفضت دعم ومساندة أرسطاغوراس؛ وكوراثيا ومدن يونانية أخرى حليفة إسبارطة ومصالحها المحلية تفرض عليهم القتال المشترك، لم تازر هي الأخرى المتردين. بينما أرسلت أثينا فقط، التي كانت الهيمنة الفارسية البحرية تهدد مصالحها، أرسلت عشرين مركبا للمتمردين. وبعثت مدينة أرتريا خمسة مراكب إلى أوبيا، التي تتاجر مع ميليت. لكن عدم كفاية المساعدة الأثينية اتضح بالصراع الشرس الذي دار بين الشرائح المتضررة من التوسع الفارسي وبين الذين تكمن مصلحتهم في علاقات طيبة مع هذه الإمبراطورية لاستمرار التجارة مع آسيا. وأيضا، رغم النجاح الأول (احتلال سارديا)، وبسبب عدم كفاية المساعدة الفعالة من اليونان الأوربية، انعزل المتمردون عزلا تاما.

^١ - مملكة في شمال شرق آسيا الصغرى، استقلت عن الفرس في العام ٣٠١ ق.م.

هزم الفرس اليونانيين في البر، أمام إيفيس *Ephese* (٤٩٨). ثم طلبوا سفنا من مصر وفينيقيًا الحليفين، لمتابعة الحرب على البحر. وقرب جزيرة لانس، على ضفاف ميليت، ذاق اليونان هزيمة ماحقة (٤٩٤)، الأمر الذي مكن الفرس من تطويق ميليت (مركز التمرد) برا بحرا واقتحامها. دمرت المدينة ومن بقي حيا أسر أو بيع عبدا. واحتل الفرس بيزانسا مرة أخرى. وهكذا احتلوا في العام ٤٩٤ مواقع مفتاحية في التجارة والإبحار إلى آسيا الصغرى واستعادوا سلطتهم في أيونيا.

أولى حملات الفرس ضد اليونان

تذرع الفرس بوجود سفن يونانية وأريترية في معسكر الأيونيين، لشن هجوم على اليونان القارية. وفي صيف ٤٩٢، سارت إلى اليونان أولى الحملات الفارسية بقيادة مردونيوس، صهر داريوس الأول. تقدم الجيش برا وبحرا، عبر هلسبونت، ثراس ومقدونيا.

لكن الأسطول الفارسي غرق في رأس أثوس، في أثناء عاصفة عاتية. حسب هيرودوت، كانت الخسائر حوالي ٢٠ ألف رجل. أما جيش البر، فقد ذاق خسائر فادحة عندما حاول سحق مقاومة البريجس، القبيلة الثراسية التي أرادت أن تحول دون عبور الفرس. ومردونيوس نفسه جرح واضطر بعد لأي أن يتخلى عن متابعة العمليات. ومع ذلك، كان للحملة نتيجة هامة: احتل الفرس ساحل ثراس الغني واستطاعوا أن يقيموا فيه نوعا من الجسور المتحركة تساعد القوات على العبور في حملة قادمة إلى اليونان.

لم يكن فشل مردونيوس حادا ليثبط تصميم الفرس على التوسع. فأرسل داريوس إلى كل مدن اليونان سفراء مكلفين بالمطالبة "بالأرض والماء". انتهت بعض دول اليونان ذات النظام الأولغارشي التي تخشى الانتفاضات الشعبية، منها ثيساليا، بيوتيا، إيجين، وأرغوس، انتهت إلى الاعتراف بتفوق الفرس. لكن أثينا وإسبارطة رفضتا بوضوح دون أن تخشى قتل المسافرين. وفي بداية القرن الخامس، تشكل في أثينا حزب سياسي سمي "البحري"، بقيادة ثميستوكل تمكن أن يوسع قاعدة اقتصادية لأثينا باحتلال طرق تجارية وأسواق. فلأراد الحزب أن يخوض صراعا حاسما ضد الفرس، بخاصة اجتياح بعض المضائق، كونها هامة جدا للتجارة مع ساحل البحر الأحمر وثراس لتصدير بخاصة منتجات صناعية، مقابل القمح. فإغلاق المضائق كان سيضر كثيرا بهذه المكاسب.

ونهضت شريحة اجتماعية أخرى، بقيادة الثري والنبل ملتياد، حاكم ثرسونيز السابق، وتركها بعد الاحتلال الفارسي، لتتضم أيضا إلى الصراع ضد الغزاة. لكن ملتياد، باعتباره مدافعا عن مصالح المالكين العقاريين، اهتم بصيانة الأرزاق والالتزام بحرب دفاعية.

وهكذا كانت شرائح التجار والصناعيين، بإشراف وتوجيه ثمستوكل، والمالكين في الأرياف بقيادة ملتياد، في أثينا، وفي إسبارطة، قررت الأرسقراطية الحاكمة المقاومة والتصدي. في الوقت ذاته، كان الغزو الفارسي في نظر الشعب الاثيني نازلة فادحة ودفنا للديموقراطية. فكان الاثينيون إذن أمام حرب وطنية، دفاعا عن البلاد والحضارة. من هنا أتى التوازن الوطني الذي أنهض مختلف فئات السكان في أثينا.

في العام ٤٩٠، بعد ١٨ شهرا من الغزوة الأولى لليونان تقريبا، شرع الفرس بحملة أخرى. كانت خطة داريوس، هذه المرة، الإبحار إلى اليونان الوسطى، واليونان الشمالية كانت كلها تقريبا بين يديه. كان داتس، القائد العسكري المحنك يقود الأسطول الضارب، بينما كان الجيش بإمرة الشاب الأمير أرتافيرن، حفيد داريوس. وقد لعب هيبياس، المبعد من أثينا والذي يأمل، بمساعدة الفرس، العودة حاكما إلى هذه المدينة التي ما تزال تضم العديد من أنصاره، لعب دور المستشار في قيادة هذه الحملة.

اتجه الفرس مباشرة إلى سيكلاد وأبحروا إلى ناكسوس واجتاحوها. ثم وصلوا إلى أرتريا ودمروها. وبناء على رأي هيبياس، أبحروا إلى شرق أتيكا، قرب سهل ماراثون، المفتوح من جهة البحر، والمغلق بالجبال من كل الجهات. العدو باغت الاثينيين. وتبين أن وضعهم أسوأ من حال الإسبارطيين، المعادين لنظام كلستين، لكن هؤلاء لم يسارعوا إلى النجدة. وأعلنوا أنهم، احتراما للعادات، لن يباشروا الحرب إلا والقمر بدرا. لكن بلاتيا، المدينة البيوتية، المجاورة لأتيكا أرسلت، وحدها، ألف جندي. فاضطر الاثينيون إلى استنفار كل الرجال، حتى العبيد. بداية، فكروا أن يعتصموا خلف جدران المدينة، لكنهم بناء على إلحاح المالكين والكادحين قرروا المسير إلى ماراثون، على مرأى العدو. كان يتألف جيشهم من ١٠ آلاف رجل مشاة ثقيل السلاح، وألف مسلح من بلاتيا وسرايا خفيفة، وكان ملتياد، قائد الحزب الزراعي، يقود عمليا كل القوات كأحد الاستراتيجيين وثمة أريستيد، قلند محنك آخر في هذا الحزب. استحكم الاثينيون قرب هضبة بانثيليك، في مجال ضيق، منيع على الخيالة ويحمي طريق أثينا.

ليس لدينا معرفة دقيقة بعدد الجيش الفارسي. وحسب هيرودوت، كان الأسطول يضم ٦٠٠ سفينة، لكنه رقم مبالغ جداً. وفي كل حال، كان عدد الفرس أكبر بكثير من خصومهم وقد يكونون ٤٠ ألفاً. لكن مشاتهم كانت مؤلفة من عناصر متنافرة، غير منسجمة، مجندة من مختلف المناطق المحتلة.

وضع ملتباد جيشه في أرتال طويلة، بحيث دعم الجناحين وأخلى الوسط أو المركز. أغلق منافذ الوادي الضيقة، فحرم الفرس من نشر خيالتهم، الذين عادوا إلى البواخر، تاركين المشاة وحدهم. استغل الأثينيون هذا الوضع الجيد، نزلوا من الجبل انقضاضاً وفتحوا معركة ماراتون الشهيرة.

في أثناء العراك، خرق العدو وسطهم، لكن الجناحين دخلا اللعبة في وقت معاً، مهددين بالوصول إلى مؤخرة الفرس المنخرطة في عمق الوضع الأثيني. أخيراً اضطر العدو إلى التراجع نحو السفن. تابعه اليونان حتى الشاطئ، لكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء إلا على سبعة مراكز فقط. وكما يروي هيرودوت: "تفق في هذه المعركة من الفرس، حوالي ٦٤٠٠ رجل؛ ومن الأثينيين ١٩٢" (١١٧،٦). مع ذلك، بعد أن جمع الفرس أكثر قواتهم على ظهر البواخر، قصدوا أثينا على عجل؛ واعتماداً على مساعدة أنصارهم في نفس المدينة أملوا أخذها من جهة البحر بهجمة مفاجئة. لكن الجيش الذي حمى وادي ماراتون، اجتاز بمسيرة انقضاضية ٣٠ كم تفصله عن المدينة. وبينما كان الأسطول الفارسي يدنو من فالير، مرسى أثينا الرئيسي، كان مظفروماراتون قد دخلوا في السور، بحيث ان الفرس خوفاً من مواجهة ثانية، بقوا على متن مركبهم وانطوا باتجاه آسيا.

وهكذا هزم الأثينيون هجوم الفرس الأول (لم يأت الاسبارطيون إلا بعد فوات الأوان)، وبخاصة على أيدي فلاحي أتيكيا - الزوجيت - الذين كانوا يشكلون نواة أو قلب الكتيبة. وصار ملتباد، القائد الأعلى، البطل المظفر. ورفع له مواطنوه نصباً قرب القبر المشترك للمحاربين الذين سقطوا في ماراتون (ما يزال الضريح قائماً حتى اليوم). فجهد ملتباد، المتمتع بشهرة طبقت الآفاق، في دفع حزبه إلى حرب هجومية. اقترح خلق أسطول من ٧٠ مركبا وإرسال حملة إلى الجزر الباقية تحت حكم الفرس. وعلى رأس جحفل هاجم ملتباد جزيرة باروس وطلب من أهليها ضريبة من مائة طالان^١. لكن الحصار فشل ورجع

^١ - وحدة وزن في اليونان القديمة تساوي من ٢٠-٢٧ كغ، أي هذا الوزن ذهباً أو فضة.

ملتياذ خائبا. ومثل أمام القضاء، وأدين بتأدية ٥٠ طالان غرامة ومات بعيد هذا الحكم متأثرا بالجراح التي أصابته في أثناء حصار باروس.

أما رئيس الحزب البحري ثمستوكل، رجل الأعمال والسياسي البارع، راح يسمى لتدمير النفوذ السياسي للأسر النبيلة. فأعد مخططا واسعا لبسط نفوذ أثينا البحري. سهل إنجاز المشروع استثمار حقول الفضة في أتيكيا، التي أنفقت، بناء على اقتراح ثمستوكل، في بناء أسطول لايقهر، وإدارة وتحصين المرافئ. وسحقت مقاومة حزب المزارعين بنفي قائده أرسيتيد، وبجهود ثمستوكل، وضع الأثينيون في الماء ٢٠٠ مركب ثلاثي المجاذيف خلال عامين.

حملة خرخس

في العام ٤٨٠، أي ١٠ أعوام بعد معركة ماراثون، بلغت الحرب ذروتها. مات داريوس في العام ٤٨٤، وخلفه أحد أبنائه، خرخس. ترافق تبدل الملوك هذا بفنن داخلية دامية، إحدى نماذج الاستبداد الشرقي، كالانتفاضات الخطرة التي قمعها خرخس في مصو وبابل. فضلا عن هذا، فقد وعى جيدا أن يونان أوربا كانوا أعداء شرسين ورمييين، فأعد لهم بعناية حملة جديدة. وليضمن حرية العمل لأسطوله وتجنب خطر غرقه قرب رأس أثوس، حفز خرخس قناة عبر البرزخ الواصل بين شبه جزيرة أكتيا ولاير. أنجز المشروع بفن مدهش بمطرقة وإزميل المصريين والفينيقيين، فكان عريضا يتسع لعمارتين كبيرتين محاربتين. وبني في ثراس من مخازن التموين التي غصت بالماشية والأعلاف. وأقيمت الجسور فوق أنهر ثراس وحتى فوق مضيق هلسبونت. وجند خرخس خلال أعوام جيشا جرارا اتبع تدريبا نوعيا في كابادوسيا، التي صارت مركز تجمعه. كل هذه الحملات، وغيرها كثير، لا تستطيع أن توازي هذه وحدها، يكتب هيرودوت.

كانت استعدادات الفرس القتالية قد ألزمت مدن اليونان بالاستعداد لمقاومة العدو مقاومة عامة. كان فقدان الوحدة السياسية، كما أشرنا، نقطة ضعف اليونان. إذ كان لكل مدينة مصالحها. والجوار المباشرون -اسبارطة وأراغوس، أثينا وإيجين، المدن البيوتيتية من شسيا وبلاتيا وثيبيا وغيرها- كانت تعيش كرها متبادلا. وعدة دول، مثل أرغوس، تساليا وثيبيا، كانت تطمح إلى الحياة وتبدو مستعدة لدعم الفرس ليصمدوا. وحسب هيرودوت، "إن أولئك الذين أعطوا الفرس الماء والأرض كانوا واتقين أن ليس ثمة ما يدعوهم لإغضاب

البربر، وكان من لم يعطهم، بالعكس، غارقين في الإرهاب، ولا تملك اليونان مراكب كافية لمقاومة الفرس، والناس راغبون عن الاشتراك في الحرب، لكنهم مضطرون للخضوع للميديين" (الكتاب ٧، ١٣٨).

كان الأثينيون بقيادة ثميستوكل أبطال الوحدة المتحمسين. وكانت الفئة الحاكمة في إسبارطة، رغم عدم رضاها عن أثينا الديمقراطية، كانت واعية أيضا ضرورة التضامن، لأن الإسبارطيين ما كانوا قادرين على مواجهة الفرس في البحر. وشكلت دول يونانية أخرى حلفا دفاعيا. وفي خريف العام ٤٨١، اجتمع ممثلون عن أثينا، إسبارطة، إيجين، أوبيا وغيرها من الدول على البرزخ، في معبد بوزيدون *Poseidon*، وأقسموا يمين الإخلاص للاتحاد الجديد. انضمت إليه ثلاثون دولة، لتعبر عن المحاولة الأولى لمنظمة لكل الإغريق. وعلن السلم الشامل بين الدول المتحالفة، التي أعلنت أيضا العفو الشامل عن المجرمين السياسيين. ولعل تفوقها العسكري المعترف به من الجميع، كللت إسبارطة بقيادة القوات البرية والبحرية.

وفي خريف ٤٨٠، كرر الفرس خط سير مردونيوس، منطلقين من الشمال نحو اليونان، البعض على طول شواطئ ثراسيا، برا، والآخرين بحرا. يبلغ هيرودوت بوضوح بعدد جند خرّس. وكما قال، كان المشاة وخدمهم ١٧٠٠٠٠٠ جندي، والكل، بما فيهم القباطنة، المنحرون، النساء، إلخ، ٥٢٨٧٣٢٠. ويضم الأسطول ١٢٠٧ مراكب. بينما يدعي بعض المؤرخين المعاصرين أن خرّس لا يستطيع أن يرسل إلى آسيا أكثر من ٢٦٠٠٠٠ قاتل. أيا كان الأمر، كان هذا، لذلك العهد، مشروعا فريدا من حيث الفكرة ومن حيث المدى: فرس، آشوريون، عرب، ليبيون، هنود وشعوب أخرى انطلقت بالتتابع ضد اليونان الدولة الصغيرة.

كانت بداية الحرب بائسة بالنسبة لليونان. اهتموا قبل كل شيء بحاضراتهم، فلم يهيئوا عملهم جيدا، فلم يقدروا أن يوقفوا العدو عند الحواجز الطبيعية التي تقدمها السلاسل الجبلية. تقدمت القوات الحليفة بداية نحو تساليا، أقبل الفرس واحتلوا معبر تامبيا بين جبال الأولمب وأوسا *Ossa*. لم تكن المعنويات في تساليا مستقرة، واعتبرت القيادة الاسبارطية هذا الموقف غير مطمئن، وسار الجيش اليوناني مباشرة إلى الحاجز الثالث، الذي يشكله البرزخ الذي يفصل اليونان الوسطى عن البلوبونيز. وسقطت تساليا بحقولها الخصبة بيد

الخصم. لم يكن مضيق ثرموبيل، مفتاح اليونان الوسطى، محميا بأكثر من ٣٠٠ مقاتل إسبارطي، بقيادة ليونيداس. تقول الأسطورة إن خائنا من أبناء البلد قاده الفرس بمعابر الجبال إلى مؤخرة خطوط اليونان. قاتل الفصيل الإسبارطي بشجاعة وأبىء كله بما فيهم قائدهم ليونيداس.

وأخليت اليونان الوسطى بدورها، فدمرها الفرس ونهبوها. واحتل خرخش على رأس جيشه البري، وخرب بدون شفقة بيوتيا وأتيكيا. لم يوفر سوى المدن البيوتية، بناء على أمر الكسندر، ملك مقدونيا الذي انتقل إلى العدو، متعاطفا مع الفرس. وبعد نهب معابد أثينا وقتل الناس الذي لجأوا إلى الأكروبول، حرق الغزاة المدينة. ولقد جند كل القادرين على حمل السلاح في أتيكيا، في الجيش البري والبحري، بينما أخلى على عجل النساء، الأولاد، الشيوخ والعبيد إلى جزيرة سالامين.

كان الأسطول هو الذي أنقذ اليونان في هذا الموقف الحرج. ففي أثناء معركة ثرموبيل، حقق الأسطول اليوناني، الذي كان يحمي خاصمة سرية ليونيداس، ظفرا مؤزرا، بإنزاله الهزيمة بالأسطول الفارسي قرب رأس أرتميزيوم. وبعد مغادرة اليونان الوسطى انسحب نحو جزيرة سالامين.

ألح الإسبارطيون على بقاء الأسطول بعيدا عن خليج سالامين نحو السبرزخ، حيث تمركزت القوات الحليفة البرية، المكلفة بالدفاع عن البلونيزيز. ولقد بدأوا ببناء جدار على عجل عبر البرزخ، ليمنعوا الجيش الفارسي من التغلغل أبعد. لكن هذا الانسحاب كان يعني الأثينيين التخلي عن وطنهم. وبناء على إلحاح ثمستوكل فقط، وهو القائد الأعلى للأسطول اليوناني (الذي يمثل أكثر من نصف البحرية اليونانية كلها)، أمكن تقرير خوض معركة ضد الفرس في مضيق سالامين. وذهب ثمستوكل حتى تهديد الحلفاء: "إن لم تصغوا لسي، لن نتأخر عن اخذ عائلتنا وننتقل إلى إيطاليا، في سيريس، وهي لنا منذ وقت طويل وحيث يعلن الوحي أن علينا أن نبني مستوطنة. وأننذ، تتذكرون قولي هذا!" (هيرودوت، ٨، ٦٢). على فرض أنه أنبأ خرخش بانطلاق قريب للأسطول اليوناني وأن هذا طوق سالامين من الجنوب، بدون علم اليونان، بطريقة إغراقهم في المضيق. وفي صباح الغد، دارت معركة قرب سالامين قررت مصير الحرب الميدية. أنزل الأسطول اليوناني، المؤلف من مراكب غير كبيرة تتحرك كيف تشاء في المضيق الأليف، دون هدنة ولا مهادنة، ضربات قاسية

بالأسطول العدو. بالمقابل اصطدمت العمارات الفارسية القاسية الثقيلة، المتزاحمة في هذا الساحل الضيق، وغرقت إثر هذه الواقعة. وبعد أن جمع خرخس فلول أسطوله، اتجه إلى آسيا الصغرى؛ وأكره أيضا على لملة أكثر سراياه، التي يستحيل تموينها بدون بواخر. بقي ٥٠ ألف يوناني تقريبا، بقيادة ماردونئوس، اضطروا هم أيضا لدى اقتراب الشتاء أن ينسحبوا إلى تساليا الخصبة.

يرسم الشاعر أخيل، الذي اشترك شخصيا بمعركة سلامين، يرسم لوحة أخاذه في تراجيديته "الفرس":

".. اختلط الحابل بالنابل. يبذل أسطولنا
أول جهد؛ لكن مراكبنا، العديدة جدا،
المتزاحمة في المضيق، لا تقدر أن تساعد
بعضها؛ مجانيف تحطمت؛ واليونان، المهرة
بالمناورة، يضرّبونهم من كل صوب، ويغرقونهم
أيعيدونهم على أعقابهم؛ يختفي البحر تحت
الحطام والموتى؛ وتغطي الجثث الشطآن
والصخور. والأسطول كله يولي الأكلاب
مبلبلا مشتتا."

(أخيل، "الفرس"، ٤١١ وبعدها)

اليونان ينتقلون إلى الهجوم. اتحاد ديلوس البحري

لقد أفتنع نصر سالامين اليونان أن اتحاد الدول يقدر ليس فقط أن يطرد الفرس خارج أرضهم، بل أيضا متابعة الحرب حتى النصر النهائي، لاسيما في نفس العصر؛ في سيسيليا، يوم هزم جيلون حاكم سيراكوز قرب هيمير القرطاجيين حلفاء الفرس. وأيضا في صيف العام ٤٧٩، يوم دخل مارودنيوس من جديد أتيكيا، ترك الجيش اليوناني استحكامات البرزخ وانتقل إلى الهجوم. وشغل الجيش اليوناني الذي وحد قلوب ٥٠ ألف رجل (قراصة ١١٠ آلاف حسب هيرودوت)، بقيادة المحافظ بوزانياس السبارطي، شغل في أتيكيا. مواقف جديدة على سفوح سنرون التي تشرف وتتحكم بدرب أثينا. فرضت القوة على مارودنيوس أن يتراجع إلى بيونيا، بعد أن دمرت أتيكيا مرة أخرى. نصب معسكره قلوب

بلاطيا لكي تقدر خيالاته أن تتاور في سهل بيوتيا الواسع. وهنا أمام بلاطيا، جرت أكبر معارك هذه الحرب؛ دامت عدة أيام. وكما في مراتون، كان تفوق السرايا الثقيلة اليونانية واضحا. تفرد الإسبارطيون، مشوا إلى العدو بسور لا يخترق، بينما احتل الأثينيون معسكرا منيعا. مارودونيوس ذاته مات في المعركة، الأمر الذي دب الهزيمة العامة في الجيش الفارسي. ثم أتى دور ثيبيا، التي كانت نقطة استناد لمردونيوس؛ أخيرا، دخل الحلفاء ثساليا على أجدات ومخلفات العدو. تقول الرواية إن ثلة صغيرة فقط من الفرس بقيادة المزربان أرتياز استطاعت الهروب عن طريق مقدونيا وثراسيا. وهكذا تحررت اليونان القارية كلها.

وفي الوقت نفسه، طرد الأسطول اليوناني الفرس من بحر إيجه. وفي صيف العام ٤٧٩ نفسه، دارت معركة بحرية قرب رأس ميكال، نقطة تمركز البحرية المعانية. كان الفرس قد سحبوا بواخرهم إلى الساحل، خشية الاصطدام باليونان. ثم أبحر الأسطول اليوناني، بقيادة ملك اسبارطة ليوتشداس والأثيني خانتبوس (والد بريكلس)، وطوقوا المواقع الفارسية وأحرقوا المراكب التي لم تتعرض لخطر الإبحار. ألزم هذا النصر جزر ثاسوس، ساموس، لسبوس وشيو أن تفك ارتباطها مع الفرس وتنضم إلى الاتحاد الهليني. وهكذا أفضت معارك سالامين، ميكال وبلاطيا إلى انعطاف حاسم. برهنت أن التمسك بالبحرية كان قوة قميئة بتخطي، في الساعة الحرجة، التفكك الداخلي في الدول أو بعض الفئات الاجتماعية، باسم الآمال المشتركة للشعب اليوناني.

بعد هذا خلقت الحرب الميدية جامعة أخرى للدول اليونانية، بقيادة أثينا هذه المرة، وأضيق من السابق. فبعد النصر المؤزر الباهر لميكال، انسحب الأسطول المتحد نحو هلسبوننت ليعزل الفرس عن أوربا. لكن مراكب ليوتشداس البلوبونيزية تركت الأثينيين ليعودوا إلى اليونان. أما هذه الأخيرة، التي كان همها الأول التمون المنتظم بقمع بونت، تابعت العمل في البحر. فحاصر الأسطول الأثيني، الذي انضم إليه الموجودون في الجزيرة، قلعة سستوس في المكان الأضيق من هلسبوننت، وبعد شهرين من التطويق، أجبر الحامية الفارسية على الاستسلام. وفي العام ٣٧٨، عقد تحالف بين المدن اليونانية من آسيا الصغرى والجزر من جهة أخرى، سمي تحالف ديلوس الدفاعي. كان هذا التحالف جامعاً مدن بحرية مهمتها تقديم الرجال والبواخر للحرب ضد الفرس. والحاضرات الصغيرة غير

القادرة بوسائلها الخاصة على بناء سفن، كان لها الحق أن تدفع سنويا مبلغا معيناً (الدينار لائحة ببعض النقوش). وفي جزيرة دالوس، قرب معبد أبوللون، كان الصندوق المشترك، الذي يضم ٤٦٠ تالان (قرابة مليون روبل ذهب). هنا اجتمع المجلس الاتحادي. كان الحلف يملك أرضا واسعة، يشمل حتى ٢٠٠ حاضرة.

كان الأثينيون هذه المرة يقاتلون الفرس بمعنوية أعلى وأمل أمتن ويحققون نجاحات أوسع وأهم. وفي العام ٤٧٠، طرد الجنرال اليوناني سيمون العدو من شواطئ ثراسيا. فالتحقت بسيمون كل المدن اليونانية المرتبطة بالفرس. وتصدى اليونان للفرس في بامفيليا، على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، عند مصب أورمدون (٤٦٨). أخيرا فتحت كل الطرق التجارية والجزر شواطئ بحر إيجه أبوابها أمام التجار اليونان. لا بل جهد الأثينيون في التغلغل في الأرض الفارسية. وفي العام ٤٥٩ قررت أثينا مؤازرة مصر المتمردة ضد الفرس وأرسلت لها خيرة بواخر أسطولها. على ذلك نجح الفرس في قمع تمرد المصريين، ودمروا تقريبا كل الأسطول اليوناني (٤٥٤). وبعد خمس سنوات، ٤٤٩، لاقى أسطول أثيني آخر، بقيادة سيمون، لاقى الفرس قرب قبرص، أمام مدينة سالامين. انتهت المعركة بظفر الأثينيين وطرد نهائي للفرس من شرق البحر الأبيض المتوسط.

كان تفوق اليونان بديهيا، وأكره الفرس في العام ٤٤٩ على عقد السلم، المعروف في التاريخ باسم سلم كالياس *paix de callias* (السفير الأثيني الذي مهر المعاهدة في سوز *Suse*، عاصمة ملك الفرس). بعد الحرب الميضية، شرعت المناطق الغنية في آسيا الصغرى، وبحر إيجه والبحر الأسود، شرعت تغورها أمام اليونان الذين غرسوا فيها التجار الشرقيين. وبلغ الرواج الاقتصادي، والتفتح السياسي والثقافي لليونان في النصف الثاني من القرن الخامس، نقطة الأوج.

الفصل التاسع والعشرون

قمة الاقتصاد العبودي في اليونان

الاقتصاد في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد

حتى في أوجهه، في القرن الخامس، لم يشكل اقتصاد اليونان كلا متكاملًا. البلاد، كما هو معروف، تتكون من عدة دول ومناطق مستقلة تختلف بوضوح من حيث النهج الاقتصادي. وفي عدد من بقاع اليونان، بقي أسلوب الحياة القديم ساري المفعول. ابييريا، أركانانيا وإتوليا كانت أقاليم رعوية. وفي ثساليا، بيوتيا، لوكرية، فوسيد وفي جزر بلوبونيز، كانت زراعة الأرض هي المهيمنة. المكان الأول بين الأمصار الزراعية يمسود إلى ثساليا، التي تصدر حتى مما يفيض عنها من القمح؛ وكانت تربي الكثير من الأنعام بخاصة الخيول. وفي اليونان الوسطى، تنسب الملكية الزراعية إلى بيوتيا. كان فلاحو بيوتيا هم الممونون العاديون للسوق الأثيني، حيث يبيعون نتائج حقولهم، السمك والطرائد. وفي اليونان الجزيرية، تتميز أوبيا بخصوبتها.

كانت الأقطار الزراعية والرعوية متخلفة من الزاوية الاجتماعية والسياسية. فحسب شهادة ثيومسيديد، كان الأكانيين والأتوليان يعيشون في القرن الخامس كما في أيام هوميروس: يحملون أبداً أسلحتهم، تخطف النساء وتسيبى، ولم يعرفوا بعد استخدام العبيد. وفي عدد من الأقاليم، كان يوجد مختلف أنواع العلاقة البدائية للشعب الريفي مع الملاك العقاريين. وفي إسبارطة، كما نعرف، كانت أراضي الحكام - السبارطيين - محروثة بتعب الأجراء المستعبدين وكان شرط هؤلاء ينكر بشرط..... ثساليا... كريت، أرغوليد.

وبعكس المناطق الزراعية، كان العديد من الحاضرات مثل أثينا، كورنثيا، أرجين، ميغار، ميليت وغيرها قد صارت قبل الحروب المينية مراكز كبيرة للتجارة والصناعة. وبعمامة، كانت أراضيهم غير ملائمة لزراعة الحبوب. وفي أنيكيا، مثلاً، كانوا يزرعون بخاصة المزروعات التي تحتاج الكثير من العناية: الكرمة والزيتون. وقد ولد نقص القمح

رعية ريفية فائضة تسعى الى المهن، الى التجارة، محتاجة لتصدير منتوجها الصناعي واستيراد المواد الغذائية، والمواد الأولية والعبيد.

وكانت المهن والصناعات في الحضارات متطورة في القرن الخامس. يشير بلوتارك الى النجارين، النحاتين، صناع النحاس، البنائين، الجواهريّة، صناع العاج، الرسامين، المزخرفين، المرصعين، الحبالين، الحائكين، الدباغين، مرممي الطرق، الخ.

الى هذه اللائحة نضيف الفرانين، الحلوانية، الأسكافية، البراذعية وغيرهم. وفي المدن الكبيرة مثل أثينا، كان يوجد أحياء كاملة تعمر بأناس من نفس المهنة، كانت ميليت مثلاً، للحلوانية، الأسكافية، البراذعية وكانت سيرلميك حي الفخارين. وكانت بعض المدن مشهورة بهذه البضاعة أو تلك. وكانت أثينا وكورنثيا مختصتين بصناعة السلع المعدنية، الأسلحة بخاصة، المفروشات، الحياكة، والفخاريات. وكانت مشربيات كورنثيا المطلوبة المصنوعة للتصدير منذ القرن الثامن تصل حتى ايتروريا. وفي أثينا وكورنثيا كانوا يهتمون أيضاً بتعمير السفن.

وفي القرن الخامس ق.م. كان يوجد في أثينا ورشات صغيرة، يعمل فيها أفراد الأسرة كلها، يساعدهم غالباً عبد أو عبدان، وأحياناً أكثر.

لم يكن أجر الصناعي يتجاوز دراخما واحدة في القرن الخامس ودراختين في القرون الرابع. وكان الفقراء يأوون الى أكواخ تصعب تسميتها بيوتا: غرفة واحدة طولها عدة خطوات، بجدران من الخشب أو بعض الحصى الممزوج بالفخار وأرض صخرية ممهدة. كان الجدار الأساسي غالباً صخرة واحدة، ترتبط به الجدران الأخرى. بين السطح والسقف كان يقوم مسكن صغير يسكنه أصحابه أو يؤجرونه؛ يصعد إليه بسلم.

والمهنة في اليونان القديمة، لم تكن ابداً معتبرة عملاً مشرفاً. "إن المهن كلها عمل حقير، يكتب خنوفون ("اقتصادي"، ٤٠، ٢)، ومن الأكيد والطبيعي أن ينظر إليها في المدن بازدراء ومهانة". وينسب الكثير من الاحتقار للأجراء المشتركين أيضاً بالإنتاج، مع أن عددهم كان ضئيلاً.

وبعد الحروب الميديّة، بخاصة في القرن الرابع ق.م، راح يظهر إلى جانب الورشات الصغيرة، مشاريع تنمو باستمرار تستخدم عبيداً. كان أغلب مؤسسيها أجانب أحراراً. يعلّ ظهور هذه المشروعات نمو التصدير من اليونان باتجاه المحيط. كان دموستان قد ورث

عن أبيه ورشة يعمل فيها ٣٢ عبدا في صنع الأسلحة. ويتحدث أيضا عن ورشة أخرى لصنع أسرة ينام عليها ٢٠ عاملا أعطيت لأبيه رهنا. وكان خطيب ليزياس يمتلك ورشة لصنع الدروع والتروس تستخدم مائة عبد. ويمتلك ورشة أخرى من نفس النوع تنتج مصابيح، آلات موسيقية وسواها. ونلمس هنا بداية تقسيم تقني للعمل. وفي ورشات التعدين، البعض يطرق الحديد، وآخرون يشحنون، وغيرهم يسقون المعدن. ورشات السيراميك تستخدم، عدا صناع الفخار، رسامين ودهانين لتزيين الأواني المنزلية. لكن الصناعات اليونانية لم تستخدم في القرنين الخامس والرابع الآلات. فما كانوا يعرفون أنثذ إلا التقنيات البدائية: العتلة، البكرة، مسن أو رحي، وغيرها، العاملة أساسا بقوة الإنسان العضلية.

وكمثل على سلع منتشرة في كل اليونان وخارجها، نذكر صناعات الفخار. ففي القرون الخامس، انتج هنا المشرييات الرائعة المزدانة بصور على خلفية سوداء شديدة المقاومة، يبهز جمالها العين حتى اليوم. والقنور المصنوعة من الفخار المشوي كانت تحمل أحيانا شارة شيخ الورشة وشارة مفتش السوق، اللذين يتحليان بالكفاءة المحلية. على إحدى هذه القارورات نقرأ النقش التالي: "أوتميدس صنع هذه المشربية خيرا مما لن يستطيع صنعها أفروتيوس" (أحد المزاحمين).

بينما كانت السلع المصنوعة مازال تستخدم العبيد والعمال الاحرار، لم يبق لصناعة المناجم أو المقالع كيد عاملة سوى العبيد. تشهد على هذا مناجم لوريون الشهيرة، في جنوب أتيكيا، التي تخص الدولة وتؤجرها للأفراد. كانت تبلغ حتى ٤٩م عمقا. من هذه الآبار، تذهب أروقة أفقية، مقطوعة في صخور صلبة، حيث ينتشر معدن الفضة. كان كل رواق يحفره عامل يعمل ١٢ ساعة، ويتتابع العمل ٢٤ ساعة ولايعطي إلا ١٠م في الشهر. وكان المعدن، الذي يفصل بالمعزقة والرفش، يكوم في سلة تسحب نحو الآبار عبر الرواق؛ كان ينهض بهذه المهمة الأولاد والمراهقون، ارتفاع الرواق متر واحد. يرفع المعدن بالسلاسل الكبيرة، بواسطة ملفات يدوره هؤلاء العبيد أنفسهم، ثم يجرش بحجر الرحي ومطارق حديد ثقيلة. ثم يغسله الفتيان والنساء في أحواض رخامية بماء جار، لتخليصه من الرصاص. ويصنع الفونت بأفران واسعة. نأخذ من هذا سبائك، يربطها المسنون والصبيان حزما ويرسلونها إلى أثينا على ظهور البغال. كان الرصاص يضغط بصفائح سميكة،

يحمل خاتم مالك العبيد. ولجلب الفحم، وخشب التدفئة وإرسال معدن لوريون، شقوا طرقا وبلطوها.

كان تطور المهن يتوافق مع رواج التجارة. فالتجارة الداخلية، بخاصة على أرض صلبة، بين مختلف دول اليونان في شبه جزيرة البلقان، بحاجة لمدى واسع. وكانت التجارة المحلية أساسا تجارة سلعية، تجارة سوق. كان ممثلوها النموذجيون الباعة الجوالين، الحانوتيين، باعة المفرق، والفلاحين. وكان لكل مدينة مكان في السوق، الأغورا، الذي يشكل مركزها أو وسطها، تتجمع حوله الصروح العامة والمعابد. وثمة رف خاص لكل بضاعة: سمك، جبن، فخاريات، خمر... إلخ. ومكان خاص للنخاسة. وفي هذا الميدان العام، من المدن الكبرى، يزاول المبادلون والمرابون القابعون وراء مكاتبهم، كل أنواع العمليات المالية: يتلقون الفضة مكدسة، يكلفون بإرسالها إلى طالبها، وإجراء الصفقات، وغيرها. كانت الفوائد عالية: ١٨% بشكل عام، وفي حال الارتياح أو الاضطراب التجاري، تصل إلى ٣٦%.

كانت المراكز التجارية والصناعية الكبرى في اليونان القديمة تشترك بتجارة البحر الخارجية، لأنها بحاجة للقمح، خشب البناء واليد العاملة (العبيد). وبعد هزيمة الفرس، استعادت اليونان اليد الطولى في بحر إيجه ومضائق بونت-أوكسن. وقد أضعف سحق القوات البحرية الفارسية بصورة غير مباشرة الفينيقيين، حلفاء الفرس والمزاحمين السابقين لعمارة السفن اليونانية. وتجدد التبادل بين اليونان ومستعمراتها في آسيا الصغرى، وكذلك التجارة مع الشرق، مصر، شلسدوك، ثراسيا، مقدونيا وبخاصة مدن ساحل البحر الأسود. وكانت مراكز التجارة اليونانية تبحر باتجاه اليونان-الكبرى، نحو سيراكوز، وتصل كيبانيا، أوتراريا و، أيضا إلى الغرب، شواطئ الغول *Gaule* وإيبيريا.

أثينا، مثلا، كانت تجلب من ساحل البحر الأسود، مصر وسيبيليا القمح، الماشية، السمك (المدخن، المملح، والمجفف)، الجلود، الفرو والصوف. وتستورد البرونز الأوتراري، البردي ونسيج الكتان من مصر. والسجاد البازخ والعطور من الشرق. والعاج من إفريقيا. وتستقبل شرائح العبيد، بحيث كانت عاصمة أتيكيا الديموقراطية، في القرنين الخامس والرابع ق.م مركز نخاسة هيلاد (اليونان قديما) الكبرى.

ومقابل البضائع المستوردة، تصدر اليونان زيت الزيتون، العسل، الرخام، الرصاص،

الفضة، السلع المعدنية، النسيج، والفخاريات. وقد كشفت اللقى الأثرية سعة التجارة الأثينية ومراكز التجارة والصناعة اليونانية الأخرى. ووجدت السلع اليونانية حتى في خاركوف، فورونيچ وسمولنسك.

وبعكس التجارة الداخلية الصغرى، كانت التجارة الخارجية الضخمة تأتي بمربح هائلة (حتى ١٠٠% مما يحمل المركب). ومنذ القرن الخامس ق.م. تطورت للتجارة اليونانية بحيث أصبحت عابرة: فبعض البضائع، كالقمح، تأتي إلى البيريه لتباع بدورها في الخارج. لذا كانت المدينة التجارية والصناعية ملزمة بتوفير لنفسها مرفأً مجهزاً. كان أهمها مرفأً بيريه (الواقع على عدة كيلومترات من أثينا). تشكل جزيرة بيريه ثلاث مرابي يستخدم اثنين منها لإرسال السفن الحربية. والثالث في الغرب، هو البيريه ذاتها، حيث مرفأً التجارة. بين المخازن والمستودعات المتواصلة، كان ثمة صرح يسمى (ديغما-العرض)، حيث تعرض البضائع وتقوم سوق المال. كان ثمة جدران تزنر المرافئ الثلاثة والبيريه ذاتها المتصلة بأثينا بالـ"جدران العالية الطويلة". وكان في كورنثيا، إفيز، ديلوس، رودس، سيراكوز وغيرها، مرافئ رائعة.

نما الانتاج وعزز حياة الرعايا التي كانت على علاقة بالصناعة والتجارة: صنلعيون، وسطاء، مياومون، عمال أرصفة ومستودعات، بحارة، أصحاب مشروعات، تجار ومرابون. ورغم التناقضات فيما بينهم، كان ثمة علاقات مشتركة: تطور التجارة والصناعة. وبخاصة، تراكمت الانطلاقة البحرية للدولة الأثينية مع السيطرة على الدول اليونانية الأخرى. بالنسبة للتجار، فتحت هذه الغزوات أسواقاً جديدة ووسعت نفوذ الدولة المالي؛ وبالنسبة لبعض شرائح الشعب، ترجمت إلى امتلاك أراض في المناطق الملحقة، وتوزيع النقد والخبز، التوظيف في المراكز العامة وازدياد الطلب على اليد العاملة، بخاصة في الأسطول. وبكلمة، تكون لكل الناس الأحرار مصلحة في استغلال العبيد وسحق مقاومتهم؛ هذا مع اختلاف حجم هذه المصلحة.

كان صناعيو المدينة وتجارها أوسع تعلقاً من الفلاحين بسياسة الحكومة الداخلية والخارجية وتموجاتها. وكان يهم أيضاً سكان مدينة أخرى مثل أثينا أن تحكم الجمهورية نفسها. فضالقت أثينا بسكانها النشطاء، الخبراء بالسياسة، بعكس الريف الواسع، مما أنضى إلى أن يحتل أبناء المدن سلطة الريف وأرضه.

العبودية في اليونان في القرنين الخامس والرابع ق.م

كانت دول الطليعة في القرنين ٥ و٤ تعيش اقتصادا عبوديا راقيا. جمع كاتب أثيني، من القرن الثالث للميلاد، قد جمع في أعماله السابقة التي لم يصلنا منها شيء، معطيات حول ألوف العبيد التي كانت بحوزة بعض الدول: "كانت كورنثيا مزدهرة لأنها كانت تمتلك ٦٤٠ ألف عبد... حسب الإحصاء الذي جرى في الأولمبياد ١١٧ (العلم ٣١٢ ق.م)، كان سكان أتيكيا يعدون ٢١٠٠٠ مواطن أثيني، ١٠٠٠٠ أجنبي حر، ٤٠٠٠٠٠ عبد..." وينقل أرسطو في "دستور إيجين أن هذه كانت تمتلك ٤٧٠٠٠٠ عبدا" (أثيني، ٦، ٢٧٢ب). أن بعض العلماء الحاليين يشكون بهذه الأرقام. فبعض الحسابات المعقدة تجعلهم يخلصون أن عدد الأحرار في أتيكيا، مثلا، بما فيهم الأجانب الأحرار، كان آنذ يساوي تقريبا عدد العبيد؛ ويرى آخرون أن العبيد أكثر. فإذا ما فكرنا أن جزءا فقط من الناس الأحرار يقومون بعمل منتج وليس عندهم عبيد، النسبة الأولى -عبد واحد لحر واحد- تكفي لتأكيد الفكرة القائلة إن العبيد كانوا في اقتصاد أثينا للقرنين الخامس والرابع، هم المنتجون الرئيسيون. وليس لنا أن ننسى أن حقل عمل العبيد كان يتسع أبدا.

وككل مجتمع عبودي، لم تكن قوة عمل العبيد في اليونان بضاعة ولم تتم حيازتها بالإستجار، بل بطريق غير اقتصادي: الإكراه، القهر والعنف. والعبد، حسب تعبير اليونان، ليس سوى "جسد" سلعة، أداة إنتاج بسيطة، نوع من إنسان آلي. تماما كالأدوات والبهائم، كان العبد ملكية مطلقة لمالكه، له أن يبيعه، يشتريه، وحتى يقتله.

وكان المصدر الرئيسي للعبودية استيراد الأجانب الأسرى، القرصنة والحرب. وسكان سوريا، فريجيا، ليديا وأقاليم أسيوية أخرى، من بلاد البونت (السيث)، ثراسيا، ومصر كانوا يشكلون أغلب عبيد اليونان. كانت معاهدة المساجين أحد أهم الفروع المربحة وأهم مواد التجارة. ففي شيو، ساموس، إيفيز، كان يوجد أسواق لخاسة واسعة، حيث يمكن شراء من القرصنة ثل كامل من الأسرى ليعاد بيعهم في دول اليونان القارية. وفي ثراسيا، كانوا يستبدلون العبيد بالملح: كان الأمراء الثراسيون يتحاربون دوما فيما بينهم ولا يعدمون أبدا مساجين لهذه المبادلة. وكانوا يشترون في ثراسيا عبيدا فرادى؛ يقول هيرودوت أن الثراسيين "كانوا يبيعون أبناءهم للأجانب". وقد لاحظ بوليب، بصدد البلاد البوننتية، أنهم "بين الأشياء الضرورية يقدمون الماشية وكمية كبرى من العبيد بنوعية أعلى كثيرا"

(٤، ٣٨، ٤). وأبناء العبيد واللقطاء ويصيرون أيضا عبيدا. فضلا عن هذا، ثمة عادة فسي كل اليونان تخول الأهل بيع أبنائهم. وفي أثينا، يلجؤون إلى هذا في حالة واحدة: يقدر الأب أن يبيع ابنته الساقطة. ويطبق الاستعباد على المدينين المعسرين: في أثينا، ألغى الاستعباد لقاء عدم وفاء الدين في أيام سولون، لكنه بقي في الأقاليم الأخرى من اليونان. وأخيرا، كان الاستعباد يعوض عن عقوبة تقضي بها المحاكم: في ليسيا (آسيا الصغرى)، لقاء عقوبة السرقة، وفي أثينا، لقاء عقوبة الرى بالمواطنة - أي حرمان الإنسان من مواظنيته مقابل الرى أو اكتساب المواظنية مقابل الرى، إلخ.

كان سعر العبيد متبدلاً. من لا يعرف سوى الأعمال العادية يساوي ٢ أو ٢,٥ مين أو أولئك الذين يعرفون مهنة ما ٣-٤ مين. والعبيد الندماء أو يليقون بالـ "الأفراح" ١٠، ١٥، ٢٠ مين. إذا ما صدقنا الوثائق، نرى أن عبداً مشرفاً = ٤٠ ميناً.

كان عمل العبيد موظفا كثيرا في الورشات الحرفية، المناجم والمقالع. وأحيانا يكلفهم صاحبهم بفتح ورشة على نفقته. والعبد المكلف بدفع أجور عنده عبيد يعملون تحت إشرافه وهم تحت تصرفه فعلا، رغم انتسابهم القانوني إلى مالكة. وفي بعض الحالات، يؤجر العبد المشرف كعامل لدى الأفراد، بخاصة لدى الصناعيين الأحرار، ويؤدي قسطا من مرتبه لسيده. وقد يشتري المالكون عبيدا بالحصص ٣٠٠-٤٠٠ فردا ليؤجرهم بالتالي لأشخاص آخرين عليهم أن يعيدوهم بالأجل المحدد. هكذا كانت تحاز اليد العاملة في مناجم لوريون. وكان استخدام العبيد في المزارع أيضا ظاهرة منتشرة. فالملك العقاريون الكبار وحتى الفلاحون المرتاحون يشترونهم ليجعلوهم يعملون في الاستثمارات.

ومألوف أيضا أن يعمل العبيد خدما. أسرة مرتاحة تملك ٥ أو ٦. والناس الأكثر تواضعا يكتفون بواحد. فممنزل أسرة غنية عالم مغلق، أي مكتفية ذاتيا، عندها طاحونتها، فرنها، نولها، وصناعيوها. وكان الصناعيون المشرفون ملزمين بالعمل في بيت السيد لدى أول نداء.

أما عبيد الدولة فيشكلون عينة قائمة برأسها. كان في أتيكيا فوج من العبيد السيث *Scythes* (ألف رجل) يخدمون في جهاز الشرطة. المبلغسون، الناسخون، المحاسبون،

وعمال النقد كانوا عبيدا عموميين. يعملون لمصلحة الدولة، يتمتعون بحرية واسعة، وأحيانا بشيء من الاحترام.

لا ينظر القانون إلى العبد نظرة إنسان. فأى هفوة أو ضرر أو إهانة تجاه السيد تعرضه للضرب المبرح، دون حساب عدد الضربات. كانت القاعدة أن يعامل العبيد بقسوة: "كل كلمة، أو تقريرا، موجهة للعبد تعتبر أمرا، يقول أفلاطون. لايجوز بخاصة المزاح مع العبد رجلا كان أم امرأة".

وفي الدول الكثيرة العبيد، كان الخوف من التمردات يكبح تحكم مالكي "الأدوات المتكلمة". هكذا، كان قتل عبد في أثينا معاقبا كجثة.

والعبد المساء إليه من قبل صاحبه أو سيده يقدر أن يحتكم إلى حق "الملاذ"، يلجأ إلى معبد تيزي أو محراب أومفيد. تقضي العادة ببيعه إلى مالك آخر. لكن الواقع، لاتقدم المعابد ملجأ آمنا. لايمكن استعادة العبد بالقوة، بل يمكن قسره بالجوع أو بالنار على ترك ملاذه. وكان مصيره معلقا آنئذ بالكاهن الذي يقضي بصحة دعواه.

مختلف أوجه نضال العبيد

كان كل هذا يفضي إلى نضال شرس طبقي. "حر وعبد، شريف وعامي، بارون وقن، سيد محلف ورقيق، وبكلمة، مضطهد ومضطهد، في تناقض مستمر، خاضوا حربا دائمة، أحيانا خفية وأحيانا مفتوحة... كتب ماركس وأنجلز في بيان الحزب الشيوعي. والشكل الأكثر انتشارا لهذا النضال الخفي للعبيد ضد سادتهم أو بالأصح أصحابهم كان هو مايسميه هؤلاء "كسل". يعبر هوميروس عن الفكرة هكذا:

هي ذي عادة الخدم، ما أن يغيب سادتهم أو

يضعفوا أو يفقدوا سلطتهم، حتى يتوانوا ولا

يفكرون أبدا بالقيام بواجبهم".

(أوديسا، نشيد ١٧، ٣٢-٣٢١)

ولما يتحدث مؤلفو الزمن القديم عن طريقة تعامل العبيد، يذكرون قبل كل شيء التدابير التي يجب اتخاذها ضد توانيهم.

وكان ثمة وجه آخر للنضال هو الأبق. لنكون فكرة عن توافر هذه الظاهرة، يكفي أن نعرف أن ثمة أخصائيين مهنتهم البحث عن الآبقين. وشاهد آخر تقدمه الأختام والأطواق

التي تميز العبيد عن الأحرار وتجعل هربهم أصعب. يقع البحث عن العبيد الهاربين وإعادتهم على عاتق السلطات؛ ويكافأ من يعيد عبداً هارباً. يهرب العبيد فرادى أو جماعة. وأثناء الحروب، يستغلون ضعف الدولة وينتقمون من سيدهم ويأبسون جمهرة. لما احتل الأثينيون، في العام ٤٢٥، مرفأ بيلوس في مسينا، وكان أرقاؤهم السبارطيون يهربون، خشوا، حسب ثوسيديد، "من أن يعم التمرد كل المنطقة؛ كانوا إذن في غاية الاستنفار" (٤، ٤١، ٣). وفي العام ٤١٣، عندما احتل السبارطيون ديسيليا في أتيكيا، "أبق أكثر من ٢٠ ألف عبد، أكثرهم حرفيون". (ثوسيديد، ٧، ٢٧، ٥).

كان الشكل الأرقى لنضال العبيد ضد مضطهديهم هو العصيان. وفي القرنين الخامس والرابع، اتخذت تمردات العبيد في اليونان صفة عفوية. كان العصاة يهدفون تحرير أنفسهم، دون أن يفكروا بتحطيم نظام الرق واستبداله بآخر.

ولقد كان أول تمردات العبيد في اليونان وأقدمها في أراغوس في العام ٤٩٤. هيرودوت هو من يخبرنا هذا (٨٣، ٦). كان السبارطيون قد هاجموا وذبحوا أغلب الأرجيين. "أما مدينة أراغوس، فقد خلت من الناس، حتى أن العبيد احتلوا كل الإدارات العامة. حتى كبر أبناء المدينة وصاروا بسن الرشد. آنئذ عاد هؤلاء إلى أراغوس واستعادوا سلطتهم وطرّدوا العبيد الذين، بعد هزيمتهم، احتلوا تيرنث بقوة السلاح. وعاش الطرفان هنا رداً من الزمن في أتم وفاق؛ ثم أتى إلى العبيد عراف، كليادروس، أصله من فيغالي أركاديا؛ أقنعهم هذا الرجل بنمهاجمة ساداتهم. وهنا نشبت حرب عاشت مدة طويلة؛ وبعد لأي، استطاع الأرجيون، بعد مشقة، النصر". يشير هيرودوت على الأرجح إلى عصيان رقيق أراغوس، الذي يشبه أرقاء اسبارطة.

وفي العام ٤٦٤ نشب تمرد كبير قاده أرقاء اسبارطة ومسينا. وحسب بلوتارك، هزة أرضية حدثت في أسبارطة في العام لتتصيب أرشداموس ملكاً. عم المدينة الاضطراب. "أرشداموس، الذي داهمه الخطر، حدس ما يخشى... قرع جرس النفير، كما لو كان العدو على أبواب المدينة، لكي تسارع الرعية لإحاطتهم بأسلحتهم.. فسارع العصاة من كل أنحاء الريف لذبح الاسبارطيين الذين نجوا من الهزة الأرضية؛ لكن عندما رأوهم مسلحين ومستعدين للمعركة، تراجعوا إلى المدن المجاورة، التي يدافع أهلها عنها، دعمهم المسيينيون، الذين من جهتهم هاجموا السبارطيين، وبدأوا ضد لسدمون حرباً مكشوفة".

بلوتارك. سيمون، ٢١). هكذا بدأت الحرب الميسينية الثالثة التي دامت قرابة عشر سنين. كان العبيد يشتركون غالباً بنضال مختلف شرائح الناس الأحرار، وهذا يساوي عندهم التحرر. وفي أثناء الصراع الذي نشب، في العام ٤٢٧، بين القلة والديموقراطية في جزيرة كورسيرا، أرسل طرفا الصراع خلف العبيد في الأرياف واعدن إياهم بالحريّة. انضم الغالبية إلى الشعب" (ثوسيديد، ٣، ٧٣).

دور العبودية في تطوير الاقتصاد اليوناني

يطرق العلم البورجوازي الحياة الاقتصادية في العصور القديمة بطرق مختلفة، لكنها دوما خاطئة. نقف عند وجهتي نظر متعارضتين: ك. بوشر وإد. ماير.

حسب بوشر، مرت الحياة الاقتصادية الأوربية في ثلاث محطات بارزة. الأولى هي محطة الاقتصاد الطبيعي المغلق أو "الخدمي" للعصور القديمة، حيث تستهلك المنتجات في أرضها؛ كان هذا اقتصادا بدون تبادل، ليس بحاجة للتجارة. منتجوها الرئيسيون هم العبيد. واقتصاد المحطة الثانية "مديني" للعصر الوسيط، يتم بالتجارة، هو الآخر؛ تذهب منتوجاته مباشرة من المنتج إلى المستهلك، من الحرفي الحر إلى الزبون. والمحطة الثالثة اقتصادها "وطني" حديث، تجتاز منتوجاته عدة منظمات قبل الوصول إلى المستهلك؛ هوذا "عصر دوران المنتج"، عهد التجارة المتطورة والمنتوج الضخم المبني على الأجرة.

إن هذا الوصف التبسيطي للحياة الاقتصادية في العصور القديمة متعارض مع ما نعرف عن الصناعة والتجارة في مناطق اليونان المتقدمة. وخطأ بوشر المنهاجي هو اعتبار التبادل و المعيار، العنصر الأساسي، بينما يجب الانطلاق من تباين أساليب الإنتاج وعلاقات الإنتاج التي تلائمها.

ونظرية ماير أمر آخر تماما، لكنها خاطئة هي الأخرى. يبالغ بدرجة تطور الاقتصاد القديم ويحدثه. حسب هذا الباحث، يبدأ تاريخ العصور القديمة بالإقطاع، "عصر وسيط قديم". والمرحلة التالية، عند ماير، تعكس رأي بوشر، لأنه يضع في المقام الأول الدول ذات العلاقات الاقتصادية المتطورة، ويشبه ذروة الاقتصاد القديم بنهج الأجر في أوروبا الغربية للقرن الثامن عشر ويتحدث عن "رأسمالية قديمة". ويدلل ماير أن دور العبيد في إنتاج ذلك الزمن كان أضال مما يفترض بعمامة، فإلى جانب الكادحين العبيد كان يوجد عدد كبير ينتسب إلى الناس الأحرار.

إنه مفهوم خاطيء بقضيه وقضيضه. فمن المعروف أن تطور المجتمع اليوناني لم يبدأ بعلاقات إقطاعية. أما في الأوج الاقتصادي للعصور القديمة، لم يكن الفلاحون ولا الحرفيون المحرومون من المصادر قد صاروا أجراء، بل باتسون يعيشون من أرباح عارضة، عالة على الدولة. فليس ممكنا الحديث عن دور مهيمن للمأجورين في أوج الاقتصاد القديم. فالذي كان مهيمنا هو كدح العبيد، وعددهم يتزايد.

ففي القرنين الخامس والرابع ق.م. كان اقتصاد العبودية في بعض دول اليونان قد بلغ مستوى معيناً من التطور، وكان هذا بالتأكيد ظاهرة تقدمية. إننا "... ملزمون أن نقول، يكتب أنجلز، إن دخول العبودية في ظروف آنئذ تقدم كبير، حتى ولو ظهر قولنا متناقضا وشاذاً". فالعبودية هي فقط التي جعلت قسمة العمل ممكنة بين الزراعة والحرفة إلى حد بعيد، ثم، أن تكون الحضارة اليونانية *l'Hellenisme* ذروة العالم القديم.

على ذلك، كان مجتمع العبودية، المبني على العمل الإلزامي، محكوما بالجمود التقني. يصدر السبب الرئيس لهذه الظاهرة من أن العبد، كما يقول ماركس... "يعامل معاملة الحيوان وأداة العمل البعيدة جدا عن أن تساويه، ومن أنه إنسان. ولكي يحرم من هذه المتعة، يعامل ككائن مغفل *con amore*. وأيضا، مبدأ اقتصادي، مقبول في أسلوب الإنتاج هذا، استخدم أدوات العمل الأصعب والأثقل، لأن فظاظتها ووزنها يجعلانها تعيش طويلا". ولتأمين الحاجات المتزايدة للمجتمع من المواد المصنوعة، والتقنية بدائية، وبالتالي، إنتاجية العمل منخفضة جدا، ليس ثمة سوى وسيلة واحدة: زيادة عدد العمال ليتناسب مع حاجات المجتمع. والنمو المستمر لجيش العمال بالقسر غير الاقتصادي، أي بالحرب وبكل أنواع الإكراه، كان إذن الشرط الحتمي لتقدم الإنتاج القديم، مادام الناس الأحرار يتملصون من العمل اليدوي، بالمعتبر غير مشرف. "حيث العبودية هي الشكل المهيمن في الإنتاج، يصير العمل نشاط العبد، وأمرأ معيبا لدى الناس الأحرار".^١ إذن أو الخلاصة، سيفضي نهج عبودية الإنتاج إلى عرقلة تطور القوى المنتجة، ويخضع المجتمع القديم لأزمة مستديمة.

١ - ف. أنجلز، أنتي دوهرنغ، الجزء الثاني، الفصل الرابع، ص ٢١٢.

٢ - ك. ماركس. رأس المال، الكتاب الأول، المجلد الأول، ص ١٩٦.

٣ - ف. أنجلز، جدلية الطبيعة، أرشيف ك. ماركس وف. أنجلز، العام ١٩٢٥، ص ٨٦.

الفصل الثلاثون

انطلاق الحركة الديمقراطية في اليونان بعد الانتصار على الفرس

اليونان الظافرة

لقد أثارت الحروب الميدية حماساً ملتهباً لدى الجماهير الشعبية. إليكم هذا المثل الساطع: بعد اجتياح خرخس، لم تعد أثينا أكثر من خرائب. وصار يجب إنشاء دفاعات للمدينة. اشترك في هذا كل الأثينيين، شيباً وشباباً وأنجزوا العمل خلال شهر واحد. وأعيد بناء الأسوار بطول ٩ كم، ٣,٥ متر ارتفاع و٦ م سماكة، على أحسن وجه وبأقصر وقت. ما كانوا يستخدمون الملاط. بل كانت الحجارة تقص بكل عناية وإتقان وكأنها متلاصقة.

فقد وسم عصر الحروب الميدية بصراع سياسي حاد في بعض الحاضرات، لأن الحرب أوقدت النار تحت التناقضات بين مختلف فئات الطبقة المستعبدة. شمل أتيكيا، نيوتيا، اسبارطة وباقي دول البلوبونيز، ومستعمرات اليونان سيراكوز، أوليبيا، هيراكلي البونت.

ففي بيوتيا، استبدلت سلطة أرستقراطية الدم بسلطة الملاك العقاريين وأغنياء المدجنين الذين لا ينتسبون للأشراف. استعرت معاقبة الأرستقراطية البيوتية، أنصار الفرس، التي بدأت بتحالف اليونان بقيادة السبارطي بوزانياس، قاهر بلاتيه. حاصر بوزانياس ثيبيا وطلب تسليمه الخونة الأرستقراطيين وأعدمهم.

حكم بوزانياس اسبارطة ما دام ولي العهد بلاستوناكس قاصراً، وقاد مقاومة الطبقة المهيمنة السبارطية ضد الحزب المحافظ بقيادة الأفوريين، بهدف حرمان الأفورات من تفوقها وممارسة سياسية معادية لتوطيد سيطرة اسبارطة في اليونان، لزيادة عدد المدنيين المتمتعين بالحقوق المدنية، بإضافة شريحة ممن اقتطع أو استأجر أرضاً. ولتحقيق هذا

المشروع، اعتمد بوزانياس على الفرس؛ وبشهادة ثوسيديد: "وعد الأرقاء والأجراء بالحرية والبورجوازية إن تمردوا معه وآزروا كل خططه (١، ١٣٢، ٤) وضع الأفوريين حداً لهذا النشاط. فاتهم بوزنياس بالتعامل مع الفرس، وأعدم. وبعيد هذا، في العام ٤٦٤، تمرد الأرقاء (الحرب الميسينية الثالثة المشار إليها أعلاه).

وفي أراغوس، جوار لاكونيا، أفضى التطوير الديمقراطي بعد الحروب الميديدية إلى ظفر الديمقراطيين وتوطيد أركان السلطة الديمقراطية. وامتد هذا إلى المدن اليونانية في المستعمرات. رأت سيراكوز سقوط الحكام المستبدين (حوالي العام ٤٦٠ ق.م). واستقرار النظام الديمقراطي الذي عاش أكثر من ٥٠ عاماً. وفي هراكلي البونت والمدن اليونانية الأخرى على ساحل البحر الأسود، استبدلت الحكومة الأرستقراطية بحكومة ديموقراطية.

النضال السياسي في أثينا في العام ٤٧٠-٤٦٠

يقدم تاريخ أثينا في القرن الخامس ق.م. وقد انبسطت الديمقراطية وبلغت شأواً عالياً، أسطح مثل للصراع المظفر لديموقراطية العبودية. ففي أثينا، أشرف ووجه الصراع بين ظهراي الطبقة المستعبدة حزبان: الحزب الزراعي المحافظ الذي يشكل الفلاحون وصغار الملاك غالبية. لأحد يجهل الصراع الشرس الذي دار قبل معركة سالامين بين الحزبين بشأن طريقة تنظيم الدفاع ضد الفرس الذين كانوا يعدون حرباً جديدة في البحر والبر. كان زعيم الحزب الزراعي، أرستيد، متأثراً بالإبعاد. وكانت الأوساط البحرية، بإمرة خانتئوس ثم ثمستوكل، قد أنجزت برنامجها وبررته من وجهة النظر البحرية. لكن أتيكيا قد دمرت. وفي الريف، أغضبت سياسة الديمقراطية الناس، الذين رغبوا في العودة إلى الأيام السابقة، إلى "عادات الآباء"، أي عهد سولون يوم كان القمح مقياس الغنى.

كان يوجه الحزب الديمقراطي أو البحري التجار، المصدرون، تجار السلاح، ملاك الورشات البحرية، وشيوخ المشاريع. كان أغلب أعضائه من الحرفيين، أبناء المدينة الفقراء، من الكادحين الذين يهتمون بأعمال البحر والذين يسكن أغلبهم في البيريا: ربانسة، مجذفون، حمالون، معمر سفن، موظفو مرافئ وبقية "متسولي البحرية"، كما يسميهم خصومهم السياسيون.

رفع الحزب الديمقراطي شعارين: *isononia* و *ise`goria*، يعني الأول المساواة

بالحقوق المدنية (حقوق متساوية بإدارة الأرزاق، الميراث، وغيرها) والثاني، المساواة بالحقوق السياسية (حق متساوي في التصويت الإيجابي والسلبي). وكانت سياسة الديمقراطيين الخارجية عدوانية؛ فتطور التجارة والصناعة يتطلب توسيع الدولة اليونانية، إلحاق أراض ومرافئ الغير، بناء مستعمرات ومستوطنات. وسمت هذه الحقبة بالعدوان بين أسبارطة وأثينا والإعداد للصراع من أجل الهيمنة في اليونان. فيحاول الديمقراطيون توحيد الدول في وجه الأحلاف الأرستقراطية التي تواكبت حول أسبارطة.

إن احتدام النضال بين الحزب الزراعي والبحري يسم النصف الأول مما يسمى "الخمسينية" (مرحلة ما بين اجتياح خرخس في العام ٤٨٠ وديادية حرب البلوبونيز في العام ٤٣١ ق.م).

فقد لعب ثمستوكل، قائد الحزب الديمقراطي دورا بارزا في نهاية أعوام ٤٩٠ حتى نهاية أعوام ٤٧٠. إذ كانت شخصيته بالذات نموذجية لرجال الأعمال الجدد الذين يواجههم. لم يكن من علية القوم ولم يحصل على تربية طيبة، وبلغ المجد بقوة مواهبه فقط. يشير ثوسيديد أنه كان قادرا على الخروج من كل المأزق وعنده لكل معضلة حل. "دلل ثمستوكل بطريقة مذهشة على دور الطبيعة الكبير... وبفضل بصيرة متقدمة، ودون سابق إنذار، كان يتخذ قرارا حكيما، يكتب ثوسيديد (١٣٨،١).

كان سيمون، قائد الحزب الزراعي والذي خرطه في حقل السياسة أرسنيد، من النبلاء الأثينيين: كان ابن ملتيا، قاهر ماراتون، ومن جهة أمه، حفيد أولوروس، ملك ثراسيا. أرسنيد غني، عدو الديمقراطية والحوار يحتال على الشعب ليس بأعماله فحسب، بل بدرويه الملتوية. "فخلق من بيته محجة مشتركة لكل الناس..." (بلوتارك، سيمون، ١٢)، كان يقيم العديد من الولائم. ولقد هدم جدران حدائقه ليخول كل الناس أن ينوقوا ثماره. كان رجل سياسة محنكا وقائدا دربا.

وفي العام ٤٧٠، تفوق الحزب الزراعي المحافظ. وقائد الديمقراطيين، ثمستوكل، أدن ظلما بالإبعاد (٤٧١)، وما أن نفى، حتى استصرى خصومه ورائه، واتهموه بالـ "ميدية". فوضعت محكمة أثينا خارج القانون. استسلم ثمستوكل للفرس، ومات عندهم بعد عدة أعوام.

رسميا، لم يحدث أي تغيير في النظام الأثيني، لكن دور مجمع الحكماء اتسع جدا.

فكان لهذه المؤسسة البالغة الحق في الاعتراض على القرارات التي يتخذها مجلس الشعب، إن بدا لها أن هذا المجلس يناقض القوانين. وكان مجلس الحكماء يسهر أيضاً على حقوق المواطنين ويدين الجرائم. وفي العام ٤٦٠، عاد الدور الرئيس في أثينا إلى سيمون. ولقد قلنا سابقاً أن سيمون قاد اليونان في معركة أوردون (٤٦٨). وحقق النصر، وعلمت العمليات الحربية لمدة سبع سنين (حتى ٤٦١).

وفي نهاية الستينات، استعاد الحزب الديمقراطي نشاطه حتى أن أنصار سيمون اضطروا لإخلاء المكان لخصومهم. كان السبب المباشر لسقوط سيمون هو اقتراحه دعم السبارطيين ضد الأرقاء المتمردين في العام ٤٦٤. ورغم معارضة مجلس الشعب، أرسل الفصيل التأديبي إلى مسينا. تلقى السبارطيون النبأ بغضب وصرفوا الجنود الأثينيين، خوفاً من أن يدعموا الأرقاء عوضاً من أن يساعدهم هم. أثار هذا الحدث غضب أثينا. فأقيل الستراتيجي سيمون وحكم عليه بالنفي.

إصلاحات إفيالت

في نهاية الستينات من القرن الخامس، استعاد الديمقراطيون الراديكاليون السلطة. تولى الدور الأول إفيالت، قائد "قراء البحرية". لم يقوم عمل هذا الرجل بشكل عام كما يجب. فلم يكتب أحد من مواطنيه حياة هذا الديمقراطي "المتطرف"، صاحب المناقب الفذة، ولا نعرف عنه سوى القليل. هو ابن سوفوندس، سليل أسرة أرستقراطية أقل نجمها. كان "أيضاً أنزه من أن يكرس للدولة" (أرسطو، دستور أثينا، ١، ٢٥). قريب من شرائح المجتمع الأفقر، كان إفيالت صديق المساكين الذين رأوه محامياً لهم ("Prostate de demos"). في نظره، الشعب هو السيد الفعلي للدولة. كان أعداء الديمقراطية يكرهونه، وانتقدوه "لأنه أعطى الناس كل الحرية، وأترع لهم الكأس فسكروا" أفلاطون. حارب إفيالت بكل قوته مختلسي ومبذري أموال الناس. وفي العام ٤٦٢ أقام عدة دعاوى على موظفين مختلسين ومحتالين. ولم يوفر حتى أعضاء مجلس الحكماء، مهيناً الرأي العام وإعادة تشكيل هذه المؤسسة. وقد انتزع مجلس الشعب، برئاسة إفيالت، من مجلس الحكماء، حق إلغاء القوانين التي شرعها الأكليروس. فضلاً عن هذا فقد مجلس الحكماء حق معاقبة الإخلال بالواجب؛ وأعطيت هذه الشؤون مجلس الخمسمائة ومحكمة الجنايات. وأخضعت للمراقبة الشعبية أعمال الموظفين من مختلف الأصناف. ولم يبق لمجلس الحكماء سوى مقاضاة القتل والجرائم الدينية.

ومن المرجح أن محكمة الجنايات كلفت في هذه الحقبة بحماية الدستور. وكان الجميع يتمتع بعد قسم اليمين، أن يعلن أن الاقتراح الذي درسه مجلس الشعب يكبح القانون. ثم تنتقل القضية إلى محكمة الجنايات. وإن رأت المحكمة أن الحق إلى جانب المعارض، يفرض الذين استقروا مشروع القانون، وفي حالات استثنائية يدانون بالموت. وإن كان الاعتراض غير وجيه أو غير سديد، تحمل الطرف الآخر الغرامة. اسم هذه المؤسسة: مؤسسة شكوى ضد خرق القانون أو اتهام ضد من خرقه.

تمنع هذه المؤسسة أعداء الديمقراطية من الاستفتاء على الدستور. وبهذا تؤمن الحماية القضائية للاستقرار.

وتقد نجم عن إصلاحات إيفيالت انطلاق الحركة الديمقراطية. كثيرا مايدعى مجلس الشعب للاجتماع، ويضاعف مجلس الخمسمائة نشاطه. كانت إصلاحات إيفيالت الاجتماعية كثيرة، لكن الزمن لم يمهل لإججازها. كان النبلاء يكرهونه. وفي العام ٤٦١ نبج في الليل بمكيدة جبانة. ولم يعرف المجرمون. إنه على الأرجح ضحية أعدائه السياسيين أو أذنابهم.

الفصل الواحد والثلاثون

حكومة بيركلس

إمبراطورية أثينا البحرية (٤٥٠-٤٤٠)

بعد اغتيال إفيالنت، بقي الحزب الديمقراطي في الحكم بإدارة بيركلس، تلميذه وزميله. في الأعوام الخمس عشر الأولى، مارس الحزب سياسة إمبريالية أساساً. كانت هذه المدة حقبة حروب مستمرة تشنها جمهورية أثينا على الدول اليونانية (بخاصة على الجامعة البلبونيزية) وعلى الفرس، لتصير إمبراطورية بحرية وترسي الهيمنة اليونانية. فبعد موت إفيالنت لم يعد الشعب الفقير هو سند الديمقراطية الأثينية، بل ممثلو المشرائح الوسطى المرتاحة.

لقد أثار النزاع التجاري بين أثينا وكرنتيا حرب البلبونيز. استقر الأثينيون على شواطئ خليج كورنثيا الذي يفتح لهذه المدينة دروب الغرب البحرية. فضلاً عن هذا وضعوا حامية في ميغار التي انفصلت، في العام ٤٦٠، عن بلبونيز، لتتضم إلى أثينا. كما حددت الحامية الأثينية كورنثيا من الشمال.

شنت كورنثيا اعتداءات دامت بشكل متقطع من ٤٥٩-٤٤٥. فشل الكورنثيون بعد دخول إسبارطة المعركة. تصدى السبارطيون للأثينيين في تنفرا (بيونيا) في العام ٤٥٧، لكن الآخرين بقيادة ميرونيدي، انتصروا بدورهم على البيوتيين واحتلوا كل بيوتيا تقريباً ولوكريد وفوسيد. تخطى تولميس الذي يقود الأسطول الأثيني بلبونيز، هاجم شطآنها وحاصر سيكيون. وأرسل الأثينيون حملة بحرية أخرى بقيادة بيركلس، إلى خليج كورنثيا. وأخيراً وقعت كل اليونان الوسطى تقريباً تحت الرقابة الأثينية. وتحالفت شمالاً مع المنتصرين.

وفي الوقت ذاته (٤٦١-٤٥٤)، شنت أثينا الحرب على مصر التي كانت قد انتفضت ضد النير الفارسي. وتلبية لطلب قائد المتمردين، الليبي أنهاروس، أرسلوا لهم ٢٠٠ مركب

ثلاثي المجاذيف. ولج الأسطول الدلتا، وبمساعدة المصريين المتمردين، طوّقت ممفيس. على ذلك، آل المشروع إلى نكبة: غرقت كل المراكب و٣٥ ألف رجل، أكثرهم أثينيون. وبعد هذه الهزيمة، أجبر الأثينيون على وقف القتال لمدة خمس سنوات بمعاهدة مع الجامعة البلوبنيزية.

تجددت المعارك في العام ٤٤٨، لكن ليس لصالح أثينا. فالفصيل الأثيني الذي أرسل لمقاتلة البيوتيين بقيادة تولمدس هزم شر هزيمة وأبدي تقريباً في كورونيا (٤٤٧)؛ سقط تولمدس في ساح القتال. وتحررت بيوتيا، ثم لوكريد وفوسيد. وتمردت أوبيا، التي كانت جزءاً من التحالف الأثيني. واقتحم السبارطيون أيتكيا ودمروها.

ومرة أخرى اضطر الأثينيون توقيع السلم مع الجامعة البلوبنيزية، ولمدة ثلاثين عاماً هذه المرة (٤٤٥). بموجب هذه الـ"معاهدة لثلاثين عاماً" حافظت كل الأطراف على ممتلكاتها قبل-الحرب والتزمت بعدم الانضمام إلى الجامعات الأخرى وعدم دعم أي عضو في إحدى هذه الجامعات، إن تمرد ضد الدولة القائدة. وتخلت أثينا عن فتوحاتها في بلوبونيز وميغار.

كانت نتيجة الحرب بشأن التفوق في اليونان فاجعة بالنسبة لأثينا. بتأثير النكبة المصرية. ولامبالاة اليونان بقواتهم، أفضى إلى هزيمتهم المتتابة أمام عدة خصوم. على ذلك، فقد نجحوا بمسعى مندوبهم كالياس بعقد مع الفرس معاهدة سلم لصالحهم، في العام ٤٤٩، حرم الفرس من الإبحار في بحر إيجه.

وفي أثناء حروب ٤٥٩-٤٤٥، لم تعد العلاقات بين أثينا وحلفائها، كما كانت في حلف ديلوس. فلم تعد حلف دول متساوية، بل صارت حلفاً بين أتباع ودولة مهيمنة. ومحاولات بعض الحلفاء (مثل، ناخوس وثاسوس) الانفصال عن الجامعة في العام ٤٦٠، قمعت بالقوة. فدولة أثينا تمتلك كل المناهل التي أسهم بها الحلفاء. وفي العام ٤٥٤، نقلت الخزينة الاتحادية من ديلوس إلى أثينا. وقد طلبت حكومة أثينا من حلفائها دعم القوات البرية والبحرية لإرسالها ليس فقط لمقاتلة الفرس، بل أيضاً ضد الدول اليونانية الأخرى. فضلاً عن تدخل الأثينيين في شؤون الحلفاء الداخلية: قسموا الأرض التابعة للجامعة إلى خمس قرعات يحكمها أساقفة. ووظف مواطنون أثينيون في بلدان حليفة. وكانت مؤسساتهم مستعمرات زراعية وحرابية. كان كل معمر ملزماً بالخدمة العسكرية؛ وكانت كل مستعمرة

بالمحصللة حامية تكمن مهمتها الأساسية في الحفاظ على طاعة الحلفاء. إذن، فقد حلف ديولوس طبيعته كجامعة طوعية بين بلدان مستقلة ومتساوية. فتحول إلى إمبراطورية لأثينا، وصار أعضاءه ملحقات بها.

إننا نجهل تفاصيل سبعة عشر عاما من الصراع السياسي بين التجمعات الزراعية والعسكرية (الديموقراطية)، الصراع الذي بدأ في العام ٤٦٢، أي منذ وصول الديموقراطيين. يمكننا فقط أن نؤكد أنه كان ضاريا وتحول إلى مصلحة الديموقراطيين. تسنم سيمون رئاسة المعارضة. عاد من المنفى حوالي ٤٤٥، ومات بعيد هذا. وتلاه ثوسيديد، ابن مليدياس (ليس المقصود المؤرخ ثوسيديد). لكنه نفي هو الآخر في العام ٤٤٤ أو ٤٤٣، ومنذئذ سيطر الحزب الديموقراطي تماما حتى العام ٤٣٠. ومثل بيركلس، القاضي المتجدد الانتخاب، الذي تسنم السلطة خلال ١٤ عاما، حقبة معروفة باسم "بحكومة بيركلس".

حكومة بيركلس

بيركلس، ابن خانسيوس، وسليل أسرة أرستقراطية غنية، من جهة أمه أحد أحفاد كليستين. بعض أصدقائه شعراء وفنانون موهوبون: الفيلسوف أنكسفور الذي لامس المادية عن قرب، سقراط، الشاعر التراجيدي سوفوكل وهيرودوت، "أب التاريخ"، الذي عاش في أثينا في هذه الحقبة والنحات فيلياس وكثير غيرهم. كان بيركلس يتمتع بنفوذ عميق في مجلس الشعب. وكان يعتبر خطيبا موهبا. وحيد عصره في فن الحديث أو القص، وكاتباً ذائع الصيت. في ساح القتال، كان يقود الجيش بحنكة وبطولة. وهو القائد الكميت، مع أنه أصغر من سيمون.

في حياته الخاصة، كان يدل أنه تقدمي، دون فكرة مسبقة. تزوج من أسبتريا، امرأة نبيلة من ميليت، يقال إنها كانت عاهرة. كانت جميلة، ذكية، ومتفقة. في قلب حمى الحياة السياسية، عرفت كيف تحيط نفسها بأوعى رجال عصرها. وكان أشهر أصدقاء بيركلس يرغبون في خوض نقاشات معها. كانت امرأة جديرة، صديقة طيبة ورفيقة أريبة لرجل الدولة هذا.

لم يكن بيركلس يمثل أقصى يسار الحزب البحري (الديموقراطي)، بل وسطه. كان يدافع عن مصالح الشرائح الوسطى في المجتمع: التجار المرتاحين، أصحاب الدكاكين،

الصناعيين، الملاك العقاريين الطليعيين الذين يمارسون في أرضهم زراعة كثيفة، فلاحين أحيوا الأرض التي دمرها الفرس لتعود تواكب متطلبات السوق، والذين اهتموا بالتجارة الخارجية.

هكذا يتحدث ثوسيديد عن بيركلس كرجل سياسي فيقول: "بفضل رقيه الشخصي، وعمق آرائه، ونزاهته غير المحدودة، كان بيركلس يمارس في أثينا نفوذاً لايجارى. بقي حراً وهو يقود الناس... وبكلمة، استمرت الديمقراطية باسمه؛ إنما بالفعل كانت حكومة المواطن الأول" (ثوسيديد، ٦٥، ٢).

ولحماية وحدة طبقة العبيد، عمل بيركلس وحكومته لإرضاء جزئياً، وعلى نفقة الدولة، المطالب المالية والسياسية لفئات المجتمع الدنيا. وتنسب لبيركلس مؤسسة الأجر لممارسة الوظائف الانتخابية، تدفع باليومية. والقضاة، مثلاً، يتقاضون ٢ أوبول ١، الحكام ٤، وأعضاء مجلس الخمسمائة، ٥ أوبول. ليس هذا كثيراً؛ إذ كان الحرفيون يتقاضون أحياناً أكثر من هذا؛ هكذا، يتقاضى "المقلعجي" دراخما واحدة، أي ٦ أوبول في اليوم. لكن بالنسبة للأسعار القائمة، لاتبدو هذه الأجور قليلة.

ففي العام ٤٥٧، اختير أحد العوام لأول مرة حاكماً، ثم فتح الباب لتولي كل الوظائف. وبمعنى آخر، مؤسسة الأجور هي التي أعطت الطبقات غير المالكة إمكانية مزاوله حق الانتخاب.

وعينت أجور للجنود، للملاحين وللضباط. المجذف، مثلاً، يقبض دراخما في اليوم، الضابط يقبض الضعف أو ثلاثة أضعاف. وكانوا يمارسون نهج التوزيع المباشر على مدها. ويقبض المواطنون نقوداً (من ٢ أوبول إلى دراخما واحدة) ليشتروا مقاعد في المسرح، ويقدرّون أن ينفقوا هذا المبلغ كيف شاؤوا. وكان يحدث أن يوزع الخبز مجاناً ("هبات" مصر والبوسفور). وفي أيام بيركلس، وزعت أرض شاسعة على من يحتاجها، خارج أتيكيا مبدئياً في الدول التي تشكل جزءاً من الامبراطورية البحرية. كان لهذه المستعمرات التي قلصت عدد الناس الذين لايملكون أرضاً أهمية استراتيجية وتجارية أيضاً. معروف أن أكثر من ١٠ آلاف أسرة حازوا نصيبهم.

كما شرع بركلس بأعمال ضخمة عامة بهدف تشغيل العاطلين عن العمل والمحتاجين، وغير هذا من الأهداف. كانت الأعمال عالية الثمن جدا: كل *partheon* يساوي ٧ آلاف تالانت. يذهب القسم الأكبر من المبلغ للفنانين، البنائين، الصناعيين، الحجارين واليد العاملة البسيطة. لقد ساعدت كل هذه المبادرات الفلاحين المرهقين (سكان المستعمرات، مثلا)، وعمال الأسطول وشرائح أخرى.

دستور أثينا

لقد ارتدى دستور الديموقراطية العبودية في أثينا في هذه الحقبة شكله الأتم. السلطة العليا بيد مجلس الشعب المسؤول عن عدد كبير من المسائل. كما يدرس ويحل كل القضايا المرتبطة بحكومة الدولة.

يختار مجلس الشعب برفع اليد عشرة قضاة مكلفين بمهام خاصة (قيادة الجند، الدفاع عن حدود أتيكيا، تعمير السفن، إدارة بيرى *piree*، إلخ). ويتم توزيع هذه المهام برفع اليد أيضا. يراقب مجلس الشعب نشاط القضاة. إن اتصف سلوك أحدهم بالصفة الظنية، "تقاضيه المحكمة التي... تثبت العقوبة أو تعين مبلغ الغرامة". (أرسطو، دستور أثينا، ٣، ٦٣). وينتخب قادة الجيش، والأشخاص المهتمين بتربية الشباب (١٨-٢٠) أبناء المواطنين المتمتعين بالحقوق المدنية، وتدريبهم عسكريا، و برفع اليد أيضا. ويسمى مجلس الشعب موظفي المال، ومفتش الري، إلخ. يفضل الأشخاص الأكفا، ويستبعد الأغنياء القادرين على تجنب الدولة الخسائر الناجمة عن خطئهم. ويراقب مجلس الشعب بسهولة كل ممثلي السلطة، لأن جهازه ضخم وله الحق في مقاضاة كل من اعتبر جانبا.

ويضطلع مجلس الشعب أيضا بالمهام التشريعية. لكل عضو الحق في إعداد مشروع قانون. ويشارك المجلس كله بمناقشة هذه المشروعات التي، بعد قبولها لدى المجلس، تحال إلى مجلس الخمسمائة. وبعد هذا يدرس مجلس الشعب مرة ثانية المشروع الذي لم يصادق عليه مجلس الخمسمائة، مع مراعاة رأي هذا الأخير. وبعد انتهاء النقاش، يطرح القانون على التصويت للمرة الثانية ويصير مبرما، ولا يصير ساري المفعول إلا بعد تصديقه من لجنة خاصة في محكمة الجنايات. أفضت هذه السنة وسنة الشكوى من خرق القانون أو اتهام من خرقة، إلى توطيد النظام الديموقراطي.

وليس مجلس الخمسمائة وهو أحد أجهزة الدولة أقل أهمية. ينتخب أعضاؤه بالقرعة.

تقدم كل وحدة إدارية مرشحيتها نسبة لعدد السكان، بحيث يكون لكل قبيلة ٥٠ ممثلاً. ونادراً ما يجتمع المجلس بنصابه الكامل. تقسم الدولة كان إلى ١٠ ولايات، حسب عدد القبائل. وخلال السنة، يجتمع الولاة كل بدورها ويقيمون مجتمعين أكثر من شهر (٣٦-٣٩ يوماً). جعلت هذه العادة من المجلس مؤسسة تعمل باستمرار. يمتلك المحافظون مسكناً خاصاً بهم، ويأكلون على حساب الدولة. وفي كل يوم ينتخبون رئيساً جديداً. وفي القرن الخامس كان يرأس هذا الرئيس مجلس الخمسمائة ومجلس الشعب. ويستلم مفاتيح بيت المال ودار المحفوظات (الأرشيف)، وكذلك خاتم الدولة.

يجسد مجلس الخمسمائة الدولة في العلاقات الدبلوماسية؛ وهو الذي يستقبل السفراء ويقدمهم لمجلس الشعب. ويتمتع بحق مفتوح في توقيف المجرمين الكبار وتسليم شؤونهم للمحكمة أو لمجلس الشعب، إن كانت عقوبة جريمتهم تتجاوز صلاحية محكمة الجنايات. يضبط المجلس آراء الأعضاء. فمن حقه تحقيق الحقوق المدنية وتدقيقها وكذلك مناقب الأعطاء والولاة. يراقب الولاة تنفيذ قرارات مجلس الشعب ويسوسون اقتصاد الدولة، يفتشون الأعمال العامة، يسهرون على تربية الشباب، يجيبون عن حالة الأسطول ومستلزماته. وفي المدن، يمارس الولاة مهام الأمن ويدعون أعضاء المجلسين للاجتماع، ويقررون جدول أعمال جلساتهم. إن مجلس الخمسمائة ليس فقط الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب، بل أيضاً مكتبه.

بعد تأسيس منظمة تضبط عدم خرق القانون وتتهم من خرّقه وإصلاح مجلس الشيوخ، أخذت محكمة الجنايات أهمية واسعة في أثينا. وفي أوج الديمقراطية، انتخب الهلياست ٢ بالقرعة. كانوا ستة آلاف (ستمائة لكل قبيلة)، منهم ألف عضو احتياط، ويوزع الخمسة آلاف، بالقرعة أيضاً، في اللجان القضائية. في أثناء الجلسات، يتكلم المتهم والمتهم، وبعدئذ يقترح الهلياست اقتراحاً سرياً، بواسطة حجارة صغيرة: حجر سليم للتبرئة، وحجر متقوب للاتهام.

في هذه الحقبة الزمنية، كانت المؤسسات القديمة، مثل كلية الولاة ومجلس الشيوخ، ما تزال قائمة، لكنها فقدت أفضليتها. كانت مهد الولاة الرئيسة تدقيق الشؤون القضائية ورفعها إلى المحاكم. ويهتمون أيضاً بالشؤون الدينية (تنظيم الاحتفالات، وواجبات

الأكليروس، إلخ). ومنذ إصلاح إيفيالت، صار مجلس الشيوخ ينهض، كما قلنا، بمهام المحكمة التي تحاكم القتلة والفوضيين ومنتهكي الحرمات.

كان هذا هو نظام أثينا في القرن الخامس ق.م. كانت أثينا "...دولة ذات شكل كلي الإثقان: الجمهورية الديمقراطية..٣" كانت هذه الديمقراطية العبودية خطوة إلى الأمام بالنسبة للدول الأرستقراطية المتخلفة في اليونان واستبداديات الشرق. فقد عكس الدستور الأثيني نظاما اجتماعيا جديدا كان، بالنسبة لعهد، تقدما.

لكن لايجوز أن نبالغ بأهمية الديمقراطية القديمة، التي كانت ديموقراطية رقيق. ففي هذا المجتمع، كان السكان الأحرار يشكلون شريحة صغيرة من الرعايا العاملة، فالمنتجون الأهم والأوسع هم العبيد. ولم يتمتع هؤلاء بأي حق سياسي، وكانت تضطهدهم مؤسسات الدولة التي كانت تحارب كل طيف مقاومة يبدونها. وفي أتيكا، حيث يناهز العبيد عدد الأحرار، كانوا محرومين أيضا من أي حق إنساني. فالنساء اللواتي يشكلن قرابة نصف المجتمع الحر، وكذلك الأجانب الأجراء، لم يكونوا أحسن حالا من الزاوية السياسية. والمحصلة، كان سدس أو سبع سكان أتيكا فقط أصحاب حقوق.

كان دستور أثينا يغدق على المدينة على حساب حرمان الريف. كان مجلس الشعب يقيم كل صباح على بنيكس^٤ في أثينا. وكان التجار، الحانوتيون، المأجورين، المياومون وباقي المدينين يستطيعون حضور هذه جلسات. أما الفلاحون، بشكل عام ماكانوا ممثلين أولا يرسلون إلى الجمعية سوى عدد صغير من المندوبين، لأن الحضور يخسرهم يومين أو ثلاثة أيام، تكون أحيانا في أخرج أيام العمل الزراعي. لذا ماكان يتجاوز عدد المشتركين ألفين أو ثلاثة آلاف، من أصل ٣٥ ألف مديني حر في أتيكا. ولا بد من ذكر نقيصة أخرى في الديمقراطية اليونانية: حسب القانون، كان جميع رعايا الحاضرة مخولين استلام أي وظيفة في الدولة، ولما كانت هذه الوظائف غير مأجورة، فلم يدخلها سوى الأغنياء. ورغم أن بيركلس عين أجورا للمحلفين لم يكن أعضاء مجلس الخمسمائة والولاية والستراتيجيون مأجورين والحصيلة توظيف الأغنياء.

٣ - أنجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة. ص ١١.

٤ - هضبة في غرب أثينا، حيث تجتمع الجمعية الوطنية.

السياسة التوسعية لديموقراطية أثينا العبودية

كانت ديموقراطية اليونان، البعيدة عن اتباع أهداف تحررية، تتوق إلى التوسع، إلى استغلال عبيد جدد وحلفاء جدد.

وكانت أثينا تأخذ مداخيلها من مرتبات الجمر، المرفأ، السوق، العدالة، التجارة، النخاسة، الرسوم المفروضة على الأجانب، والأمالك العامة. وكانت بعض حاجات الدولة تؤمن من الطقوس الدينية، التي كان يؤديها الأغنياء. وكانت على أنواع: *la trierchie*، مثلاً، أي التزام تجهيز مركب حربي؛ *choregie*، مبلغ ينفق لتطويق وإعالة جوقة تتشد في التمثيليات الدرامية، وسواها. وفي حال الضرورة، يفرض مجلس الشعب ضريبة خاصة، يؤديها سكان المدينة الذين يتجاوز دخلهم ٢٠٠٠ دراهما. على ذلك، لم يكن الدخل القومي ٤٠٠ تالنت يكفي لتغطية نفقات الجمهورية المتزايدة. ولتعديل الميزان، الميزانية الفدرالية (قريبة ٦٠٠ تالنت بالعام) تنصهر نهائياً مع خزانة أثينا التي تمتلك موارد مشتركة وتنفقها على رعاياها.

في أيام بيركلس، تقلصت عدوانية السياسة الخارجية لأثينا بعض الشيء، إنما بقيت سياسة امبريالية تستدعي حرباً دامية جديدة. كان "العدوان السلمي" لبيركلس يتميز بالأهداف التالية: (١) تعزيز القدرة البحرية لأثينا بتوسيعها بالطريق الدبلوماسي (اتفاقات، وغيرها)؛ تأكيد نفوذها في شرق وغرب عالم اليونان (بونت-أوكسن، إيطاليا، سيسيليا) بمعاهدات تحالفية. لم تكن هذه السياسة تدعم التجارة والطاقة الحربية لأثينا فقط بل أيضاً لاستمرار تفوقها في العام الهليني.

وهكذا، بعد معاهدة السلم مع الفرس، احتل مستعمرون شرسونيز من ثراس، ليموس وأمبروس، الأمر الذي فتح بونت-أوكسن وسوق ستريمون في ثراس، الإقليم الغني جداً بثرواته الطبيعية، وكذلك أراضي وحدات إدارية فدرالية، خنقت محاولات تمرداها على يد حملات تأديبية. قاد بيركلس إحداها شخصياً. وقد رفض حكام ساموس وساطة أثينا في نزاعها مع ميليت. فأتاها بيركلس على رأس ٤٠ مركباً ثلاثي المجاذيف، قلب السلاطة وزرع في ساموس نظاماً ديموقراطياً. وعندما عاد المعمرون الذين تمكنوا من الهرب إلى ساموس بمساعدة الفرس لاستعادة النظام القديم، هاجم بيركلس مجدداً هذه الجزيرة وبعد تسعة أشهر من الحصار، أكره المتمردون على الاستسلام. وأعيدت الديموقراطية. فاضطر الساميان لتحطيم استحكاماتهم، وتسليم أسطولهم ودفع الضريبة.

وفي العام ٤٣٧، توجه جحفل ضخم من الأثينيين بقيادة بيركلس نحو بونت-أو كسن. هدفت هذه الحملة الدبلوماسية فرض هيبة القوة الأثينية وضم المستعمرات اليونانية في حوض البحر الأسود إلى فدرالية أثينا البحرية، لم تكن النتائج بسيطة: فقد ألحقت سينوب بالاتحاد القدرالي، وكذلك نيمفي (مدينة صغيرة على البوسفور السومري)، وعدة مستعمرات على الشاطئ الغربي لبونت-أو كسن. وعلى أرض بعض التحالفات (بخاصة سينوب) أقيمت مستوطنات. وهكذا امتلكت الإمبراطورية الأثينية نقاط ارتكاز على شط البحر الأسود.

ولترسيخ نفوذها في إيطاليا التي تتاجر معها منذ زمن بعيد، أقامت أثينا، بمبادرة من بيركلس، مستعمرة ثوريوا، ليس بعيدا عن سيبارس، التي خربها الكروتونيات. وانتسبت هذه المستعمرة ليس فقط لأثينا بل لمجمل العالم الهليني. وأرسل إليها معمر من مختلف مناطق اليونان، كثير منهم رجال مشهورون: الفيلسوف أمبدوكل، من أغرمنت في سيسيليا، الفيلسوف بروتاغورس من أبدير في ثراس، والمؤرخ هيرودوت من هلكرناس. اشترك بروتاغورس بإعداد شريعة للحاضرة الجديدة. ووضع المعماري الشهير هبوداموس مخططا للمدينة بشوارع مستقيمة، تتقاطع بزاوية قائمة، بحيث يتوزع الضوء على كل المباني. كان مؤسسو المدينة يظنون أنهم بنوا مدينة-دولة نموذجية.

فيما بعد انفصلت ثوريوا عن أثينا وقبلت قضية خصومها. ردا على هذا، وقع بيركلس اتفاقات مع جزر زازينت وسفالينيا مع مدن ساجيت وليونتوا في سيسيليا، مع ريجيون ونابولي في إيطاليا، أخيرا مع جزيرة كورسير (٤٣٣). بهذه الطريقة، أمنت أثينا طريقا للتجارة مع الغرب.

لقد لاقت خطة بيركلس في توطيد الهيمنة الأثينية على كل اليونان تعبيرها في سياسة تضم كل الهلنيين. حاول عقد مؤتمر لكل اليونان توحى حل القضايا التالية: (١) خلق خزانة لهيلاد لترميم، حسب مخطط محدد، كل معابد اليونان التي دمرت في أثناء الحروب (الميدية؛ ٢) قمع القرصنة (٣) حماية السلم بين دول اليونان.

لكن المؤتمر لم يعقد، بسبب معارضة إسبارطة. وبعد هذا، اقترح بيركلس تعميم عبادة إيلوزيس *Eleusis* وإن تنفق أولى ثمار موسم كل البلاد الهيلينية على الإلهات الأيلوزية ديمتر وكورا. وهكذا تلتزم كل حاضرات اليونان بأفضلية العبادات الأثينية. لكن

واحدة لم تقبل الاقتراح. فشلت كل محاولات أثينا لتدعيم نفوذها السياسي عن طريق ترسيخ هيمنتها الدينية.

وفي "قرن بيركلس" بدت أثينا عاجزة عن فرض هيمنتها السياسية على اليونان، لكن نفوذها التجاري بلغ الأوج. إن سيدة البحر، أثينا، تصير المركز التجاري لليونان، وبيريا مرفأها الأغنى.

أثينا، المركز الثقافي للعالم الهليني

في أواسط القرن الخامس، صارت أثينا أيضاً المركز الثقافي للعالم الهليني. "كان عصر بيركلس قمة تفتح وازدهار اليونان... يقول ك.ماركس. كان يأتي أثينا من الدول الهلينية الأخرى العلماء، الشعراء والفنانون: الفيلسوف أنكساغور من كلازمين (أيونيا في آسيا الوسطى)، السفسطائي بروتاغورس، ابن إدير في ثراس، السفسطائي غورجياس ابن ليونتوا في سيسيليا. وديموكريتس ابن أدير، الفيلسوف المادي الكبير ابن العصور القديمة، الذي زار كل الأرض اليونانية، وعاش أيضاً في أثينا. هيرودوت ابن هلكرناس، "أب التاريخ"، حيث حصل على حق المواطنة. والشاعر بندار والنحاس ميرون، مبدع "سكوبول"، الاثنان الأخيران من بيوتيا، عاشا طويلاً في عاصمة أتيكيا؛ وفيدياس، سقراط، أخيل، سوفوكل، أوريبيد، أرسطوفان، المؤرخ العظيم توسيديد، ابن أولوروس، الممثل الكبير للثقافة الهلينية، كانوا قد ولدوا في أثينا.

لم يكن الفن الأثيني في أوج ازدهاره حكراً على صفوة الأغنياء مالكي العبيد. ففي "عصر بيركلس"، كان يحتفل في أثينا بأربعين عيداً في العام (كان أهمها الأعياد العظيمة لكل الأثينيين، والديونيز والينيين). فضلاً عن الأعياد الدينية، كان ثمة احتفالات فنية، ومباريات رياضية. ولقد حازت هذه الأخيرة من أيام برسترات الصفة الوطنية-القومية، بخلاف المنافسات العسكرية البحت التي كانت تجري في أيام شريحة من النبلاء. هكذا، كان الديونيز يقيمون تمثيليات مسرحية تدوم ثلاثة أيام. وكتب سرفوكل، أخيل، وأروبيد تراجيديات لهذه الأعياد، وكتب لها كراتتوس، أرسطوفان وغيرهما من كتبة الملهاة. وتصدر لجنة من عشرة أعضاء أمراً بالأوسمة. كان الأغنياء يضطلعون بالإنفاق على هذه التمثيليات، وكان هذا نوعاً من الخل. فيخضع مضمون الأعمال الفنية لنوع من المراقبة غير المباشرة من قبل الأغنياء.

إن أعمالاً إنشائية ضخمة صنعت من أثينا واحدة من أجمل مدن اليونان. فقد حظي مرفأها، البيري، بتحصينات لا تantal، من حواجز وأرصعة جديدة. وأهراءات ومخازن للقمح. بين "الجدران الطويلة" التي انتهت في العام ٤٥٥، والتي تصل مرفأ بيري بأثينا، أنشيء، بأمر بيركلس، جدار ثالث، يحصن المدينة والمرفأ تحصيناً أبدياً. وصار الأكروبول بعد الترميم مركزاً دينياً وثقافياً.

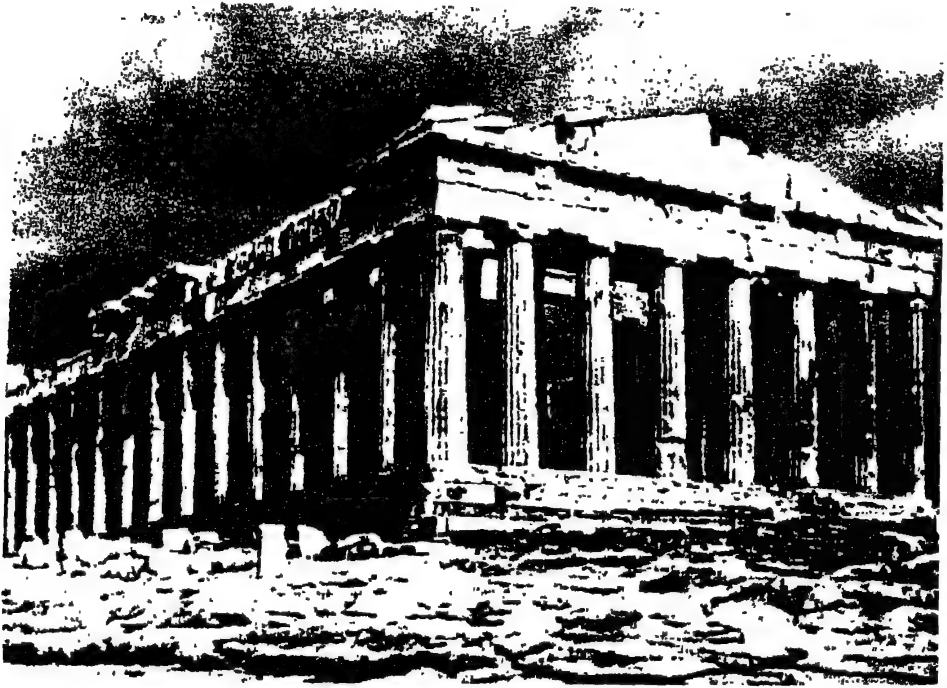
صارت مداخل المعابد، العمل التحصيني الذي يوصل إلى الأكروبول، تصير مجموعة أعمدة رائعة تتصف بالزهد والرزانة، ملتصقة بأروقة تزدهن جدرانها برسوم ومنحوتات تستدعي الماضي الماجد لمدينة أثينا، تمثل إحداها معركة مراتون. وفي داخل الأكروبول، بين الصروح، امتدت المروج، وبسقت الأشجار، والأنصاب المرمرية والبرونزية وإلى يسار المداخل، على قاعدة عالية، انتصب تمثال لأثينا (الحامية). الإلهة تتقدم مسلحة، تأخذ بيدها رمحاً ترى نهايته اللامعة من بعيد وتوقد البشارة إلى المرفأ (البيري).

لكن الأبدية الأبرز في أثينا هي البارثيون *Parthenon*، إبداع المعمارين إكتسوس وكلكراتس، بني حسب الأسلوب الدوري العظيم، المغتني بعناصر أيونية تسامر أذواق المواطنين الجدد. وبكلمة كان المظهر الذي تفرضه الصروح الدورية يرمز إلى الطاقة المنبعة للجمهورية الأثينية.

وحسب التقليد الأيوني. وبعض الزخارف والمنحوتات البارزة التي أبدعها فيدياس- النحات الشهير. وفي داخل المعبد، ارتفع نصب عاجي وذهي، من عمل فيدياس. لتكريس فكرة عن أبعاده (١٤م)، يكفي أن نعرف أنها تضع على راحة يدها اليمنى صورة للنصر بقامة إنسان. يشكل هذا النصب جزءاً من ثروة الدولة (لله يساوي قرابة ٢٠ مليون روبل- ذهب). وأقاموا مؤخراً في الأكروبول إرشتي *Erchtee*، (ملك خرافي لأتيكيا) ومعبد آخر، أصغر، هو معبد الظفر، الاثنان طرفتان من الأسلوب الإيوني. وعلى السفح الجنوبي الشرقي للأكروبول، بني الأوديون *Odion* (معبد الغناء)، للمباريات الصوتية. هوذا رأي بلوتارك حول الآثار التي بنيت في أيام بيركلس: "ماكان ينتهي كل من هذه الأبواب حتى

٥ - أسلوب استخدم في بناء وزخرفة المعابد اليونانية، والمتصف بالزهد والرصانة.

يأخذ بروعته طبيعة القدم؛ على ذلك إنها الآن تجسد الطلاوة والألق الحديث، روعة الشباب، حيث تتألق هذه الزهرة الجديدة التي تحافظ على انفعالات الزمن! لكن الكل غال جدا. البراثيون، مثلا، يساوي كما قلنا، ٧ آلاف تالانت، أي سبع مرات ميزانية الدولة. لقد توجب على الدولة الحليفة لآثينا أن تغطي كل هذه النفقات، الأمر الذي كان يسعر غضبها.



الباريتون (القرن الخامس قبل الميلاد)

الفصل الثاني والثلاثون

حرب البلوبونيز

أسباب النزاع. حرب أرشداموس ٦

على ذلك، كان ازدهار أثينا عرضياً مؤقتاً: إن حرباً جديدة ضارية بين إمبراطورية أثينا البحرية والجامعة البلوبونيزية (٤٣١-٤٠٤) وضعت حداً لذلك الازدهار. شملت هذه الحرب، المسماة البلوبونيزية، تقريباً كل اليونان وحتى بعض الدول الأخرى: مقدونيا، ثراسيا وإيران. يشير ثوسديد أن هذا النزاع أثار حركة واسعة بين أغلب الشعوب وأنه كان الأعظم من كل ما سبق. فتناحرات الحياة الاجتماعية والسياسية في الدول اليونانية تسارعت وتفاقت بوضوح في أثناء السبعين سنة من هذا النزاع الأهلي وأفضت باليونان إلى أزمة حادة.

كان وراء حرب البلوبونيز أسباب سياسية واقتصادية عميقة جداً أعلنت أزمة في مختلف الدول لابل في مجمل المجتمع الإغريقي. يجب أن نذكر، أولاً، ألا مهرب ولا بد من التصادم بين أثينا واسبارطة، كنتيجة لنزاعهما من أجل الهيمنة. لقد طمعت إسبارطة بنجاحات أثينا، بخاصة حينما حاولت الدولة الأثينية بسط نفوذها ليس فقط في البحر، بل أيضاً على اليونان القارية. كان التطاحن من أجل وسط اليونان قد أثار الحرب الأولى، انتهت بصلح الثلاثين سنة أو صلح بيركلس: يتخلى الأثينيون عن بسط نفوذهم على القارة وتتعترف الجامعتان بحدودهما السابقة. طبعاً، ليس لهذه التسوية أن تحل نزاعاً حاداً بين دول تساند أنظمتها لا لقاء بينهما. فبينما كانت أثينا تعزز الديمقراطيةيين، كانت سبارطة تبني نظاماً أرستقراطياً رجعيّاً. كل منهما يهدم قاعدة الآخر ويسمر التناحرات السياسية. فالنزاع بين أثينا وسبارطة عقد الصراع التجاري الأثيني مع كورنثيا وميغار اللتين

تشكلان جزءا من الجامعة البلوونيزية. وصارت كورنثيا عدوة أثينا الأعند والأشرس، بعد شروع أثينا ببسط نفوذها على مدن الشاطئ الغربي لشبه جزيرة البلقان، الواقعة على الطريق بين إيطاليا وسسليا. ولما كانت التجارة قد أخذت مدى أوسع منذ الحروب الميديدية، تفاقم الخصام على الأسواق الغربية. وكان الباعث الأهم لحرب أثينا ضد الجامعة البلوونيزية هو بالضبط التزاحم التجاري بين أثينا من جهة، وكورنثيا وميغار من جهة أخرى.

كانت الذريعة الأولى للحرب تدخل أثينا في صراع كورسير وكورنثيا من أجل "أبدا من" مدينة الأدرائاتيك الغنية السوق. ساندت أثينا كورسير وأرسلت أسطولها ضد الكورنثيين، وكانت النتيجة الأساسية لهذا الدعم انضمام كورسير، الشهيرة بثرواتها وأسطولها، إلى الاتحاد البحري الأثيني. فالتسع الصدام بين أثينا وكورنثيا. وتبدت الذريعة الثانية أيضا في كورنثيا. كان سبب التصادم مدينة بوتيديا في شبه جزيرة شلسديك. فقد وجدت كورنثيا نفسها مضطرة للانضمام إلى الفدرالية البحرية، الأمر الذي صعد النزاع بين أثينا وكورنثيا. وقد جعل ارتباط بوتيديا المزدوج منها حلبة الصراع، المتمثل بالمطالب الأثينية التي، خوفا من ضياع بوتيديا، تتجلى في رفض الموظفين الكورنثيين وتدمير الاستحكامات التي تحمي المدينة من جهة البحر.

ردا على هذا، انفصل البوتيديون عن الاتحاد، بتشجيع من الكورنثيين، وحذا حذوهم حلفاء أثينا في شلسديك وتمردوا. فسير الأثينيون قوات ضخمة بريّة وبحرية. وكانت الذريعة الثالثة للحرب قرار الجمعية الوطنية الأثينية (٤٣٢)، منزع الميغاريين، حلفاء كورنثيا، من عبور مرافئ الاتحاد، الأمر الذي ينزل بتجارة كورنثيا ضربة قاصمة.

طلب اللاسدمونيون، بسبب شكاوى حلفائهم، أن يرجع الأثينيون عن قرارهم ودعوا لاجتماع ممثلي دول الجامعة البلوونيزية. وكان الكورنثيون أضرى أعداء أثينا في هذا النزاع. ادعوا أن "استبداديت"ها تهدد كل اليونان ودعوا إلى الحرب من أجل "إنقاذ الهلليين وتحريرهم من النير الأثيني. وقد وقف أكثر أعضاء الجامعة إلى جانب الحرب: استعادة استقلال الهلليين من استعباد الأثينيين، كان هذا شعار النزاع؛ استغلت إسبارطة المزاج القتالي لحلفائها، وأرسلت إنذارا نهائيا إلى أثينا باسم الجامعة البلوونيزية.

وفي أثينا، حث بيركلس، الستراتيجي الأول ورئيس الدولة، مواطنيه على عدم ترك

الساحة البلوبونيزية وعلى إعلان الحرب. يرى البعض أنه كان مدفوعا بدوافع شخصية. ففي تلك الحقبة احتد التناقض ضد بيركلس. فطالب الديموقراطيون الأكثر راديكالية، بإشراف كليون ، مالك إحدى المدايع، بزيادة أجور الموظفين وإعانات الدولة، وكذلك سياسة غزو أكثر حزما وإصرار. وكان خصم بيركلس أيضا اليمين الذي يريد الصلح مع إسبارطة وتقليص التدابير المتخذة لصالح الشعب. فما أن تزعزت مواقع بيركلس، حتى بدأ الهجوم لنزع الثقة منه. حتى أصدقاؤه، النقاش وقائد الأعمال فيدياس، والفيلسوف أنكسغور وحتى زوجته، أسبزي افتروا عليه وقاضوه. ربما كان بيركلس يعمل بدافع شخصي، من بين الدوافع، لكن الأساسي هو أن الديموقراطية الأثينية، التي تدافع عن مصالحها، اهتمت بإلغاء مزاحمة كورنثيا وميغار، وتطور التجارة والصناعة وبالمحصلة أرادت الحرب. لذا لم ينتظر مبعوث إسبارطة الجواب وغادر أتيكيا وهو يعلن: "سيكون هذا اليوم عند اليونان يوم حلول أقدم الآلام." (ثوسيديد، ٢، ١٢). فسعرت الأوساط المتنفذة الأثينية النزاع، عوضا عن البحث والسعي.

كانت خطة هجوم بيركلس تقوم على القتال في البحر، مستفيدا من تفوق أثينا البحري؛ أما أرض أتيكيا، لم يهتم بالدفاع عنها ورأى خطأ خوض معركة في البر مع البلوبونيزيين رغم أن جيشهم كان أضخم من جيشه. "إن ما يجب أن يحزننا، ليس خسارة البيوت والأرض، بل الرجال"، يقول بيركلس في خطاب استشهد به ثوسيديد (١، ١٤٠-١٤٤). فقد أهمل تماما مصالح الشرائح الزراعية وبنى آمالا عراضا على الطاقة البحرية للاتحاد. معتمدا على ضعف العدو في البحر وافتقاره للنقد. لكنه لم يحدس المضاعفات الداخلية والخارجية التي ستعطي الأحداث دورا غير متوقع.

سميت المرحلة الأولى من الحرب (٤٣١-٤٢١) حرب أرشدموس، نسبة لاسم ملك إسبارطة. بدأ النزاع باعتداء الاتحاد البيوتي على بلاتيا، حليفة أثينا. احتل العدو المدينة لأن الأرستقراطية فتحت له أبوابها. ومنذ هذه المعركة، راح ينجم بكل وضوح تعقيد المواقع القتالية والصراع الاجتماعي الحاد، الذي وسم الحرب كلها. فقد بدأ تدخل البلوبونيزيين بقيادة الملك أرشدموس بغارات مدمرة على أتيكيا. كان هذا في وسط الصيف، وكان القمح ينضج. دمر الغزاة المحصول، اقتلعوا الزيتون والكرمة، ونهبوا البيوت. احتل سكان الريف المدينة. بناء على اقتراح بيركلس، وأخلت البهائم من الجزر. وفي هذا الوقت، كان

الأسطول الأثيني يعمل في البحر ويسبب النكبات للبلوبونيزيين. وقاتل جزء من المراكب (١٠٠ مركب ثلاثي المجاذيف) على طول شواطئ بلونيز، فدمروا السواحل وشلوا التجارة الكورنثية؛ وحاصر لواء آخر بوتيديا في شلسديك. وبقي الأثينيون لبعض الوقت متفوقين.

لكن وضع الأثينيين المتجمهرين في أثينا راح يسوء من يوم إلى آخر. كان الخطأ في إهمال مصالح الريف. والمدينة تغطى بالسكان، واللاجئون يقطنون الأكواخ، في الساحات العامة، في أبراج الاستحكامات وحتى في المقابر.

كان تدمير التراب الوطني، المرئي من أعلى الأكروبول، يغضب الشعب (بخاصة الفلاحين) الحاقدين على صانعي الحرب، لكن بيركلس، إخلاصا لخطته، كان يمنع الأثينيين من الانتقال للهجوم. تفاقم الوضع، انتشر الطاعون الوافد من مصر بسرعة عبر المدينة. رسم توسيديد لوحات رهيبة لهذا الوضع (٢، ٤٧-٥٤). كان الناس يموتون في الشوارع، حتى نابت المدينة بالجثث التي لم يتوفر الوقت لرفعها. وانهار الغضب الشعبي على بيركلس، الذي اعتبر مسؤولا عن كل النكبات. فدعم الريفيون بنشاط أنصار وقف المعارك. حاول بيركلس تحييد هذه المساعي، بإقناع مواطنيه بأن عليهم أن يتغاضوا عن القلق الشخصي من أجل سلامة الدولة. يبدو أن مصلحة الدولة بمجملها كانت أهم لدى المواطنين من ازدهار بعض الأفراد في دولة في حالة انحطاط (توسيديد، ٢، ٦٠)، لكن الغضب كان يستعر ونفوذ بيركلس يتراجع. وفي العام ٤٣٠، لم يجدد انتخاب بيركلس الذي مارس مهامه كقائد استراتيجي، ومات بالطاعون في العام نفسه. يبرهن سقوط بيركلس أن سياسته المعتدلة لم تعد ترضي الأثينيين في حال استعارة التناحرات بين السكان المدنيين الراديكاليين وأبناء الريف المحافظين. عامان بعد موت بيركلس، كان كليون يقود التشريحة الرديكالية، التي لها الأغلبية في الجمعية الوطنية. وكان يقود المعتدلين نيسياس، أحد أغنياء العبيد.

لنقد قدمت لنا شخصية كليون بشكل هازل. يعلل هذا بداية أن توسيديد، أرسطو، بلوتارك، أرسطوفان الذين وصفوه لنا، كانوا معتدلين ولايتعاطفون مع الديموقراطية الراديكالية. توسيديد يسمي كليون "المواطن الأسف". وأرسطوفان، في ملهاته، الفرسان، تمتع بأمر وصف عيوبه؛ ورأى أرسطو "أنه أفسد الشعب أكثر من أي شخص آخر بنزقه وحدة

مزاجه". على هذا، فقد كان قائدا مستقيما واسع النشاط والحيوية بين شريحتي الديمقراطية اليسارية، التي كان لسان مصالحها.

أما نيسياس، خصمه، كان يتمتع بدعم الأغنياء والأرستقراطيين. يصنفه بعض المحافظين مثل أرسطو بين أفضل قادة أثينا السياسيين. لكن بلوتارك، العدو الأزرق لكليون، يشير لدى مقارنته بنيسياس، أن هذا الأخير كان خائفا، يسهل ثنيه عن الإقدام، متطيرا، بدون مواهب متفردة. ترجع شعبيته إلى سلوكه الذرائعي.

لقد خاض الحزب الراديكالي، بقيادة كليون، الحرب بالمعية وجراة. وشن الأثينيون عمليات في البر والبحر.

وبقيادة قائد قادر، ديموستين، احتلوا بيلوس، الجهة البحرية من مسينا، لتحريض فقراء مسينا على الانتقال إلى حزبهم. وبولوج هذه المنطقة الآلهة بالفقراء بخاصة أنزل الأثينيون ضربة إلى النقطة الأكثر حساسية في الدولة السبارطية. لذا سارع السبارطيون إلى محاصرة بيلوس عن طريق البر، ومركزوا فيها أسطولهم، واحتلوا جزيرة سفاكتري، الواقعة قبالة بيلوس، وأرسلوا إليها أكثر من ٤٠٠ جندي. ووجه إليها الأثينيون أيضا أسطولهم، الذي تصدى للبلوبونيزيين. استلم كليون نفسه القيادة، وطوق سفاكتري بمساعدة ديموستين، وفرض الاستسلام على السبارطيين، وأخذ الجنود الموجودين في الجزيرة رهائن، ووضع شرط على البلوبونيزيين عدم مهاجمة أرض أتيكيا، وإلا نبحت الرهائن. وبدأ كليون العائد إلى أثينا مكللا بالمجد، سياسة هجومية واسعة المدى: احتل المرفأ الميغاري والنيسيا، وجزيرة سيثير، وأرسل حملة غازية إلى سيسيليا. لكن هذه العمليات كانت تتطلب نفقات ضخمة. فتوجب رفع الضرائب على أعضاء الاتحاد (٦٠٠-١٠٠٠ تالانت). فتشوشت العلاقة بينهم، الأمر الذي كان شؤما على دولة أثينا. وفي العام ٤٢٧، انفصلت ليسبوس بمساعدة اللاسدمونيين عن الاتحاد. واضطرت مدينة مثلين، مركز التمرد على الأثينيين، على الاستسلام أما القوات الأثينية بعد حصار طويل. ولم يستطع الأثينيون أن يجمعوا حلفاءهم إلا بالإرهاب.

وفي العام نفسه، نشب عراك مرير بين الأرستقراطيين والديموقراطيين في جزيرة كورسير. كان وراء هذا العراك الكورنثيين الذين، ليفصلوا كورسير عن أثينا، دعموا الأرستقراطية. ونشبت معارك دامية في الشوارع، اشترك فيها النساء والعبيد. "لقد أرسل

كلا الطرفين رسلا إلى الأرياف ليدعموا العبيد واعدن إياهم بالحرية، وانضم أغلبهم الشعب، كما يقص ثوسيديد (٧٣،٣). وتسعر الصراع الطبقي في الدول المتحالفة، بتشجيع البلوبونيزيين.

قد أثار انقضاؤ الأثينيين على البلوبونيز تعقيدات داخلية في سبارطة. ولتحويل انتباه العدو، دعمت سبارطة، من جهتها، التمردات بين أحلاف أثينا. وبهذا الهدف وجه السبارطيون الحرب إلى الساحل الشمالي من بحر إيجه. حيث يوجد عدد من مدن الاتحاد، كان أهمها بوتيديا، أولينث وأمبولس؛ كان البلوبونيزيون يأملون تفكك حلفاء أثينا. ولم يكونوا خاطئين. فقد تحقق مشروعهم بغزو المستعمرات الأثينية على شواطئ إثراسيا، بفن قتالي حاسم وماهر، بقيادة الشاب السبارطي برازاداس. وعلى رأس فوج من المتطوعين اجتاز بجسارة بيوتيا، وثيساليا وتمردت على أثينا مدن شلسديك.

تمت الأحداث الحاسمة لهذه المعركة أمام أمبولس، المستعمرة الأثينية التي انتقلت إلى العدو. احتل برازاداس المدينة بمساعدة أبنائها. كان المؤرخ ثوسيديد هو الذي يقود آنئذ (في العام ٤٢٤) اللواء الأثيني قرب شواطئ إثراسيا. ولم ينجح بالحفاظ على المستعمرة، الأمر الذي جعل أثينا تتفنيه. وتضع محله كليون قائد الجيش الأثيني، لتصلح الوضع. وفي العام ٤٢٢، انتهت معركة أمبولس الضارية بهزيمة قاسية للأثينيين (قضى فيها القائدان كليون وبرازاداس). واتسع مدى التمرد في البلدان المتحدة.

أثارت الهزائم العسكرية الرأي العام الأثيني ضد حزب الحرب ووسعت نفوذ حزب الصلح، نيسياس. وفي العام ٤٢١ عقد صلح نيسياس الذي رسخ الوضع الراهن. وفي ملهاته "الصلح"، التي كتبت في نفس العام، يرفع أرسطوفان عاليا فرحة الحياة السلمية؛ وعوض الرمح "الملعون"، ليؤخذ المعول لغرس الكروم والزيتون. إن إهمال مصالح الفلاحين وبعض الحلفاء كان السبب الرئيس في هزيمة الديموقراطية الأثينية طيلة المرحلة الأولى من الحرب.

المرحلة الثانية من الحرب البلوبونيزية

وقعت حملة سيسيليا الكبرى وحرب دسيليا لأن صلح نيسياس لم يكن متينا. فلم يحل التناقضات الأساسية لما قبل الحرب. ولم تنفذ شروط المعاهدة: احتفظ كلا الطرفين بالأراضي المغتصبة الواجبة لإعادة لأصحابها. ثم، وقف المجتمع الأثيني المدمر نفسه،

فضلا عن الصناعيين والتجار، إلى جانب تجدد المعارك. أمل كثير من الناس التخلص من ورطته عن طريق الغنائم والأسلاب التي تأتي بها معركة مظفرة فيما وراء البحار. ولقد لعب أحد ذوي بيكلس، ألسبياد، وقد صار على رأس الأوساط العدوانية لديموقراطية أثينا الرقية، دورا هاما في حياة أثينا السياسية انطلاقا من العام ٤٢٠. كان ألسبياد شابا موهوبا ورفيع الثقافة.

ولقد أكسبته ثروته، ظرافته، مروعته، تسامحه وفتنته الشخصية الغريبة، شعبية لا مثيل لها. لكن انعدام الاهتمام والتدقيق، والقدرة على التلاؤم مع الظروف وتغيير السلوك حسب الثوب الذي تلبسه الأمور، كلفه كل هذا لقب "الحرباء"^٧. بنيت سياسة ألسبياد كلها على مشروعات الفتوحات الواسعة، التي تفرز المغامرة. فتبنى خطة جريئة لاحتلال مناطق غنية بالقمح في غرب البحر المتوسط: سيسيليا، إيطاليا وقرطاجة. وافق على هذا المشروع الأثينيون الشرهون للتوسع، الطامعون منذ زمن بثروات سيسيليا من الحبوب وغيرها.

استخدم سيسيليا حمايتها من اضطهاد سيراكوزز نريعة لحمة عليها. وأفاد منها ألسبياد لتحريض الأثينيين. وفي كل مكان، في الشوارع، في ميادين الرياضة، كان الكلام يدور حول سيسيليا فقط؛ رسمت خرائط لهذه الجزيرة، وليبيا، وقرطاجة. ورغم معارضة خصوم ألسبياد، وبينهم نيسياس، حصل الحزب الديموقراطي من الجمعية الوطنية على الموافقة بتنظيم حملة سيسيليا بقيادة ألسبياد، نيسياس ولاماشوس. وتجهيز أسطول ضخيم وجيش جرار (١٣٤ مركب ثلاثي المجاذيف، ٤٠ سفينة نقل وقرابة ٢٠ ألف مقاتل).

لكن الصراع المريع بين الأحزاب في أثينا انعكس شؤماً، منذ البداية، على مسار الحملة. فعشية الانطلاق، مزقت صور الإله هرمس، حامي المسافرين، الموزعة على مفارق الطرق. لم يكن هذا في نظر اليونان الأسبقين مجرد تدنيس وانتهاك للحرمان، بل نذير شؤم. تحرص بعضهم أن خصوم ألسبياد، أنصار حكم الأقلية المتحكمة، كانوا والغين في العملية. ورغبة منهم في استبعاد الحملة، نشروا شائعة تقول إن الفاعل هو ألسبياد نفسه، تلميذ "الفلاسفة الملحد"، وألحوا على إحالته إلى القضاء. لكنهم لم يقدروا أن يصلوا إلى غايتهم في الحال، لأنهم خشوا القوات المخلصة كلياً لألسبياد.

غادر الأسطول رسمياً البيري بالتاريخ المحدد. وما أن وصل إلى سيسيليا، حتى بدأ السبياد العمليات القتالية. لكن باخرة تصل، تحمل أمر عودته إلى أثينا ليقاضى: اتهم الآن بالتآمر على الديموقراطية. لكنه في الطريق، فرّ إلى اسبارطة. أفضى كل هذا إلى تفكك الجيش وانبعاث الفوضى مما هدد بالفشل لفقدان الجاهزية القتالية.

بعد رحيل السبياد، استلم نيسياس القيادة العليا. أبحر هذا بنجاح إلى سيراكوز، حاصر أولا المدينة، بالمعية معاكسة لطبيعته، وحاول صعود الجدران بأضيق وقت. ضحك الحظ للأثينيين حتى أن السبارطي جليوس استسلم في سيراكوز مع قوات المدن السيسيلية الأخرى، التي تقلد الدفاع عنها. وساعدت كورنثيا السيراكوزيين. وفي العام ٤١٣ عزز الأسطول الأثيني بـ ٧٥ مركب ثلاثي المجاذيف، بقيادة دمستين، الذي لمع نجمه في بيلوس. لكن وصول القوات من إيطاليا وبلوبنيز زاد من قدرة سيراكوز على المقاومة وفاقم في وضع الجيش الأثيني، فقرر الاستراتيجيون العودة إلى أثينا. يتحدث ثوسديد عن درامية وضع الجيش الأثيني المحاصر في سيراكوز. فبعد محاولة الأسطول العابثة أي خرق صفوف العدو وحرق مراكبهم، أراد الجيش الانسحاب إلى داخل الجزيرة. وأجبرهم تفوق العدو العددي والجوع على الاستسلام. وانتهت حملة سيسيليا إلى نكبة رهيبة: دمر الأسطول والجيش، استعبد من بقي حيا وأرسل إلى المقالع، وأعدم الاستراتيجيون (٤١٣).

وفي أتيكيا بالذات، خضع الأثينيون إلى نازلة شتعاء: كان السبارطيون قد احتلوا ديسيليا، المركز الاستراتيجي الهام جدا، الواقع في شمال-شرق أثينا. وهكذا عزلت المدينة عن الجزء من أتيكيا وأوبيا الذي يمدّها بالمواد الغذائية. لقد تصرف العدو هكذا بناء على إلحاح السبياد الذي، بعد أن لجأ إلى اسبارطة، كان يتحرق ليثار لوطنه. حتى الآن، كانت الغزوات البلوبونيزية قصيرة الأمد. إنما هذه المرة، تشبثوا بسيسيليا، ولم يغادروا أتيكيا، بل دمروها وشلوا اقتصادها. أكثر من ٢٠ ألف عبد أثيني، أغلبهم أصحاب مهن، انتقلوا إلى العدو. وتأثرت الصناعة وكل الاقتصاد الأثيني العبودي بهذه الخسائر. حدث هذا الوضع الأثيني الحرج اسبارطة على مضاعفة نشاطها في البحر لكبح هيمنة الاثينيين البحرية. لبناء أسطولهم، أهمل السبارطيون مصالح اليونان وعقدوا حلفا مع الفرس، من أجل الحصول على معونات مالية. توجه السبياد إلى آسيا الصغرى، حيث تيسر له أن يعقد صلات صداقة مع المزربان تسافيرن. ونجح بضم أبونيا إلى أثينا، لكن السبارطيين، الذين

لم يتقوا به، أرسلوا مكانه قائد الأسطول ليزاندر. كان هذا الأخير رجلا موهوبا وديبلوماسيا محنكا، ماكر؛ كان يقول حيث لا تستطيع أن تحصل على لبدة الأسد، ارتد جلد ثعلب. أفسد ليزاندر أساليب السبياد. فتنت لهجته وعباراته الخنوعة سيروس، فحيد ملك الفرس، فوعده بإعطائه كل ما يريد. أفاد ليزاندر من خطوته لدى هذا الأمير لزيادة المعونات المالية الممنوحة لسبارطة لخلق أسطول بلوونيزي ضارب، يهيمن في بحر إيجه.

عجل كل هذا في وهن عزيمة الدولة الأثينية التي لاقت هزائم قتالية. أهمها تفكك الحلف الأثيني، الذي عزل مدن آسيا الصغرى وكل الجزر تقريبا. وكانت خسارة حلفاء مثل سيو، لسبوس وميليت شديدة الأثر. الأمر الذي قلص كثيرا دفق الخيرات، وبلغت الأزمة المالية نسبا مهددة.

لقد هزت النكبات التي ضربت أثينا موقف الديمقراطية ودعمت معسكر الخصم. وانفطت الصراع السياسي بعنف لم يعرف من قبل. فقد صارت الجماعات السرية الأولغارشية، التي أقسم أعضاؤها على قلب النظام الديمقراطي، الحلفاء الرئيسية في هذا الصراع. وفي العام ٤١١ نجحت، بمساعدة الجيش والأسطول، بانقلاب أولغارشي وانتخبت عشر ولاء، وإلى لكل ولاية، لا يقل عمر كل منهم عن ٤٠ عاما. وكلف هؤلاء الولاية بإعداد دستور جديد. وبانتظار هذا، أقيم "نظام الآباء"، وكما يقول الأولغارك: صار مجلس الأربع-مائة، المكون حصرا من أعتى الرجعيين، الحاكم الأعلى للدولة. وحسب ثوسيديد، "كان هذا المجلس يحكم بصورة استبدادية"، بتعذيب واضطهاد الديمقراطيين بدون رحمة. ألغيت مؤسسة سماع شكوى خرق القانون التي كانت تحمي القواعد الديمقراطية، وألغيت الوظائف المأجورة. لكن تبين أن هذه الأولغارشية المتطرفة غير مستقرة. فبعد أربعة أشهر من الحياة، اعدم فرنكوس، انتفون وغيرهما، أكثر الأولغاركيين حماسا وشطب من الوجود مجلس الأربعمائة.

كان الدستور الذي أعده الولاية يسلم السلطة لخمسة آلاف "شخص سلاحهم ثقيل". أي إلى البشرايح الوسطى من الشعب. كان ثرامين يكره الديمقراطية التي أتت بدولة حكمت العبيد والفقراء الذين، كما يقول، "كانوا مستعدين لبيع البلد مقابل دراهما" لكن ثرامين لم يكن يحب الأولغارشية أيضا. إنما كان ممثلا نموذجيا للبشرايح الوسطى المريحة، إنسانا منقلباً، يحدب على التسويات، لقب بـ"كوثرن" (حذاء تستعمل فردتاه للقدمين). (خنوفون، الهالينيون، ٢، ٣، ٣٠).

لكن النظام المعتدل أو الوسط أثار أيضا الغضب بين شرائح ديموقراطية واسعة. كان بحارة ومجنفو الأسطول الموجودون آنذ قرب جزيرة ساموس، الشريحة الأكثر تنظيما. ولما كان الأسطول بدون قائد كفاء يربح ثقة الطواقم، قرر استدعاء السبياد من آسيا الصغرى، قبل، أملا بتحقيق رغبته العارمة في العودة إلى الوطن. ومرة أخرى، غير مبادئه.

كانت المهمة الأساسية للأثينيين في هذه المرحلة من الحرب، التي دشنها السبياد، تقوم في تحرير هلسبونت وطريق ساحل البحر الأسود من البلوبونيزيين. فقد عمقت انتصارات السبياد العظيمة قرب أبديس وسزيك نفوذ أثينا في البحر، وأكرهت بعض المدن التي انفصلت على العودة لتكمل الإمبراطورية الأثينية. وأفضت انتصارات السبياد القتالية إلى سقوط حكومة الـ ٥٠٠ (في العام ٤١٠) وإعادة النظام الديموقراطي. في هذه الحقبة لعب السبياد دورا كبيرا في إدارة الدولة، لكن نجاحات أثينا وانتصاراتها كانت أمرا عارضا. فقد استمرت إسبارطة تعزز وضعها على نفقة العجم. كان سيرس يساعد بسعة القوات السبارطية؛ إلى ذلك، كان لزاندر قد ركز بين يديه قيادة الجمعيات اللغارشية السرية التي يقضي بواسطتها على الديموقراطية. كان موقف السبياد غير مستقر، لأن الأوساط الحاكمة كانت تعيقه بكل السبل. دون أن يتخذ ضدهم أي تدبير. وبعد هزيمة بسيطة، تراجعت سلطته حتى في الأوساط التي هلت له حديثا. فاضطر إلى مبارحة أثينا وعاش ردا من الزمن في منفى تطوعي، على ضفة هلسبونت. ثم ذهب إلى فارس، بأمل دعم مليكها. لكن هذا أمر، على الأرجح بأمر من لأزنذر، بقتله في الطريق.

لقد نجم عن الصراع الضاري بين الأحزاب في أثينا تقلبات في سياستها الخارجية والداخلية. فالأحداث المرتبطة بمعركة الأرغوز، غير بعيد عن لسبوس (٤٠٦)، كانت متفردة في بابها. حوشر الأسطول الأثيني في مرفأ متلين. لملم الأثينيون آخر مصادرهم، وجهزوا ١١٠ مراكب وجندوا كل الرجال القابلين للتجنيد، بما فيهم العبيد. لكن عاصفة منعت الاستراتيجية الأثينيين من مساعدة المراكب المشتتة ودفن الموتى. الأمر الذي خول الرجعيين، أعداء الاستراتيجية، رفع دعوى لمقاضاة المنتصرين وإدانته بالموت (كان ابن بيركلس أحد المدانين). وعند عقد الجلسة، ندم الأثينيون، حسب خنوفون، وقرروا محاكمة أولئك الذي ضلوا الشعب. طبعا، كانت هذه الأزمات تضعف الوضع المتفاقم في دولة أثينا.

وكانت المعركة التي دارت في العام ٤٠٥ قرب أغوس-هوتاموس (نهر العنزة) فسي هلسبوننت حاسمة واستنفدت نصر الجامعة البلوونيزية. خسر فيها الأثينيون كل أسطولهم تقريبا. ثم ظهر الأسطول البلوونيزي، بقيادة لزندر، قرب بيريا وبدأ محاصرة الأثينيين بحرا وبرا. طلب المحافظون عقد الصلح، وشرع الديموقراطيون قانونا يدين بالموت أي اقتراح من هذا النوع. لكن الجوع والأمراض المتفاقمة أزم وضع المدينة المحاصرة، فاستسلمت أثينا في العام ٤٠٤. وقع الصلح بشروط قاسية جدا على الأثينيين الذين توجب عليهم:

(١) تسليم كل أسطولهم، عدا ١٢ حارسا؛

(٢) هدم التحصينات ("الجدران الطويلة")؛

(٣) حل الاتحاد البحري؛

(٤) دفن الديموقراطية.

تفتت الطاقة القتالية الأثينية؛ وأفل نجم الإمبراطورية البحرية الأثينية؛ وقمعت الديموقراطية اليونانية. فالتناقضات الأساسية، الملازمة للنظام العبودي القديم، تبدت بخاصة في أثينا، التي بلغت درجة عالية من النضج، ولم تعد طبقة العبيد تجد مصلحة في دعم أثينا التي تستغلها.

مهما كانت نتيجة الحرب البلوونيزية فاجعة، فلم تستطع قهر النظام الديموقراطي في دولة أثينا. صحيح أن سلطة أثينا انتقلت في العام ٤٠٤، بناء على طلب لزاندر، إلى أيدي لجنة الغارشية، بأعضائها الثلاثين، الملقبين "الثلاثون الطغاة"، برئاسة كرتياس، الأرستقراطي الحقود، وثيرامين. حكموا الدولة بالإرهاب، بإهمال الشريعة وتنظيم حملة فعلية لطرده وملاحقة رواد الديموقراطية، ونجح أحيانا، خلف هذه الذريعة، رجالا أغنياء لاحتلال أرزاقهم. لم يبق أحد مطمئنا على حياته. وتقلص عدد سكان المدينة إلى ٣٠٠٠؛ وكان القانون الذي شرعه الطغاة يخولهم إعدام أي ميني لاينتسب إلى هذه الطغمة. لكن سرعان ما شبت النزاعات بين الطغاة. ثيرامين، الأكثر اعتدالا، شطبه كرتياس من قائمة الب-٣٠٠٠ ميني وحكمه بالموت. إن دعوى ثيرامين، يكتب خنوفون، تقدم دليلا فاضحا على التحكم والعنف الذي ساد في أيام الثلاثين (الهالينون، ٢، ٣؛ انظر ليزياس، خطابات، ١٣:١٢).

على ذلك، لم يدم النظام الألفارشي سوى ثمانية أشهر. كان الديموقراطيون

المهاجرون قد كُتِلوا، بزعامة ثراسبول، قواهم في طيبة، ومن هنا هاجموا أتيكيا. واحتلوا بالتتابع البيري، أثينا والوزير، حيث حاول فلول الألغارشيين، الهاريين من أثينا، أن يعتصموا. وهنا ساهمت الصراعات الداخلية التي تمزق إسبارطة في سقوط الطواغيت الثلاثين. ولقد أقلق تنصيب لزندر، الذي كان آنذ يرأس مصائر الأثينيين، الأوساط السبارطية الحاكمة. فعمل ملك إسبارطة بوزانياس على مصالحة الديموقراطية الأثينيين مع الألغارشيين المعتدلين، بدون معرفة لزندر. وهكذا عادت الديموقراطية الأثينية في العام ٤٠١ تماماً وبأشكالها السابقة، لكنها فقدت كل أسباب وإمكانيات أن تصبح القوة السياسية المسيطرة والعامل الرئيس في توحيد اليونان.

فهرس الجزء الأول

٥	المجتمع البدائي: الفصل الأول: افتتاحية
١٥	الفصل الثاني: القطيع البدائي، تشكل نظام القبائل
٢٧	الفصل الثالث: أوج النظام المشاعي البدائي
٤٩	الفصل الرابع: تفكك النظام المشاعي البدائي. تشكل الطبقات والدولة
	الشرق:
٦٧	الفصل الخامس: مدخل
٨١	الفصل السادس: سومر وأكاد
٩٥	الفصل السابع: بابل
١٠٧	الفصل الثامن: الحضارة البابلية
١١٧	الفصل التاسع: مصر القديمة
١٢٣	الفصل العاشر: امبراطورية مصر القديمة
١٣١	الفصل الحادي عشر: امبراطورية مصر الوسطى
١٣٧	الفصل الثاني عشر: امبراطورية مصر الجديدة
١٤٧	الفصل الثالث عشر: الحضارة المصرية
١٥٥	الفصل الرابع عشر: امبراطورية الحثيين
١٦٥	الفصل الخامس عشر: فينيقيا وفلسطين

١٧٩	الفصل السادس عشر: آشور، أوارتو وبابل الكلدانية
١٩٥	الفصل السابع عشر: إيران
٢٠٩	الفصل الثامن عشر: الهند
٢٢٥	الفصل التاسع عشر: الصين
	اليونان:
٢٤٥	الفصل العشرون: مدخل، مناهل المعرفة والتأريخ
٢٥٩	الفصل الواحد والعشرون: طبيعة اليونان
٢٦٣	الفصل الثاني والعشرون: الحضارة الإيجية
٢٧١	الفصل الثالث والعشرون: أخلاق اليونان ونظامها الاجتماعي
	الفصل الرابع والعشرون: بحث الطبقات الاجتماعية والدولة في اليونان
٢٨١	(الثامن-السابع) ق.م.
٢٨٥	الفصل الخامس والعشرون: الاستعمار اليوناني من القرن السابع حتى السادس ق.م
٢٩٣	الفصل السادس والعشرون: امبارطة
٢٩٩	الفصل السابع والعشرون: أثينا في القرنين السابع والسادس ق.م
٣١٣	الفصل الثامن والعشرون: الحروب الميديّة. تشكل الاتحاد البحري الأثيني
٣٢٥	الفصل التاسع والعشرون: قمة الاقتصاد العبودي في اليونان
٣٣٧	الفصل الثلاثون: انبعاث الحركة الديمقراطية في اليونان بعد النصر على القرص
٣٤٣	الفصل الواحد والثلاثون: حكومة بيركليس

من منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع

* مغامرة العقل الأولى	* لغز عشتار
..... فراس السواح فراس السواح
* الحدث التوراتي	* دين الإنسان
..... فراس السواح فراس السواح
* آرام دمشق وإسرائيل	* جلجامش
..... فراس السواح فراس السواح
* الأسطورة والمعنى	* التاو
..... فراس السواح فراس السواح
* بدايات الحضارة	* الرحمن والشيطان
..... عبد الحكيم النون فراس السواح
* سويداء سورية	* من هم الموحدون الدرزي
..... مجموعة من المؤلفين جميل أبو ترفية
* أضواء على الثورة السورية الكبرى	* العادات والتقاليد في محافظة السويداء
..... عطا الله الزاقوت عطا الله الزاقوت
* السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين	* سلسلة الأساطير السورية
..... ت. سالم العيسى ت. مفيد عرنوق
* صرح ومهد الحضارة السورية	* كليوباترا وعصرها
..... مفيد عرنوق ت. يوسف شلب الشام
* المصادر التاريخية في الأندلس	* الفكر الإغريقي
..... ت. نايف أبو كرم ت. محمد الخطيب
* أميرات سوريات حكمن روما	* تاريخ اليابان
..... ت. خالد عيسى ت. يوسف شلب الشام
* الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى	* الحضارة بين النعمة والنعمة
..... لمصل عبد الله الجاثم إحسان البني
* ببو غرافيا حية لمشاهير الحكام في العالم	* التراث من منظور مختلف
..... ت. خالد أبة اللؤلؤ عبد الغفار نصر
* أهم الغزوات في صفحات الإسلام الخالدة	* الانتهاز والجنس في التوراة
..... عبد أحمد عبد الكريم السعدي خالص مسرور

* الأسطورة في بلاد الرافدين

عبد الحميد محمد

* إله الشمس الحمصي

ت إيرينا داوود

* البلدان النامية-مشكلات العلاقات الاقتصادية

ت د ماجد علاء الدين

* تاريخ القانون في العراق

عبد الحكيم النون

* الديانة الفرعونية

ت نهاد خياطة

* دراسات حول الأكراد

ت عبدي حاجي

* الشركس في فجر التاريخ

برزج سمكوغ

* حدث ذات مرة في سورية

سمير عبده

* المسيحيون السوريون خلال ألفي عام

سمير عبده

* السريانية العربية

سمير عبده

* الإيديولوجية اليهودية

مفيد عرفوق

* تيارات الفلسفة الشرقية

محمد حسن

* دراسات في الفلسفة الأوروبية

سليمان حسن

* التشريعات الباهلية

عبد الحكيم النون

* العولمة والتبادل الإعلامي

د صابر فلهوط

* من أنساب العرب العاربة

صالح هواش المسلط

* أساطير في أصل النار

ت يوسف شلب الشام

* هل هبط آدم في القفقاس

محمد عمر بغدادي

* الحضارات القديمة

ت نسيم واكيم ليازجي

* الجنس في العالم القديم

ت فائق دحدوح

* الديانة الزرادشتية

نوري إسماعيل

* شريعة حمورابي

ت أسامة سراس

* طقوس الجنس المقدس

ت نهاد خياطة

* موسوعة تاريخ القفقاس والجركس

محمد جمال صادق ابه زاو

* معجم الأساطير

ت حنا عبود

* صراع بين الحرية والاستبداد

فارس الحناوي

* تجارة الأسلحة في الخليج العربي

رحيم كاظم محمد الهاشمي

* الإثنولوجيا

محمد الخطيب

* الطريق إلى القيادة وتنمية الشخصية

ت سالم العيسى

* دراسات في المكتبة العربية التراثية

عادل فريجات

* الخيول الأصيلة في الصحراء العربية

أحمد عسان سبانو

* المعراج والرمز الصوفي

د. نذير العظمة

هذا الكتاب

غزارة علمية، غنى معرفي.. تميز
بالأسلوب، تفرد بالموضوع.

دراسة تتناول الحضارات القديمة بمنظار
علمي تتصاعد من بداية الحضارات البدائية
المشاعية، وترتقي إلى الحضارة السومرية
فالأكادية فالبابلية، ثم الحضارة المصرية القديمة
العريقة... حتى تصل إلى الحضارة اليونانية
عظيمة الأثر في التاريخ الإنساني في جزئه
الأول.

الكتاب مفيد للدارسين في كليات التاريخ
والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ولكل من يهتم
بتاريخ الحضارة الإنسانية عبر عصورها
المختلفة والمتعاقبة.

الناشر



يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة

دمشق ص.ب. ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١

فاكس: ٥٦١٣٢٤١